







الغُرُوسِيَّة

لِطَالِبِي طَرِيقِ الْحَقِّ وَجَبَتْ

الغُبير

لِطَالِبِي طَرِيقِ الْحَقِّ عَمَرٍ وَجَلٍّ
(فِي الْأَهْلَاءِ وَالنُّصُوفِ وَالْأَدَابِ الْإِسْلَامِيَّةِ)

تَأَلَّفَ

الشيخ عبد القادر بن أوصالح الجيلاني
المتوفى سنة ٥٦١هـ

وَضَعَتْ حَوَاشِيَهُ

أبو عبد الرحمن صلاح بن محمد بن عويضة

الجزء الأول

منشورات

محرر كافي بيهن

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

جميع الحقوق محفوظة

جميع حقوق الملكية الادبية والفنية محفوظة لدار الكتب العلمية بيروت - لبنان ويحظر طبع أو تصوير أو ترجمة أو إعادة تلخيص الكتاب كاملاً أو مجزأً أو تسجيله على أشرطة كاسيت أو إدخاله على الكمبيوتر أو برمجته على أسطوانات ضوئية إلا بموافقة الناشر خطياً.

Copyright ©
All rights reserved

Exclusive rights by DAR al-KOTOB al-ILMIYAH Beirut - Lebanon. No part of this publication may be translated, reproduced, distributed in any form or by any means, or stored in a data base or retrieval system, without the prior written permission of the publisher.

الطبعة الأولى

١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

العنوان : رمل الزريف، شارع البحتري، بناية ملكارت
تلفون وفاكس : ٣٦٤٣٩٨ - ٣٦٦١٢٥ - ٦٠٢١٣٣ (١ ٩٦١) ٠٠
صندوق بريد : ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان

DAR al-KOTOB al-ILMIYAH

Beirut - Lebanon

Address : Ramel al-Zarif, Bohtory st., Melkart bldg., 1st Floore.

Tel. & Fax : 00 (961 1) 60.21.33 - 36.61.35 - 36.43.98

P.O.Box : 11 - 9424 Beirut - Lebanon

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة التحقيق

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

أما بعد: فإن التصوف مذهب يزهد في الدنيا ويؤهد فيها، وهو مذهب المتجربين الذين لا شأن لهم بدنيا الناس، ولا بمال الناس.

وهذا الكتاب كتاب مبارك يهتدى به كثير من الناس ممن يدرسون التصوف نظرياً وعملياً.

وقد يظن بعض الجهلة أن التصوف يدعو إلى الخمول في الأمور المهمة، وهذا خطأ، فقد ساهم الصوفية في الجهاد الحربي، ومواقفهم في ذلك معروفة.

فقد كان الشيخ عبد القادر الجزائري من كبار الصوفية، ومن كبار القادة في الحرب، ولما حالت الظروف بينه وبين الجهاد مكث في دمشق يدرس التصوف متخذاً «الفتوحات المكية» كتابه المفضل في الشرح والتفسير.

وبالرجوع إلى قبل ذلك بقرون، فإننا نجد «شقيقاً البلخي» يسارع إلى خوض المعارك، لا يبانى على أى جنب كان في الله مصرعه.

فإذا ما هرج أعداء الصوفية، وكذبوا، وزيفوا، فإن التاريخ والواقع يكفى في الرد عليهم.

وهذا التصوف قد جعله الله من خصائص أهل السنة، ليس لغيرهم فيه من نصيب، فأهل السنة هم أهله، وليس لأهل البدعة فيه نصيب، فهم محرومون مما فيه من الراحة والحلاوة والسكينة والطمأنينة.

والتصوف يتضمن الخلق الكريم فى التأسى برسول الله ﷺ الذى كان خلقه القرآن،
والذى يقول الله سبحانه له: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خَلْقٍ عَظِيمٍ﴾.
فالله المستول أن يرزقنا حسن التأسى بالافتداء برسول الله ﷺ، وأن يحسن أخلاقنا،
وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

كتبه

أبو عبد الرحمن صلاح بن محمد بن عويضة

ترجمة المؤلف

يجمع كثير من المؤرخين على أن عبد القادر الجيلاني من زعماء المتصوفة في العالم الإسلامي، ومن يرجع إلى كتابه الذي بين أيدينا يتبين أنه يربط بين محاسن الشريعة والعقول السليمة، وقد وضع الشيخ رحمه الله أسساً لنفسه يسير عليها، وهو يعتبر أن كل قول لا يستند إلى دليل منقوض، وقد تلقى الشيخ ثقافته الإسلامية الواسعة على يد علماء مسلمين ممتازين حتى أصبح نجماً بارزاً في سماء التصوف الإسلامي لا يدانيه أحد ولا يقف في طريقه بارع إلا انتقده، ولذلك فقد عالج الشيخ المشاكل التي تصدى للرد عليها بطريقة تأثر فيها بأفق علمه، لأنه تأثر بالتأثير الروحي الصوفي، وربما كان قد أوشك أن يقع عن غير قصد في شبك بعض المواقف الصوفية التي لا تتفق مع تعاليم أهل السنة. وهناك طائفة من العلماء يرون أن الشيخ حلقة وسطى بين المذهب الفلسفي لابن سينا ومذاهب التصوف الفلسفي كما نجدها عند السهروردي ومحيي الدين بن عربي، وإن كان هذا المذهب قد جاء ليعبر عن مطالب الفكر الديني في تلك الفترة، وقد حرص الشيخ رحمه الله حرصاً شديداً على الدفاع عن الدين بعقائده طوال حياته، وهو من سليل بيت اشتهر بالعلم والجد والكفاح، ورحل وقرأ الفقه وأصوله وكان زاهداً ورعاً، فكان أنظر أهل زمانه وأفصحهم وأورعهم وأكثرهم تواضعاً وبشراً، وكان للشيخ طريقة يختص بها، وملخص هذه الطريقة أن العالم بالشريعة يجب عليه بذلها للناس وعرضها عليهم، كما يجب عليه التمسك بظاهر الشريعة، وأقام الشيخ على نصرته طريق الصحابة والسلف وأخذ في تجديده آخذاً نفسه بنصرة الحديث وأهله مستمسكاً بما كان عليه السلف من ترك الخوض في عويص الكلام ودقيق الجدال، مقتنعاً بأنه لا تعارض بين صحيح السمع وصحيح العقل، أو بين المنقول والمعقول، لأن طريق الفهم لكتاب الله ممهّد لمن عرف اللغة العربية، وقوم لسانه بشيء من علم النحو والصرف. وعلى الطالب في رأيه أن يطلع على كتب السنة الصحيحة، كصحيحي

البخاري ومسلم وغيرهما من كتب الحديث التي حرص أصحابها على بيان الحديث الصحيح وغيره، مع بيان لما هو صحيح ولما هو حسن ولما هو ضعيف. ولذا فهو يقدم الحديث بعد معرفة درجة صحته على الرأي أي كان قائله، ما دام لا يستند على دليل من الكتاب والسنة، لأن القرآن من يأمر باتباع الرسول ﷺ في مثل قوله تعالى «ما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا»، رحم الله الشيخ رحمة واسعة وأدخله فسيح جناته.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[مقدمة المؤلف]

قال الشيخ الإمام العلامة العالم الزاهد الأوحد الورع العارف المؤيد محيي الدين قطب الإسلام معز الأنام ناصر السنة قانع البدعة صدر الأئمة أبو محمد عبد القادر بن أبي صالح بن عبد الله الجليلى، تغمدته الله برحمته وأعاد علينا وعلى المسلمين من بركته، وحشرنا فى زمرة آمين:

الحمد لله الذى بتحميده يستفتح كل كتاب، وبذكره يصدر كل خطاب وبحمده يتنعم أهل النعيم فى دار الجزاء والثواب، وباسمه يشفى كل داء، وبه يكشف كل غمة وبلاء، إليه ترفع الأيدى بالتضرع والدعاء، فى الشدة والرخاء، والسراء والضراء، وهو سامع لجميع الأصوات، بفنون الخطاب على اختلاف اللغات، والمجيب للمضطر الدعاء، فله الحمد على ما أولى وأسدى، وله الشكر على ما أنعم وأعطى، وأوضح المحجة وهدى، وصلواته على صفيه ورسوله الذى به من الضلالة هدى، محمد وآله وأصحابه وإخوانه المرسلين والملائكة المقربين، وسلم تسليمًا.

أما بعد:

فقد ألح على بعض أصحابى، وشدد فى الخطاب فى تصنيف هذا الكتاب لحسن ظنه فى الإصابة والصواب، والله تعالى هو العاصم فى الأقوال والأفعال والمطلع على الضمائر والنيات، والمنعم المتفضل بتسهيل ما أراد، وإليه عزّ وجلّ الالتجاء لتطهير القلوب من الرياء والنفاق، وإبدال السيئات بالحسنات، إنه غافر الذنوب والخطيئات، وقابل التوب من العباد.

فلما رأيت صدق رغبته فى معرفة الآداب الشرعية من الفرائض والأركان والسنن والهيئات، ومعرفة الصانع عزّ وجلّ بالآيات والعلامات، ثم الاتعاظ بمواعظ القرآن والألفاظ النبوية فى مجالس نذكرها، ومعرفة أخلاق الصالحين نشير لها فى أثناء

الكتاب، ليكون عونًا له على سلوك طريق الله عز وجل، وامتنثال أوامره، وانتهاء نواهيهِ، ووجدتُ له نية صادقة صدرت من فتوح الغيب في إجابته إلى ذلك، فسارعتُ مشمرًا مستبغيًا محتسبًا للثواب، راجيًا للنجاة في يوم الحساب، إلى جمع هذا الكتاب بتوفيق رب الأرباب الملهم للصواب، وقد سميته:

«الغنية لطالبي طريق الحق عز وجل»

* * *

القسم الأول

في

الفقه

باب

نبدأ فنقول:

الذى يجب على من يريد الدخول فى دين الإسلام

أولاً: أن^(١) يتلفظ بالشهادتين: لا إله إلا الله، محمد رسول الله، ويترأ من كل دين غير دين الإسلام، ويعتقد بقلبه وحدانية الله تعالى، على ما سنبينه إن شاء الله تعالى. إذ كان الإسلام هو الدين عند الله تعالى، قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥]. فإذا أتى بذلك دخل فى الإسلام، وحرم قتله وسبى ذراريه واستغنام أمواله، ويغفر له ما تقدم من التفريط فى حق الله عز وجل، لقوله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨].

وقول النبى ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا^(٢) منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم^(٣) على الله^(٤)». ولقوله ﷺ: «الإسلام يجب^(٥) ما قبله^(٦)».

ثم يجب عليه الغسل للإسلام، لما روى أن النبى ﷺ أمر ثمامة^(٧) بن أثال وقيس بن (١) قوله: «أن يتلفظ بالشهادتين» لقوله ﷺ: «الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله».

رواه مسلم فى: الإيمان: حديث (١)، وأبو داود (٤٦٩٥)، وأحمد ٥١/١.

(٢) قوله: «عصموا» أى منعوا. «فتح البارى» ٩٧/١.

(٣) قوله: «وحسابهم على الله» أى فى أمر سرائرهم. وفيه دليل على قبول الأعمال الظاهرة والحكم بما يقتضيه الظاهر. «فتح البارى» ٩٧/١.

(٤) البخارى ١٣/١، ومسلم فى: الإيمان: حديث (٣٤ و ٣٦)، وأحمد ٣٤٥/٢.

(٥) قوله: «يجب ما قبله» أى يقطع ويمحو ما كان قبله من الكفر والمعاصى والذنوب. «النهاية» ٢٣٤/١.

(٦) أحمد ١٩٩/٤ و ٢٠٤ و ٢٠٥، ودلائل النبوة ٣٥١/٤، وإرواء الغليل ١٢١/٥ و ١٢٢.

(٧) ثمامة بن أثال بن النعمان بن سلمة أبو أمانة اليمامى، ذكر ابن إسحاق: أنه ثبت على إسلامه =

عاصم، لما أسلما بالغسل.

وفى رواية: «التي عنك شعر الكفر واغتسل»^(١).

ثم تجب عليه الصلاة، لأن الإيمان قول وعمل، لأن القول دعوى والعمل هو البينة، والقول صورة والعمل روحها.

وللصلاة شرائط تتقدمها وهي:

الطهارة^(٢) بالماء الطهور، والتيمم^(٣) عند عدمه، والستارة بثوب طاهر، والوقوف على بقعة طاهرة، واستقبال القبلة، والنية، ودخول الوقت.

أما الطهارة فلها فرائض وستن:

والفرائض في ظاهر المذهب عشرة:

النية أولاً: وهو أن ينوي بطهارته رفع الحدث، وإن كان تيمماً فاستباحة الصلاة، لأن التيمم لا يرفع الحدث، ومحلها القلب، فإن ذكر ذلك بلسانه مع اعتقاده بقلبه كان^(٤) قد أتى بالأفضل، وإن اقتصر على الاعتقاد بالقلب أجزأ. ثم التسمية^(٥): وهو أن يذكر الله تعالى عند إرادته أخذ الماء.

= لما ارتد أهل اليمامة، وارتحل هو ومن أطاعه من قومه فلحق بالعلاء بن الحضرمي، وقاتل معه

المرتدين من أهل البحرين. له ترجمة في: الإصابة ١/٢٠٣/٩٦١.

(١) أبو داود (٣٥٦)، وأحمد ٣/٤١٥، والبيهقي ١/١٧٢.

(٢) قوله: «الطهارة بالماء»، لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا﴾ [النساء: ٤٣].

(٣) قوله: «والتيمم عند عدمه»، لقوله تعالى: ﴿وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماءً فتيمموا صعيداً طيباً فامسحوا بوجوهكم وأيديكم إن الله كان عفواً غفوراً﴾ [النساء: ٤٣].

(٤) قوله: «كان... أفضل»، ليست النية إلا عملاً قلبياً محضاً، وأما ما درج عليه كثير من الناس واعتاده من التلفظ بها فهو محدث غير مشروع، ينبغى هجره والإعراض عنه. «فقه السنة» ١/٦٢ - ٦٣.

(٥) قوله: «ثم التسمية»، لقوله ﷺ: «لا صلاة لمن لا وضوء له، ولا وضوء لمن لم يذكر اسم الله عليه».

رواه أبو داود (١٠١)، وابن ماجه (٣٩٨ - ٤٠٠)، وأحمد ٢/٤١٨، والدارقطني ١/٧٣ و ٧٩.

ثم المضمضة^(١): وهو دوران الماء فى الفم ومجّه وإخراجه منه .
 ثم الاستنشاق^(٢): وهو إدخال الماء فى خرمى الأنف .
 ثم غسل الوجه^(٣): وحده من منابت شعر الرأس إلى ما انحدر من اللحيين والذقن طولاً، ومن وتد الأذن إلى وتد الأذن عرضاً .
 ثم غسل اليدين إلى المرفقين^(٤) .
 ثم مسح الرأس^(٥): وصفته: أن يغمس يديه فى الماء ثم يرفعهما فارغتين فيضعهما^(٦) على مقدم رأسه ويجرّهما إلى قفاه، ويعيدهما إلى الموضع الذى بدأ منه، ويكون الإبهامان فى صماخى الأذنين، فيمسح بهما الجلدتين القائمتين مع الصماخين .
 ثم^(٧) غسل الرجلين مع الكعبين: وهما العظمان الناتان فى مفصل القدم وكل ذلك مرة واحدة .

وأما التاسع: فهو ترتيب الأعضاء كلها كما نطق به القرآن فى قوله عز وجل:
 ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ
 وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ [المائدة: ٦].
 والعاشر: الموالاة، وهى اتباع العضو الثانى للأول قبل أن ينشف ماء الأول .

(١) قوله: «ثم المضمضة»، لقوله ﷺ: «إِذَا تَوَضَّأْتَ فَمُضِمٌّ». رواه أبو داود (١٤٤)، والبيهقى ٥٢/١ .

(٢) قوله: «ثم الاستنشاق»، لقوله ﷺ: «إِذَا تَوَضَّأَ أَحَدُكُمْ فَلْيَجْعَلْ فِي أَنْفِهِ مَاءً ثُمَّ يَسْتَنْشِرُ». رواه مسلم فى: الطهارة: حديث (٢. و ٢١)، وأبو داود فى: (١٤٠)، وأحمد ٢٤٢/٢ .
 (٣) قوله: «ثم غسل الوجه»، لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ [المائدة: ٦].
 (٤) قوله: «ثم غسل اليدين... إلخ» انظر الآية السابقة .
 (٥) قوله: «ثم مسح الرأس» انظر نفس الآية .

(٦) قوله: «فيضعهما على مقدم رأسه... إلخ»، لحديث عبد الله بن زيد: «أن النبی ﷺ مسح رأسه بيديه فأقبل بهما وأدبر، بدأ بمقدم رأسه ثم ذهب بهما إلى قفاه، ثم ردهما إلى المكان الذى بدأ منه» .

رواه البخارى فى: الوضوء: حديث (١٨٥)، ومسلم فى: الطهارة: حديث (١٨)، وأحمد ٣٨/٤ و ٣٩ .

(٧) قوله: «ثم غسل الرجلين» انظر الآية السابقة .

وأما سننها فعشر أيضاً:

غسل^(١) الكفين قبل إدخالهما الإناء، والسواك^(٢)، والمبالغة^(٣) في المضمضة والاستنشاق إلا أن يكون صائماً، وتخليل^(٤) اللحية الكثة على اختلاف الروايتين، وغسل داخل العينين، والبداة باليمين، وأخذ ماء جديد للأذنين، ومسح العنق، وتخليل^(٥) ما بين الأصابع، والغسلة الثانية والثالثة.

وأما التيمم:

فأن يضرب يديه على تراب طاهر له غبار يعلق باليد، ناوياً لاستباحة صلاة مفروضة، مسمياً ضربة واحدة يفرج بين أصابعه، فيمسح وجهه بباطن أصابع يديه، ويظهر كفيه بباطن راحتيه.

وأما الطهارة الكبرى: فنذكرها في باب آداب الخلاء إن شاء الله تعالى.

وأما الستارة: فإن تكون ثوباً طاهراً يستر عورته ومنكبيه من سائر أنواع الثياب إلا الحرير، فإن الصلاة فيه باطلة وإن كان طاهراً، وكذلك المغصوب.

وأما البقعة: فإن تكون طاهرة من جميع الأنجاس، فإن كانت النجاسة التي عليها قد نشفتها الرياح أو الشمس فبسط عليها بساطاً طاهراً فصلى عليه صحت صلاته على

(١) قوله: «غسل الكفين» لحديث أوس الثقفي رضى الله عنه قال: «رأيت رسول الله ﷺ توضأ فاستوكف ثلاثاً».

رواه النسائي في: الطهارة: ب (٦٦)، والدارمي (٦٩٢)، وأحمد ٩/٤ و ١٠.

(٢) قوله: «السواك» لقوله ﷺ: «لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل وضوء».

رواه مالك في: الطهارة: حديث (١١٥).

(٣) قوله: «المبالغة في المضمضة... إلخ» لقوله ﷺ: «أسبغ الوضوء، وخلل بين الأصابع، وبalg في الاستنشاق إلا أن تكون صائماً».

رواه أبو داود في: الطهارة: ب (٥٥)، والترمذي (٧٨٨)، والنسائي في: الطهارة: ب (٧)، وابن ماجه (٤٤٨).

(٤) قوله: «وتخليل اللحية»، لحديث أنس رضى الله عنه: «أن النبي ﷺ كان إذا توضأ أخذ كفاً من ماء، فأدخله تحت حنكه فخلل به، وقال: هكذا أمرني ربي عز وجل».

رواه أبو داود في: الطهارة: ب (٥٦)، والبيهقي ٥٤/١، والإرواء ١٣٠/١.

(٥) قوله: «وتخليل ما بين الأصابع»، لقوله ﷺ: «إذا توضأت فخلل أصابع يديك ورجليك».

رواه الترمذي في: الطهارة: حديث (٣٩) وقال: حديث حسن غريب، وابن ماجه ٨٧/١.

إحدى الروایتین . وكذلك إن كانت مغصوبة على رواية ضعيفة .

وأما استقبال القبلة:

فإن يتوجه إلى عين الكعبة إن كان بمكة وما قاربها من البقاع وإلى جهتها إن كان على بعد منها بالاجتهاد وبذل الطاقة بالاستدلال بالشواهد والدلالات بالنجوم والشمس والرياح وغير ذلك .

وأما النية:

فمحلها القلب وهو أن يعتقد أداء ما افترض الله تعالى عليه من فعل الصلاة بعينها وامتنال أمره الواجب من غير رياء وسمعة، ثم يحضر قلبه إلى أن يفرغ منها، وقد جاء في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال لعائشة رضي الله عنها: (ليس لك من صلاتك إلا ما حضر قلبك)^(١).

وأما دخول الوقت:

فبعلمه يقيناً أو غلبة الظن في يوم الغيم وهيجان الرياح والموانع .

ثم يؤذن فيقول:

الله أكبر الله أكبر، الله أكبر الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمداً رسول الله، أشهد أن محمداً رسول الله، حى على الصلاة، حى على الصلاة، حى على الفلاح، حى على الفلاح، الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله^(٢).

ثم يقيم الصلاة فيقول:

الله أكبر، الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمداً رسول الله، حى على الصلاة، حى على الفلاح، قد قامت الصلاة، قد قامت الصلاة، الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله .

(فصل) فإذا كملت هذه الشروط دخل في الصلاة:

بقوله: (الله أكبر)، لا يجزئه غيره من ألفاظ التعظيم .

(١) بنحوه: أحمد ٣١٩/٤، والإتحاف ١١٦/٣ .

(٢) مسلم في: الصلاة: حديث (٦)، وأحمد ٤٠٨/٣ .

ولها أركان وواجبات ومستنونات وهيئات.

فأما الأركان فخمسة عشر:

القيام^(١)، وتكبير الإحرام^(٢)، وقراءة الفاتحة^(٣)، والركوع^(٤)، والطمأنينة فيه، والاعتدال عنه، والطمأنينة فيه، والسجود، والطمأنينة فيه، والجلوس بين السجدين، والطمأنينة فيه^(٥)، والتشهد الأخير^(٦)، والجلوس فيه، والصلاة على النبي ﷺ، والتسليم^(٧).

وأما الواجبات فتسعة:

التكبير غير تكبيرة الإحرام، والتسميع والتحميد عند الرفع من الركوع، والتسبيح في الركوع والسجود مرة مرة، وقول (رب اغفر لي)^(٨) في الجلسة بين السجدين مرة مرة، والتشهد الأول، والجلوس له، ونية الخروج من الصلاة في التسليم.

(١) قوله: «القيام» لقوله تعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨].

ولقوله ﷺ: «صل قائماً...» الحديث.

رواه البخارى ٦٠/٢، وأبو داود (٩٥٢)، والترمذى (٣٧٢)، وأحمد (٤٢٦/٤).

(٢) قوله: «وتكبير الإحرام» لقوله ﷺ: «مفتاح الصلاة الطهور، وتحريمها التكبير...» الحديث.

رواه أبو داود فى: الطهارة: ب (٣١)، والترمذى (٢٣٨، ٣)، وابن ماجه (٢٧٥، ٢٧٦)، وأحمد ١٢٣/١.

(٣) قوله: «وقراءة الفاتحة»؛ لقوله ﷺ: «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب».

البخارى ١٩٢/١، ومسلم فى: الصلاة: حديث (٣٤)، وأحمد ٣١٤/٥.

(٤) قوله: «والركوع» لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا﴾ [الحج: ٧٧].

(٥) روى حديث الطمأنينة: البخارى ١٩٢/١ و ١٩٣، ومسلم فى: الصلاة: حديث (٤٥)، وأحمد ٤٣٧/٢.

(٦) قوله: «والتشهد الأخير»؛ لقول ابن عباس رضى الله عنهما: كنا قبل أن يفرض علينا التشهد... فقال النبي ﷺ: «لا تقولوا السلام على الله، ولكن قولوا التحيات لله».

رواه البخارى ٢١٢/١، وأبو داود (٩٦٨)، والنسائى فى: الاستفتاح: ب (١٨٦)، وأحمد ٤٣١/١.

(٧) قوله: «والتسليم»؛ للحديث السابق: «مفتاح الصلاة الطهور» فإن فى آخره: «وتحليلها التسليم»، وقد سبق تخريجه هناك، فارجع إليه.

(٨) النسائى ٢٠٠/٢ و ٢٣١، والحاكم ٢٧١/١، وشرح السنة ٢٠/٤.

وأما المسنونات فأربع عشرة:

الاستفتاح، والتعوذ، وقراءة: «بسم الله الرحمن الرحيم»، وقول: «آمين»، وقراءة سورة، وقول: «ملء السموات والأرض» بعد التحميد^(١)، وما زاد على التسيحة الواحدة في الركوع والسجود، وقول: «رب اغفر لي»، والسجود على الأنف في إحدى الروايتين، وجلسة الاستراحة بعد انقضاء السجدين، والتعوذ من أربعة أشياء بأن يقول: «أعوذ بالله من عذاب جهنم ومن عذاب القبر ومن فتنة المسيح الدجال ومن فتنة المحيا والممات»^(٢)، والدعاء بما ذكر في الأخبار بعد أن يصلى على النبي ﷺ في التشهد الأخير، والقنوت في الوتر، والتسليمة الثانية على رواية ضعيفة.

وأما الهيئات فخمس وعشرون هيئة:

رفع اليدين عند الافتتاح والركوع، والرفع منه وهو أن تكون كفاه مع منكبيه وإبهاماه عند شحمتي أذنيه وأطراف أصابعه مع فروع أذنيه ثم إرسالهما بعد الرفع، ووضع اليمين على الشمال تحت السرة^(٣)، والنظر إلى موضع السجود، والجهر بالقراءة وآمين، والإسرار بهما، ووضع اليدين على الركبتين في الركوع، ومد الظهر، ومجافاة عضديه عن جنبه فيه، والبداءة بوضع الركبة ثم اليدين في السجود، ومجافاة البطن عن الفخذين والفخذين عن الساقين فيه، والتفريق بين الركبتين في السجود، ووضع اليدين حذاء منكبيه فيه، والافتراش^(٤) في الجلوس بين السجدين وفي التشهد الأول والتورك في الثاني، ووضع^(٥) اليد اليمنى على الفخذ اليمنى مقبوضة مشيراً بالسبابة محلقة بالإبهام مع الوسطى، ووضع اليسرى على الفخذ اليسرى مبسوطة.

(١) مسلم في: الصلاة: حديث (٢٠٥، ٢٠٦)، والنسائي ١٩٥/٢، والبيهقي ٩٤/٢.

(٢) مسلم في: المساجد: حديث (١٣٠)، وأبو داود (٩٨٣)، وابن ماجه (٩٠٩)، وأحمد ٢٣٧/٢.

(٣) قال الكمال بن الهمام: «لم يثبت حديث صحيح يوجب العمل في كون الوضع تحت الصدر، وفي كونه تحت السرة، والمعهود عند الحنفية هو تحت السرة». «فقه السنة» ١/٢٢٣.

(٤) قوله: «والافتراش... إلخ»، لحديث عائشة رضی الله عنها: «أن النبي ﷺ كان يفرش رجله اليسرى، وينصب اليمنى».

رواه مسلم في: الصلاة: حديث (٢٤٠ و ٢٤١)، وابن ماجه (٨٩٣)، وأحمد ٣١/٦.

(٥) قوله: «ووضع اليد اليمنى... إلخ»، لحديث ابن عمر - رضي الله عنهما -: «أن النبي ﷺ كان إذا قعد للتشهد وضع يده اليسرى على ركبته اليسرى، واليمنى على اليمنى، وعقد ثلاثاً =

فإن أخل بشرط من الشرائط التي ذكرناها أولاً بغير عذر لم تنعقد الصلاة.
وإن ترك ركناً عامداً أو ساهياً بطلت.
وإن ترك واجباً ساهياً جبره بسجود السهو، وإن تركه عامداً بطلت الصلاة.
وإن ترك سنة أو هيئة لم تبطل ولم يسجد.

كتاب الزكاة^(١)

وتجب عليه الزكاة إن كان له مال زكوى.
وهو أن يملك عشرين مثقالاً من الذهب، أو مائتى درهم من الورق، أو قيمة أحدهما من عروض التجارة، أو خمساً من الإبل، أو ثلاثين من البقر، أو أربعين من الغنم سائمة حولاً كاملاً، إلا أن يكون عبداً أو مكاتباً فإنه لا تجب عليهما الزكاة.
فيخرج عن الذهب والفضة ربع العشر، فيكون عن كل عشرين ديناراً نصف دينار، لأن عشرها ديناران وربيعها نصف دينار. وعن مائتى درهم خمسة دراهم، لأن عشرها عشرون وربيعها خمسة^(٢).
وعن خمس من الإبل: شاة، وهى الجذع من الضأن قد تمت له ستة أشهر، والثنى من المعز وهو ما له سنة.
وعن عشر: شاتان.

= وخمسين، وأشار بإصبعه السبابة.

رواه مسلم فى: المساجد: حديث (١١٣)، والبيهقى ١٣١/٢، وابن أبى شيبة ٤٨٥/٢.
(١) قوله: «الزكاة»، لغة مشتركة بين النماء والطهارة، وتطلق على الصدقة الواجبة والمندوبة والنفقة والعفو والحق، وهى أحد أركان الإسلام الخمسة بإجماع الأمة وبما علم من ضرورة الدين.
«سبل السلام» ٥٨٩/٢.

(٢) ويدل على ذلك قوله ﷺ: «إذا كانت لك مائتا درهم - وحال عليها الحول - ففيها خمسة دراهم وليس عليك شيء حتى يكون لك عشرون ديناراً، وحال عليها الحول، ففيها نصف دينار...» الحديث.

رواه أبو داود فى: الزكاة: ب (٥): حديث (١٥٧٣) وحسنه الحافظ.

وعن خمسة عشر: ثلاث شياه.
 وعن عشرين: أربع شياه.
 وعن خمس وعشرين: ابنة مخاض، وهى ما لها سنة ودخلت فى الثانية، فإن لم يقدر عليها فابن لبون ذكر، وهو ما له سنتان ودخل فى الثالثة.
 وعن ست وثلاثين: ابنة لبون، وهى فى سن ابن لبون.
 وعن ست وأربعين: حقة، وهى ما كمل لها ثلاث سنين.
 وعن إحدى وستين: جذعة، وهى ما كمل لها أربع سنين.
 وعن ست وسبعين: بنتا لبون.
 وعن إحدى وتسعين: حقتان إلى أن تبلغ مائة وعشرين.
 فإذا رادت واحدة كان فى كل أربعين ابنة لبون، وفى كل خمسين حقة^(١).
 وأما البقر: فيخرج عن كل ثلاثين: تبيعاً أو تبيعة، وهى ما كمل لها سنة.
 وعن أربعين: مسنة، وهى ما كمل لها سنتان.
 وعن ستين: تبيعين.
 فإذا بلغت سبعين كان فيها: تبيع ومسنة.
 ثم على هذا الاعتبار يخرج عن كل ثلاثين تبيعاً، وعن كل أربعين مسنة^(٢).
 وأما الغنم: ففى كل أربعين: شاة إلى أن تبلغ مائة وعشرين، فإذا رادت واحدة ففيها شاتان إلى مائتين، فإذا رادت واحدة ففيها ثلاث شياه إلى ثلاثمائة، ثم فى كل مائة شاة^(٣).
 فيعطى المخرج عن جميع ذلك للثمانية الأصناف المذكورة فى القرآن:
 للفقراء الذين لا يملكون كفايتهم.
 والمساكين وهم الذين لهم معظم الكفاية ولا يملكون تمامها.
 والعاملين عليها وهم الجباة لها والحافظون لها إلى أن يؤدوها إلى الإمام.

(١) رواه البخارى فى: الزكاة: حديث (١٤٥٤).

(٢) الحديث السابق.

(٣) نفس الحديث.

والمؤلفة قلوبهم وهم قوم من الكفار يرجى إسلامهم إذا أعطوا المال أو يكفوا شرهم عن المسلمين.

وفى الرقاب وهم المكاتبون، وإن اشترى بذكاته رقبة كاملة فأعتقها جار أيضاً على رواية.

والغارمين وهم المدينون الذين لا طاقة لهم على قضاء ديونهم. وفي سبيل الله وهم الغزاة الذين لا جزاء لهم في ديوان الإمام وغيره من السلاطين وإن كانوا أغنياء.

وابن السبيل وهو المسافر المنقطع به دون الذي ينشئ السفر من بلده^(١). فإذا أدى ما عليه من زكاة الفرض يستحب له صدقة التطوع في سائر أوقاته ليلاً ونهاراً قليلاً وكثيراً. لا سيما في الأشهر المباركة كشهر رجب وشعبان وشهر رمضان وأيام العيد وعاشوراء وأيام الجذب والضيق، ليحوز بذلك العافية في الجسم والمال والأهل والخلف السريع في الدنيا والثواب الجزيل في الآخرة.

(فصل) ويخرج زكاة^(٢) الفطر إذا فضل عن قوته وقوت عياله يوم العيد وليلته عن نفسه وزوجته ورفيقه وولده وأمه وأبيه وإخوته وأخواته وأعمامه وبنى أعمامه على الترتيب الأقرب فالأقرب، بشرط أن يكونوا في مؤنته ونفقتة.

وقدرها صاع وزنه خمسة أرطال وثلاث بالعراقي من التمر أو الزبيب أو البر أو الشعير أو دقيقهما أو سويقهما وكذلك الأقط^(٣) على الصحيح من المذهب.

فإن عدم هذه الأصناف جميعها فليخرج من قوت البلد من سائر أنواع الحب كالأرز والذرة والدخن وغيرها.

* * *

(١) وقد حصر الله عز وجل مصارف الزكاة الثمانية في قوله: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [المائدة: ٦٠].

(٢) قوله: «زكاة الفطر»، أي الإفطار، وأضيفت إليه؛ لأنه سببها، كما يدل له ما في بعض روايات البخاري: «زكاة الفطر من رمضان». سبل السلام ٦١٨/٢.

(٣) قوله: «الأقط» هو لبن مجفف يابس مُسْتَحْجَر يطبخ به. «النهاية» ٥٧/١.

كتاب الصيام^(١)

وإذا دخل شهر رمضان وجب عليه أن يصومه، لقوله تعالى: ﴿فمن شهد منكم الشهر فليصمه﴾ [البقرة: ١٨٥].

فإذا ثبت عنده دخول الشهر إما برؤيته نفسه الهلال، أو شهادة^(٢) رجل واحد عدل بذلك، أو إكمال شعبان ثلاثين يومًا، أو حدوث^(٣) غيم أو قتر في ليلة الثلاثين منه، نوى أى وقت من الليل من بعد غروب الشمس إلى قبل أن يطلع الفجر الثانى، أنه صائمٌ غدًا من شهر رمضان.

وهكذا كل ليلة إلى أن ينتهى الشهر.

وإن نوى فى أول ليلة من الشهر أنه صائم الشهر جميعه كفاه ذلك فى رواية ضعيفة، والصحيح الأول.

فإذا أصبح وجب عليه أن يمسك فى جميع نهاره عن الأكل والشرب والجماع وجميع ما يصل إلى جوفه من أى موضع كان، وعن الحمامة لنفسه أو غيره، واستدعاء القىء والمنى.

فإن خالف فى جميع ذلك بطل صومه ووجب عليه الإمساك إلى غروب الشمس والقضاء، إلا الجماع فإنه يجب عليه مع ذلك كفارة وهى عتق رقبة مؤمنة سليمة من

(١) قوله: «الصيام»، هو فى اللغة: الإمساك. وفى الشرع: إمساك مخصوص، وهو الإمساك عن الأكل والشرب والجماع وغيرهما مما ورد به الشرع فى النهار على الوجه المشروع، ويتبع ذلك الإمساك عن اللغو والرفث وغيرهما من الكلام المحرم والمكروه؛ لورود الأحاديث بالنهاى عنها فى الصوم زيادة على غيره. «سبل السلام» ٦٤١/٢.

(٢) قوله: «أو شهادة رجل... إلخ»، لحديث ابن عمر رضى الله عنهما قال: «تراءى الناس الهلال، فأخبرت النبى ﷺ أنى رأيته فصام، وأمر الناس بصيامه».

رواه أبو داود فى: الصوم: ب (١٤): حديث (٢٣٤٢)، قال الحافظ: صححه الحاكم وابن حبان.

(٣) قوله: «أو حدوث غيم» لقوله ﷺ: «صوموا لرؤيته، وأفطروا لرؤيته، فإن غم عليكم فأكملوا عدة شعبان ثلاثين يومًا».

رواه البخارى ٣/ ٣٥، ومسلم فى: الصيام: حديث (٤، ٥، ١٨، ١٩)، وأحمد ١/ ٢٢٦.

العيوب المضرة في العمل، فإن لم يجد فصيام شهرين متتابعين، فإن لم يستطع فإطعام ستين مسكيناً لكل واحد منهم مدّ من طعام وهو رطل وثلاث بالعراقي، فيكون مائة وثلاثة وسبعين درهماً وثلاث درهم، أو نصف صاع من تمر أو شعير، فإن لم يجد ذلك فمن قوت بلده كما قلنا في الفطرة.

فإن لم يجد شيئاً سقطت عنه، واستغفر الله عز وجل، وتاب إليه، وأحسن العمل في الباقي.

ويجتنب في نهار رمضان:

الخلوة بامرأة شابة، والقبلة لها، وإن كانت ممن تحل له، أو ذات رحم. ويجتنب السواك بعد الزوال، ومضغ العلك^(١)، وجمع ريقه ثم بلعه، وذوق الطعام عند الطبخ وغيره، والغيبة، والنميمة، والكذب، والسب، وغير ذلك.

ويستحب له:

تعجيل^(٢) الإفطار إلا في يوم الغيم فتأخيره أفضل، وتأخير^(٣) السحور إلا أن يكون ممن يخفى عليه طلوع الفجر، والأولى له أن يفطر^(٤) على التمر أو الماء، ويدعو وقت الإفطار، لما روى عن النبي ﷺ أنه قال: (إذا صام أحدكم فقدم عشاؤه فليقل: بسم الله اللهم لك صمت، وعلى رزقك أفطرت، سبحانه وبحمده، اللهم تقبل منا فإنك أنت السميع العليم)^(٥).

* * *

(١) قوله: «العلك»، أي اللبان.

(٢) قوله: «ويستحب له تعجيل الإفطار»، لقوله ﷺ: «لا يزال الناس بخير ما عجلوا الفطر».

رواه البخارى ٤٧/٣، ومسلم فى: الصيام: حديث (٤٨)، وأحمد ١٣١/٥.

(٣) قوله: «وتأخير السحور»، لحديث زيد بن ثابت رضى الله عنه قال: «تسحرنا مع رسول الله ﷺ، ثم قمنا إلى الصلاة، قلت: كم كان قدر ما بينهما؟ قال: خمسين آية».

رواه البخارى فى: الصوم: ب (١٩)، ومسلم فى: الصيام: حديث (٤٧)، وأحمد ١٨٢/٥.

(٤) قوله: «يفطر على التمر والماء»، لقوله ﷺ: «إذا أفطر أحدكم فليفطر على تمر، فإن لم يجد فليفطر على ماء؛ فإنه طهور».

رواه الترمذى (٦٥٨ و ٦٩٥)، وابن ماجه (١٦٩٩)، وأحمد ١٧/٤.

(٥) أبو داود (٢٣٩٨)، والدارقطنى ١٨٥/٢.

كتاب الاعتكاف^(١)

ويستحب له الاعتكاف.

ولا يكون إلا في مسجد يصلى فيه بالجماعة، وأولى المساجد الجامع إذا كان اعتكافه أياماً يتخللها جمعة.

ويصح بغير صوم والأولى أن يكون بالصوم، لأنه أجمع لهم، وأعون على كسر نفسه، وأليق باشتقاق ما هو بصده.

لأن الاعتكاف هو حبس النفس في مكان مخصوص، ولزوم الشيء والمداومة عليه، قال الله تعالى: ﴿ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون﴾ [الأنبياء: ٥٢].

وهو من السنن الماثورة عن النبي ﷺ وأصحابه، لأن النبي ﷺ اعتكف العشر الأواخر من شهر رمضان، ثم لم يزل على ذلك حتى توفاه الله تعالى، وندب الصحابة إليه فقال: (من أراد أن يعتكف فليعتكف العشر الأواخر)^(٢).

فإذا اعتكف ينبغى له أن يتشاغل بفعل كل ما يقربه إلى الله تعالى من قراءة القرآن والتسبيح والتهليل والتكبير والتفكير ويجتنب كل ما لا يعنيه من القول والعمل.

ويلزم الصمت في غير ذكر الله تعالى.

ويجوز له التدريس وإلقاء القرآن، لأن ذلك يتعدى نفعه إلى غيره، فهو أكثر ثواباً من اشتغاله بخاصة نفسه.

ويجوز له الخروج من معتكفه لما لا بد له منه، كالاغتسال من الجنابة، والأكل والشرب، وقضاء حاجة الإنسان من البول والغائط، وعند الخوف على نفسه من الفتنة والمرض الشديد وغير ذلك.

(١) قوله: «الاعتكاف» هو في اللغة: لزوم الشيء، وحبس النفس عليه. وشرعاً: المقام في المسجد من شخص مخصوص على صفة مخصوصة. «سبل السلام» ٦٨٣/٢.

(٢) لم أقف عليه بهذا اللفظ في حدود معرفتي، ولعله في مصادر لا أعرفها. وما جاء في اعتكاف العشر الأواخر حديث عائشة رضي الله عنها: «أن النبي ﷺ كان يعتكف العشر الأواخر من رمضان...» الحديث.

رواه البخاري ٦٢/٣ و ٦٣، ومسلم في: الاعتكاف: حديث (١، ٥)، وأحمد ١٤١/٥.

كتاب الحج^(١)

فإذا كملت في حقه شرائط الحج وجب عليه أداء الحج والعمرة على الفور، وهو أن يكون بعد إسلامه حرًا عاقلًا بالغًا مستطيعًا بالزاد والراحلة، وتخليّة الطريق من عدو يمنعه، وإمكان المسير إليه وهو اتساع الوقت لأداء الحج، وصحة البدن للاستمسك على الراحلة.

والاستطاعة بالزاد والراحلة إنما تكون بعد تحصيل النفقة لعياله إلى أن يعود إليهم، والمسكن لهم، وقضاء الديون إن كانت عليه.

وأن يكون له كفاية بعد رجوعه من فضل مال أو أجره عقار أو بضاعة أو صناعة. فإن خالف وقصر بعياله وامتنع من قضاء دينه وخرج إلى الحج كان مآثومًا ظالمًا مسخوطًا عليه، لقول النبي ﷺ: (كفى بالمرء إثمًا أن يضيع من يقوته)^(٢).

فإن سلم من المخالفة حتى فرغ من الحج والعمرة سقط عنه الحج.

(فصل) فإذا بلغ الميقات الشرعى وهو:

ذات عِرق^(٣): إن كان من أهل المشرق.

والجُحْفَة^(٤): إن كان من أهل المغرب.

وذو الحُلَيْفَة^(٥): إن كان من أهل المدينة.

(١) قوله: «الحج»، بفتح الحاء المهملة وكسرهما لفتان، وهو ركن من أركان الإسلام الخمسة بالاتفاق، وأول فرضه سنة ست عند الجمهور، واختار ابن القيم في «الهدى» أنه فرض سنة تسع أو عشر، وفيه خلاف. «سبل السلام» ٦٩١/٢.

(٢) أبو داود (١٦٩٢)، وأحمد ١٦٠/٢ و ١٩٤.

(٣) قوله: «ذات عِرق»، بكسر العين المهملة وسكون الراء بعدها قاف، بينه وبين مكة مرحلتان، وسمى بذلك؛ لأن فيه عرقًا، وهو الجبل الصغير. «سبل السلام» ٧٠٨/٢.

(٤) قوله: «الجُحْفَة» بضم الجيم وسكون الحاء المهملة ففاء، سميت بذلك؛ لأن السيل اجتحف أهلها إلى الجبل الذى هنالك، وهى من مكة على ثلاث مراحل، وتسمى «مهيعة»، وكانت قرية قديمة، وهى الآن خراب؛ ولذا يحرمون الآن من رابغ قبلها بمرحلة؛ لوجود الماء بها للاغتسال. «المصدر السابق» ٧٠٥/٢.

(٥) قوله: «ذو الحُلَيْفَة» بضم الحاء المهملة، وبعد اللام مثناة تحتية، وفاء. تصغير «حلفة» والحلقة =

وَيَكْمَلُم^(١): إِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ.

وَقَرَن^(٢): إِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ نَجْدٍ.

يغتسل ويتنظف أو يتيمم إن لم يجد الماء، ويتزرز بإزار ويرتدى برداء، ويكونان أبيضين نظيفين، ويتطيب ويصلى ركعتين، ثم يحرم وينوى الإحرام بقلبه، ويلبى بالعمرة إن كان متمتعاً وهو الأفضل، أو بالحج المفرد، أو بالحج والعمرة جميعاً.

ويشترط أن يقول: اللهم إني أريد العمرة أو الحج أو إياهما جميعاً، فيسر ذلك لى وتقبل منى، وحلّنى حيث حبستنى، ويلبى.

وصفة التلبية:

لبيك اللهم لبيك، لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك^(٣).

يرفع بذلك صوته، ويقول ذلك بعد الإحرام، وعقيب الصلوات الخمس، وفى إقبال الليل والنهار، والتقاء الرفاق، وإذا علا شرف أو هبط وادياً أو سمع ملبياً، وفى مساجد الحرم وبقاعه، ويصلى على النبى ﷺ، ويدعو لنفسه بما أحب إذا فرغ من التلبية.

(فصل) فإذا أحرم لا يغطى رأسه، ولا^(٤) يلبس المخيط ولا الخفين، فإذا فعل ذلك لزمه ذبح شاة، إلا ألا يجد الإزار والنعلين.

ولا^(٥) يتطيب فى بدنه وثيابه من سائر أنواع الطيب، فإن فعل ذلك متعمداً غسله

= واحدة الخلفاء، نبت فى الماء، وهى مكان معروف بينه وبين مكة عشر مراحل، وهى من المدينة على فرسخ وبها المسجد الذى أحرم منه ﷺ، والبئر التى تسمى الآن بئر على، وهى أبعد المواقيت إلى مكة. «نفس المصدر» ٧٠٥/٢.

(١) قوله: «يلملم» بينه وبين مكة مرحلتان. «نفس المصدر السابق».

(٢) قوله: «قَرَن» بفتح القاف وسكون الراء، ويقال له: قرن الثعالب، بينه وبين مكة مرحلتان. «نفس المصدر».

(٣) البخارى ١٧٠/٢، ومسلم فى: الحج: حديث (١٩ و ٢٠ و ٢١)، وأحمد (٢٦٧/١).

(٤) قوله: «ولا يلبس المخيط... إلخ»، لقوله ﷺ: «لا يلبس المحرم القميص، ولا العمامة، ولا البرنس، ولا السراويل، ولا ثوباً مسّه ورس، ولا زعفران، ولا الخفين، إلا ألا يجد نعلين، فليقطعهما حتى يكونا أسفل من الكعبين».

رواه البخارى ٤٥/١، ومسلم فى: الحج: حديث (٢)، والبيهقى ٤٩٠/٥.

(٥) قوله: «ولا يتطيب فى بدنه»، لقوله ﷺ: «أما الطيب الذى بك، فاغسله عنك» ثلاث مرات. =

وذبح شاة.

ولا يقلم أظفاره ولا يحلق شعره، فإن قَلَّمَ ثلاثة أظفار أو حلق ثلاث شعرات من رأسه أو بدنه فعليه ذبح شاة، فإن كان دون ذلك ففى كل ظفر أو شعرة مدّ من طعام. ولا^(١) يعقد النكاح لنفسه ولا لغيره، ويجوز له الارتجاع.

ولا يباشر الزوجة والأمة فى الفرج ولا دون الفرج، فإن فعل ذلك بطل حجه إذا كان ذلك قبل رمى جمرة العقبة.

ولا يستمنى، ولا يكرر النظر، فإن فعل فأمنى فعليه الكفارة وهى ذبح شاة.

ولا يقتل الصيد المأكول، وما تولد من مأكول وغير مأكول.

ولا يأكل ما صيد لأجله، أو أشار إليه، أو دلّ عليه، أو أعان على ذبحه، مثل أن يمسكه له أو يعيره سكينًا ونحو ذلك، فإن فعل ذلك فعليه الجزاء مثله من النعم:

فإن كان الصيد نعامة فعليه: بدنة.

وإن كان حمار وحش فعليه: بقرة.

وإن كان بقرة الوحش وأنواعها فعليه: بقرة.

وإن كان غزالاً أو ثعلباً فعليه: عتزو.

وإن كان ضبعاً: فكبش.

وإن كان أرنباً: فعتاق.

وإن كان يربوعاً: فجفرة.

وفى الضب: جدى.

وفى الكبير كبير، وفى الصغير صغير، على مثل ما قتل فى جميع الصفات.

وإن كان ذلك حماماً - و كل مطوّق حمام - ففى كل واحد: شاة.

فإن لم يكن له مثل فقيمته، يرجع فى معرفة ذلك إلى قول عدلين من المسلمين.

ويجوز له ذبح الحيوان الأنسى وأكله.

= رواه مسلم (٨٣٧)، وأحمد ٢٢٢/٤، والبيهقى ٥٠/٧، وابن خزيمة (٢٦٧٠).

(١) قوله: «ولا يعقد النكاح... إلخ»، لقوله ﷺ: «لا ينكح المحرم ولا ينكح، ولا يخطب».

رواه مسلم فى: النكاح: حديث (٤١ و ٤٣ و ٤٥)، وأبو داود (١٨٤١)، وأحمد ٦٤/١.

ويجوز له قتل كل ما فيه مضرة كالحية والعقرب والكلب العقور والسبع والثمر والذئب والفهد والفأرة والغراب الأبقع والحدأة والبزاة وأنواعها، والزنبور والبق والبراغيث والقراد والأوزاغ والذباب وجميع حشرات الأرض، ويجوز قتل النمل عند الأذية، وكذلك القمل والصئبان في إحدى الروايتين، والأخرى عليه أن يتصدق بما أمكن.

ولا يقتل صيد الحرم، فإن قتله كان حكمه كما ذكرنا في صيد الإحرام.
ولا يقطع أشجار الحرم ولا يقلعها، فإن فعل ذلك ضمن الشجرة الكبيرة ببقرة، والصغيرة بشاة.
وكذلك صيد المدينة وشجرها يحرم عليه، إلا أن جزاءهما سلب ما عليه من الثياب، ويكون ذلك حلالاً لمن أخذه.

(فصل)

فإن كان في الوقت سعة فأمكنه دخول مكة قبل يوم عرفة بأيام، فالمستحب له أن يغتسل غسلًا كاملاً ويدخلها من أعلاها.
فإذا بلغ المسجد الحرام دخل من باب بنى شيبه، ويرفع يديه عند رؤية البيت ويقول:
اللهم إنك أنت السلام ومنك السلام، حيناً ربنا بالسلام، اللهم زد هذا البيت تعظيماً وتشريفاً وتكريماً ومهابة وبراً، وزد من شرفه وعظمه ممن حجه أو اعتمره تعظيماً وتشريفاً وتكريماً ومهابة وبراً، الحمد لله رب العالمين، والحمد لله كثيراً كما هو أهله، وكما ينبغي لكرم وجهه وعز جلاله، الحمد لله الذي بلغني بيته ورأى لذلك أهلاً، والحمد لله على كل حال، اللهم إنك دعوت إلى حج بيتك، وقد جئناك لذلك، اللهم تقبل مني واعف عني وأصلح لي شأني كله، لا إله إلا أنت.

يرفع بذلك صوته، ثم يطوف للقدوم ويضطبع بردائه، فيكشف كستفه الأيمن ويستر الأيسر، ثم يتقدم إلى الحجر الأسود، فيستلمه بيده ويقبله إن أمكنه، وإلا استلمه وقبّل يده، فإن زحم أشار بيده إليه ويقول:

(بسم الله والله أكبر، إيماناً بك وتصديقاً بكتابك ووفاء بعهدك واتباعاً لسنة نبيك محمد ﷺ)^(١).

(١) لم أقف عليه في شيء من المصادر التي احتوتها مكتبتي.

ثم يطوف على يمينه وهو أن يرجع إلى باب البيت، فيمضي إلى الحجر الذي فيه ميزاب البيت مسرعًا، وهو السعى الشديد مع تقارب الخطأ، حتى إذا بلغ الركن اليماني استلمه ولم يقبله، فإذا بلغ الحجر الأسود عدّ ذلك شوطًا واحدًا. ثم يطوف كذلك ثانيًا وثالثًا قائلًا في جميع ذلك: (اللهم اجعله حجة مبرورًا وسعيًا مشكورًا وذنبًا مغفورًا)^(١).

ثم يخفف مشيه، ويقارب خطاه، فيمشي على هيبته في الأربعة الباقية ويقول فيها: (رب اغفر وارحم واعفُ عما تعلم، وأنت الأعزُّ الأكرم، اللهم ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار)^(٢).

ويدعو بما أراد مما يجوز من خير الدنيا والآخرة.

وينبغي أن يكون ناويًا لذلك، طاهرًا من الأحداث والأنجاس وساتر العورة لأن النبي ﷺ قال: (الطواف بالبيت صلاة، إلا أن الله تعالى أباحكم فيه النطق)^(٣).

فإذا فرغ من ذلك صلى ركعتين خلف مقام إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام، يقرأ في الأولى بعد الفاتحة ﴿قل يا أيها الكافرون...﴾ [الكافرون: ١ - ٦]، وفي الثانية ﴿قل هو الله أحد...﴾ [الإخلاص: ١ - ٤]، ثم يرجع إلى الحجر الأسود فيستلمه، ثم يخرج إلى الصفا من بابه، ويرقى عليه إلى حيث يمكنه رؤية الكعبة، ثم يكبر ثلاثًا ويقول: (الحمد لله على ما هدانا، لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، لا إله إلا الله، ولا نعبد إلا إياه، مخلصين له الدين ولو كره الكافرون).

ثم ينزل ويلبى ويدعو ثانيًا وثالثًا، ثم ينزل ماشيًا حتى يكون بينه وبين الميل الأخضر المنتصب عند المسجد ما قدره ستة أذرع، ثم يسرع في المشي حتى يبلغ إلى الميلين الأخضرين، ثم يخفف مشيه إلى أن يبلغ المروة فيرقى عليها فيفعل كما فعل على الصفا، ثم ينزل ويمشي في موضع مشيه ويسعى في موضع سعيه إلى أن يصير إلى الصفا، ثم كذلك فيعد سبعا يبدأ بالصفا ويختم بالمروة.

(١) البيهقي ١٢٩/٥، والإتحاف ٣٥٠/٤، والشفاء ٢٦٤/١.

(٢) البخاري ٣٥/٦، ومسلم في: الذكر والدعاء: حديث (٢٦، ٢٧)، وأحمد ١٠١/٣.

(٣) النسائي في: الحج: ب (١٣٢)، والبيهقي ٨٧/٥، والحاكم ٤٥٩/١.

وينبغي أن يكون متطهراً كما ذكرنا، في الطواف بالبيت، فإذا فرغ من ذلك حلق أو قصر وإن كان متمتعاً ولم يكن قد ساق هدياً وفعل ما يفعله الحلال.

فإذا كان يوم التروية وهو الثامن من ذي الحجة أحرم من مكة للحج، فيأتي منى فيصلي بها الظهر والعصر والمغرب والعشاء ويبيت بها، ثم يصلي بها الصبح. فإذا طلعت الشمس دفع مع الناس إلى الموقف بعرفة فإذا زالت الشمس وخطب الإمام خطبة يعلم الناس فيها ما ينبغي أن يفعلوه من الوقوف وموضعه ووقته ودفعه من عرفات والصلاة بمزدلفة والمبيت بها وغير ذلك من رمي الجمار والنحر والحلق والطواف بالبيت، دنا من الإمام فيعي ما يقول، ثم يصلي معه الظهر والعصر يجمع بينهما بإقامة لكل صلاة، ثم يتقدم إلى جبل الرحمة والصخرات بقرب الإمام، يستقبل القبلة فيقف هناك ويجتهد في الدعاء والثناء على الله عز وجل.

وينبغي أن يكون أكثر ذكره: لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، يحيى ويميت وهو حي لا يموت بيده الخير وهو على كل شيء قدير، اللهم اجعل في قلبي نوراً وفي بصري نوراً وفي سمعي نوراً ويسر لى أمري.

فإن فاتته الوقوف مع الإمام نهائياً أدركه بعد خروج الإمام من الموقف قبل أن يطلع الفجر الثاني من ليلة النحر، ومن أدركه كذلك فقد أدرك الوقفة وإلا فقد فاتته الحج، فإذا دفع مع الإمام إلى طريق مزدلفة يكون على التوعدة والسكون والوقار، فإذا وصل مزدلفة صلى مع الإمام بها المغرب والعشاء جماعة، أو منفرداً إن فاتته مع الإمام، ثم حط رحله فبييت هناك، ويأخذ منها حصى الجمار أو من حيث تيسر له ذلك، وعدده سبعون حصاة، وقدره أن يكون أكبر من الحمص وأصغر من البندق، ويستحب أن يغسله، ثم يصلي الفجر إذا أصبح، ويجتهد أن يغسل بها، ثم يأتي المشعر الحرام فيقف عنده، فيكثر الحمد لله والثناء عليه والتهليل والتكبير والدعاء، والأولى أن يقول في دعائه:

اللهم كما أوقفتنا فيه وأريتنا إياه فوقتنا لذكرك كما هديتنا، واغفر لنا وارحمنا كما وعدتنا بقولك الحق ﴿فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ...﴾ إلى قوله تعالى: ﴿غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

[البقرة: ١٩٨ - ١٩٩].

فإذا أضاء النهار وأسفر دفع إلى منى وأسرع في وادى محسر، فإذا وصل إلى منى

رمى جمرة العقبة بسبع^(١) حصيات، مكبراً في إثر كل حصاة، رافعاً يده حتى يرى بياض إبطيه، كما روى عن النبي ﷺ أنه رمى كذلك^(٢)، وسكت عن التلبية عند أول حصاة يرميها، ويكون رميه هذا بعد طلوع الشمس وقبل الزوال وفيما بعد من أيام التشريق بعد الزوال، فإذا رمى نحر هدياً إن كان معه، وحلق جميع رأسه أو قصر، وإن كانت امرأة تقصر من شعرها قدر الأئمة.

ثم يمضى إلى مكة ويغتسل ويتوضأ، فيطوف طواف الزيارة ويعينه بالنية، ويصلى ركعتين خلف المقام، فإذا فرغ سعى بين الصفا والمروة إن أراد، لأن السعى قد سقط عنه بفعله في طواف القدوم، ثم قد حلّ له كل شيء من محظورات الإحرام، وصار حلالاً كما كان قبل الإحرام، ثم يتقدم إلى زمزم فيشرب من مائها فيقول عند شربه: بسم الله اللهم اجعله لنا علماً نافعاً ورزقاً واسعاً ورياً وشبعاً وشفاء من كل داء، واغسل به قلبي واملأه من خشيتك.

ثم يرجع إلى منى فيبيت بها ثلاث ليال، فيرمى الجمرات الثلاث في أيام التشريق على ما ذكرنا كل يوم بإحدى وعشرين حصاة، كل جمرة سبع حصيات، فيبدأ بالجمرة الأولى وهي أبعد الجمرات من مكة مما يلي مسجد الخيف، يجعلها عن يساره ويستقبل القبلة فإذا رماها تقدم عنها يسيراً لثلاث يصيه حصى غيره، فيقف هناك داعياً الله عز وجل بقدر قراءة سورة البقرة إن أمكنه، ثم يرمى الجمرة الوسطى فيجعلها عن يمينه، ويستقبل القبلة فيدعو كالأولى ثم يرمى الجمرة الأخيرة وهي جمرة العقبة ويجعلها عن يمينه، وينزل إلى الوادي، ويكون مستقبلاً إلى القبلة ولا يقف هناك، ثم يفعل في اليوم الثاني والثالث كذلك.

وإن أحب أن يتعجل ولا يرمى في اليوم الثالث دفن ما بقى معه من بقية الحصى هناك، ويخرج قاصداً إلى مكة فيأتى الأبطح فيصلّى هناك الظهر والعصر والمغرب والعشاء، ثم ينام يسيراً ثم يدخل مكة فيقيم بها أو غيرها من المواضع كالزاهر والأبطح، وإذا أراد أن يدخل البيت يكون حافياً، ويصلى فيه نفلًا، ويشرب من ماء زمزم ويرتوى^(١) قوله: «سبع حصيات»، كان ابن عمر رضى الله عنه يأخذ الحصى من المزدلفة. وفعله سعيد بن جبير وقال: كانوا يتزودون الحصى منها، واستحبه الشافعي. وقال أحمد: خذ الحصى من حيث شئت. «فقه السنة» ١/٦١٧.

(٢) البخارى فى: الحج: ب (١٣٨ و ١٤٠ - ١٤٢)، وأبو داود فى: المناسك: ب (٥٦ و ٧٧).

منه . وينوى ما أحب من العلم والمغفرة والرضوان لقوله عليه الصلاة والسلام : «ماء رمزم لما شرب له»^(١).

ويكثر الاعتماد والنظر إلى الكعبة ، لما روى فى بعض الأخبار : إن النظر إليها عبادة^(٢).

ثم لا يخرج حتى يودع البيت فيطوف^(٣) به سبعا ، ثم يقف بين الركن والباب ويدعو فيقول :

اللهم هذا بيتك وأنا عبدك وابن عبدك وابن أمتك حملتني على ما سخرت لى من خلقك وسيرتني فى بلادك حتى بلغتني بنعمتك ، وأعتنتى على قضاء نسكى ، فإن كنت رضيت عنى فازدد عنى رضا ، وإلا فمن على الآن قبل تباعدى عن بيتك ، هذا أو انصرافى إن أذنت لى غير مستبدل بك ولا بيتك ولا راغب عنك ولا عن بيتك ، اللهم فاصحبنى العافية فى بدنى والصحة فى جسمى والعصمة فى دينى وأحسن منقلبى ومثواى ، وارزقنى طاعتك ما أبقيتني واجمع لى خير الدنيا والآخرة إنك على كل شيء قدير^(٤).

وما زاد على ذلك من الدعاء من خير الدنيا والآخرة كان حسنا ، ثم يصلى على النبى ﷺ ولم يبق بعد ذلك بمكة ، فإن أقام أعاد الطواف وإلا ذبح شاة.

(فصل) فإن كان فى الوقت ضيق وخاف فوت الوقفة بعرفات ، فإن أحرم من الميقات بدأ بعرفات فوقف هناك ، ثم دفع منها بعد غروب الشمس ، فيفعل ما ذكرناه من البيتوتة بمزدلفة ثم الرمى بمنى ، ثم إذا دخل مكة طاف طوافين ، ينوى بالأول منهما القدوم وبالثانى الزيارة ، ثم يسعى بين الصفا والمروة ، ثم يحل له كل شيء ، ثم يعود إلى منى للرمى فى الأيام الثلاثة ، ثم يتم الأفعال على ما تقدم ذكره.

(١) ابن ماجه (٣٠٦٢) ، وأحمد ٣/٣٥٧ ، والحاكم ١/٤٧٣ ، والإرواء ٤/٣٢٠ .

(٢) الإتحاف ٤/٢٨٣ ، والعلل المتناهية ٢/٣٤٤ .

(٣) قوله : « فيطوف به سبعا » ، ويسمى هذا طواف الوداع لأنه توديع البيت ، وهو آخر ما يفعله الحاج . فعن ابن عمر رضى الله عنهما قال : « آخر النسك الطواف بالبيت » .

رواه مالك فى : الحج : حديث (١٢٠) .

(٤) فقه السنة ١/٦٣٦ - ٦٣٧ .

(فصل)

وصفة العمرة: أن يحرم بها من الميقات الشرعى الذى تقدم ذكره، بعد أن يغتسل ويتطيب ويصلى ركعتين، فيطوف بالبيت سبعاً، ويسعى بين الصفا والمروة ويقصر أو يحلق، ثم يحل منها إن لم يكن ساق هدياً، وإن كان بمكة خرج إلى التنعيم فيحرم منه فيفعل كذلك.

(فصل)

ولا يبطل الحج إلا بالوطء فى الفرج أو دون الفرج مع الإنزال^(١).
وأركان الحج أربعة: الإحرام، والوقوف^(٢)، وطواف الزيارة، والسعى.
وعن الشيخ رحمه الله: إنها ركنان: أحدهما: الوقوف بعرفة، والثانى: الطواف بالبيت، والصحيح الأول.
فإذا ترك واحداً من هذه الأركان كان حجه ناقصاً، وعليه الإتيان به، إما فى سنته وإما فى العام القابل، يأتى به محرماً، ولا يجبره دم بحال.
وأما واجباته فخمسة وهى: المبيت بمزدلفة إلى ما بعد نصف الليل، والمبيت بمنى، والرمل، والحلاق، وطواف الوداع. فإن ترك واحداً منها جبره بدم، وهو شاة كما قلنا فى ترك الواجبات فى الصلاة يجبره بسجود السهو.
وأما مستنونهاته فخمسة عشر وهى:
[الأول]: الاغتسال للإحرام ولدخول مكة وللوقوف بعرفة وللمبيت بمزدلفة ولرمى الجمار أيام منى ولطواف الزيارة ولطواف الوداع.
والثانى: طواف القدوم.
والثالث: الرمل.
والرابع: الاضطباع فى الطواف والسعى.

(١) أفتى بطلان الحج بالجماع على وعمر وأبو هريرة رضى الله عنهم. «فقه السنة» ١/ ٥٧٥.
(٢) قوله: «الوقوف» يعنى: بعرفة. وقد أجمع العلماء على أنه ركن الحج الأعظم، فعن رسول الله ﷺ أنه قال: «الحج عرفة».
رواه أبو داود فى: المناسك: ب (٦٩)، والترمذى (٨٨٩)، والنسائى ٢٥٦/٥ و ٢٦٤، وابن ماجه (٣٠١٥).

- و [الخامس]: استلام الركنتين .
- و [السادس]: التقبيل .
- و [السابع]: الارتقاء على الصفا والمروة .
- و [الثامن]: المبيت بمنى ثلاثاً .
- و [التاسع]: الوقوف على المشعر الحرام .
- و [العاشر]: الوقوف عند الجمرات .
- و [الحادى عشر]: الخطب .
- و [الثانى عشر]: الأذكار .
- و [الثالث عشر]: شدة السعى فى مواضعه .
- و [الرابع عشر]: المشى فى مواضعه .
- و [الخامس عشر]: ركعتا الطواف .
- فإن ترك هذه الأشياء أو واحداً منها كان تاركاً للأفضل ولا شىء عليه .

(فصل)

أما العمرة فأركانها ثلاثة:

- الإحرام، والطواف بالبيت، والسعى بين الصفا والمروة .
- وواجباتها: الحلاق فحسب .
- وستناتها: الغسل عند الإحرام، والأدعية، والأذكار المشروعة فى الطواف والسعى .
- وقد بينا الحكم فى تركها فى الحج .

(فصل)

فإذا منّ الله تعالى عليه بالعافية، وقدم المدينة، فالمستحب له أن يأتى مسجد النبى ﷺ، وليقل عند دخول المسجد:

اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، وافتح لى أبواب رحمتك، وكفّ عني أبواب عذابك، الحمد لله رب العالمين^(١).

(١) مسلم فى: صلاة المسافرين: حديث (٦٨)، وأحمد (٤٩٧/٣).

ثم يأتى القبر، وليكن بحدائه بينه وبين القبلة، ويجعل جدار القبلة خلف ظهره والقبر أمامه تلقاء وجهه والمنبر عن يساره، وليقم مما يلى المنبر وليقل:

السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم إنك حميد مجيد، اللهم آت سيدنا محمدًا الوسيلة والفضيلة والدرجة الرفيعة وابعثه المقام المحمود الذى وعدته، اللهم صلّ على روح محمد فى الأرواح، وعلى جسده فى الأجساد، كما بلغ رسالتك وتلا آياتك وصدع بأمرك وجاهد فى سبيلك وأمر بطاعتك ونهى عن معصيتك، وعادى عدوك ووالى وليك وعبدك حتى أتاه اليقين.

اللهم إنك قلت فى كتابك لنبيك: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ٦٤]. وإنى أتيت بيتك تائبًا من ذنوبى مستغفرًا، فأسألك أن توجب لى المغفرة كما أوجبتها لمن أتاه فى حياته، فأقرّ عنده بذنبه فدعا له نبيه فغفرت له.

اللهم إنى أتوجه إليك بنبيك عليه سلامك نبى الرحمة، يا رسول الله إنى أتوجه بك إلى ربى ليغفر لى ذنوبى، اللهم إنى أسألك بحقه أن تغفر لى وترحمنى، اللهم اجعل محمدًا أول الشافعين وأنجح السائلين وأكرم الأولين والآخرين.

اللهم كما آمنّا به ولم نره وصدقناه ولم نلقه فأدخلنا مدخله واحشرونا فى زمرة، وأوردنا حوضه واسقنا بكأسه مشربًا رويًا صافيًا سائغًا هنيئًا لا نظمأ بعده أبدًا غير خزيًا ولا ناكثين ولا مارقين ولا جاحدين ولا مرتابين، ولا مغضوبٍ علينا ولا ضالين، واجعلنا من أهل شفاعته.

ثم يتقدم عن يمينه ثم ليقل:

السلام عليكم يا صاحبى رسول الله ﷺ ورحمة الله وبركاته، السلام عليك يا أبا بكر^(١) الصديق، السلام عليك يا عمر^(٢) الفاروق، اللهم أجزهما عن نبيهما وعن

(١) أبو بكر الصديق هو: عبد الله بن عثمان بن عامر القرشى التيمى، كان أول من أسلم، وثبت له أفضل الفضائل بصحبة الهجرة، وقد كانت بيعته إجماعًا، توفى رضى الله عنه سنة (١٣). له ترجمة فى: الرياض المستطابة ص (١٤٠ - ١٤٧).

(٢) عمر الفاروق هو: ابن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى القرشى العدوى المدنى أمير المؤمنين. =

الإسلام خيراً واغفر لنا وإخواننا الذين سبقونا بالإيمان، ولا تجعل فى قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم.

ثم يصلى ركعتين ويجلس.

ويستحب أن يصلى بين القبر والمنبر فى الروضة.

وإن أحب أن يتمسح بالمنبر تبركاً به.

ويصلى بمسجد قباء.

وأن يأتى قبور الشهداء ويزورهم: فعل ذلك وأكثر الدعاء هناك.

ثم إذا أراد الخروج من المدينة أتى مسجد النبى ﷺ وتقدم إلى القبر وسلم على رسول الله ﷺ وفعل كما فعل أولاً، وودعه وسلم على صاحبيه كذلك ثم قال:

اللهم لا تجعل آخر العهد منى بزيارة قبر نبيك، وإذا توفيتنى فتوفنى على محبته وسنته آمين يا أرحم الراحمين. وخرج سالماً إن شاء الله.

= كان من قديمى الإسلام والهجرة، ومن صلى إلى القبلتين، وشهد المشاهد كلها، استشهد

رضى الله عنه سنة (٢٣). له ترجمة فى: الإصابة ص (١٤٧ - ١٥٦).

كتاب الآداب

(فصل) الابتداء بالسلام سنة، ورده أكد من ابتدائه.

وهو مخير في صفته:

إما أن يدخل الألف واللام فيقول: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

أو يحذفهما فيقول: سلام عليكم ورحمة الله وبركاته، ولا يزيد على ذلك.

وقد روى في ذلك حديث وهو: ما روى عن عمران^(١) بن الحصين رضى الله تعالى عنهما أنه قال: «جاء رجل أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: السلام عليكم، فرد عليه السلام، ثم جلس، فقال النبي ﷺ: عشراً».

ثم جاء آخر فقال: السلام عليكم ورحمة الله، فرد عليه فجلس، فقال النبي ﷺ: عشرون.

ثم جاء آخر فقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فرد عليه فجلس، فقال النبي ﷺ: ثلاثون^(٢)، يعني ثلاثين حسنة.

والسنة أن يسلم الماشي على الجالس، والراكب على الماشي والجالس^(٣).

وسلام الواحد من الجماعة على غيرهم يجزىء.

وكذلك رد الواحد من الجماعة يجزىء عنهم^(٤).

(١) عمران بن الحصين بن عبيد بن خلف أبو لحيد الخزاعي. أسلم عام خيبر، ولى قضاء البصرة، ومات بها سنة (٥٢). له ترجمة في: تهذيب التهذيب ١١١/٨ - ١١٢.

(٢) أبو داود في: الأدب: حديث (٥١٩٥)، والترمذي في: الاستئذان: حديث (٢٦٨٩) وقال: حسن صحيح، وأحمد ٤/٤٣٩.

(٣) وشاهد ذلك قوله ﷺ: «يسلم الراكب على الماشي، والقائم على القاعد، والقليل على الكثير». رواه البخاري ٦٢/٨، ومسلم في: السلام: حديث (١)، وأحمد ٢/٥١٠.

(٤) وشاهده قوله ﷺ: «يجزىء عن الجماعة إذا مروا أن يسلم أحدهم، ويجزىء عن الجلوس أن يرد أحدهم».

رواه أبو داود (٥٢١٠)، والبيهقي ٤٩/٩، والإرواء ٣/٢٤٢.

ولا^(١) يجوز البداءة بالسلام على المشرك بحال، فإن بدأه مشرك رد عليه بأن يقول^(٢): «وعليك».

وأما رده على المسلم بأن يقول: «وعليكم السلام» كما قال، وإن زاد إلى قوله: «وبركاته» كان أولى.

وإن قال مسلم لمسلم: سلام لم يجبه، ويعرفه أنه ليس بتحية الإسلام، لأنه ليس بكلام تام.

ويستحب للنساء السلام بعضهن على بعض.

وأما سلام الرجل على المرأة الشابة فمكروه، وإن كانت بررة فلا حرج.

وأما السلام على الصبيان فمستحب؛ لأن فيه تعليمهم الأدب، وتحبيب الخير إليهم^(٣).

وكذلك يستحب لمن قام من المجلس أن يسلم على أهله^(٤)، وكذلك يسلم عليهم إذا عاد إليهم، وكذلك إن حال بينه وبينهم حائل مثل الباب والحائط، وكذلك إذا سلم على رجل ثم لقيه ثانيًا سلم عليه.

ولا يسلم على المتلبسين بالمعاصي، كمن اجتاز على قوم يلعبون بالشطرنج والنرد، أو يشربون الخمر، أو يلعبون بالجور والقمار، وإن سلموا عليه ردّ عليهم، إلا أن يغلب على ظنه انزعاجهم عن معاصيهم بتركه الرد عليهم فإنه لا يردّه^(٥).

ولا^(٦) يهجر المسلم أخاه فوق الثلاث، إلا أن يكون من أهل البدع والضلال

(١) قوله: «ولا يجوز البداءة... إلخ»، لقوله ﷺ: «لا تبدؤا اليهود ولا النصارى بالسلام».

رواه مسلم فى: السلام: حديث (١٣)، وأبو داود فى: الأدب: ب (٢٧)، وأحمد ٢/٢٦٦.

(٢) قوله: «بأن يقول: «وعليك» ويدل له قوله ﷺ: «إن اليهود إذا سلم أحدهم فإمّا يقول: السام عليك، قل: عليك».

رواه البخارى ٩/٢٠، ومسلم فى: السلام: حديث (٨، ٩)، وأحمد ٢/١٩.

(٣) ويدل له حديث أنس: «أنه كان مع النبى ﷺ، فمر بصبيان فسلم عليهم».

رواه البخارى فى: الاستئذان: حديث (٦٢٤٧)، ومسلم فى: السلام: حديث (٢١٦٨).

(٤) ويدل له قوله ﷺ: «يا بنى إذا دخلت على أهلِكَ فسلم... إلخ» الحديث.

رواه الترمذى (٢٦٩٨).

(٥) انظر «الأذكار» للنووى ص (٢١٨).

(٦) قوله: «ولا يهجر المسلم أخاه... إلخ» لقوله ﷺ: «لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث =

والمعاصي فمستحب استدامة الهجر لهم، وبالسلاام يتخلص من إثم الهجر للمسلم.
ويستحب للمسلم المصافحة لأخيه^(١)، ولا ينزع يده حتى ينزع الآخر يده إذا كان هو
المبتدئ.

وإن تعانقا وقبل أحدهما رأس الآخر ويده على وجه التبرك والتدين جاز.
وأما تقبيل الفم فمكروه.

(فصل: ويستحب القيام للإمام العادل)

والوالدين وأهل الدين والورع وكرام الناس)

وأصل ذلك ما روى أن رسول الله ﷺ أرسل إلى سعد رضى الله عنه فى شأن أهل
قريظة، فجاء على حمار أقمر، فقال رسول الله ﷺ: «قوموا إلى سيدكم»^(٢).
وقد روت عائشة رضى الله تعالى عنها أنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا دخل على
فاطمة رضى الله تعالى عنها قامت إليه فأخذت بيده وقبلته وأجلسته فى مجلسها وإذا
دخلت على النبى ﷺ قام إليها وأخذ بيدها وقبلها وأجلسها فى موضعه^(٣).
وقد روى عنه ﷺ أنه قال: «إذا جاءكم كريم قوم فأكرموه»^(٤).

ولأن ذلك يغرس المحبة والود فى القلوب فاستحب لأهل الخير والصلاح كالمهاداة
لهم، ويكره لأهل المعاصى والفجور.

ومن الآداب:

أن يخمر^(٥) العاطس وجهه ويخفض صوته ويحمد الله عز وجل إلى قوله رب
العالمين رافعاً صوته، لأنه روى فى بعض الأخبار عن النبى ﷺ أنه قال: «إن العبد إذا

= ليال... الحديث.

رواه البخارى ٢٣/٨، ومسلم فى: البر والصلة: حديث (٢٣، ٢٥)، وأحمد ١/١٧٦.

(١) ويدل له قوله ﷺ: «ما من مسلمين يلتقيان فيتصافحان إلّا غفر لهما قبل أن يفترقا».

رواه أبو داود فى: الأدب: ب (١٥٤)، والترمذى (٢٧٢٧)، وابن ماجه (٣٧٠٣)، وأحمد
٢٨٩/٤.

(٢) البخارى ٨١/٤، ومسلم فى: الجهاد: حديث (٦٤)، وأحمد ٣/٢٢.

(٣) الترمذى (٣٨٧٢)، وقال: حسن غريب من هذا الوجه.

(٤) الطبرانى ٢/٣٣٤، والخطيب ١/١٨٨، والإتحاف ٤/١٨٢.

(٥) يخمر: يغطى.

قال الحمد لله، قال الملك رب العالمين، فإذا قال رب العالمين بعد الحمد لله قال الملك يرحمك ربك^(١).

ولا يلتفت يمينًا ولا شمالًا، فإذا قال ذلك استحَب لمن سمعه أن يشمته بأن يقول له: يرحمك الله ويرد عليه فيقول: يهديكم الله ويصلح بالكم، وإن قال يغفر الله لكم جاز عن الأول، فإن زاد العاطس على ثلاث مرات سقط التشميت لأن ذلك ربح وزكام، كما جاء في الأثر وهو ما روى عن سلمة^(٢) بن الأكوع رضى الله تعالى عنه أنه قال: قال النبي ﷺ:

«ويشمت العاطس ثلاثًا، فإن زاد على ذلك فهو مزكوم»^(٣).

وإذا تشاءب غطى فمه بيده أو بكفه، لأن النبي ﷺ قال: «إذا تشاءب أحدكم فليمسك على فيه، فإن الشيطان يدخل مع التثاؤب».

وعن أبي هريرة^(٤) رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«إن الله تعالى يحب العطاس ويكره التثاؤب، فإذا تشاءب أحدكم فليرده ما استطاع، ولا يقول هاه هاه فإن ذلك من الشيطان يضحك منه»^(٥).

ويجوز للرجل تشميت المرأة البرزة العجوز، ويكره للشابة الخفيرة، فأما الصبي فتشميته أن يقال له: بورك فيك، أو جزاك الله تعالى، أو خيرك الله تعالى.

(فصل: في العشر الخصال التي في الفطرة)

خمس منها في الرأس، وخمس في الجسد:

فالتى في الرأس: المضمضة والاستنشاق والسواك وقص الشارب وإعفاء اللحية.

والتي في الجسد: حلق العانة ونتف الإبط وتقليم الأظفار والاستنجاء والختان.

والأصل في قص الشارب ما روى ابن عمر رضى الله تعالى عنهما عن النبي ﷺ أنه

(١) الحميدى (٩٧٣).

(٢) سلمة بن الأكوع أبو مسلم، غزا مع رسول الله ﷺ سبع غزوات، وشهد الرضوان، وهو ممن بايع يومئذ على الموت. مات سنة (٧٤). له ترجمة في: الرياض ص (١٠١ - ١٠٢).

(٣) ابن ماجه (٣٧١٤).

(٤) أبو هريرة هو: ابن عامر الدوسى. قال البخارى: كان أحفظ من روى الحديث فى عصره. قال أبو سليمان بن زبر: عاش ثمانينًا وسبعين سنة. «الإصابة» ٢٠٢/٤ - ٢١١.

(٥) البخارى ٦١/٨ و ٦٢، والترمذى (٢٧٤٦)، وأحمد ٢/٢٦٥.

قال: «أَحْفُوا الشارب وَاغْفُوا اللحي»^(١) وفي حديث أبي هريرة رضى الله عنه «قصوا الشوارب وَاغْفُوا اللحي»^(٢)، وكلا اللفظين واحد، ومعناهما: قصه من أصول الشعر بالمقراض واستئصاله به.

وأما حلقه بالموسى فمكروه لما روى عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس منا من حلق»^(٣)، ولأن فى ذلك مثلة، وذهاباً لماء الوجه وجماله وفى بقاء أصول الشعر زينة وجمال.

وقد روى عن الصحابة رضى الله عنهم أنهم كانوا يَجْزُونَ شواربهم، وأما إعفاء اللحية فهو توفيرها وتكثيرها، ومنه قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ عَفَوا﴾ [الاعراف: ٩٥] أى كثروا، وقد روى أن أبا هريرة رضى الله تعالى عنه كان يقبض على لحيته فما فضل من قبضته جزءه، وكان عمر رضى الله تعالى عنه يقول: خذ ما تحت القبضة.

(فصل)

والأصل فى حلق العانة ونتف الإبط وتقليم الأظفار ما روى عن أنس^(٤) بن مالك رضى الله تعالى عنه أنه قال: «وقت لنا رسول الله ﷺ أربعين ليلة لا نتجاوزها فى قص الشارب وقص الأظفار ونتف الإبط وحلق العانة»^(٥).

قال بعض أصحابنا: هذا فى حق المسافر، وأما المقيم فلا يستحب له أن يزيد فى ذلك على عشرين يوماً.

واختلفت الرواية عن الإمام أحمد فى تصحيح هذا الحديث، فروى عنه إنكاره وروى عنه الاحتجاج به فى التوقيت بهذا المقدار.

فإذا ثبت استحباب ذلك فهو مخير بين التنوير بالنورة وبين حلقه بالموسى، فقد روى عن الإمام أحمد رحمه الله تعالى أنه كان يتنور، وكذلك روى منصور بن حبيب بن أبى

(١) مسلم فى: الطهارة: حديث (٥٢)، والترمذى (٢٧٦٣)، والنسائى ١٦/١، وأحمد ١٦/٢.

(٢) أحمد ٢٢٩/٢، والطبرانى ١٥٢/١١.

(٣) مسلم فى: الإيمان: حديث (١٦٧)، وأبو داود (٣١٣٠)، وأحمد ٤١١/٤.

(٤) أنس بن مالك بن النضر الأنصارى الخزرجى النجاشى المدنى ثم البصرى، خادم رسول الله ﷺ، حضره وسفراً منذ قدم المدينة إلى أن توفى ﷺ، وهو معدود من أصحاب الألوف فى مسند بقرى

ابن مخلد. مات سنة (٩٣). له ترجمة فى: الرياض ص (٣٣ - ٣٤).

(٥) أبو داود (٤٢٠٠)، والترمذى (٢٧٥٨)، وابن ماجه (٢٩٥).

ثابت رضى الله عنه عن النبي ﷺ أنه طلى له أبو بكر وتولى هو عانته بيده^(١).
وروى عن أنس رضى الله تعالى عنه خلافه فقال: «لم يتنور رسول الله ﷺ قط،
وكان إذا كثر عليه الشعر حلقه»^(٢).

فإذا ثبت هذا فيجوز أن يتولى ذلك غيره إذا لم يحسن هو حلقه فيما سوى العانة من
الفخذ والساق، فإذا بلغ العانة تولّاها هو بنفسه.

والأصل في ذلك ما روى عن أم سلمة رضى الله عنها: «إن النبي ﷺ كان إذا بلغ
عانته نورها بنفسه»، وفي بعض الألفاظ: «إذا بلغ»^(٣) مرقاه^(٤). وأخذ أحمد بن حنبل
رحمه الله بهذا.

قال أبو العباس النسائي: نورنا أبا عبد الله فلما بلغ عانته نورها بنفسه.
فإذا ثبت هذا وأنه يجوز إزالة هذه الشعور من العانة والفخذين والساقين بالنورة،
فيجوز أيضاً بالموسى، لأنه أحد ما يزال به الشعر من الموضع المندوب إزالته، فجاز أن
يزال به كالنورة.

ويؤيد هذا القياس حديث أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه: «لم يتنور رسول الله ﷺ قط،
وكان إذا كثر عليه الشعر حلقه»^(٥).

ولا يقال إن الحلق والتنوير إنما وردا في العانة خاصة لما تقدم من حديث أم سلمة
رضى الله تعالى عنها قالت: «إن النبي ﷺ كان إذا بلغ عانته نورها بنفسه»^(٦).

فدل على أنه كان يولى غير العانة في إزالة الشعر لغيره، وليس ذلك إلا الفخذ
والساق، وإن ذكر في ذلك حديث في المنع من ذلك فهو محمول على من أراد بذلك
التزيين لرغبة الرجال فيه من العلوق المتشبهين بالنساء من المخانيث وغيرهم والله تعالى
أعلم بالصواب.

(١) ابن ماجه فى: الأدب: حديث (٣٧٥٢). قال محققه: رجاله ثقات وهو منقطع.

(٢) تاريخ أصفهان ٣٢١/١، والدر المنثور ١١٤/١.

(٣) قوله: «بلغ مرقاه» هو بتشديد القاف: مارق من أسفل البطن ولان، ولا واحد له، وميمه رائدة.
«النهاية» ٣٢١/٤.

(٤) سبق بنحوه.

(٥) سبق تخريجه.

(٦) سبق تخريجه.

(فصل: ويكره نتف الشيب)

لما روى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده رضى الله تعالى عنهم قال: «إن النبي ﷺ نهى عن نتف الشيب»، وقال: إنه نور الإسلام^(١).

وفى لفظ آخر قال رسول الله ﷺ: «لا تتنفوا الشيب، ما من مسلم ألبس شيبة فى الإسلام إلا كانت له نوراً يوم القيامة»^(٢)، وفى حديث يحيى: «إلا كتب الله تعالى له بها حسنة وحط عنه بها خطيئة».

فقد روى فى بعض التفاسير فى قوله عز وجل: ﴿وجاءكم النذير﴾ [فاطر: ٣٧] أنه هو الشيب، فكيف يجوز إزالة النذير بالموت، والمذكور به، والناهى عن الشهوات واللذات، والكاف عنها المحث على التأهب والتجهز، للأخرة، وعمارة دار البقاء؟ ومع ذلك يكون مقاوماً للقدر، كارهاً لفعل الله تعالى به، وغير راض بقضائه عز وجل، مؤثراً للشباب والطراوة والبقاء على حداثة السن، زاهداً فى الوقار والحرمة والتقمص بنور الإسلام وخلقة إبراهيم خليل الرحمن، لأنه روى فى بعض الكتب: «إن أول من شاب فى الإسلام إبراهيم الخليل عليه السلام»^(٣).

وروى عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله يستحي من ذى الشيبة»^(٤) يعنى من عذابه.

(فصل: ويستحب تقليم الأظفار يوم الجمعة)

ويكون مخالفاً بينها فى الترتيب، لما روى عن النبي ﷺ أنه قال: «من قص أظفاره مخالفاً لم ير فى عينيه رمداً»^(٥).

وفى حديث حميد بن عبد الرحمن عن أبيه «من قص أظفاره يوم الجمعة دخل فيه شفاء وخرج منه داء»^(٦).

(١) الترمذى (٢٨٢١)، والنسائى ١٣٦/٨، وابن ماجه (٣٧٢١)، وأحمد ٢٠٦/٢ و ٢٠٧.

(٢) أحمد ١٧٩/٢.

(٣) الدر المنثور ١/١١٥، وابن عدى ١٥١١/٤.

(٤) ابن أبى عاصم ١٦/١، والمجمع ١٤٩/١٠ وعزاه إلى «الأوسط» من طريق صالح بن راشد، وقال: وثقه ابن حبان، وفيه ضعف، وبقيّة رجاله ثقات.

(٥) الأسرار (٢٩٧ و ٣٥٦ و ٤٩٧)، والذهبي (٢٥٨).

(٦) العلل المنتهية ١/٤٦٤.

وقد روى هذه الفضيلة والاستحباب فى ذلك يوم الخميس بعد العصر ومعنى المخالفة: أن يبدأ بالخنصر من اليمنى ثم بالوسطى ثم بالإبهام ثم بالبنصر ثم بالسبابة. ومن اليسرى أن يبدأ بالإبهام ثم الوسطى ثم الخنصر ثم السبابة ثم البنصر، هكذا فسرهُ عبد الله بن بطة عن أصحابنا رحمه الله.

وروى وكيع^(١) عن عائشة رضى الله تعالى عنها أنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «يا عائشة إذا أنت قلمت أظفارك فابدئي بالوسطى ثم الخنصر ثم الإبهام ثم البنصر ثم السبابة، فإن ذلك يورث الغنى»^(٢).

وينبغي أن يكون التقليم بالمقص أو السكين، ويكره ذلك بالأسنان، وإذا قلم أظفاره يستحب له غسل البراجم ودفن الأظفار فى التراب، وكذلك الشعور من الرأس والبدن، والدم من الحجامة والفصد لما روى عن النبي ﷺ أنه أمر بدفن الدم والشعر والظفر.

(فصل)

وأما حلق الرأس فى غير الحج والعمرة والضرورة فمكروه فى إحدى الروايتين عن الإمام أحمد رضى الله عنه، لما روى فى حديث أبى موسى^(٣) وعبد الله بن عمر رضى الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: «ليس منا من حلق»^(٤).

وروى الدارقطنى فى الأفراد عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: «لا توضع النواصى إلا فى حج أو عمرة»^(٥)، ولأن النبي ﷺ ذم الخوارج وجعل سيماهم حلق الرؤوس، ولأن عمر رضى الله عنه قال لصبيغ: «لو وجدتك محلوقاً لضربت الذى فيه عيناك»^(٦).

(١) وكيع هو: ابن الجراح بن مليح الرؤاسى، الإمام الحافظ الثبت محدث العراق، أبو سفيان الكوفى. قال أحمد: ما رأيت أوعى للعلم ولا أحفظ من وكيع. مات سنة (١٩٧). له ترجمة فى: تاريخ بغداد ٤٦٦/١٣، والعبر ٣٢٤/١، وحلية الأولياء ٣٦٨/٨.

(٢) موضوع. المغنى ١٤٦/١.

(٣) أبو موسى هو: عبد الله بن قيس بن سليم الأشعرى، أسلم وهاجر إلى الحبشة، واستعمله رسول الله ﷺ على زبيد وعدن وساحل اليمن، وكان قارئاً صيِّتاً عالمًا عاملاً. مات سنة (٤٢). له ترجمة فى: الرياض ص (١٨٨ - ١٩١).

(٤) سبق تخريجه.

(٥) كنز العمال (١٢١٥١)، والخطيب ٢٣٩/٣، والمجمع ٢٦١/٣.

(٦) الدر المنثور ٣٨٥/٦.

وعن ابن عباس^(١) رضى الله عنهما أنه قال: الذى يحلق فى المصر خليف بالشیطان، ولأن فى ذلك تشبهاً بالأعاجم، وقد قال رسول الله ﷺ: «من تشبه بقوم فهو منهم»^(٢).

وإذا ثبت كراهية ما ذكرنا جعل مكانه أخذ الشعر بالعلم وهو المقص، كما كان يفعل أحمد بن حنبل رضى الله عنه، وإن شاء استقص فى ذلك فيقصه من أصله، وإن شاء أخذ أطراف الشعر، والرواية الأخرى: لا يكره ذلك لما روى أبو داود^(٣) بإسناده عن عبد الله بن جعفر رضى الله عنهما قال: «إن النبى ﷺ أمهل آل جعفر ثلاثاً أن يأتيتهم ثم أتاهم فقال: لا تبكوا على أخى بعد اليوم، ثم قال ﷺ: ادعوا لى بنى أخى، فجاء بنا كأننا أفرخ، فقال ﷺ: ادعوا لى الحلاق، فأمره فحلق رؤوسنا.

وقد روى أن النبى ﷺ حلق رأسه فى آخر عمره بعد أن كان شعره يضرب منكبيه. وفى حديث على رضى الله عنه: كان شعر رسول الله ﷺ إلى شحمتى أذنيه^(٤). ولأن الناس عصرًا بعد عصر يحلقون ولم يظهر عليهم نكير، ولأن فى ذلك مشقة وحرَجًا فعفى عنه كما عفى عن سؤر الهرة وحشرات الأرض.

(فصل: ويكره القَزَعُ)

وهو أن يحلق بعض الشعر ويترك بعضه، لما روى عن النبى ﷺ: أنه نهى عن القَزَعِ^(٥).

وأما حلق القفا فمكروه إلا فى الحجامة خاصة، لأن النبى ﷺ نهى عن حلق القفا إلا فى الحجامة، لأنه من فعل المجوس^(٦)، وكان أبو عبد الله أحمد يحلقه فى الحجامة،

(١) ابن عباس هو: عبد الله بن عباس بن هاشم بن عبد مناف الهاشمى المكى، ابن عم النبى ﷺ، سمع النبى ﷺ، وروى عن جماعة من الصحابة. مات سنة (٦٨). له ترجمة فى: طبقات المفسرين ٢٣٢/١ - ٢٣٣.

(٢) أبو داود (٤٠٣١)، وأحمد ٥٠/٢ و ٩٢، وابن أبى شيبة ٣١٣/٥ و ٣٢٢.

(٣) حديث رقم (٤١٩٢)، والنسائى ١٨٢/٨، وأحمد ٢٠٤/١.

(٤) أبو داود (٤١٨٥)، ودلائل النبوة ٢٢١/١، والإتحاف ١٤٨/٧.

(٥) أبو داود (٤١٩٣)، والنسائى ١٣٠/٨، وابن ماجه (٣٦٣٧)، وأحمد ٤/٢.

(٦) مجمع الزوائد ١٦٩/٥، وعزاه إلى الطبرانى فى «الصغير» و «الأوسط»، وفيه سعيد بن بشر وثقه شعبة وغيره، وضعفه ابن معين وغيره، وبقيت رجاله رجال الصحيح.

ولأن ذلك فى حال الضرورة.

وأما اتخاذ الجملة وفرق الشعر فسنة ماثورة، روى أن النبى ﷺ فرق، وأمر أصحابه رضى الله عنهم بالفرق^(١)، وقد روى ذلك عن بضعة عشر من أصحاب النبى ﷺ منهم أبو عبيدة^(٢) وعمار وابن مسعود رضى الله عنهم.

(فصل: ويكره التحذيف للرجال)

وهو إرسال الشعر الذى بين العذار والنزعتين الذى هو عادة العلويين، ولا يكره ذلك للنساء، لما روى أبو بكر الخلال من أصحابنا بإسناده عن على كرم الله تعالى وجهه أنه كرهه.

وعن الوليد بن مسلم أنه قال: أدركت الناس وما هو من زيهم.

وأما أخذ الشعر من الوجه بالمنقاش فمكروه للرجال والنساء، لأن النبى ﷺ لعن المتنمصات^(٣). وهو أخذ الشعر من الوجه بالمنقاش، ذكره أبو عبيد^(٤).

وأما المرأة فيكره لها حف جبينها - بالزجاج والموسى - والشعر الخارج عن وجهها لما تقدم من النهى عن ذلك.

وقيل: يجوز لها ذلك لزوجها خاصة إذا طلب منها ذلك، وخافت إن لم تفعله أعرض عنها وتزوج بغيرها، فأدى إلى الفساد والمضرة بها، فجوز لها ذلك لما فيه من المصلحة، كما جوز لها التزيين بألوان الثياب والتطيب بأنواع الطيب والتزويق له والملاعبة والممازحة معه.

فعلى هذا لعن النبى ﷺ المتنمصات على اللواتى أردن بذلك غير أزواجهن للفجور بهن والميل إليهن وترويج أنفسهن للزنا، والله أعلم.

(١) البخارى فى: المناقب: ب (٢٣)، ومسلم فى: الفضائل: حديث (٩٠)، وأحمد ٢٤٦/١.

(٢) أبو عبيدة هو: عامر بن الجراح القرشى الفهرى، أسلم قديماً، وهاجر قديماً، وشهد بدرًا وما بعدها من المشاهد. وكان على قدم فى العبادة، وله حظ وافر فى الزهد والخوف والتواضع. مات سنة (١٨). له ترجمة فى: الرياض ص (١٨١ - ١٨٤).

(٣) البخارى ١٨٤/٦، ومسلم فى: اللباس: حديث (١١٧ و ١١٩)، وأحمد ٢٥١/١.

(٤) غريب الحديث ١٦٦/١.

(فصل: ويكره الخضاب بالسواد)

لما روى الحسن رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال فى قوم يغيرون البياض بالسواد: «يسود الله تعالى وجوههم يوم القيامة»^(١).

وفى حديث ابن عباس رضى الله تعالى عنهما: أن النبى ﷺ قال فيهم: «لا يريحون رائحة الجنة»^(٢).

وأما الأخبار التى رويت فى الرخصة فى الخضاب بالسواد من أن النبى ﷺ قال: «اختضبوا بالسواد فإنه آس للزوجة ومكيدة للعدو»^(٣) فمحمول لأجل الحرب، وذكر الزوجة فيه تبعاً لا قصداً.

(فصل)

فإذا ثبت كراهية السواد فالمستحب أن يخضب الرأس بالحناء والكتم، وقد خضب الإمام أحمد رحمه الله رأسه وله ثلاث وثلاثون سنة، فقال له: عجلت، فقال له: هذه سنة رسول الله ﷺ.

وروى عن أبى ذر رضى الله تعالى عنه أنه قال: خير ما غير به الشيب الحناء والكتم^(٤).

وأما خضاب رسول الله ﷺ فاختلف الناس فى ذلك، فروى عن أنس رضى الله تعالى عنه أنه قال: إن النبى ﷺ لم يكن شاب إلا يسيراً، ولكن أبا بكر وعمر رضى الله عنهما خضبا بعده بالحناء والكتم^(٥).

وروى أن أم سلمة رضى الله تعالى عنها: أخرجت للناس شعر رسول الله ﷺ مخضوباً بالحناء والكتم^(٦)، فدل حديثها على إثبات خضابه ﷺ بذلك.

وأما الخضاب بالورس والزعفران، فظاهر كلام الإمام أحمد رضى الله تعالى عنه فيه

(١) مجمع الزوائد ٥/١٦٣، وعزاه إلى «الطبرانى» وفيه الوضين بن عطاء، وثقه أحمد وابن معين وابن حبان، وضعفه من هو دونهم فى المنزلة، وبقيت رجاله ثقات.

(٢) النسائى ٨/١٣٨، وابن سعد ٢/١٤٢.

(٣) ابن ماجه (٣٦٢٥)، وكثر العمال (١٧٣١٠).

(٤) ابن عدى ١/٤١٩.

(٥) مسلم فى: الفضائل: حديث (١٠٠ و ١٠٣)، وأحمد ٣/١٠٠.

(٦) ابن ماجه فى: اللباس: ب (٣٢)، وأحمد ٦/٣١٩.

الجوار، لما روى عن أبي مالك الأشجعي عن أبيه رضى الله عنه أنه قال: «كان خضابنا لرسول الله ﷺ بالورس والزعفران»^(١).

فإذا ثبت هذا في شعر الرأس فمثله في اللحية، لعموم قوله ﷺ: «غيروا الشيب ولا تشبهوا باليهود»^(٢).

وقوله ﷺ في حديث أبي ذر - رضى الله عنه -: «خير ما غير به الشيب الحناء والكتم»^(٣). وهو عام في شعر الرأس واللحية.

وأيضاً ما روى أن أبا بكر الصديق رضى الله عنه جاء بأبيه أبى قحافة رضى الله عنه يوم فتح مكة إلى النبي ﷺ فقال النبي ﷺ لأبى بكر: لو أقررت الشيخ في بيته لأتيناها تكرمة لأبى بكر، فأسلم ورأسه ولحيته كالثغامة البيضاء، فقال رسول الله ﷺ: «غيروهما وجنبوه عن السواد»^(٤). وهذا نص في كون اللحية كالرأس وفي المنع عن السواد.

وقال أبو عبيد: الثغامة نبت أبيض الزهر والتمر يشبه بياض الشيب به. وقال ابن الأعرابي: هي شجرة تبيض كأنها الثلج.

(فصل: ويستحب أن يكتحل وترًا)

لما روى أنس بن مالك رضى الله عنه عن النبي ﷺ: «أنه كان يكتحل وترًا»^(٥). واختلف الناس في صفة الوتر في ذلك، فروى في حديث أنس بن مالك رضى الله عنه أن النبي ﷺ كان يكتحل ثلاثاً في اليمنى وميلين في اليسرى^(٦)، وروى في حديث ابن عباس رضى الله عنهما: في كل عين ثلاثاً^(٧).

(فصل: ويدهن غبًا)

وهو أن يفعل ذلك يومًا ويترك يومًا، لما روى أبو هريرة رضى الله عنه أن النبي:

(١) أحمد ٤٧٢/٣.

(٢) الترمذى (١٧٥٢)، والنسائى ١٣٧/٨، وأحمد ١٦٥/١، والصحيحه (٨٣٦).

(٣) سبق تخريجه.

(٤) مسلم في: اللباس: حديث (٧٨)، وأبو داود في: الترجل: ب (١٨)، وأحمد ٤٩٩/٢.

(٥) أحمد ٣٥٤/١، والصحيحه (٦٣٣).

(٦) ابن سعد ١/٢/١٧٠، وشرح السنة ١١٩/١٢.

(٧) أحمد ٣٥٤/١.

ﷺ «نهى أن يترجل الرجل إلا^(١) غباً»^(٢).

والفضيلة في ذلك أن يكون بدهن البنفسج على سائر الأدهان، لما روى أبو هريرة رضى الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «إن فضل دهن البنفسج على سائر الأدهان كفضلي على سائر الناس»^(٣).

(فصل)

ويستحب ألا يخلو الإنسان سفرًا وحضرًا عن سبعة أشياء بعد تقوى الله تعالى والثقة به وهى:

التنظيف والتزيين، والمكحلة، والمشط، والسواك، والمقص، والمدراء: وهى خشبة مدورة الرأس أوفى من شبر يتخذها العرب والصوفية يدرؤون بها عن أنفسهم الأذى كالقمل وغيرها، ويحكون بها الجسد، ويقتلون الدبيب حتى لا يياشروا كل شيء بأيديهم، والسابع: قارورة الدهن، لأنه روى فى حديث عائشة رضى الله عنها: أن النبي ﷺ ما كان يفوته ذلك حضرًا ولا سفرًا^(٤).

(فصل: فيما يكره من الخصال)

يكره الصغير والتصفيق، وفرقة الأصابع فى الصلاة.
ويكره تخريق الثياب فى حق المتواجد عند السماع، ولا يعارض فى ذلك الواجد.
ويكره الأكل على الطريق.
ومد الرجل بين جلسائه، والاتكاء الذى يخرج به عن مستوى الجلوس لأنه تجبر وهوان بالجلساء إلا من العذر.
ويكره إطالة الثياب.
ويكره مضغ العلك لأنه دناءة.
ويكره التشدق بالضحك، والقهقهة ورفع الصوت فى غير حاجة وينبغى أن يكون

(١) قوله: «إلا غباً» أى فى كل أسبوع مرة، كذا روى عن الحسن. وقيل المراد به فى وقت دون وقت. وأصل الغب فى إيراد الإبل: أن ترد الماء يوماً وتدعه يوماً. «نيل الاوطار» ١/ ١٢٣.
(٢) أبو داود (٤١٥٩)، والترمذى (١٧٥٦)، والنسائى ١٣٢/٨، والصحيحة (٥٠١).
(٣) الطبرانى ١٤١/٣، والموضوعات ٦٥/٣، واللائىء ١٤٩/٢.
(٤) تذكرة الموضوعات ص (٤٦).

مشيه معتدلاً، لا يسارع إلى حد يصدّم الماشى، ويتعب نفسه، ولا يخطر بحيث يورثه العجب.

ويكره فى البكاء النحيب والتعداد إلا أن يكون من خوف الله تعالى أو الندم على ما فات من أوقاته ببطالاته، أو انكسار قلبه عند عدم بلوغه إلى درجة لحظها فيبكي حسرة عليها.

ويكره إزالة درنه بحضرة الناس.

ويكره الكلام فى المواضيع المستقدرة كالحمام والخلاء وما أشبه ذلك، وكذلك لا يسلم ولا يرد على مُسلم.

ويكره كشف رأسه بين الناس، وما ليس بعورة مما جرت العادة بستره.

ويحرم كشف العورة.

ويكره أن يقسم بأبيه أو بغير الله فى الجملة، فإن حلف حلف بالله وإلا فليصمت، كذلك جاء فى الأثر عن النبى ﷺ^(١).

(فصل: فى الاستئذان)

ينبغى له إذا قصد باب إنسان أن يسلم فيقول: السلام عليكم، أَدْخِل؟ لما روى «أن رجلاً من بنى عامر استأذن على رسول الله ﷺ وهو فى بيت، فقال: أَلْج؟ فقال النبى ﷺ لخادمه: أخرج إلى هذا وعلمه الاستئذان، فقال له: قل السلام عليكم، أَدْخِل؟ فسمعه الرجل فقال: السلام عليكم، أَدْخِل؟ فأذن له فدخل»^(٢).

ويدير ظهره إلى الباب ولا يبعد، لأنه يمنعه من سماع الجواب، يفعل كذلك ثلاثاً، فإن أجيب فبها وإلا انصرف، إلا أن يغلب على ظنه أنه لم يسمع نداءه لما بينهما من بعد أو شغل، كان له أن يزيد على الثلاث والأصل فى ذلك ما روى أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال: «الاستئذان ثلاث، فإن أذن لك فادخل وإلا فارجع»^(٣).

(١) وهو قوله ﷺ: «من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت».

رواه البخارى ٢٣٥/٣ و ٣٣/٨، ومسلم فى: الإيمان: حديث (٣)، وأحمد ٥٢٠/٢.

(٢) أبو داود (٥١٧٧)، والبيهقى ٣٤٠/٨، وابن أبى شيبه ٤١٩/٨.

(٣) مسلم فى: الأدب: حديث (٣٧:٣٤)، والترمذى (٢٦٩٠).

وسواء في ذلك الأجانب والأقارب المحرمات كالأم وما شاكلها لأن النبي ﷺ لما سأله رجل هل عليّ أن أستأذن على أمي؟ قال: نعم، قال: إني معها في البيت، قال ﷺ: استأذن عليها، قال: إني خادمتها، قال: استأذن عليها، أتحب أن تراها عريانة؟^(١).

فأما زوجته وأمته الجائز له وطؤها فليس عليه الاستئذان في حقهما، لأن أكثر ما في ذلك أن تصادف منكشفة أو منبسطة، وقد أبيح له النظر إلى أبدانهن، ولكن يستحب له أن يحرك نعله أولاً إذا دخل المنزل ليعلم دخوله، نص على ذلك الإمام أحمد في رواية مهنى عنه.

ثم إذا دخل يسلم على أهله ليكثر خير بيته، كما جاء في الأثر^(٢). وسنستوفي ذلك في باب دخول المنزل إن شاء الله تعالى.

ولا يطرق أهله ليلاً لنهي النبي ﷺ أن يطرق الرجل أهله ليلاً^(٣)، وقد فعل ذلك رجلان فوجدا عند أهلهما ما يكرهان.

فإذا أذن له في دار غيره فدخل جلس حيث يأذن له صاحب الدار، وإن كان من أهل الدمة.

وإن فاجأ قوماً وهم على طعامهم فلا يأكل إلا أن يكون صاحب الطعام ممن جرت عادته بالسماحة وطيب القلب بذلك.

(فصل: فيما يستحب فعله بيمينه وما يستحب فعله بشماله)

يستحب له تناول الأشياء بيمينه، والأكل والشرب والمصافحة والبدء بها في الوضوء والانتعال ولبس الثياب، وكذلك يبدأ في الدخول إلى المواضع المباركة كالمساجد والمشاهد والمنازل والدور برجله اليمنى.

وأما الشمال فللفعل الأشياء المستقذرة وإزالة الدرن كالاستنثار والاستنجاء وتنقية الأنف وغسل النجاسات كلها إلا أن يشق عليه ذلك أو يتعذر كالمشلول والمقطوع يساره

(١) البيهقي ٩٧/٧، والموطأ (٩٦٣).

(٢) قد سبقت الإشارة إليه.

(٣) البخاري في: العمرة: ب (١٦)، ومسلم في: الإمارة: حديث (١٨٠ و ١٨٤)، وأحمد ١٧٥/١.

فيفعلها بيمينه، ولا يمشى فى نعل واحد إلا أن يكون ذلك يسيراً بمقدار ما يصلح الأخرى إذا انقطع شسعهما .

وإذا أراد أن يتناول إنساناً توقيعاً أو كتاباً فليقبضه بيمينه .

وإذا مشى مع من هو أعلى منه فى المنزلة والفضل فليمش عن يمينه يجعله كإمامه فى الصلاة، وإن كان دونه فى المنزلة يجعله عن يمينه ويمشى عن يساره وقد قيل: المستحب المشى على اليمين فى الجملة لتخلى اليسار للبزاق وغيره .

* * *

(فصل: فى آداب الأكل والشرب)

ويستحب للأكل أن يسمى الله تعالى عند أكله ويحمده عند فراغه، وكذلك عند الشرب، لأن ذلك أبرك لطعامه وأبعد لشرطانه، لما روى أن أصحاب النبى ﷺ قالوا: «يا رسول الله إنا نأكل ولا نشبع، قال رسول الله ﷺ: فلعلكم تفترون؟ قالوا: نعم، قال ﷺ: فاجتمعوا على طعامكم واذكروا اسم الله تعالى يبارك لكم فيه»^(١).

وعن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما أنه سمع النبى ﷺ يقول: «إذا دخل الرجل بيته فذكر الله تعالى عند دخوله وعند طعامه قال الشيطان لأولاده لا مبيت لكم ولا عشاء، وإذا دخل فلم يذكر اسم الله عند دخوله قال الشيطان: أدركتم المبيت، فإذا لم يذكر اسم الله عند طعامه قال: أدركتم المبيت والعشاء»^(٢).

وعن حذيفة^(٣) رضى الله عنه أنه قال: كنا إذا حضرنا مع رسول الله ﷺ طعاماً لم يضع أحدنا يده حتى يبدأ رسول الله ﷺ، وإنا حضرنا معه طعاماً فجاء أعرابى كأنما يدفع، فذهب ليضع يده فى الطعام، فأخذ رسول الله ﷺ بيده، ثم جاءت جارية كأنما تدفع، فذهبت لتضع يدها فى الطعام فأخذ رسول الله ﷺ بيدها، وقال: إن الشيطان

(١) أبو داود (٣٧٦٤)، ودلائل النبوة ٦/١١٩ .

(٢) مسلم فى: الأشربة: حديث (١٠٣)، وأبو داود (٣٧٦٥)، وابن ماجه (٣٨٨٧)، وأحمد ٣/٣٤٦ .

(٣) حذيفة هو: ابن اليمان أبو عبد الله العيسى الأنصارى الأشهل حليفهم . أسلم وأبوه وهاجروا، وقد شهد أحدًا، وقتل أبوه يومئذ على أيدي المسلمين غلظًا . مات سنة (٣٦) . له ترجمة فى: الرياض ص (٤٩ - ٥٠) .

يستحل الطعام الذى لم يذكر اسم الله عليه، وإنه جاء بهذا الأعرابى يستحل به فأخذت بيده، وجاء بهذه الجارية يستحل بها فأخذت بيدها، فوالذى نفسى بيده إن يده فى يدي مع أيديهما^(١).

وإن نسى أن يذكر اسم الله تعالى عند أوله فليقل: بسم الله أوله وآخره، هكذا روى فى حديث عائشة رضى الله عنها عن النبى ﷺ^(٢).

ويستحب أن يبدأ بالملح ويختم به.

ويتناول اللقمة بيمينه ويصغرها ويجيد مضغها ويطيل بلعها.

ويأكل مما يليه إذا كان نوعاً واحداً، وإن كان أنواعاً فلا بأس أن يجيل يده فى القصعة، وكذلك إذا كان ثماراً أو فاكهة، ولا يأكل من ذروة الطعام ووسطه بل يأكل من جوانبه.

وإذا كان ثريداً أكل بثلاث أصابع ولعقها^(٣).

ولا ينفخ فى الطعام ولا الشراب، ولا يتنفس فى إنائه.

وإذا ضاق نفسه نحى القدح عن فيه، فإذا تنفس أعاده إليه.

ويكره الاتكاء فى الأكل.

ويجوز الأكل والشرب قائماً، وقيل: يكره، والجلوس أحب.

وإذا أراد دفع الإناء إلى أحد من جلسائه بدأ بمن عن يمينه.

لا يجوز الأكل والشرب فى أوانى الذهب والفضة ولا المضرب بهما إذا كان ذلك كثيراً.

وإذا قدم بين يديه فى شئ من ذلك طعام رفعه من الإناء إلى الخبز أو إناء غير ذلك الجنس ثم أكله.

والإنكار على من أحضره واجب.

وكذلك الحكم فى البخور فى مداخن الذهب والفضة.

(١) مسلم فى: الأشربة: حديث (١٠٢)، وأحمد ٣٨٣/٥.

(٢) الترمذى (١٨٥٨)، وقال: حسن صحيح.

(٣) رواه مسلم فى: الأشربة: حديث (١٢٩ و ١٣٠)، وأحمد ٢٢١/١ و ٣٤١.

وكذلك الحكم فى ماء الورد من المراش المتخذة من ذلك، فيحرم عليه الحضور فى تلك البقعة، ويتعين عليه الإنكار والقيام عن ذلك المجلس.

ويكون إنكاره برفق بأن يقول: تمام سروركم أن تتجملوا بما أباحتها الشريعة وجعلته حلالاً، لا بما حرّمته وحظرته، ولا خير فى لذة تؤول إلى معصية، اذكروا رحمكم الله قول النبى ﷺ: «من شرب فى إناء ذهب أو فضة أو إناء فيه شئ من ذلك فإنما يجرجر فى بطنه نار جهنم»^(١).

وإذا حصلت اللقمة فى فيه فلا يخرجها منه إلا أن يضطر إلى ذلك لشرقة أو حرارة يتضرر بها.

وإذا عطس على طعامه خمر وجهه واحتاط بستره لأجل الطعام.

وإذا كان على رأسه إنسان قائم أذن له بالجلوس، فإن أبى عليه أو قام مملوكه أو غلامه لقضاء حاجته وسقيه الماء أخذ من أطايب الطعام فلقمه.

ويستحب مسح الإناء من فضلة الطعام ولقط الفتات من جوانب الإناء والطبق.

ويستحب أن يياسط الإخوان بالحديث الطيب، والحكايات التى تليق بالحال، إذا كانوا منقبضين.

وينبغى أن يأكل مع أبناء الدنيا بالأدب، ومع الفقراء بالإيثار، ومع الإخوان بالانبساط، ومع العلماء بالتعلم والاتباع.

وإذا أكل مع ضرير أعلمه بما بين يديه فرمما فاته أطايب الطعام لعماء.

ويستحب الإجابة إلى وليمة العرس، فإن أحب أن يأكل أكل وإلا دعا وانصرف، لما روى جابر بن عبد الله رضى الله عنهما أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من دعى فليجب فإن شاء طعم وإن شاء ترك»^(٢).

وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «من دعى فلم يُجب فقد عصا الله تعالى ورسوله، ومن دخل على غير دعوة دخل سارقاً وخرج مُغبراً»^(٣).

(١) مسلم فى: اللباس: حديث (٢)، وأحمد ٣٠٢/٦ و ٣٠٤، والبيهقى ١٤٦/٤.

(٢) أبو داود فى: الأطعمة: ب (١)، والخلية ١٦٧/٧.

(٣) أبو داود فى: الأطعمة: ب (١)، والبيهقى ٦٨/٧.

هذا الذى ذكرناه إذا كان ذلك خاليًا عن المنكر، فإن حضره منكر كالطبل والمزمار والعود والنأى والشيز والشبابة والرباب والمغانى والطناير والجعران التى يلعب بها الترك لا يجلس هناك، لأن جميع ذلك محرم.

وأما الدف فيجوز استعماله فى النكاح.

وسماع القول بالقصب، والرقص مكروه، لما فسر بعض المفسرين قوله عز وجل: ﴿ومن الناس من يشتري لهو الحديث﴾ [لقمان: ٦] فقال هو الغناء والشعر.

وجاء فى بعض الأحاديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الغناء ينبت التفاق فى القلب كما ينبت السيل البقل»^(١).

وستل الشبلوى رحمه الله عن الغناء فقال: أحق هو؟ قيل: لا، قال: ﴿فماذا بعد الحق إلا الضلال﴾ [يونس: ٣٢].

ثم يكفى فى كراهته، ما فى ذلك من ثوران الطبع وهيجان الشهوة والميل إلى النساء، وأباطيل النفوس ورعوناتها والطرب والسخف والدناءة، والاشتغال بذكر الله تعالى أطيب وأسلم لمن آمن بالله واليوم الآخر.

ودعوة الختان ليست مستحبة، ولا على من دعى إليها أن يجيب.

ويكره التقاط النار لأنه يشبه النهبة، وفيه سخف ودناءة.

ويكره حضور طعام الولائم ماعدا العرس إذا كان على الصفة التى وصفها رسول الله ﷺ يمنع منه المحتاج ويحضره المستغنى عنه^(٢).

ويكره لأهل الفضل والعلم فى الجملة التسرع إلى إجابة الطعام والتسامح بذلك لما فيه من الذلة والدناءة والشره، لا سيما إذا كان حاكمًا، وقيل: ما وضع أحد يده فى قصعة أحد إلا ذل.

ويحرم التطفل على طعام الناس وهو دخوله مع المدعوين من غير أن يدعى، وهو ضرب من الوقاحة والغصب، ففيه إثم:

أحدهما: الأكل لما لم يدع إليه.

(١) البيهقى ٢٢٣/١٠، والإتحاف ٥٢٥/٦.

(٢) لفظ الحديث: «شر الطعام طعام الوليمة، يدعى إليها الأغنياء، ويدفع عنها الفقراء».

رواه مسلم فى: النكاح: حديث (١٠٨: ١١٠)، وأحمد ٢٦٧/٢ و ٤٠٥.

والآخر: دخوله إلى منزل الغير بغير إذنه، والنظر إلى أسرارهِ والتضييق على من حضره.

ومن الأدب أن لا يكثر النظر في وجوه الأكلين لأنه مما يحشمهم. ولا يتكلم على الطعام بما يستقذره الناس من الكلام، ولا بما يضحكهم خوفاً عليهم من الشر، ولا بما يحزنهم لثلاً ينغص على الأكلين أكلهم.

ويستحب غسل اليد قبل الطعام وبعده، وقيل: يكره قبل الطعام ويستحب بعده. ويكره أكل البقلة الخبيثة، وهى الثوم والبصل والكراث لكرهه ريحه، وقد روى عن النبى ﷺ أنه قال: «من أكل من هذه البقلة الخبيثة فلا يقربن مصلانا»^(١).

وكثرة الأكل بحيث يخاف منه التخممة مكروهة، وقد روى عن النبى ﷺ أنه قال: «ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه»^(٢).

ويكره لغير صاحب الطعام من الضيف أن يلقم من حضر معه على الطبق إلا بإذن صاحب الطعام، لأنه يأكل على ملك صاحبه على وجه الإباحة، وليس ذلك بتمليك، ولهذا اختلف الناس فى الوقت الذى يحصل فيه الطعام ملكاً للأكل:

فقال قوم: إذا حصل فى فيه واستهلك.

وقال آخرون: لا يملكه بل يأكله على ملك مالكة.

وإذا قدم الطعام فلا يحتاج بعد التقديم إلى إذن إذا كان قد جرت العادة فى ذلك البلد للأكل كذلك، فيكون العرف إذنًا.

ويكره إخراج شيء من فيه ورده إلى القصعة.

ويكره التخلل على الطعام.

ولا يمسح يده بالخبز ولا يستبذله.

ولا يخلط طعاماً بطعام يعنى ألوان الطبايح، لأنه قد يكره ذلك طباع كثير من الناس، وإن كانت نفسه تميل إليه فيترك ذلك لأجلهم.

ولا يجوز له ذم الطعام، ولا لصاحب الطعام استحسانه ومدحه ولا تقويمه لأنه

(١) مسلم فى: المساجد: حديث (٦٩ و ٧٤)، وأحمد ٢٥٢/٤، والبيهقى ٧٥/٣ و ٧٦.

(٢) الترمذى (٢٣٨٠)، وابن ماجه (٣٣٤٩)، وأحمد ١٣٢/٤.

دناءة، وقد روى أن النبي ﷺ ما مدح طعاماً ولا ذمّه^(١).

ولا يرفع يده حتى يرفعوا أيديهم، إلا أن يعلم منهم الانبساط إليه فلا يتكلف ذلك. ويستحب أن يجعل ماء الأيدي في طست واحد، لما روى في الخبر «لا تبددوا ييد الله شملكم»^(٢).

وروى أن النبي ﷺ نهى أن يرفع الطست حتى يطف، يعني يمتلىء. ولا يغسل يده بما يطعم من دقيق الباقلاء والعدس والهرطمان وغير ذلك، ويجوز بالنخالة.

ولا يقرن بين التمرتين لنهي ﷺ عن ذلك، وقيل: لا يكره ذلك إن كان وحده أو كان هو صاحب الطعام.

ولا يتخير الأطعمة على صاحب الدار بل يقنع بما قدمه، لأن ذلك يحمله على التكلف، وقد قال ﷺ: «أنا وأتقياء أمتي براء من التكلف»^(٣). فإن استدعى منه صاحب الدار التشهي عليه كان له أن يذكر شهوته.

ويكره له رد الهدية وإن قلّت إذا كانت حلالاً طيبة، واجتهد في المكافأة أو الدعاء له.

ومن سقط في طعامه أو شرابه شيء فلا يخلو إما أن يكون له نفس سائلة ما عدا السمك فيكون الطعام نجساً، ويحرم أكله إذا كان مائعاً، وإن كان جامداً رفعه وما حوله.

وإن كان مما لا نفس له سائلة: فإن كان من ذوات السموم لم يأكله، ويحرم الطعام لأجل الضرر به لا لعينه كالخية والعقرب، وإن كان ذباباً غمسه في الطعام حتى يغوص جناحه ثم أخرجه، وإن مات فإن الطعام طاهر يأكله، لما روى أن النبي ﷺ قال: «إذا وقع الذباب في إناء أحدكم فليغمسه فيه، فإن في أحد جناحيه داء وفي الآخر شفاء وأنه يتقى بالذى فيه الداء»^(٤).

(١) أبو داود (٣٧٦٣)، والترمذي (٢٠٣١)، وابن ماجه (٣٢٥٩).

(٢) المغنى عن حمل الأسفار ٨/٢.

(٣) التذكرة (٦٧)، والفوائد (٨٦).

(٤) البخارى ١٨١/٧، وأبو داود (٣٨٤٤)، والنسائي ١٧٩/٧، وأحمد ٢٢٩/٢.

ويستحب مص الشراب، ولا يكرهه كرعاً^(١)، ويقطعه ثلاث دفعات للنفس^(٢).

ولا يتنفس في الإناء.

ويسمى على أوله ويحمد الله في آخره.

والاختصار لهذه الجملة أن نقول هي اثنتا عشرة خصلة:

أربع منها فريضة وأربع سنّة وأربع آداب.

أما الفريضة: فالمعرفة بما يأكله من أين هو، والتسمية، والرضا، والشكر.

وأما السنّة: فالجلوس على الرجل اليسرى، والأكل بثلاث أصابع، ولعق الأصابع،

والأكل مما يليه.

وأما الآداب: فالمضغ الشديد وتصغير اللقم، وقلة النظر إلى وجوه القوم، وألا

يفرش المائدة بالخبز ويضع فوقه الأدم، وألا يأكل متكئاً ولا مضطجعاً ولا منبطحاً على

بطنه.

(فصل)

فإذا أفطر عند غيره قال:

أفطر عندكم الصائمون، وأكل طعامكم الأبرار، وتنزلت عليكم الرحمة، وصلت عليكم الملائكة^(٣)، الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا وجعلنا مسلمين^(٤)، وهدانا من الضلالة وفضلنا على كثير من خلقه تفضيلاً، اللهم اشبع جياح أمة محمد ﷺ، واكس عاريها، وعاف مرضاها، ورد غائبها، واجمع شمل أهل الدار، وادر أرزاقهم، واجعل دخولنا بركة، وخروجنا مغفرة، وآتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار برحمتك يا أرحم الراحمين.

(١) الإنحاف ٢٢١/٥، والكنز (٤١٠٥٠).

(٢) ويدل له قول النبي ﷺ: «لا تشربوا واحداً كشرب البعير، ولكن اشربوا مثني وثلاث».

الترمذي (١٨٨٥)، وشرح السنة ٣٧٥/١١.

(٣) أبو داود (٣٨٥٤)، وابن ماجه (١٧٤٧)، وأحمد ١١٨/٣.

(٤) مسلم في: الذكر والدعاء: حديث (٦٤)، وأبو داود في: الأدب: ب (١٠٦)، والترمذي

(٣٣٩٦)، وأحمد ٣٢/٣.

(فصل: في آداب الحمام)

بناء الحمام ويبيعه وشرائه وكراؤه مكروه في الجملة، لما فيه من مشاهدة عورات الناس، وقد روى عن علي بن أبي طالب رضى الله عنه أنه قال: بشس البيت الحمام ينزع من أهله الحياء ولا يقرأ فيه القرآن.

وأما دخوله فالأولى ألا يدخله إذا وجد من ذلك بدأ، لما ورد عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أنه كان يكره الحمام، ويعلل بأنه من رقيق العيش. وعن الحسن^(١) وابن سيرين أنهما كانا لا يدخلان الحمام.

وقال عبد الله بن الإمام أحمد رحمهما الله: ما رأيت أبى قط دخل الحمام. وإن كان به حاجة إلى ذلك ودعته الضرورة جاز له دخوله مستتراً بمئزر غاضاً بصره عن عورات الناس.

وإن أمكنه أن يخلى الحمام له فيدخله بالليل أو وقتاً يقل ربونه بالنهار فلا بأس. وقد سئل الإمام أحمد رحمه الله عن ذلك فقال: إن كنت تعلم أن كل من في الحمام عليه إزار فادخله وإلا فلا تدخله.

وقد روت عائشة رضى الله عنها عن النبي ﷺ أنه قال: «بشس البيت الحمام بيت لا يستر وماؤه لا يطهر»^(٢).

وقالت عائشة رضى الله عنها أيضاً: «ما يسر عائشة أنها داخلته ولها مثل أحد ذهباً».

وقال ﷺ في حديث جابر بن عبد الله رضى الله عنهما: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدخل الحمام إلا بمئزر»^(٣).

وأما النساء فلئنما يجوز لهن دخوله بالشرائط التي ذكرناها في حق الرجال، ووجود العذر والحاجة كالمرض والحيض والنفاس، لما روى ابن عمر رضى الله عنهما عن النبي

(١) الحسن هو: ابن أبي الحسن أبو سعيد البصرى، مولى زيد بن ثابت، ولد في زمن عمر، وشهد الدار، وكان إماماً كبير الشأن، رأساً في العلم والعمل. مات سنة (١١٠). له ترجمة في: حلية الأولياء ٢/ ١٣١، ووفيات الأعيان ١/ ٣٥٤.

(٢) الإتحاف ٢/ ٤٠٠، والعلل المتناهية، وابن عدى ٧/ ٢٦٧٩.

(٣) الترمذى (٢٨٠١) وقال: حسن غريب، والنسائى ١/ ١٩٨، والطبرانى ١١/ ١٩١.

ﷺ أنه قال: «ستفتح عليكم أرض العجم، وستجدون بيوتاً يقال لها الحمام، فلا يدخلها الرجال إلا بإزار، وامنعوا منها النساء إلا مريضة أو نفساء»^(١).

وإذا دخل الحمام فلا يسلم ولا يقرأ القرآن، لما تقدم من حديث على رضي الله عنه.

(فصل: في النهي عن التعري في الجملة وفي حال الغسل)

روى أبو داود^(٢) بإسناده عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده قال: قلت يا رسول الله عوراتنا ما نأتي منها وما نذر؟ قال: احفظ عورتك إلا من زوجتك أو ما ملكت يمينك، قال: قلت: يا رسول الله إذا كان القوم بعضهم في بعض قال: إن استطعت ألا يرينها أحدٌ فلا يرينها، قال: قلت: يا رسول الله إذا كان أحدنا خالياً؟ قال: الله أحقُّ أن يُستَحْيَا منه من الناس».

وروى أبو داود^(٣) بإسناده عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لا ينظر الرجل إلى عرية الرجل، ولا تنظر المرأة إلى عرية المرأة، ولا يفضي الرجل إلى الرجل في ثوب، ولا تفضي المرأة إلى المرأة في ثوب».

وأما حالة الغسل في موضع خال لا يراه أحد، فيكره له أن يغتسل بلا مثزر، لما روى أبو داود بإسناده عن عطاء^(٤) عن يعلى بن أمية أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً يغتسل بالزار بلا إزار، فصعد المنبر فحمد الله تعالى وأثنى عليه وقال: «إن الله حييٌ ستير يحب الستر والحياء فإذا اغتسل أحدكم فليستتر»^(٥).

وأما إن دخل الماء للغسل أو لغيره فيكره أيضاً بلا مثزر، لأن للماء سكناً لما روى جابر بن عبد الله رضي الله عنهما عن النبي ﷺ «أنه نهى أن يدخل الرجل الماء بلا مثزر»^(٦).

(١) أبو داود في: الحمام: ب (٣)، والترمذي في: الأدب: ب (٤٣)، وابن ماجه في: الأدب: ب (٣٨)، وأحمد ٣/٣٣٩.

(٢) رقم (٤٠١٧)، والترمذي (٢٧٩٤)، وابن ماجه (١٩٢٠)، وأحمد ٣/٥ و ٤.

(٣) رقم (٤٠١٨)، ومسلم في: الحيض: حديث (٧٤)، والترمذي (٢٧٩٣).

(٤) عطاء هو: ابن أبي رباح أسلم أبو محمد القرشي مولا هم المكي الأسود. قال أبو حنيفة: ما رأيت أحداً أفضل من عطاء. مات سنة (١١٤). له ترجمة في: تذكرة الحفاظ ١/٩٨/٩٠.

(٥) أبو داود (٤٠١٢)، وأحمد ٤/٢٢٤.

(٦) الحاكم ١/١٦٢، وصححه على شرطهما، وقال الذهبي على شرط مسلم.

وعن الحسن رحمه الله أنه قال: «إن للماء سكائًا، وإن أحق من استتر من مكانه لنحن».

(فصل) وقد رخص الإمام أحمد رحمه الله في ذلك في رواية أخرى وأنه لا يكره ذلك، لأنه سئل عن رجل كان عند نهر ليس يراه أحد، قال: أرجو. ومعنى ذلك أنه لا يكون به بأس. والأولى والأصح: ما تقدم من النهي.

(فصل: في لبس الخاتم واتخاذ)

عن أبي داود^(١) رحمه الله بإسناده عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: «أراد رسول الله ﷺ أن يكتب إلى بعض الأعاجم فقليل له: إنهم لا يقرؤون كتابًا إلا بخاتم، فاتخذ خاتمًا من فضة، ونقش فيه محمد رسول الله». وعن أنس رضى الله عنه أنه قال: «كان خاتم رسول الله ﷺ من فضة كله فصه منه»^(٢).

وفي لفظ عن أنس رضى الله عنه قال: «كان خاتم رسول الله ﷺ من ورق فصه حبشي»^(٣).

وروى أبو داود^(٤) بإسناده عن نافع عن ابن عمر رضى الله عنهما قال: «اتخذ رسول الله ﷺ خاتمًا من ذهب وجعل فصه مما يلي بطن كفه، ونقش فيه: محمد رسول الله، فاتخذ الناس خواتم الذهب فلما رأهم قد اتخذوها رمى به وقال: لا ألبسه أبدًا، ثم اتخذ خاتمًا من فضة نقش فيه محمد رسول الله، ثم لبس الخاتم بعده أبو بكر، ثم لبسه بعد أبي بكر عمر، ثم لبسه عثمان حتى وقع في بئر أريس».

(١) في كتاب الخاتم: حديث (٤٢١٤).

(٢) البخارى ٢٠١/٧، ومسلم فى اللباس: حديث (٦١)، وأبو داود فى: الخاتم: ب (١)، والترمذى (١٧٤٠).

(٣) انظر الحديث السابق.

(٤) رقم (٤٢١٨)، والبخارى ٢٠١/٧، ومسلم فى: اللباس: حديث (٥٣)، وأحمد ٧٢/٢.

(فصل) ويكره اتخاذ من الحديد والشبه، لما روى أبو داود^(١) بإسناده عن عبد الله بن بريدة عن أبيه رضى الله عنه قال: «إن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ وعليه خاتم من شَبَّه، فقال له: ما لى أجد منك ريح الأصنام فطرحة، ثم جاء وعليه خاتم من حديد، فقال: ما لى أرى عليك حلية أهل النار فطرحة، فقال: يا رسول الله من أى شيء اتخذته؟ قال ﷺ: اتخذته من ورق ولا تتمه مثقالاً».

(فصل) ويكره التختم فى الوسطى والسبابة، لما روى أن النبى ﷺ نهى علياً رضى الله عنه عن ذلك^(٢).

(فصل) والاختيار التختم فى اليسرى وفى الخنصر، لما روى أبو داود^(٣) رحمه الله بإسناده عن نافع عن ابن عمر رضى الله عنهما أن النبى ﷺ كان يتختم فى يساره، وكان فسه فى باطن كفه. وروى ذلك عن أكثر السلف الصالح، ولأن خلاف ذلك عادة وشعار المبتدعة، ولأن المستحب أن يكون تناول الأشياء باليمين، لتوضع بالشمال، وفى ذلك صيانة للخاتم وصيانة للمكتوب عليه من الأسماء والحروف.

وقد روى عن على رضى الله عنه أن النبى ﷺ كان يتختم فى يمينه^(٤) فعلى هذا اليمين واليسار سواء، والاختيار الأول.

* * *

(فصل: فى آداب الخلاء والاستنجاء)

إذا أراد دخول الخلاء نحى عنه ما كان فيه ذكر الله عز وجل كالحاتم والتعويد وغيرهما.

ويقدم رجله اليسرى ويؤخر اليمنى ويقول: بسم الله أعوذ بالله من الخبث والخبائث ومن الرجس النجس الشيطان الرجيم^(٥).

لما روى عن النبى ﷺ أنه قال: «إن هذه الحشوش^(٦) محتضرة، فاستعيذوا بالله من

(١) فى الخاتم: ب (٤)، والترمذى (١٧٨٥)، والنسائى فى: الزينة: ب (٤٣).

(٢) ابن ماجه فى: اللباس: حديث (٣٦٤٨).

(٣) رقم (٤٢٢٧)، وشرح السنة ٦٩/١٢.

(٤) أبو داود (٤٢٢٦)، والترمذى (١٧٤٤)، وابن ماجه (٣٦٤٧)، وأحمد ٢٠٤/١ و ٢٠٥.

(٥) البخارى ٤٨/١، وابن ماجه (٢٩٦)، والترمذى (٥ و ٦)، وأحمد ٩٩/٣.

(٦) قوله: «الحشوش» يعنى: الكُفّ ومواضع قضاء الحاجة. الواحد: حَشَّ بالفتح. وأصله من =

الشيطان، وليقل أحدكم أعوذ بالله من الرجس النجس الخبيث الشيطان الرجيم»^(١). ويكون مغطى الرأس مستتراً، ولا يرفع ثوبه حتى يدنو من الأرض، ويكون اعتماده على رجله اليسرى؛ لأنه أسهل لخروج الخارج، ولا يتكلم ولا يرد على من يسلم عليه، ولا يجيب متكلمًا، ويحمد الله في قلبه عند العطاس، ولا يرفع رأسه إلى السماء، ولا يضحك مما يخرج منه ولا من غيره، ويبعد عن الناس، ويهيئ موضعًا مستقلاً رخوًا لبوله لئلا يترشش عليه، ولا يرى عورته أحدًا، فإن كان الموضع صلبًا أو مهب الريح ألصق رأس ذكره بالأرض، وإن كان في الصحراء لم يستقبل القبلة ولم يستدبرها بل يشرق أو يغرب كما جاء في الخبر. ولا يستقبل الشمس والقمر، ولا ييل في حجر، ولا تحت شجرة مثمرة، ولا غير مثمرة لأنه قد يستظل بها الناس فتتلوث ثيابهم، وقد يسقط من ثمرتها فيتنجس، ولا في طريق، ولا في مشرعة نهر، ولا في فناء حائط لأنه بذلك يستحق اللعنة كما ورد في الخبر.

ولا يذكر الله في موضعه بالقرآن ولا بغيره تنزيهاً لاسمه عز وجل.

ولا يزيد على بسم الله، والتعوذ من الشيطان على ما ذكرنا.

فإذا فرغ قال: «الحمد لله الذي أذهب عني الأذى وعافاني، غفرانك»^(٢). ثم يقوم عن موضعه إلى موضع طاهر، ولا يستنجي هناك لئلا تتلوث يده بالنجاسة، أو يرش الماء على بدنه وثيابه، ثم ينظر فإن كان الخارج لم ينتشر عن المخرج إلا بمقدار ما جرت العادة به كان مخيراً بين الاستجمار بجامد وبين الاستنجاء بالماء ! فإن اختار الجامد فالاختيار الحجر، وعدده ثلاثة أحجار^(٣) إن كان لم يستجمر بهن أحد من قبل، طاهرة فيأخذ حجراً منها بيمينه، فيبدأ بالقبل بعد أن يمسح أصل ذكره إلى رأسه، وينثره ثلاثاً بيده اليسار متنحنحاً ليتحقق استفراغ البول بذلك فهو الاستبراء.

ويأخذ ذكره بشماله، ويمده على الحجر الذي في يمينه فيمسحه عليه، حتى يرى موضع المسح جافاً، يفعل كذلك بثلاثة أحجار، وإن لم يقدر على الأحجار فبثلاث

= الحش: البستان؛ لأنهم كانوا كثيراً ما يتغوطون في البساتين. «النهاية» ١/ ٣٩٠.

(١) أبو داود (٦)، وابن ماجه (٢٩٦)، وأحمد ٣٦٩/٤، والصحيحه (١٠٧٠).

(٢) ابن ماجه (٣٠١)، والإرواء ٩٢/١.

(٣) البخارى فى: الوضوء: ب (٢١)، ومسلم فى: الطهارة: حديث (٥٧، ٥٨)، وأحمد

٣٨٨/١.

خرق أو خرف أو مدر أو ثلاث حثيات من تراب، أو يمسحه على الأرض أو الحائط عند عدم هذه الأشياء، حتى يرى الجفافة والنشافة عن أثر كل مسحة، فإذا فعل ذلك فقد سقط عنه حكم القبل.

وينبغي أن يحترز عن مدّ الذكر في الاستبراء من موضع الحشفة؛ لأنه قد يبقى البول في قصبة الإحليل ثم يخرج بعد فراغه من الوضوء فيبطل وضوؤه، ولهذا شرع في حقه أن يخطو خطوات قبل الاستبراء والتنحج خوفاً من بقاء شيء من البول في الإحليل.

وأما الدبر فيأخذ الحجر بشماله ويمسحه على المسربة من مقدمها إلى أن يبلغ مؤخرها، ثم يرمى به، ثم يأخذ الحجر الثاني ويبدأ به من مؤخرها فيمسحها إلى أن يبلغ مقدمها ثم يرمى به، ثم يأخذ الحجر الثالث فيديره حول المسربة فيرمى به، وقد حصل بذلك الإجزاء.

فإن لم يتقَ بذلك بأن رأى على الحجر الأخير نداوة زاد إلى خمسة، وإن لم يتقَ بذلك زاد إلى سبعة أو تسعة، ولا يقطعه إلا على وتر. وإن نقي بحجر واحد أو باثنين زاد إلى ثلاثة، لأن الشرع بذلك ورد.

وقد ذكر للاستجمار صفة أخرى، وهو أن يأخذ الحجر بشماله فيضعه على مقدم صفحته اليمنى، ثم يمر به إلى مؤخرها، ثم يديره إلى اليسرى فيمره عليها إلى مؤخرها حتى يبلغ الموضع الذي بدأ منه، ويأخذ حجراً آخر فيمره من مقدم صفحته اليسرى كذلك، ثم يأخذ حجراً آخر فيمسح به الوسط. والكل جائز فقد جاء في الأثر أن رجلاً قال لبعض الصحابة من الأعراب وقد خاصمه: «لا أحسبك أنك تحسن الخراءة»، فقال: بلى وأبيك إني بها لحاذق. قال: فصفها لي، قال: أبعد الأثر، وأعد المدر، واستقبل الشيخ، واستدبر الريح، واقعى إقعاء الطبى، واجفل إجفال النعام.

أما الشيخ: فهو نبت طيب الريح يكون بالبادية، والإقعاء هاهنا: الاستيفاز على صدور قدميه، والاجفال: ارتفاع عجزه عن الأرض.

(فصل) والاستنجاء بالماء أن يمسك قضيبه بيده اليسرى، وي طرح الماء باليمنى فيغسله سبعاً بعد الاستبراء والتنحج وفضل إزعاج على ما ذكرناه.

وقد شبه فقهاء المدينة رحمهم الله الذكر بالضرع، فلا يزال يخرج منه الشيء بعد الشيء ما دام الرجل يمدّه، فإذا وقع الماء على الذكر انقطع البول.

وأما الدبر فببشر المحل بيده اليسرى، ويصب الماء باليمين فيتابع صبه ويسترخى قليلاً قليلاً، ويجوز ذلك الموضع بيده حتى يتيقن نظافته وينقى.

ولا يلزمه غسل باطن المخرجين، لأن ذلك مما عفى عنه فى الشرع. وعليه الاستنجاء من الريح.

والفضيلة فى الجمع بين الاستجمار بالجامد وبين الاستنجاء بالماء، فلن اقتصر على الحجر أجزاءه، لكن استعمال الماء أولى فى الجملة، لأنه قيل: إذا لم يستنج بالماء اعتراه الوسواس، ولهذا قيل: إن قوماً من الشعراء لا يستنجون بالماء، لأن كلام الخنا والفحش يجيء بذلك، فهو سببه.

نعوذ بالله من كلام يثمره القدر والنتن.

(فصل) وأما إذا انتشرت النجاسة إلى معظم حشفته فى القبل، والصفحتين فى الدبر لم يجزه غير الماء، لأنها خرجت من محل الترخيص، فصارت كالنجاسة التى على بقية البدن من الفخذ والصدر وغيرهما، فلا تزول إلا بالماء.

(فصل) وصفة ما يجوز به الاستجمار أن يكون جامداً طاهراً منقياً غير مطعون لا حرمة له وغير متصل بحيوان.

ولا يجوز بالروث والرمة، لأنهما من طعام الجن^(١).

ولا بشئ لزج يلطخ، فلا ينقى كالحمة والزجاجة والحصى الملساء.

(فصل) ويجب ما ذكرنا من الاستنجاء لجميع ما يخرج من السبيلين سوى الريح وذلك كالعائط والبول والدود والحصى والدم والمدة والشعر.

وأما الذكر فالخارج منه خمسة أشياء:

أحدها: البول.

والثانى: المذى وهو ماء أبيض رقيق يخرج عند اللذة وعند الملاعبة والتذكاء، وحكمه حكم البول وزيادة غسل الذكر والأنثيين، كما قال النبى ﷺ فى حديث على رضى الله عنه: «ذلك ماء الفحل، ولكل فحل ماء»^(٢). فليغسل ذكره وأنثيه وليتوضأ وضوءه للصلاة.

(١) النسائى فى: الطهارة: ب (٣٥)، وأبو داود فى: الطهارة: ب (٤١)، وأحمد ٢/٢٤٧.

(٢) أحمد ١/١٤٥.

والثالث: الودى وهو ماء أبيض خائر يخرج بأثر البول فحكمه حكم البول فقط.
والرابع: المنى وهو الماء الأبيض الدافق عند اللذة الكبرى بالجماع أو الاحتلام. وقد يكون أصفر عند قوة الرجل، وقد يكون أحمر عند كثرة الجماع، وقد يكون رقيقاً عند ضعف البنية والقوة. ويعلم بالرائحة كرائحة الطلع والعجين، وهو طاهر فى أشهر الروايتين. وموجبه غسل جميع البدن. وماء المرأة رقيق أصفر.
والخامس: الريح يخرج من القبل نادراً كما يخرج من الدبر.
(فصل: فى كيفية الطهارة الكبرى)

وهى على ضربين: كاملة ومجزئة.

أما الكاملة فهى أن يأتى بالنية وهو اعتقاده رفع الحدث الأكبر أو الجنابة، فإن تلفظ به مع اعتقاده بقلبه كان أفضل. ويسمى عند أخذ الماء، ويغسل يديه ثلاثاً، ويغسل ما به من الأذى، ثم يتوضأ وضوءاً كاملاً.

ويؤخر غسل قدميه، ويحشى على رأسه ثلاث حشيات من الماء، يروى بها أصول شعره، ويفيض الماء على سائر جسده ثلاثاً، ويدلك بدنه بيديه ويتتبع المغابن^(١) وغضون البدن، ويتحقق وصول الماء إليهما، لقوله ﷺ: «خللوا الشعر، وأنقوا البشرة، فإن تحت كل شعرة جنابة»^(٢).

ويبدأ بشقه الأيمن، ثم ينتقل من موضع غسله فيغسل قدميه، فإن سلم فى خلال ذلك من نواقض الطهارة الصغرى جاز له أن يصلى بهذه الطهارة، لأننا نحكم له برفع الحدثين جميعاً، وإلا أحدث للصلاة وضوءاً. والأصل فى جميع ذلك ما روى عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت: «كان رسول الله ﷺ إذا أراد الغسل من الجنابة يغسل يديه ثلاثاً، ثم يأخذ يمينه فيصب على شماله، ثم يتمضمض ويستنشق ثلاثاً، ويغسل وجهه ثلاثاً، وذراعيه ثلاثاً، ثم يصب على رأسه الماء ثلاثاً، ثم يغتسل، فإذا خرج غسل قدميه»^(٣).

(١) قوله: «المغابن»، الأرفاع، وهى بواطن الأفخاذ عند الحوالب، جمع «مغبن». من «غبن الثوب» إذا ثناه وعطفه، وهى معاطف الجلد أيضاً. «النهاية» ٣/٣٤١.

(٢) أبو داود فى: الطهارة: حديث (٢٤٨) من طريق الحارث بن وجيه، وقال: حديثه منكرو، وهو ضعيف، وأحمد ١/٩٤.

(٣) البخارى بنحوه: حديث (٢٤٨).

وأما المجزئ فهو أن يغسل فرجه، وينوى ويسمى ويعم بدنه بالغسل مع المضمضة والاستنشاق، لأنهما واجبتان، وفي الصغرى روايتان أصحهما وجوبهما فيها أيضاً. ولا يجوز له أن يصلى بهذا الغسل إلا أن ينوى به الغسل والوضوء، ويتداخل بقية أفعال الوضوء في الغسل للعذر بالنية.

وإذا عدت النية لم يحصل له الوضوء، فلا تصح الصلاة، وقد قال النبي ﷺ: «لا صلاة لمن لا وضوء له»^(١). بخلاف الأول فإنه قد أتى فيه بالوضوء الكامل. والإسراف في استعمال الماء غير مستحب، والاقتصاد هو المحمود المندوب إليه، وقلة الماء مع أحكام الغسل والوضوء أولى من الإسراف. وقد روى أن النبي ﷺ توضأ بمد وهو رطل وثلاث، واغتسل بصاع وهو أربعة أمداد.

(فصل: في الأذكار المستحب ذكرها عند غسل الأعضاء)

يقول إذا فرغ من الاستطابة: اللهم نقّ قلبي من الشك والنفاق، وحصّن فرجي من الفواحش.

ويقول عند التسمية: أعوذ بك من همزات الشياطين، وأعوذ بك رب أن يحضرون. ويقول عند غسل يديه: اللهم إني أسألك اليمن والبركة، وأعوذ بك من الشؤم والهلكة.

ويقول عند المضمضة: اللهم أعني على تلاوة كتابك، وكثرة الذكر لك. ويقول عند الاستنشاق: اللهم أوجدني رائحة الجنة، وأنت عني راض. ويقول عند الاستنشاق: اللهم إني أعوذ بك من روائح النار ومن سوء الدار. ويقول عند غسل وجهه: اللهم بيّض وجهي يوم تبيّض فيه وجوه أوليائك، ولا تسودّ وجهي يوم تسودّ فيه وجوه أعدائك.

ويقول عند غسل ذراعه اليمنى: اللهم آتني كتابي يميني، وحاسبني حساباً يسيراً. وعند غسل ذراعه اليسرى: اللهم إني أعوذ بك أن تؤتيني كتابي بشمالي، أو من وراء ظهري.

ويقول عند مسح الرأس: اللهم غشّني برحمتك، وأنزل علي من بركاتك، وأظلني

(١) أبو داود (١٠١)، وابن ماجه (٣٩٨)، وأحمد ٤١٨/٢.

تحت ظل عرشك يوم لا ظل إلا ظلك .
ويقول عند مسح الأذنين : اللهم اجعلنى من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ،
اللهم أسمعنى منادى الجنة مع الأبرار .
ثم يمسح عنقه فيقول : اللهم فك رقبتي من النار ، وأعوذ بك من السلاسل
والأغلال .

ويقول عند غسل قدمه اليمنى : اللهم ثبت قدمى على الصراط مع أقدام المؤمنين .
ويقول عند غسل قدمه اليسرى : اللهم إنى أعوذ بك أن تزل قدمى عن الصراط يوم
تزل فيه أقدام المنافقين .

فإذا فرغ من وضوئه رفع رأسه إلى السماء ، ثم قال : أشهد أن لا إله إلا الله وحده
لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، سبحانه وبحمده لا إله إلا أنت ،
عملت سوءاً وظلمت نفسى ، أستغفرك وأسألك التوبة فاغفر لى وتب على إنيك أنت
التواب الرحيم . اللهم اجعلنى من التوابين ، واجعلنى من المتطهرين ، واجعلنى صبوراً
شكوراً ، واجعلنى أذكرك كثيراً ، وأسبحك بكراً وأصيلاً .

* * *

(فصل: فى آداب اللباس)

وهو على خمسة أضرب :
محرم على كل مكلف ، ومحرم على شخص دون شخص ، ومكروه ، ومباح ،
ومتنزه عنه .

فأما المحرم على كل مكلف فالمغصوب .
وأما المحرم على شخص دون شخص فالحرير مباح للنساء حرام على بالغي الذكور .
وهل يباح أن يلبسه الصغار أم لا ؟ على روايتين .
وكذلك فى إباحة لبسه للبالغين فى قتال المشركين وجهادهم روايتان ، فهذا هو
الضرب المباح .

وأما المكروه فهو إطالة الثوب إلى حد يخرج إلى الخيلاء والكبر ، وكذلك ما فيه
الحرير والقطن لا يعلم هل هما نصفان أو أحدهما أكثر .

وأما المنتزه عنه فهو كل لبسة يكون بها مشتهراً بين الناس، كالخروج عن عادة أهل بلده وعشيرته فينبغي أن يلبس ما يلبسون ولا يباينهم فيها حتى لا يشار إليه بالأصابع ويغتتاب فيكون ذلك سبباً إلى حملهم على غيته، فيشاركهم في إثم الغيبة له.

(فصل) ولنا قسمان آخران في: اللباس:

أحدهما: واجب، والآخر: مندوب.

فأما الواجب فعلى ضربين:

أحدهما: يرجع إلى حق الله تعالى.

والثاني: إلى حق الإنسان خاصة.

فأما الذي لحق الله تعالى فهو ستر العورة عن أعين الناس على ما بيناه في فصل التعرى.

وأما الذي لحق الإنسان فهو الذي يتوقى به من الحر والبرد وأنواع المضار. فيجب عليه ذلك، ولا يجوز تركه، لأن فيه عوناً على إتلاف نفسه وذلك حرام.

وأما المندوب فكذلك ينقسم على قسمين:

أحدهما: في حق الله تعالى، وهو الرداء إذا كان في جماعة ومجمع الناس فلا يعرى منكبيه من شيء من الثياب الجميلة، كالأعياد والجمع وغير ذلك.

والقسم الثاني: في حق المخلوقين وهو ما يتجملون به بينهم من أنواع الثياب المباحة، ولا يزرى بصاحبه، ولا ينقص مروءته بينهم.

ويكره الاقتعاط وهو التعمم بغير الحنك.

ويستحب التلحي وهو إذا كان بالحنك.

ويكره كل ما خالف زى العرب وشابه زى الأعاجم.

وتطويل الذيل مكروه، لأنه ورد في الأثر عن النبي ﷺ أنه قال: «إذرة المسلم إلى نصف الساق، ولا حرج أو لا جناح فيما بينه وبين الكعبين، ما كان أسفل من الكعبين فهو في النار، من جرّ إزاره بطراً لم ينظر الله إليه» ذكره أبو داود^(١) بإسناده عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ.

(١) في اللباس: ب (٣٠)، وأحمد ٤٩٨/٢، والبيهقي ٢/٢٤٤.

واشتمال الصماء مكروه في الصلاة وهو أن يلتحف بثوب ويجعل طرفيه على جانب فلا يكون ليده موضع تخرج منه، ولذلك سمي الصماء.

وكذلك يكره السدل وهو أن يترك وسط ردائه على رأسه وباقيه مسدل على ظهره، وهي لبسة اليهود.

وكذلك يكره الاحتباء وهو أن يجلس ويضم ركبتيه إلى نحو صدره ويدير ثوبه من وراء ظهره إلى أن يبلغ ركبتيه ويشده، حتى يكون كالمعتمد عليه والمستند إليه، إذا لم يكن عليه ثوب، لأنه يؤدي إلى انكشاف عورته، ولا بأس بذلك، إذا كان تحته ثوب. وكذلك يكره التلثم وتغطية الأنف في الصلاة.

ويكره التشبه بزي النساء للرجال.

وكذلك يكره للنساء التشبه بزي الرجال، لأن النبي ﷺ لعن فاعله وتوعد عليه.

ويكره الإقعاء في الصلاة، وهو أن يمد ظهر قدميه، ويجلس على عقبيه، أو يجلس على إلبتيه وينصب قدميه، قال النبي ﷺ: «إقعاء كإقعاء الكلب»^(١)، فهي عنه.

ويكره لبس ما تشف منه الأبدان من الثياب، وإن شفت منه العورة كان فاسقاً كما لو كشفها إذا تعمد لبسه، ولا تصح صلاته فيها.

وقد مدح الشرع السراويل بقوله ﷺ: «السراويل نصف الكسوة»^(٢).

وهي في حق الرجال أوكد.

ويكره توسعة بوائكه، وتضييقها أولى وأحب، لأنه أستر للعورة، وقد روى أنه ﷺ قال: «اللهم اغفر للمسرولات»^(٣)، قال ذلك في حق امرأة مرّ بها علت بأكفة فسقطت، فأدار وجهه عنها، فقبل له: إنها مسرولة.

وفي بعض الأحاديث عنه ﷺ أنه كره السراويل المخرّفة، وهي الواسعة الطويلة التي تقع على ظهر القدمين، وأصله: السعة يقال: عيش مخرفج إذا كان واسعاً. وأفضل اللباس ما كان ساتراً.

(١) ابن ماجه في: الإقامة: ب (٢٢): حديث (٨٩٥).

(٢) الموضوعات ٤٥/٣ - ٤٧.

(٣) التذكرة (١٥٦)، وتنزيه الشريعة ٢٧٢/٢، والفوائد المجموعة (١٨٩)، والموضوعات ٤٦/٣.

وأفضل ألوان الثياب ما كان أبيض لقوله ﷺ: «خير ثيابكم البياض»^(١)، وفى لفظ آخر: «عليكم بالبياض يلبسها أحياءكم وكفنوا فيها موتاكم»^(٢).

وعن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ألبسوا من ثيابكم البياض فإنها من خير ثيابكم وكفنوا فيها موتاكم، وإن خير أكحالكم الأثمد يعجلو البصر وينبت الشعر»^(٣).

(فصل: فى آداب النوم)

يستحب لمن أراد أن ينام أن يوكىء سقاءه، ويطفىء سراجيه، ويغلق بابه، ويغسل فاه إذا كان قد أكل ما له رائحة لئلا يقصده الديب، ويسمى باسم الله عز وجل، ويقول: ما روى أبو داود بإسناده عن سعد بن عبيدة قال: حدثني البراء بن عازب قال: قال لى رسول الله: «إذا أتيت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة ثم اضطجع على شقك الأيمن وقل: اللهم أسلمت وجهى إليك، وفوضت أمري إليك، وألجأت ظهري إليك، رهبة ورغبة إليك، لا ملجأ ولا منجأ منك إلا إليك، آمنت بكتابك الذى أنزلت، ونبيك الذى أرسلت. قال: فإن مُتَّ مُتَّ على الفطرة، واجعلن آخر ما تقول. قال البراء فقلت استذكرهن فقلت وبرسولك الذى أرسلت قال: لا، ونبيك الذى أرسلت»^(٤).

ويكون نومه على ما ذكر فى الخبر على جنبه الأيمن مستقبل القبلة كما يكون فى اللحد، وإن نام على ظهره متفكراً فى ملكوت السماوات والأرض فلا بأس. ويكره نومه على وجهه.

وإذا رأى فى منامه ما يزعجه استعاذ بالله تعالى من شره، وتفل عن يساره ثلاثاً، وقال: اللهم ارزقنى خير رؤياى، واكفنى شرها. ويقرأ آية الكرسي وقل هو الله أحد والمعوذتين، إلا أن يكون جنباً. ولا يفسر منامه إلا على من يحسن من عالم أو حكيم

(١) ابن ماجه (١٤٧٢)، وأحمد ٢٧٤/١، والحاكم ٣٥٤/١.

(٢) النسائى ٢٠٥/٨، والبيهقى ٤٠٣/٣، والطبرانى ٢٨٤/٧.

(٣) أبو داود (٣٨٧٨)، والترمذى (٩٩٤)، والنسائى ٣٤/٤، وأحمد ٢٤٧/١.

(٤) البخارى ٧١/١، وأبو داود (٥٠٤٦).

ويكون محباً. ولا يفسر ما رآه من الأحلام لأن الشيطان يتمثل له.

وقد روى عن أبي قتادة^(١) رضى الله عنه أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الرؤيا من الله، والحلم من الشيطان، فإذا رأى أحدكم شيئاً يكرهه فلينفث عن يساره ثلاث مرات، ثم ليتعوذ من شرها فإنها لا تضره»^(٢).

وعن أبي هريرة رضى الله عنه أنه قال: «إن رسول الله ﷺ كان إذا انصرف من صلاة الغداة يقول: هل رأى أحد منكم الليلة رؤيا؟ ويقول: إنه ليس يبقى بعدى من النبوة إلا الرؤيا الصالحة»^(٣).

وفى حديث عبادة بن الصامت عن النبى ﷺ أنه قال: «رؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة»^(٤).

وإذا أراد الخروج من منزله ذكر الكلمات التى وردت فى حديث الشعبى عن أم سلمة رضى الله عنها أنها قالت: ما خرج رسول الله ﷺ من بيتى قط إلا رفع طرفه إلى السماء فقال: «اللهم إنى أعوذ بك أن أضلّ أو أضلّ، أو أزلّ أو أزلّ، أو أظلم أو أظلم، أو أجهل أو يُجهل علىّ»^(٥) ويقرأ: قل هو الله أحد مع المعوذتين إذا أصبح وإذا أمسى، ويدعو مع ذلك بدعاء رسول الله ﷺ: «اللهم بك نصبح وبك نمسى، وبك نحيا وبك نموت، ويزيد فى الصباح: وإليك النشور، وفى المساء: وإليك المصير»^(٦).

ويقول مع ذلك: اللهم اجعلنى من أعظم عبادك عندك نصيباً فى كل خير تقسمه فى هذا اليوم وفيما بعده من نور تهدى به أو رحمة تنشرها أو رزق تبسطه أو ضر تكشفه أو ذنب تغفره أو شدة تدفعها أو فتنة تصرفها أو معاناة تمن بها برحمتك إنك على كل شيء قدير.

(١) أبو قتادة هو: الحارث بن ربيع الأنصارى. وقيل: النعمان. وقيل: عمرو. شهد أحدًا وما بعدها، وكان يقال له فارس رسول الله ﷺ. توفى بالكوفة فى خلافة على. له ترجمة فى: الإصابة ١٥٨/٤ - ١٥٩.

(٢) البخارى ٣٩/٩، ومسلم فى: الرؤيا: حديث (١، ٢)، وابن أبى شبة ٣٣٧/١٠.

(٣) البخارى ٥٦/٩، ومسلم فى: الرؤيا: حديث (٢٣)، وأحمد ١٣٥/٣.

(٤) البخارى ٤٨/٩، ومسلم فى: الرؤيا: حديث (٦)، وأحمد ٥٠٧/٢.

(٥) أبو داود (٥٠٩٤)، وابن ماجه (٣٨٨٤)، وأحمد ٣٢٢/٦.

(٦) الترمذى (٣٣٩١)، وابن ماجه (٣٨٦٨)، وأحمد ٣٥٤/٢.

وإذا أراد دخول المسجد فليقدم رجله اليمنى ويؤخر رجله اليسرى ويقول: بسم الله السلام على رسول الله ﷺ، اللهم صل على محمد وعلى آل محمد واغفر لى ذنوبى وافتح لى أبواب رحمتك^(١).

وليسلم على من كان فى المسجد. فإن لم يكن فيه أحد قال: السلام علينا من ربنا عز وجل.

وإذا دخله لا يجلس حتى يأتى بركعتين، ثم إن شاء تنفل وإلا جلس مشغلاً بذكر الله عز وجل، أو صامتاً لا يذكر شيئاً من أمور الدنيا. ولا يكثر كلامه إلا ما لا بد منه.

فإن كان قد دخل وقت الصلاة صلى السنة والفرض مع الجماعة.

فإذا فرغ وأراد الخروج فليقدم رجله اليسرى ويؤخر رجله اليمنى وليقل: بسم الله السلام على رسول الله ﷺ، اللهم صل على محمد وعلى آل محمد واغفر لى ذنوبى وافتح لى أبواب فضلك^(٢).

ويستحب له فى دبر كل صلاة أن يسبح الله عز وجل ثلاثاً وثلاثين، ويحمده ثلاثاً وثلاثين، ويكبره ثلاثاً وثلاثين، ويختم المئة بلا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير.

ويستحب له المداومة على الطهور، فإنه روى عن النبى ﷺ فى حديث أنس بن مالك رضى الله عنه أنه قال: «دم على الطهور تزد فى عمرك، وصل بالليل والنهار ما استطعت تحبك الحفظة، وصل صلاة الضحى فإنها صلاة الأوابين، وسلم على أهل بيتك إذا دخلت بيتك يكثر خير بيتك، ووقر كبير المسلمين، وارحم صغيرهم ترافقنى فى الجنة». فقد جمع هذا الحديث آداباً جمّة.

(١) ابن ماجه (٧٧١)، وأحمد ٢٨٢/٦.

(٢) أحمد ٢٨٢/٦.

(قصر: فى دخول المنزل والكسب من الحلال والوحدة)

وإذا أراد دخول منزله:

فلا يدخل حتى يتنحى، ويقول: السلام علينا من ربنا، فقد جاء فى بعض الأخبار: أن المؤمن إذا خرج من منزله وكلّ الله تعالى ببابه ملكين يحفظان ماله وأهله، ويوكل إبليس سبعين شيطاناً مردّة، فإذا دنا المؤمن من بابه قال الملكان: اللهم وفقه إن كان انقلب بكسب طيب، فإذا تنحى دنا الملكان وتباعدت الشياطين، وإذا قال: السلام علينا من ربنا توارت الشياطين، وقام الملكان أحدهما عن اليمين، والآخر عن الشمال. وإذا فتح الباب فقال: بسم الله، ذهبت الشياطين ودخل معه الملكان، وحسن له كل شىء فى منزله، وأطابا له معيشة يومه وليته، فإذا جلس المؤمن قام الملكان على رأسه فإن أكل أكل طيباً، وإن شرب شرب طيباً ما دام فى منزله يومه وليته، وكان طيب النفس.

فإن لم يفعل من ذلك شيئاً ذهب عنه الملكان، ودخل معه الشياطين، وقبحوا كل ما فى منزله فى عينه، وأسمعه أهله ما يسوؤه حتى يكون بينه وبين أهله ما يفسد عليه دينه. وإن كان أعزب ألحقوا عليه النعاس والكسل، وإن نام نام جيفة، وإن جلس جلس فى تمنى ما لا ينفعه، خبيث النفس، ويفسدون عليه طعامه وشرابه ونومه.

وأما الكسب:

فقد روى أبو هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من طلب الدنيا حلالاً استعفاً عن المسألة وسعيّاً على أهله وتعطفاً على جاره بعثه الله تعالى يوم القيامة ووجهه كالقمر ليلة البدر، ومن طلب الدنيا حلالاً مكائراً مفاخرّاً مرأياً لقى الله عز وجل يوم القيامة وهو عليه غضبان»^(١).

وعن ثابت البناني رحمه الله أنه قال: «بلغنى أن العافية فى عشرة أشياء: تسعة منها فى السكوت وواحدة فى الفرار من الناس، والعبادة عشرة: تسعة منها فى طلب المعيشة وواحدة فى العبادة».

وروى عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا يفتح

(١) ابن أبى شيبه ١٦/٧، والحلية ١١٠/٣، والإتحاف ٤١٤/٥.

الرجل على نفسه باباً من المسألة إلا فتح الله عليه باباً من الفقر، ومن يستغنى عنه الله، ومن يستغن يغنه الله، ولئن يأخذ أحدكم جبلاً ثم يعمد إلى هذا الزاد فيحتطب منه، ثم يأتي سوقكم فيبيعه بمد تمر خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه»^(١).
وروى «ما من رجل يفتح على نفسه باباً من المسألة إلا فتح الله عليه سبعين باباً من الفقر»^(٢).

وروى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله يحب كل مؤمن محترف أبا العيال، ولا يحب الفارغ الصحيح لا في عمل الدنيا ولا في عمل الآخرة»^(٣).
وروى أن داود نبى الله عز وجل سأل الله تعالى أن يجعل كسبه من يده، فألان له الحديد، فصار في يده كالعجين والشمع، يتخذ منه الدروع فيبيعها فيعيش هو وعياله بثمرتها.

وقال ابنه سليمان عليهما السلام: رب قد أعطيتني من الملك ما لم تعط أحداً من قبلى، وسألتك أن لا تعطيه أحداً من بعدى فأعطيتني، فإن قصرت فى شكرك فدلنى على عبد هو أشكر لك منى، فأوحى الله تعالى إليه: يا سليمان: إن عبداً يكتسب بيده يسد جوعه ويستتر عورته ويعبدنى هو أشكر لى منك. فتقال: يا رب اجعل كسبى يدي. فأتاه جبريل عليه السلام فعلمه عمل الخوص، يتخذ منه القفاف، فأول من عمل الخوص سليمان عليه السلام.

وقيل عن بعض الحكماء إنه قال: لا يقوم الدين والدنيا إلا بأربعة: العلماء والأمراء والغزاة وأهل الكسب.

فالأمراء هم الرعاة يرعون الخلق.

والعلماء هم ورثة الأنبياء وهم يدلون الخلق على الآخرة، والناس يقتدون بهم.

والغزاة هم جند الله فى الأرض، يجمع بهم الكفار.

وأما أهل الكسب فهم أمناء الله تعالى، بهم مصالح الخلق وعمارة الأرض.

(١) أحمد ٤١٨/٢، والمجمع ٩٥/٣، وكنز العمال ١٦٧٤٦، ١٦٧٤٧.

(٢) الإتحاف ٤١٧/٥، والمغنى عن حمل الأسفار ٦٤/٢.

(٣) العلل المنتهية ٩٩/٢، وابن عدى ٣٦٩/١، والمجمع ٦٢/٤ وعزاه إلى الطبرانى فى «الكبير» و «الأوسط» من طريق عاصم بن عبيد الله وهو ضعيف.

فالرعاة إذا صاروا ذئاباً فمن يحفظ الغنم؟
والعلماء إذا تركوا العلم واشتغلوا بالدنيا فبمن يقتدى الخلق؟
والغزاة إذا ركبوا للفخر والخيلاء، وخرجوا للطمع فمتى يظفر بالعدو؟
وأهل الكسب إذا خانوا الناس فكيف يأمنهم الناس؟
وإذا لم يكن فى التاجر ثلاث خصال افتقر فى الدنيا والآخرة.
أولها: لسان نقى عن ثلاث: الكذب واللغو والحلف.
والثانية: قلب صاف من الغش والخيانة والحسد لجاره وقرينه.
والثالثة: نفس محافظة لثلاث خصال: الجمعة والجماعات، وطلب العلم فى بعض ساعات الليل والنهار، وإيثار مرضاة الله تعالى على غيره.
وإياك والكسب الحرام فقد قيل: إذا كسب العبد خبيثاً وأراد أن يأكل منه، وقال: بسم الله، قال الشيطان: كل إنى كنت معك حين كسبته فلا أفارقك، إنما أنا شريكك، فهو شريك كل كاسب حرام. قال الله عز وجل: ﴿وشاركهم فى الأموال والأولاد﴾ [الإسراء: ٦٤] فالأموال: الحرام، والأولاد: أولاد الزنا. كذا ذكر فى التفسير.
وقد روى عن ابن مسعود رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا يكتسب العبد مالاً من الحرام ويتصدق به فيؤجر عليه، ولا يتفق منه فيبارك له فيه، ولا يتركه خلف ظهره إلا كان زاده إلى النار»^(١).
وبالجملة إنه لا يمتنع من الحرام إلا من هو مشفق على لحمه ودمه فدين المرء لحمه ودمه فليجتنب الحرام وأهله، ولا يجالسهم، ولا يأكل طعام من كسبه حرام، ولا يدل أحداً على حرام، فيكون شريكه، فالورع هو ملاك الدين وقوام العبادة واستكمال أمر الآخرة.

وأما الوحدة والعزلة:

فقد جاء عن النبى ﷺ أنه قال: «عليكم بالعزلة فإنها عبادة»^(٢).
وقال النبى ﷺ: «المؤمن جليس بيته»^(٣).

(١) أحمد ٣٨٧/١، والمشكاة (٢٧٧١).

(٢) كنز العمال ٤٤٢/٣ موقوفاً على ابن سيرين.

(٣) بنحوه: أحمد ٢٥٩/٥، والطبرانى ٢١٠/١٠.

وقال النبي ﷺ: «أفضل الناس رجل اعتزل يكفى الناس شره». وفي بعض الألفاظ عنه ﷺ أنه قال: «الغريب هو الذى يفر بدينه». وعن بعض السلف أنه قال: هذا زمان السكوت ولزوم البيوت - وهو بشر الخافى - . وقيل لسعد بن أبى وقاص لما تفرد فى قصره بالعقيق: تركت أسواق الناس ومجالس الإخوان وتخليت، فقال: رأيت أسواقهم لاغية ومجالسهم لاهية، فوجدت الاعتزال فيما هناك عافية.

وقال وهيب بن الورد رحمه الله: «خالطت الناس خمسين سنة فما وجدت رجلاً غفر لى زلة، ولا ستر لى عورة، ولا أمتته إذا غضب، وما وجدت منهم إلا من يركب هواه».

وعن الشعبي رحمه الله أنه قال: «تعاشر الناس بالدين زمناً طويلاً حتى ذهب الدين، ثم تعاشروا بالمروءة حتى ذهبت المروءة، ثم تعاشروا بالحياء حتى ذهب الحياء، ثم تعاشروا بالرغبة والرغبة، وأظن أنه سيجىء بعد هذا ما هو أشد منه».

وقال الحكيم: «العبادة عشرة أجزاء تسعة فى الصمت وواحدة فى العزلة، فراودت نفسى على الصمت فلم أقدر عليه، فصرت إلى العزلة فجمعت لى التسعة». وكان يقول: «لا شىء أوعظ من القبر، ولا آتس من الكتاب، ولا أسلم من الوحدة».

وقال بشر بن الحارث رحمه الله: إنما يطلب العلم ليهرب به من الدنيا لا لتطلب به الدنيا.

وروى عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت: «قيل: يا رسول الله: أى جلسائنا خير؟ قال ﷺ: من ذكرتكم الله تعالى رؤيته، وزاد فى عملكم منطقه، وذكركم الآخرة عمله»^(١).

وكان عيسى ابن مريم عليه السلام يقول: «يا معشر الحواريين تحببوا إلى الله عز وجل ببغض أهل المعاصى، وتقربوا إلى الله تعالى بالتباعد عنهم، والتمسوا رضاه بسخطهم».

(١) الكنز (٢٥٥٨٨)، ومجمع الزوائد ٢٢٦/١٠ وعزاه إلى «أبى يعلى» من طريق مبارك بن حسان، وقد وثق، وبقيت رجاله رجال الصحيح.

وإن كان لابد من المخالطة فلتكن للعلماء، فإن النبي ﷺ قال: «مجالسة العلماء عبادة»^(١).

وقال ﷺ: «ألزم قلبك التفكير وجسدك التصبر وعينك البكاء، ولا تهتم لرزق غد فإن ذلك خطيئة تكتب عليك، وألزم المساجد فإن عمارة بيت الله تعالى هم أهل الله عز وجل»^(٢).

وقال ﷺ: «من أكثر الاختلاف إلى المساجد أصاب أخاً مستفاداً ورحمة منتظرة وكلمة تدل على هدى وأخرى تصرف عن الردى وعلماً مستطرفاً وترك الذنوب حياء وخشية»^(٣).

ولو اعتزل الإنسان الناس مهما اعتزل لم يكن له متسعاً في الشرع اعتزال الجمعة والجماعات، فلا يجوز له تركها في الجمعة، لأنه يكفر بمداومته على ترك الجمعة لما روى عن النبي ﷺ أنه قال: «من ترك الجمعة ثلاثاً من غير عذر طبع الله تعالى على قلبه».

وفي حديث جابر رضي الله عنه: «واعلموا أن الله عز وجل قد افترض عليكم الجمعة في مقامى هذا في شهرى هذا في عامى هذا إلى يوم القيامة، من تركها وله إمام عادل أو جائر استخفافاً بها أو جحوداً لها فلا جمع الله له شمله ولا أتم له أمره إلا لا صلاة له، إلا لا زكاة له، إلا لا حج له، إلا لا صوم له، إلا أن يتوب، فمن تاب تاب الله عليه»^(٤).

ولأن في تركها استهانة بمنادى الله عز وجل وهو قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَادَى لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: ٩]، ومن استهان بالله تعالى وبمناديه يكفر، فعليه التوبة وتجديد الإسلام، ويتوب الله على من تاب.

ولا يجوز له تركها إلا لعذر يبيحه الشرع كما قيل: «خذ عن الناس جانباً غير طاعن

(١) الإتحاف ٦/٢٠٤، والكنز (٢٨٧٥٦).

(٢) مجمع الزوائد ٢٣/٢: باب لزوم المساجد مقتصرًا على آخره، وعزاه إلى الطبراني في «الأوسط» و «أبى يعلى» و «البيزار» من طريق صالح المري، وهو ضعيف.

(٣) الطبراني ٩١/٣، والمجمع ٢٢/٢ - ٢٣ وعزاه إليه في «الكبير» من طريق سعد بن طريف، وقال: قد أجمعوا على تركه، وابن عساكر ٣٠٨/٤، والتنزيه ٢٦٩/١.

(٤) ابن ماجه (١٠٨١)، ولسان الميزان ١٧٤/٤.

عليهم ولا تارك لجماعتهم».

فليجتهد المرء في الاعتزال عن الناس ما استطاع إلا ممن يكون عوناً له في أمر دينه، لأن الكذب إنما يجرى بين اثنين، والفجور بين اثنين، وقتل النفس بين اثنين وقطع المال بين اثنين، والسلامة من ذلك في الاعتزال والانفراد.

* * *

(فصل: في آداب السفر والصحبة فيه)

وإذا أراد سفرًا أو حجًا أو غزوًا أو تحولاً من دار إلى دار أو طلب حاجة فليصل ركعتين، ثم يطلب حاجته، ويتحول.

وأما في السفر فليقل على إثر الركعتين: «اللهم بلغ بلاغًا مبلغ خير ومغفرة منك ورضوانًا بيدك الخير وأنت على كل شيء قدير، اللهم أنت صاحب في السفر والخليفة في الأهل والمال والولد، اللهم هوّن علينا السفر واطوّل لنا البعيد، اللهم إني أعوذ بك من وعشاء السفر وكآبة المنقلب وسوء المنظر في الأهل والولد والمال»^(١).

ويتحرى أن يكون ذلك بكرة خميس أو سبت أو اثنين.

وإذا استوى على راحلته قال: ﴿سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين * وإنا إلى ربنا لمنقلبون﴾ [الزخرف: ١٣ - ١٤].

وإذا رجع من السفر صلى ركعتين وقال: «أيّون تائبون عابدون لربنا حامدون»^(٢)، لأنه روى عن النبي ﷺ أنه كان يفعله.

وإذا خرج فلا يكن قائلًا للناس إذا وجد من يقودهم، ولا يشير عليهم بمنزل ينزلونها إذا وجد من يكفيه ذلك.

وعليه بالصمت وحسن الصحبة وكثرة المنفعة لإخوانه، وإياه والقليل والقال.

ولا ينزل على الطريق ولا على ماء، فإنه مأوى الحيات والسباع بل يتنحى عنه،

ولا يعرّس على الطريق فإنه مكروه.

وينبغي أن يكون سفره على لسان المعرفة.

(١) أبو داود (٢٥٩٨)، وأحمد ٢٥٦/١.

(٢) البخاري ٩/٣، ومسلم في: الحج: حديث (٤٢٨ و ٤٢٩)، وأحمد ٢٥٦/١.

ويخرج من أوصافه المذمومة إلى صفاته المحمودة، فيخرج من هواه إلى طلب رضا مولاه بتصحيح تقواه.

فأول ما يجب عليه إذا أراد أن يسافر من بلده أن يرضى خصومه ويرضى والديه أو من هو في حكمهما من الأجداد والخالات.

ويخلف لعياله ما يمونهم في مدة سفره، أو يستصحبهم ويحملهم معه.

وينبغي أن يكون سفره لطاعة من الطاعات كالحج أو زيارة النبي ﷺ أو زيارة شيخ أو موضع من المواضع الشريفة.

أو لمباح كالتجارة والعلم بعد أحكام علوم العبادات الخمس، لأن علمها فريضة وما وراءها مباح وفيه فضل، وقيل فرض على الكفاية.

وينبغي أن يعاشر أصحابه في سفره بحسن الخلق وجميل المداراة، وترك المخالفة واللجاج في جميع الأشياء.

ويشتغل بخدمة أصحابه في السفر ولا يستخدم أحداً إلا عند الضرورة، ويجتهد أبداً أن يكون في سفره على الطهارة.

ومن آداب الصحبة أن يقف مع صاحبه إذا عوى، ويسقيه الماء إذا عطش، ويرفق به إذا ضجر، ويداريه إذا غضب، ويحفظه ورحله إذا نام، ويؤثره إذا قلّ الزاد، ويواسيه بما يفتح له، ولا ينفرد به دونه، ولا يكتمه سرّاً، ولا يفشى له سرّاً، ولا يستظهره إلا بجميل، ويرد غيبته، ويحسن ذكره عند الرفقة، ولا يعيبه عندهم، ولا يشكو منه إليهم، ويتحمل أذاه، وينصحه إذا شاوره، ويسأله عن اسمه وبلده ونسبه وإن كان أرفع منه منزلة.

ويظهر للرفقة أنه تابع له وإن كان هو المتبوع، وأوضح لتابعه عيوب نفسه على طريق النصيح له لا على طريق التوبيخ والتعنيف.

وينبغي أن يتعوذ من كل شيء يخافه عندما يحل بموضع أو ينزل بمنزل أو يجلس في مكان، أو ينام فيه بأن يقول:

«أعوذ بالله وبكلماته التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر، وبأسماء الله الحسنى كلها ما علمت منها وما لم أعلم من شر ما خلق وذراً وبرأ، ومن شر ما ينزل من السماء وما يعرج فيها، ومن شر ما ذراً في الأرض ومن شر ما يخرج منها، ومن فتن

الليل والنهار، ومن طارق الليل والنهار إلا طارقاً يطرق منك بخير، يا أرحم الراحمين، ومن كل دابة ربي آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم^(١).

ولا يتخذ في الركاب الأجراس، لأن النبي ﷺ قال: «إنه مع كل جرس شيطان»^(٢). وقال ﷺ: «إن الملائكة لا تصحب رفقة فيها جرس»^(٣).

ويستحب أن يصحب في سفره عصا، ويجتهد ألا يخلو منها، لما روى ميمون بن مهران عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «إمساك العصا سنة الأنبياء وعلامة المؤمنين».

وقال الحسن البصري رحمه الله: «في العكازة ست خصال: سنة الأنبياء، وري الصالحين، وسلاح على الأعداء - يعنى الحية والكلب وغير ذلك - ، وعون الضعفاء، وغم المنافقين، وزيادة في الحسنات».

ويقال: إذا كان مع المؤمن العصا هرب الشيطان منه، وخشع منه المنافق والفاجر، وتكون قبلته إذا صلى، وقوته إذا أعبى، وفيها منافع كثيرة كما قال الله في قصة موسى عليه السلام: ﴿هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى﴾ [طه: ١٨].

(فصل: ولا يجوز خضاء شيء من الحيوان والعبيد)

نص عليه الإمام أحمد في رواية حرب وأبى طالب .

وكذلك السمة في الوجه على ما نقل أبو طالب عنه .

لأن النبي ﷺ نهى أن يخصى كل ذى نسل من البهائم، في حديث أبى هريرة رضي الله عنه، وفي حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أنه ﷺ «نهى عن الوسم في الوجه ورخص فيه في الأذن»^(٤).

وإن كان لابد من الوسم لأجل العلامة ليعرفوا البهائم حين الاختلاط جاز في غير الوجه كالافخاذ والأسنمة .

(١) أحمد ٤١٩/٣، ودلائل النبوة ١/٦٠ .

(٢) أبو داود (٤٢٣٠)، وشرح السنة (٢٦/١١) .

(٣) مسلم في: اللباس: حديث (١٠٣)، وأبو داود (٢٥٥٤)، وأحمد ٣٢٧/٢ .

(٤) الترمذى (١٧١٠)، وأحمد ٣٧٨/٣، والصحيحة (٣٠٥) .

(فصل: ولا يجوز فعل شيء من المستقذرات في المساجد)

ويكره العمل فيها كالحياطة والخرازة والبيع والشراء وما أشبه ذلك.

ويكره رفع الأصوات إلا بذكر الله تعالى.

والنخامة في المسجد خطيئة، وكفارتها دفنها.

ويكره زخرفة المساجد بالتزاويق والخلق، ولا بأس بتجصيصها وتطيينها.

ويكره اتخاذها بيتاً ومقاماً إلا للغريب أو المعتكف، لأن النبي ﷺ أنزل وفد بني عبد

قيس، وروى: ثقيف في المسجد.

ولا بأس بإنشاء الشعر والقصائد فيها الخالية من السخف والهجاء للمسلمين،

والأولى صيانتها إلا أن تكون من الزهديات المرققات المشوقات المبكيات، فيجوز الإكثار

منها. والأولى من ذلك القرآن والتسبيح، لأن المساجد وضعت لذكر الله تعالى

والصلاة، فينبغي أن تجل عما سوى ذلك.

ويكره نقل تراب المسجد. وأما ما حصل فيه من المزابيل والكناسة فيستحب إخراج

ذلك وفيه فضل كثير. وقد روى عن النبي ﷺ أن ذلك مهوور الحور العين^(١).

ويكره تمكين الصبيان والمجانين من دخوله.

ولا بأس بعبور الجنب فيه.

وتمنع الحائض، لأنه لا يؤمن من تلويث المسجد.

وإذا دعت الضرورة للجنب جاز له أن يتوضأ ويلبث في المسجد إلى حين يقدر على

الغسل، والأولى أن يتيمم للجنب مع ذلك أيضاً، وكذلك إذا لم يجد الماء إلا في بئر

المسجد تيمم لجوازه إلى البئر، ثم يغتسل إذا وصل إليها.

(فصل: في الأصوات)

فما كان منها من إنشاد الأشعار المتعزية من الملامى على ضربين: مباح ومحظور.

فالمباح: ما لا سخف فيه.

والمحظور: ما كان فيه سخف.

(١) تنزيه الشريعة ٣٨/٢، والموضوعات ٢٥٤/٣، والقرطبي ١٥٤/١٦.

فأما ما ينضم إلى الملهى فمحذور، سواء خلا عن السخف أو قارن السخف، إلا أنه إذا قارنه سخف حصل الخطر لعلتين.

وتكره قراءة القرآن بالألحان المشبهة بأصوات الأغاني المطربة إعظاماً له وتنزيهاً. لأن الغالب من ذلك إخراج الكلام عن سننه، وإسقاط الإطالة والهمز في موضعه، وإطالة المقصور وقصر الممدود وإدغام الحروف.

ولأن ثمره القراءة خشية الله عز وجل، وتجديد التوبة عند سماع مواعظه والاعتبار ببراهينه وقصصه وأمثاله والتشوق إلى وعده، وذلك يزول بطيب سماعه، قال الله عز وجل: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ﴾ [النساء: ٨٢]، ومحمد: [٢٤]، وقوله جلّ وعلا: ﴿لِيَذْكُرُوا آيَاتِهِ﴾ [ص: ٢٩]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ [المائدة: ٨٣].

والألحان المطربة تحول بين ذلك، فكره لأجل ذلك.

ولا يسافر بالمصحف إلى أهل الحرب، حتى لا ينالوا منه، ويستخفوا بحرمة. ولا يستمع إلى أصوات الأجنبية من شواوب النساء، لأن النبي ﷺ قال: «التسبيح للرجال والتصفيق للنساء»^(١)، هذا إذا ناب المصلي نائب في صلاته فكيف بالشعر والغزل والأمور المهيجة لطباع الناس من ذكر صفات العشاق والمعشوقين ودقائق صفات المحبة والميل وصفات المشتهاة التي تتوق النفس إلى سماعها، فتتهيج دواعي السامع وتثير طبعه إلى المحارم، فلا يجوز لأحد سماع ذلك.

وإن قال قائل إنني أسمعها على معانٍ أسلم فيها عند الله تعالى، كذنباه؛ لأن الشرع لم يفرق بين ذلك، ولو جار لأحد لجاز للأنبيا عليهم السلام، ولو كان ذلك عذراً لأجزنا سماع القيان لمن يدعى أنه لا يطربه، وشرب المسكر لمن يدعى أنه لا يسكره.

فلو قال: عادتني أنى متى شربت الخمر انكففت عن الحرام، لم نبهه له.

ولو قال: عادتني إذا شهدت المردان والأجنبيات وخلوت بهن اعتبرت في حسنهم، لم نحجز له ذلك.

(١) البخارى ٨٠ / ٢، ومسلم فى: الصلاة: حديث (١٠٦ و ١٠٧)، وأحمد ٢ / ٢٦١.

بل نقول: ترك ذلك واجب، والاعتبار بغير المحرمات أكثر من ذلك، وإنما هذه طريقة من أراد تناول الحرام بطريق الله عز وجل فيركب هواه، فلا نسلم لأصحابها، ولا نلتفت إليهم، قال الله عز وجل: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فَرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ﴾ [النور: ٣٠].

فمن قال: النظر أزكى، كان مكذباً للقرآن.

ويكره الذنب والنياحة.

فأما البكاء على الميت فغير مكروه.

(فصل: فى الآداب فى قتل الحيوان، ما يباح منه وما لا يباح)

فمن رأى شيئاً من الحيات فى منزله فليؤذنه ثلاثاً، فإن بدا له بعد ذلك فليقتله.

وأما فى الصحارى فيجوز قتله من غير إيذان وكذلك الأتسر وهو قصير الذنب وذو الطفيتين الذى فى ظهره خط أسود، وقيل له شعرتان سوداوان بين عينيه فإنه يقتله بلا إيذان.

وصفة الإيذان:

أن يقول: امض بسلام لا تؤذنا.

قد جاء فى ذلك أن النبى ﷺ سئل عن حيات البيوت فقال: إذا رأيتم منهن شيئاً فى مساكنكم فقولوا: أنشدكم العهد الذى أخذته عليكم نوح، أنشدكم العهد الذى أخذته عليكم سليمان أن لا تؤذونا، فإن عدن فاقتلوهن^(١).

وما روى عن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اقتلوا الحيات كلهن، فمن خاف ثأرهن فليس منى»^(٢).

وفى حديث سالم عن أبيه عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال: إن رسول الله ﷺ قال: اقتلوا الحيات وذو الطفيتين والأبتر فإنهما يكسفان البصر ويسقطان الحبل^(٣).

قال: وكان عبد الله رضى الله عنه يقتل كل حية وجدها، فأبصره أبو لبابة رضى الله

(١) أبو داود. (٥٢٦٠)، والطبرانى ٩٢/٧.

(٢) أبو داود (٥٢٤٩)، والطبرانى ٣٨٢/٢.

(٣) البخارى ١٥٤/٤، ومسلم فى: السلام: حديث (١٢٨، ١٢٩)، وأحمد ٩/٢.

عنه وهو يطارد حية فقال: إنه قد نهى عن ذوات البيوت^(١).

والأصل في النهى عن ذوات البيوت، ما روى عن أبي السائب قال: أتيت أبا سعيد الخدري رضي الله عنه فبينما أنا جالس عنده سمعت تحت سريره تحريك شيء، فنظرت فإذا حية فقممت، قال أبو سعيد: ما لك، قلت: حية ها هنا، قال: فتريد ماذا؟ قلت: أقتلها، فأشار إلى بيت في داره تلقاء بيته، فقال: إن ابن عم لي كان في هذا البيت، فلما كان يوم الأحزاب استأذن إلى أهله، وكان حديث عهد بعرس، فأذن له رسول الله ﷺ وأمره أن يذهب بسلاحه، فأتى داره فوجد امرأته قائمة على باب البيت، فأشار إليها بالرمح، فقالت: لا تعجل حتى تنظر ما أخرجني فدخل البيت فإذا حية منكورة، فطعننها بالرمح ثم خرج بها في الرمح يرتكض، قال: فلا أدري أيهما كان أسرع موتاً الرجل أو الحية؟ فأتى قومه رسول الله ﷺ فقالوا: ادع الله تعالى أن يرد صاحبنا فقال: استغفروا لصاحبكم، ثم قال: إن نفرًا من الجن أسلموا بالمدينة فإذا رأيتم أحداً منهم فحذروه ثلاث مرات، ثم إن بدا لكم بعد أن تحذروه فاقتلوه بعد الثلاث^(٢).

وروى عن بعض الألفاظ: فليؤذنه ثلاثاً، فإن بدا له فليقتله فإنه شيطان.

ويجوز قتل الأوزاغ، لما روى عامر بن سعد عن أبيه - رضي الله عنه - قال: أمر رسول الله ﷺ بقتل الوزغ، وسماه فويسقاً^(٣).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «في أول ضربة سبعين حسنة»^(٤).
يعنى في قتلها بأول ضربة كان له ذلك.

ويكره قتل النملة إلا من أذية شديدة، لما روى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «أن نملة قرصت نبياً من الأنبياء فأمر بقرية النمل فأحرقت، فأوحى الله إليه: - أفي أن قرصتك نملة أهلكت أمة من الأمم تسبح»^(٥).

ويكره قتل الضفدع لما روى عن عبد الرحمن بن عثمان أنه سأل النبي ﷺ عن

(١) أحمد ٩/٢.

(٢) أبو داود (٥٢٥٧)، وأحمد ٤١/٣.

(٣) البخاري في: بدء الخلق: ب (١٥)، ومسلم في: السلام: حديث (١٤٢، ١٤٤)، وأحمد ١٧٦/١.

(٤) مسلم في: السلام: حديث (١٤٦)، وأحمد ٤٢٠/١.

(٥) مسلم: حديث (١٧٥٩)، وأبو داود (٥٢٦٦)، والبيهقي ٢١٣/٥.

ضفدع يجعلها فى دواء، فنهاه النبى ﷺ عن قتلها^(١).

ويكره قتل جميع ما يباح قتله بالنار من القمل والبراغيث والنمل، لقوله ﷺ: «لا يعذب بالنار إلا رب النار»^(٢).

ويجوز قتل كل شئ يؤذى من الحيوانات، وإن لم توجد منه الأذية بعدما كان مخلوقاً على صفة تؤذى، لأن من طبعه الأذية، وذلك كالحية التى ذكرنا صفتها. والعقرب والكلب العقور والفأرة وغير ذلك. وكذلك الكلب الأسود البهيم لأنه شيطان.

وكل حيوان يجده إنسان عطشاً أثيب على إسقائه الماء، لقوله ﷺ: «فى كل ذى كبد حرى أجر»^(٣). هذا إذا لم يكن مؤذياً.

وأما المؤذى فلا يسقيه فإن ذلك تنمية وتكثير للأذية وذلك لا يجوز.

ولا يجوز اتخاذ الكلب وتربيته فى داره إلا للحرس أو الصيد أو الماشية.

وإن كن عقوراً حرم تركه قولاً واحداً، ووجب قتله ليدفع شره عن الناس، وقد ورد فى بعض الأحاديث: «من اقتنى كلباً لغير ماشية أو صيد نقص من أجره كل يوم قيراطان»^(٤).

ولا يجوز تكليف الحيوان البهيم فوق طاقته فى الحمل والحرق والسير ومنعه ما يكفيه من العلف، فإن فعل ذلك أثم.

ويكره له إطعامه فوق طاقته، وإكراهه على أكل ما اتخذته الناس عادة لأجل التسمين.

ويكره الأكل من كسب الحجام، لأن فى ذلك دناءة وقد قال ﷺ: «كسب الحجام خبيث»^(٥).

وقد حرم ذلك بعض أصحابنا لأن ذلك مروي عن الإمام أحمد رحمه الله تعالى.

(١) ابن ماجه (٣٢٢٣).

(٢) أبو داود فى: الجهاد: ب (١٢١)، وشرح السنة ١٢/١٩٨، وابن عساکر ٤/٤٥٠.

(٣) أحمد ٢/٢٢٢، والبيهقى ٤/١٨٦.

(٤) البخارى ٧/١١٢.

(٥) مسلم فى: المساقاة: حديث (٤١)، وأبو داود (٣٤٢١)، وأحمد ٣/٤٦٤.

(فصل: وبر الوالدين واجب)

قال الله عز وجل: ﴿إِذَا يَلَفَ مِنْكُمْ الْكَبِيرُ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقْلُ لَهُمَا أَفْ وَلَا تَنْهَرَهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ [الإسراء: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَصَاحِبَهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان: ١٥]، وقال جلّ وعلا: ﴿أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلَوْلَا دِيكَ إِلَى الْمَصِيرِ﴾ [لقمان: ١٤].

وروى عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: «من أصبح مسخطاً لوالديه أصبح له بابان مفتوحان إلى النار، ومن أمسى مسخطاً لوالديه أمسى له بابان مفتوحان إلى النار، وإن كان واحداً فواحد، وإن ظلماه وإن ظلماه وإن ظلماه»^(١).

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: رضا الرب في رضا الوالدين وسخطه في سخط الوالدين»^(٢).

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه قال: «جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: إني أريد الجهاد، فقال: ألك أبوان؟ قال: نعم. قال ﷺ: ففيهما فجاهد»^(٣).

وصفة البر: أن تكفيهما ما يحتاجان إليه، وتكف عنهما الأذى وتداريها مداراة الطفل الصغير، ولا تتضجر منهما ولا من حوائجهما، وتجعل خدمتهما بدلاً من كثير نوافلك من الصلاة والصيام والقراءة، وتستغفر لهما عقيب صلواتك، ولا تحوجهما إلى التعب، وتحمل أذاهما، ولا تعل صوتك على أصواتهما، ولا تخالفهما في ما لا يكون فيه خرق للشرع، معناه لا يكون في ذلك ترك الفرائض كحجة الإسلام والصلوات الخمس والزكاة والكفارة والنذر، وألا يكون في ذلك ارتكاب المحرم من أنواع المناهي من الزنا وشرب الخمر والقتل والقذف وأخذ المال كالغصب والسرقه لقول النبي ﷺ: «لا طاعة لمخلوق في معصية الله تعالى»^(٤).

وقد قال تعالى: ﴿وَأِنْ جَاهِدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبَهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان: ١٥].

(١) الإتحاف ٦/ ٣١٤.

(٢) الترمذی (١٨٩٩)، والحاكم ٤/ ١٥٢.

(٣) أبو داود في: الجهاد: ب (٣٣)، والترمذی (١٦٧١)، والنسائي ٦/ ١٠، وشرح السنة ٣٧٧/١٠.

(٤) أحمد ١/ ١٣١، والصحيحة (١٧٩).

فهذا الحديث والآية عام في ترك طاعة كل من أمر بمعصية الله أو ترك طاعته، ومذكور ذلك عن الإمام أحمد في رواية أبي طالب في الرجل الذي ينهأ أبواه عن الصلاة في الجماعة، فقال: ليس لهما طاعة في ترك الفرض.

وأما النوافل فيجوز تركها لطاعتها، بل الأفضل طاعتها.

ومن البر لهما أن تصل من وصلهما، وتهجر من هجرهما، وتغضب لهما كما تغضب لنفسك في الموت والحياة.

وإذا ثار طبعك في الغضب عليهما فاذكر تربيتهما وسهرهما وإشفاقهما وتعبهما، وقول الله تعالى: ﴿وَقُلْ لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ [الإسراء: ٢٣].

فإن لم تردعك عن غيظك الرحمة لهما ولا بهما فاعلم أنك محروم مسخوط عليك فتب إلى الله تعالى إذا سكن غضبك إن كنت خالفت أمره فيهما.

ولا تسافر سفرًا ليس بواجب عليك إلا بإذنها.

ولا تغز إلا أن يتعين عليك إلا بإذنها.

ولا تفجعهما بنفسك، فقد نهى غيرك أن يفجعهما بك، فقال النبي ﷺ: «لعن الله المفرق بين الوالدة وولدها»^(١).

وإن ظفرت بطعام أو شراب فعليك بإيثارهما بأطيبه، فطالما آثراك وجاعا وأشبعاك وسهرا ونوماك. ترشد بذلك إن شاء الله تعالى.

(فصل: فيما يستحب من انكنى والأسماء وما يكره منها)

يمنع الإنسان أن يسمى ولده ويكنيه باسم النبي ﷺ وكنيته، ويجوز لإفراد أحدهما عن الآخر، وقد روى عن الإمام أحمد رحمه الله رواية أخرى كراهيته في الجملة، يعنى الجمع والإفراد. وروى عنه الجواز في الجملة.

والدليل على جواز التسمية باسم النبي ﷺ دون كنيته ما روى أنس بن مالك وأبو هريرة رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: «سموا باسمي ولا تكونوا بكنيتي»^(٢).

(١) كنز العمال (٢٤٠٢٤).

(٢) البخاري ٣٨/١، ومسلم في: الآداب: حديث (١، ٥)، وأحمد ٢٤٨/٢.

والدليل على جواز الجمع بينهما: ما روى عن عائشة رضى الله عنها، قالت: جاءت امرأة إلى النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله إنى ولدت غلاماً فسميته محمداً وكنيته بأبى القاسم فذكر لى أنك تكره ذلك، فقال ﷺ: ما الذى أحلّ اسمى وحرم كنىتى؟ أو ما الذى حرم كنىتى وأحل اسمى؟^(١).

ويكره من الكنى أبو يحيى وأبو عيسى^(٢).

ويكره أن يسمى عبيده بأفلق ونجاح ويسار ونافع ورباح وبركة وبرة وحزن وعاصية، لما روى عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: لئن عشت لأنتهين أن يسمى العبيد يساراً أو بركة أو رباحاً أو نجاحاً أو أفلق^(٣).

ويكره من الألقاب والأسماء ما يوازى أسماء الله تعالى كملك الملوك وشاهنشاه وما شاكل ذلك، لأن ذلك عادة الفرس.

ويكره التسمى بالأسماء التى لا تليق إلا بالله سبحانه وتعالى كقدوس وإله وخالق ومهيمن ورحمن، قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلُوباً سَمَوْهُمْ﴾ [الرعد: ٢٣]، قال بعض المفسرين: قل سموهم بأسمائى فانظروا ذلك هل تليق بهم.

ويحرم على كل أحد أن يلقب أخاه أو عبده بلقب يكره لأن الله تعالى نهى عن ذلك، فقال عز وجل: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ [الحجرات: ١١] وسماه فسوقاً.

ويستحب أن تدعو أخاك بأحب أسمائه إليه.

(فصل)

ويستحب لمن غضب إن كان قائماً أن يجلس، وإن كان جالساً أن يضطجع، وإن مس الماء البارد سكن غضبه، لما روى الحسن رضى الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إن الغضب جمرة تتوقد فى قلب ابن آدم فإذا وجد أحدكم ذلك فإن كان قائماً فليقعده وإن كان قاعداً فليتكئ»^(٤).

(١) أبو داود (٤٩٦٨).

(٢) أبو داود (٤٩٦٣).

(٣) مسلم فى: الأدب: حديث (١٢)، وأبو داود فى: الأدب: ب (٦٩)، والترمذى (٢٨٣٦)، وأحمد ١٠/٥ و ١١ و ٢١.

(٤) أحمد ١٩/٣، وعبد الرزاق (٢٠٢٨٩).

ويكره أن يجلس الرجل بين قوم وهم فى سر بغير إذنهم، لأن النبى ﷺ نهى عن ذلك.

ويكره الجلوس بين الظل والشمس.

ويكره الاتكاء على يده اليسرى^(١) والاضطجاع بين الجلوس.

وإذا قام من مجلسه يستحب له أن يقول كفارة المجلس: «سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك»^(٢).

ويكره المشى بالنعل فى المقابر.

ويستحب لمن دخلها أن يقول: اللهم رب هذه الأجساد البالية، والعظام الناخرة، التى خرجت من دار الدنيا وهى بك مؤمنة، صل على محمد وعلى آل محمد، وأنزل عليهم روحاً منك وسلاماً منى، ويقول:

السلام عليكم دار قوم مؤمنين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون^(٣).

لأنه مروي أيضاً.

وإذا زار قبراً لا يضع يده عليه، ولا يقبله، فإنه عادة اليهود، ولا يقعد عليه، ولا يتكىء إليه، ولا يدوسه إلا أن يضطر إلى ذلك كله، بل يقف عند موضع وقوفه منه أن لو كان حيّاً، ويحترمه كما لو كان حيّاً، ويقرأ إحدى عشرة مرة: قل هو الله أحد وغيرها من القرآن، ويهدى ثواب ذلك لصاحب القبر وهو أن يقول: اللهم إن كنت قد أثبتنى على قراءة هذه السورة، فإننى قد أهديت ثوابها لصاحب هذا القبر، ثم يسأل الله حاجته.

ولا يكسر عظماً، ولا يدوسه، فإن أُلجئ إلى ذلك واضطر فليستغفر الله لصاحب القبر.

وتكره الطيرة، ولا بأس بالتفاؤل.

ويستحب التواضع لكل واحد من المسلمين.

ويستحب توقير الشيوخ ورحمة الأطفال والعفو عنهم ولا يترك تأديبهم.

(١) أبو داود (٤٨٤٨)، وأحمد ٣٨٨/٤.

(٢) الترمذى (٣٤٣٣)، وأحمد ٤٩٤/٢.

(٣) مسلم فى: الجنائز: حديث (١٠٢)، وأبو داود (٢٣٣٧)، وأحمد ٣٧٥/٢.

(فصل: ويجوز أن يقول الرجل لغيره: صلى الله عليك)

وصلى الله على فلان ابن فلان لما روى أن علياً رضي الله عنه قال لعمر رضي الله عنه: صلى الله عليك. والنبى ﷺ قال: اللهم صل على آل أبى أوفى^(١).

(فصل: وتكره مصافحة أهل الذمة)

لما روى أبو هريرة رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: لا تصافحوا أهل الذمة^(٢).

(فصل: والأدب فى الدعاء)

أن يمد يديه ويحمد الله تعالى ويصلى على النبى ﷺ ثم يسأل الله حاجته، ولا ينظر إلى السماء فى حال دعائه، وإذا فرغ مسح يديه على وجهه، لما روى عن النبى ﷺ أنه قال: «سلوا الله ببطون أكفكم»^(٣).

(فصل: والتعوذ بالقرآن جائز)

لقوله عز وجل: ﴿فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم﴾ [النحل: ٩٨]، وقوله تعالى: ﴿قل أعوذ برب الفلق﴾ [الفلق: ١]، و ﴿قل أعوذ برب الناس﴾ [الناس: ١].

وما روى: أن النبى ﷺ كان إذا اشتكى شيئاً قرأ على نفسه المعوذتين ونفث. وكان ﷺ يقول: أعوذ بوجه الله الكريم وكلماته التامات من شر ما خلق وذراً وبرا، ومن شر كل دابة ربي أخذ بناصيتها^(٤).

وكذلك الرقية بالقرآن، وبأسماء الله تعالى جائزة، لقوله عز وجل: ﴿وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين﴾ [الإسراء: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿وهذا كتاب أنزلناه مبارك﴾ [الأنعام: ٩٢].

قال النبى ﷺ: «استرقوا لها فإنه لو سبق القدر شيء لسبقته العين»^(٥) ويريد به ﷺ

(١) البخارى ١٥٩/٢، ومسلم فى: الزكاة: حديث (١٧٦)، وأحمد ٣٥٣/٤.

(٢) البيهقى ١٣١/١٠، والإتحاف ٢٧٨/٦.

(٣) أبو داود (١٤٨٥)، والبيهقى ٢/٢١٢، والإرواء ٨٠/٢.

(٤) البخارى ٧١/٦، وأحمد ٣٠٩/٣.

(٥) البخارى ١٧١/٧، ومسلم فى: السلام: حديث (٥٩)، والبيهقى ٣٤٨/٩.

فى حق الحسن والحسين رضى الله عنهما .

(فصل) ويكتب للمحموم ويعلق عليه ما روى عن الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله أنه قال: حممت فكتب لى من الحمى بسم الله الرحمن الرحمن بسم الله وبالله محمد رسول الله ﴿يا نار كونى برداً وسلاماً على إبراهيم﴾ * وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين ﴿[الأنبياء: ٦٩ - ٧٠].

اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل اشف صاحب هذا الكتاب بحولك وقوتك وجبروتك، يا أرحم الراحمين .

(فصل) وقال بعض أصحابنا يكتب للمرأة إذا عسرت عليها الولادة فى جام أو آنية نظيفة «بسم الله الرحمن الرحيم لا إله إلا الله الحليم الكريم، سبحان الله رب العرش العظيم» ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ [الفاتحة: ٢]، ﴿كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها﴾ [النارعات: ٤٦]، ﴿كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار بلاغ فهل يهلك إلا القوم الفاسقون﴾ [الحقاف: ٣٥]، ثم يغسل ويسقى منه، وينضح ما بقى منه على صدرها .

وكذلك تجوز الرقية من النملة وغيرها كالعقارب والحيات والبراغيث والبق لأن النبى ﷺ رخص فى الرقية من كل ذى حمة .

وقال ﷺ: من قال حين يمسى ثلاث مرات: صلى الله على نوح وعلى نوح السلام، لم تلدغه عقرب تلك الليلة^(١) .

وقال ﷺ: «من قال حين يمسى ثلاث مرات: أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق، لم يضره حمة تلك الليلة»^(٢) .

ويجوز النفخ فى الرقية، ويكره التفل .

(فصل) ويغسل العائن وجهه ويديه ومرفقيه وركبتيه وأطراف رجليه وداخل إزاره فى إناء، ثم يصب الماء على المريض، لما روى أبو أمامة بن سهل بن حنيف رضى الله عنه قال: «رأى عامر بن ربيعة سهل بن حنيف، وهو يغتسل فعجب منه فقال: والله ما رأيت كاليوم ولا جلد مُخَبَّاة فى خدرها، أو قال: جلد فتاة، ففلج به حتى ما كان يرفع

(١) تنزيه الشريعة ٣٢٤/٢، والتذكرة (٢١١)، وابن عدى ٤٤٠/٢ .

(٢) الترمذى (٣٣٨٩)، والحاكم ٤١٥/٤ .

رأسه، قال: فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فقال: هل تتهمون أحداً؟ قالوا: لا يا رسول الله، إلا أن عامر بن ربيعة قال له كذا وكذا، فدعاه رسول الله ﷺ ودعا عامراً وقال: سبحان الله لم يقتل أحدكم أخاه إذا رأى شيئاً يعجبه فليدعُ له بالبركة، قال: ثم أمره ﷺ أن يغتسل، فغسل وجهه وظهر كفيه ومرفقيه وغسل صدره وداخل إزاره وركبتيه وقدميه في الإناء ظاهرهما وباطنهما، ثم أمر به فصب على رأسه، فكفىء الإناء من خلفه حسبته قال: فأمره فحسا منه حسوات، فراح مع الركب^(١). وإن اغتسل غسلاً كاملاً ثم صب الماء على المعين كان أكمل.

(فصل: والتعالج في الأمراض جائز)

بالحجامة والفصد والكي وشرب الأدوية والأشربة وقطع العروق والبط وقطع العضو عند وقوع الأكلة فيه وخوف التعدي إلى بقية البدن وقطع البواسير، وكل ما فيه صلاح للجسد، لما روى أن النبي ﷺ احتجم وشاور الطبيب فقال للطبيين: إنما رأيكما طب، فقالوا: يا رسول الله وهل في الطب خير؟ فقال ﷺ: إن الذي أنزل الداء أنزل الدواء^(٢).

وسئل الإمام أحمد عن الكي فقال: الأعراب تفعله، وقد كوى النبي ﷺ، وقد فعله الصحابة رضي الله عنهم.

وقال في موضع آخر: قطع عمران بن حصين رضي الله عنهما عرق النساء. وعن الإمام أحمد رحمه الله رواية أخرى كراهية ذلك.

وأما التداوي بمحرم كالخمر والسم والميتة وشيء نجس فغير جائز، وكذلك بلين الأتني الأهلية، لما روى عن النبي ﷺ أنه قال: «ما جعل شفاء أمتي في ما حُرِّم عليها»^(٣). والحقنة مكروهة إلا عند الضرورة.

ولا يجوز الفرار من الطاعون، وإن كان خارجاً من البلد لا يقدم عليه لثلا يكون عوناً على هلاك نفسه.

(١) ابن ماجه (٣٥٠٩)، وأحمد ٤٨٦/٣، ومالك (٩٣٨ و ٩٣٩).

(٢) بنحوه: الترمذی (٢٠٣٨)، وأبو داود (٣٨٥٥)، وابن ماجه (٣٤٣٦)، وأحمد ٢٧٨/٤.

(٣) البيهقي، ٥/١٠، وتلخيص الحبير ٧٤/٤.

(فصل: ولا يخلو بامرأة ليست منه بمحرم)

لأن النبي ﷺ نهى عن ذلك وقال: «إن الشيطان ثالثهما»^(١)، ولأن الشيطان يزين لهما المعصية.

ولا ينظر إلى امرأة شابة إلا لعذر من شهادة أو علاج فى المرض.

ويجوز النظر إلى المرأة البرزة العجور، لعدم الافتتان بها.

ولا يجتمع رجلان ولا امرأتان عريانين فى لحاف واحد أو إزار، لأن النبي ﷺ نهى عن ذلك، ولأن ذلك يؤدى إلى أن ينظر أحدهما عورة الآخر وذلك منهى عنه، ولأنه لا يؤمن من ارتكاب الفجور بتزيين الشيطان ذلك.

(فصل: فإن كان له مملوك من ذكر أو أنثى وجب عليه الرفق به)

ولا يكلفه من العمل ما لا يطيق، ويكسوه ويطعمه ويزوجه إن شاء، ولا يكرهه على ذلك.

فإن قصر فى ذلك عصي وأمر ببيعه أو عتقه إن شاء، أو يكاتبه إن طلب العبد ذلك. وقد جاء فى الحديث: إن آخر وصية رسول الله ﷺ: «الصلاة وما ملكت أيما نكم»^(٢).

(فصل) وتكره المسافرة بالمصحف إلى أرض العدو لئلا تناله أيدي المشركين، إلا أن يكون للمسلمين قوة ظاهرة وشوكة وغلبة، فيجوز استصحابه ليقراً فيه، لئلا ينسى القرآن.

(فصل) ويستحب إذا نظر فى المرأة أن يقول: الحمد لله الذى سوّى خلقى وأحسن صورتى وزان منى ما شان من غيرى. لأن ذلك مروي عن النبي ﷺ^(٣).

(فصل) وإذا طنت أذنه صلى على النبي ﷺ وليقل: ذكر الله من ذكرنى بخير. لأنه مروي عن النبي ﷺ^(٤).

(١) أحمد ٢٦/١، والترمذى (١١٧١)، والبيهقى ٩١/٧.

(٢) ابن ماجه ١٦٢٥ و ٢٦٩٧ و ٢٦٩٨، وأحمد ١١٧/٣، وشرح السنة ٣٥٠/٩.

(٣) الإتحاف ١١٣/٥، وابن السنى (١٦٢)، ومجمع الزوائد ١٣٨/١٠ - ١٣٩.

(٤) الطبرانى ٣٠١/١، وابن عساكر ٢١٥/٢، وتنزيه الشريعة ٢٩٣/٢، وتذكرة الموضوعات (١٦١).

(فصل) ويقول إذا اشتكى بدنه أو أعضائه ما روى عن النبي ﷺ أنه قال: «من اشتكى منكم شيئاً، أو اشتكى أخ له فليقل: ربنا الله الذي في السماء، تقدر اسمك، أمرك في السماء والأرض كما رحمتك في السماء والأرض، اغفر لنا حوبنا وخطايانا رب الطيبين، انزل رحمة من رحمتك وشفاء من شفائك على الوجع الذي به، فإنه يبرأ بإذن الله تعالى»^(١).

(فصل) وإذا رأى شيئاً يتطير منه قال: اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت، ولا يذهب بالسئآت إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بالله لأنه مروي عن النبي ﷺ^(٢).

(فصل) ويستحب إذا رأى بيعة أو كنيسة أو سمع صوت ناقوس أو رأى جمعاً من المشركين واليهود والنصارى أن يقول:

أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له إلهاً واحداً، لا نعبد إلا إياه فإن ذلك مروي عن النبي ﷺ، وقال: غفر الله له بعدد أهل الشرك^(٣).

(فصل) ويقول إذا سمع صوت الرعد والصواعق: اللهم لا تقتلنا بغضبك، ولا تهلكنا بعذابك، وعافنا قبل ذلك^(٤).

ويقول إذا رأى الريح: اللهم إني أسألك خيرها وخير ما أرسلت به، وأعوذ بك من شرها ومن شر ما أرسلت به.

(فصل) وإذا دخل السوق قال ما كان النبي ﷺ يقول: اللهم إني أسألك خير هذه السوق وخير ما فيها، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها، اللهم إني أعوذ بك أن أصيب فيها يميناً فاجرة أو صفقة خاسرة^(٥).

ويقول: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، يحيى ويميت وهو حي لا يموت بيده الخير وهو على كل شيء قدير.

(١) أبو داود في: الطب: ب (١٩)، والحاكم ٣٤٣/١.

(٢) أبو داود (٣٩١٩)، والبيهقي ١٣٥/٨ - ١٣٩، وابن السني (٢٨٨).

(٣) الطبراني ١٣٦/١٢، ومجمع الزوائد ١٤١/١٠ وعزاه إليه من طريق عمر بن صبيح، وقال: متروك.

(٤) الترمذي (٣٤٥٠)، وأحمد (١٠٠/٢)، والبيهقي ٣٦٢/٣، وشرح السنة ٣٩٣/٤.

(٥) مجمع الزوائد ١٢٩/١٠، وعزاه إلى «الطبراني» من طريق محمد بن أبان الجعفي، وقال: ضعيف.

(فصل) وإذا رأى الهلال قال: اللهم أهله علينا بالأمن والإيمان والسلامة والإسلام، ربي وربك الله عز وجل^(١).

(فصل) وإذا رأى مبتلى قال: الحمد لله الذي عافاني مما ابتلاك به، وفضلني عليك وعلى كثير ممن خلق تفضيلاً^(٢).

فإن الله عز وجل يعافيه من ذلك كائناً ما كان أبداً ما عاش.

(فصل) يقول للحاج إذا قدم من سفره: تقبل الله نسكك، وأعظم أجرك، وأخلف نفقتك.

لما روى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه كان هكذا يقول.

(فصل) وإذا عاد مريضاً مسلماً، ورآه منزولاً به موت قال ما روى عن النبي ﷺ أنه قال: «الموت فزع، فإذا بلغ أحدكم وفاة صاحبه فليقل: إنا لله وإنا إليه راجعون، وإنا إلى ربنا لمنقلبون، اللهم اكتبه عندك من المحسنين، واجعل كتابه في عليين، وأخلف على عقبه في الآخرين، ولا تحرمنا أجره، ولا تفتنا بعده»^(٣).

ويستحب أيضاً أن يشير عليه بالتوبة من الذنوب والخروج من المظالم والوصية بثلاث ماله للأقارب الفقراء منهم الذين لا يرثونه، وإن لم يكونوا للفقراء والمساكين والمساجد والقناطر ووجوه البر والخير.

(فصل) ويقول حين يضع الميت في قبره ما روى عن النبي ﷺ أنه قال: إذا وضعتم موتاكم في القبر فقولوا: بسم الله وعلى ملة رسول الله^(٤).

ويقول إذا حثا التراب على الميت: إيماناً بك وتصديقاً برسولك إيماناً ببعثك، هذا ما وعد الله ورسوله، وصدق الله ورسوله.

لأن ذلك مروى عن علي رضي الله عنه، وقال: من فعل ذلك كان له بكل ذرة من ترابه حسنة.

(١) الترمذي (٣٤٥١)، والدارمي ٤/٢، والطبراني ٣٥٦/١٢.

(٢) ابن ماجه (٣٨٩٢)، وابن السني (٣٠٣)، وابن عساكر ٤٥٦/١.

(٣) ابن السني (٥٥٥)، والأذكار (١٣٢).

(٤) أحمد ٢٧/٢، والبيهقي ٥٥/٤، وابن أبي شيبة ٣٢٩/٣.

باب فى آداب النكاح

من آداب النكاح أن يكون فيه نية المتزوج امتثال أمر الله فى قوله تعالى: ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾ [النور: ٣٢]، وقوله تعالى: ﴿فَأَنْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مِثْنَىٰ وَثَلَاثَ وَرِبَاعَ﴾ [النساء: ٣].

وقوله ﷺ: «تَنَاقَحُوا تَنَاسَلُوا فَإِنِى مَكَاثِرُ بِكُمْ الْأُمَمِ وَلَوْ بِالسَّقَطِ»^(١).

فيعتقد وجوب النكاح بهاتين الآيتين، والخبر عند عدم خوفه الزنا أو عند وجوده، ليخرج من الخلاف فى الجملة، لأن النكاح عند أبى داود فى رواية الإمام أحمد واجب على الإطلاق، فيكون له ثواب الممثل لأمر الله عز وجل.

ويعتقد مع ذلك إحراز دينه وتكميله، لقول النبى ﷺ: «من تزوج فقد أحرز نصف دينه»^(٢)، وقوله ﷺ: «إذا تزوج العبد فقد استكمل نصف دينه»^(٣).

ويتخير الحسيبة الأجنبية البكر، وأن تكون من نساء يعرفن بكثرة الولادة، لأن النبى ﷺ قال لجابر بن عبد الله رضى الله عنهما لما أخبره أنه تزوج بالشيب، فقال له: «أفلا بكرًا تلاعبها وتلاعبك»^(٤).

وإنما شرطنا كثرة الولادة، لما تقدم من قوله ﷺ: «تَنَاقَحُوا تَنَاسَلُوا فَإِنِى مَكَاثِرُ بِكُمْ الْأُمَمِ وَلَوْ بِالسَّقَطِ»^(٥).

وفى بعض الأحاديث قال ﷺ: «تَزَوَّجُوا الْوُدُودَ الْوُلُودَ فَإِنِى مَكَاثِرُ بِكُمْ»^(٦).

وإنما شرطنا الأجنبية ولا تكون من أقاربه، لئلا يقع بينهم منافرة وعدواة فتؤدى إلى قطع الأرحام المأمور بإيصالها، ولهذا منع الشرع الجمع بين الأختين فى عقد النكاح.

(١) عبد الرزاق (١٠٣٩١)، والإتحاف ٥/٢٨٦.

(٢) العلل المنتهية ٢/١٢٢.

(٣) المشكاة (٣٠٩٦)، والصحيحة (٦٢٥).

(٤) أحمد ٣/٣٠٢.

(٥) سبق تخريجه.

(٦) أبو داود (٢٠٥٠)، والنسائى فى: النكاح: ب (١١)، وابن ماجه (١٨٤٦).

ولا ينبغي أن يتزوج سليطة اللسان ولا مختلعة ولا متواشمة، فإذا تزوج فليحسن خلقه معها، ولا يؤذيها ولا يكرهها على مهرها، فتختلع منه، ولا يشتم لها أباً ولا أمّاً، فإن فعل ذلك كان الله ورسوله بريئين منه، قال النبي ﷺ: «استوصوا بالنساء خيراً فإنهن عوان عندكم»^(١) يعنى إسراء.

وقد جاء فى بعض الآثار: «من تزوج امرأة بصدّاق، ولا يريد أن يؤديه إليها جاء يوم القيامة زانياً»^(٢).

فإن آذته امرأة بلسانها وكان فى ذلك إفساد دينه فليفتد هو نفسه منها، أو يلجأ إلى الله عز وجل، ويتبذل إليه بالدعاء، فإنه يكفى. وإن صبر على ذلك كان كالمجاهد فى سبيل الله، وإن طابت هى له بشيء من مالها من غير إكراه فليأكله هنئاً مريئاً، كما قال الله عز وجل.

وينبغي أن يجتهد فينظر إلى وجهها ويديها من غير أن يخلو بها قبل العقد خوفاً إذا رآها بعد العقد لا تقع بقلبه فيكرهها، فيؤدى إلى طلاقها ومفارقتها من قريب. وفى ذلك وقوع فى المكروه عند الله عز وجل لأن النبي ﷺ قال: «ما من مباح أبغض إلى الله تعالى من الطلاق»^(٣).

والأصل فى ذلك ما روى عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا قذف الله تعالى فى قلب أحدكم خطبة امرأة فلينظر إلى وجهها وكفيها فإنه أحرى أن يؤدم بينهما»^(٤).

وما روى عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا خطب أحدكم المرأة فإن استطاع أن ينظر إلى ما يدعوه إلى نكاحها فليفعل» فخطبت جارية فكنت أتحبها لها حتى رأيت منها ما دعانى إلى نكاحها وتزويجها. ذكره أبو داود فى سننه^(٥).

وينبغي أيضاً أن تكون من ذوات الدين والعقل، لما روى أبو هريرة رضى الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «تنكح المرأة لأربع لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها فاظفر بذات الدين

(١) ابن ماجه (١٨٥١).

(٢) الخطيب ٣١٣/٦، والعلل المتناهية ١٣٤/٢.

(٣) بنحوه: أبو داود (٢١٧٨)، وابن ماجه (٢٠١٨)، وشرح السنة ١٩٥/٩.

(٤) الطبرانى ٢٢٥/١٩.

(٥) أبو داود (٢٠٨٢)، وأحمد ٣٣٤/٣، والصحيحه (٩٩).

تربت يدك»^(١).

ولما نص النبي ﷺ على ذات الدين، لأنها تعين الزوج على معيشته وتقنع باليسير، والباقيات يوقعنه في الوزر والوبال، إلا أن يسلمه الله تعالى من ذلك.

وقد فسر أكثر المفسرين قوله عز وجل: ﴿فَالآنَ بَاشِرُوهُمْ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٧] المباشرة: بالجماع، والابتغاء: بابتغاء الولد، أى اطلبوا الولد بالمباشرة.

وكذلك ينبغي للمرأة أن تنوى بذلك تحصين فرجها والولد والثواب الجزيل عند الله بالصبر عند الزوج وعلى الحبل والولادة وتربية الولد، لما روى زياد بن ميمون عن أنس ابن مالك رضى الله عنه قال: إن امرأة كان يقال لها الحولاء عطارة من أهل المدينة دخلت على عائشة رضى الله عنها فقالت: يا أم المؤمنين زوجى فلان أتزين له كل ليلة وأطيب كأنى عروس زفت إليه، فإذا آوى إلى فراشه دخلت عليه فى لحاف، وألتمس بذلك رضا الله تعالى حول وجهه عنى أراه قد أبغضنى، فقالت: اجلسى حتى يدخل رسول الله ﷺ قالت: فبينما أنا كذلك إذ دخل رسول الله ﷺ فقال: ما هذه الريح التى أجدوها، أتكنم الحولاء؟ هل ابتعتم منها شيئاً؟ قالت عائشة رضى الله عنها: لا والله يا رسول الله، فقصت الحولاء قصتها، فقال لها رسول الله ﷺ: اذهبي واسمعي وأطيعي له، قالت: أفعل يا رسول الله، فما لى من الأجر؟ قال ﷺ: ما من امرأة رفعت من بيت زوجها شيئاً ووضعته تريد به الإصلاح إلا كتب الله تعالى لها حسنة ومحا عنها سيئة، ورفع لها درجة، وما من امرأة حملت من زوجها حين تحمل إلا كان لها من الأجر مثل القائم ليله والصائم نهاره والغارى فى سبيل الله، وما من امرأة يأتيها طلق إلا كان لها بكل طلقة عتق نسمة، وبكل رضعة عتق رقبة، فإذا فطمت ولدها ناداها مناد من السماء: أيتها المرأة قد كفيت العمل فيما مضى فاستأنفى العمل فيما بقى. قالت عائشة رضى الله عنها: قد أعطى النساء خيراً كثيراً، فما بالكم يا معشر الرجال فضحك رسول الله ﷺ ثم قال: ما من رجل أخذ بيد امرأته يراودها إلا كتب الله له حسنة، فإن عانقها فعشر حسنة، فإذا أتاها كان خيراً من الدنيا وما فيها، فإذا قام ليغتسل، لم يمر الماء على شعرة من جسده إلا تكتب له بكل قطرة حسنة، وتمحى عنه سيئة وترفع له درجة، وما يعطى بغسله خير من الدنيا وما فيها، وأن الله عز وجل

(١) البخارى ٩/٧، ومسلم فى: الرضاع: حديث (٥٣)، وأحمد ٤٢٨/٢.

يباهى به الملائكة يقول: انظروا إلى عبدى قام فى ليلة قرة يغتسل من الجنابة، يتيقن بأنى ربه، اشهدوا بأنى قد غفرت له»^(١).

وعن المبارك بن فضالة عن الحسن رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «استوصوا بالنساء خيراً فإنهن عَوَانٌ عندكم - يعنى مأسورات - لا يملكن لأنفسهن شيئاً، وإنما أخذتموهن بأمانة الله تبارك وتعالى، واستحللتم فروجهن بكلمة الله عز وجل»^(٢).

وعن عباد بن كثير عن عبد الله الجريرى عن ميمونة زوج النبي ﷺ قالت: «قال لى رسول الله ﷺ: خيار الرجال من أمتى خيارهم لنسائهم، وخير النساء من أمتى خيرهن لأزواجهن، يرفع لكل امرأة منهن كل يوم وليلة أجر ألف شهيد قتلوا فى سبيل الله صابرين محتسبين، وتفضل إحداهن على الحور العين كفضل محمد ﷺ على أدنى رجل منكم، وخير النساء من أمتى من تأتى مسرة زوجها فى كل شئ يهواه ما خلا معصية الله تعالى، وخير الرجال من أمتى من يلطف بأهله لطف الوالدة بولدها، يكتب لكل رجل منهم فى كل يوم وليلة أجر مئة شهيد قتلوا فى سبيل الله صابرين محتسبين، فقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه: يا رسول الله وكيف يكون للمرأة أجر ألف شهيد وللرجل مئة شهيد؟ قال ﷺ: أوما علمت أن المرأة أعظم أجراً من الرجل وأفضل ثواباً فإن الله عز وجل ليرفع للرجل فى الجنة درجات فوق درجاته برضا زوجته عنه فى الدنيا ودعائها له، أوما علمت أن أعظم وزر بعد الشرك بالله المرأة إذا عصت زوجها، ألا فاتقوا الله فى الضعيفين، فإن الله سائلكم عنهما اليتيم والمرأة، فمن أحسن إليهما فقد بلغ إلى الله عز وجل رضوانه، ومن أساء إليهما فقد استوجب من الله سخطه، وحق الزوج كحقي عليكم، فمن ضيع حقي فقد ضيع حق الله، ومن ضيع حق الله فقد باء بسخط من الله ومأواه جهنم وبئس المصير».

وعن أبى جعفر محمد بن على عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال: «بينما نحن عند رسول الله ﷺ وهو فى نفر من أصحابه إذ أقبلت امرأة حتى قامت على رأسه ثم قالت: السلام عليك يا رسول الله، أنا وافدة النساء إليك، ليست امرأة يبلغها

(١) الموضوعات ٢/ ٢٧٠ - ٢٧١.

(٢) سبق تخريجه.

مسيرى إليك إلا أعجبها ذلك يا رسول الله، إن الله تعالى رب الرجال ورب النساء وآدم أبو الرجال وأبو النساء وحواء أم الرجال وأم النساء، فالرجال إذا خرجوا في سبيل الله فقتلوا فأحياء عند ربهم يرزقون، وإذا خرجوا فلهم من الأجر مثل ما علمت، ونحن نحبس عليهم، ونخدمهم فهل لنا من الأجر شيء؟ قال ﷺ: أقرئى عنى النساء السلام وقولى لهن: إن طاعة الزوج والاعتراف بحقه يعدل ما هناك، وقليل منكن يفعلها»^(١).

وعن ثابت عن أنس رضى الله عنه، قال: حين بعثنى النساء إلى رسول الله ﷺ فقلن: «يا رسول الله ذهب الرجال بالفضل وبالجهاد في سبيل الله، فما لنا من عمل ندرك به عمل المجاهدين في سبيل الله؟ قال رسول الله ﷺ مهنة إحداهن في بيتها تدرك بها عمل المجاهدين في سبيل الله»^(٢).

وعن عمران بن حصين رضى الله عنه قال: «سئل رسول الله ﷺ هل على النساء جهاد؟ فقال ﷺ: نعم جهادهن الغيرة، يجاهدن أنفسهن، فإن صبرن فهن مجاهدات، فإن رضين فهن مرابطات، ولهن أجران اثنان».

فينبغى للزوجين أن يعتقدا هذا الثواب المذكور في هذا الحديث وما قبله عند العقد والجماع جميعاً، وأداء الحق الواجب على كل واحد منهما للآخر بقوله عز وجل: ﴿ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف﴾ [البقرة: ٢٢٨] ليكونا مطيعين لله تعالى، ممتثلين أمره جل ثناؤه، وتعتقد المرأة أن ذلك خيراً من العزوبة، لما روى عن النبى ﷺ أنه قال: «ليس شيء خيراً لامرأة من زوج أو قبر»^(٣).

وقال ﷺ: «مسكين مسكين مسكين رجل ليس له امرأة، قيل يا رسول الله: وإن كان غنياً من المال؟ قال: وإن كان غنياً من المال».

وقال أيضاً: «مسكينة مسكينة امرأة ليس لها زوج، قيل يا رسول الله: وإن كانت غنية من المال؟ قال ﷺ: وإن كانت غنية من المال»^(٤).

(١) العلل المتناهية ١٤١/٢، وجامع المسانيد ٤٦٤/٢.

(٢) مجمع الزوائد ٣٠٤/٤: باب ثواب المرأة على طاعتها لزوجها، وعزاه إلى «أبى يعلى» و «البيزار» من طريق روح بن المسيب، وقال: وثقه ابن معين والبيزار، وضعفه ابن حبان وابن عدى.

(٣) بنحوه: الطبرانى فى «الصغير» ١١١/٢، والموضوعات ٢٣٧/٣، والفوائد المجموعة (٢٦٦)، وتنزيه الشريعة ٣٧٢/٢.

(٤) مجمع الزوائد ٢٥٢/٤، وعزاه إلى الطبرانى فى «الأوسط» وقال: رجاله ثقات إلا أن أبا نجیح =

ويستحب أن يكون العقد يوم الجمعة أو الخميس والمساء أولى من التبكير، ويُسن أن تكون الخطبة قبل التواجب، فإن أخرت جاز، وهو مخير بين أن يعقد بنفسه أو يوكل فيه غيره.

فإذا انعقد العقد يستحب للحاضرين أن يقولوا: بارك الله لك، وبارك عليك، وجمع بينكما في خير وعافية^(١).

ثم إن طلبت المرأة أهلها الإمهال استحب له إجابتهم إلى ذلك قدر ما يعلم التهيؤ لأمرها فيه وقضاء حوائجها من شراء الجهاز والتزيين لها.

فإذا زفت إليه اتبع ما روى عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه وذلك أنه جاء رجل فقال: إني تزوجت بجارية بكر، وقد خشيت أن تكرهني أو تفركني فقال له: إن الألف من الله والفرك من الشيطان، وإذا دخلت إليك فمرها أن تصلى خلفك ركعتين، وقل: اللهم بارك لى فى أهلى، وبارك لأهلى فى، اللهم ارزقنى منهم، وارزقهم منى، اللهم اجمع بيننا إذا جمعت فى خير، وفرق بيننا إذا فرقت إلى خير...»^(٢).

فإذا أراد الجماع فليقل: «بسم الله العلى العظيم، اللهم اجعله ذرية طيبة إن قدرت أن تخرج من صلبى، اللهم جنبنى الشيطان، وجنب الشيطان ما رزقتنى»^(٣).

وإذا قضى حاجته فليقل: بسم الله الحمد لله الذى خلق من الماء بشراً، فجعله نسباً وصهرماً، وكان ربك قديراً، يقول ذلك فى نفسه، ولا يحرك به شفتيه.

والأصل فى ذلك ما روى كريب عن ابن عباس رضى الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ: لو أن أحدكم إذا أراد أن يأتى أهله قال: «بسم الله اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا، ثم قدر أن يكون بينهما ولد فى ذلك لم يضره شيطان أبداً»^(٤).

وإذا ظهرت أمارات حبلى المرأة فليصف غذاءها من الحرام والشبهة، ليتخلق الولد على أساس لا يكون للشيطان عليه سبيل.

= لا صحبة له.

والدر المنثور ٣/١١، وكنز العمال (٤٤٤٥٥).

(١) أبو داود (١٣٢٠)، والترمذى (١٠٩١)، وابن ماجه (٧٠٨)، وأحمد ٣/٤٥١.

(٢) مجمع الزوائد ٤/٢٩٢، وعزاه إلى «الطبرانى» وقال: رجاله رجال الصحيح.

(٣) البخارى ١/٤٨، ومسلم فى: النكاح: حديث (١٦)، وأحمد ١/٢٤٣.

(٤) سبق تخريجه.

والأولى أن يكون من حين الزفاف، ويدوم على ذلك، ليتخلص هو وأهله وولده من الشيطان في الدنيا ومن النار في العقبى، قال الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحریم: ٦] ومع ذلك يخرج الولد صالحًا، بارًا بوالديه، طائعًا لربه عز وجل، كل ذلك ببركة تصفية الغذاء.

فإذا فرغ من الجماع تنحى عنها، وغسل ما به من الأذى وتوضأ إن أراد العود إليها، وإلا اغتسل.

ولا ينام جنبًا فإنه مكروه، وكذلك روى عن النبي ﷺ، إلا أن يشق ذلك عليه لبرد أو بعد حمام وماء أو خوف ونحو ذلك.

فينام إلى حين زوال ذلك، ولا يستقبل القبلة عند المجامعة، ويغطي رأسه ويستتر عن العيون، وإن كان عن صبي طفل؛ لأنه روى عن النبي ﷺ قال: «إذا أتى أحدكم أهله فليستتر، فإنه إذا لم يستتر استحييت الملائكة وخرجت ويحضره الشيطان، وإذا كان بينهما ولد كان الشيطان فيه شريكًا»^(١).

وكذلك يروى عن السلف أنه إذا لم يسم عند الجماع التف الشيطان على إحليله يطاء كما يطاء.

ويستحب له الملاعبة لها قبل الجماع، والانتظار لها بعد قضاء حاجته، حتى تقضى حاجتها، فإن في ترك ذلك مضرة عليها، ربما أفضى إلى البغضاء والمفارقة.

وإن أراد العزل عنها فلا يفعل إلا بإذنها إن كانت حرة، وإذنها سيدها إن كانت أمة، وإن كانت أمته جاز بغير إذنها، لأن الحق له دونها. وقد جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: إن لى جارية هى خادمتنا أطوف عليها، وأنا أكره أن تحمل، قال ﷺ: اعزل عنها إن شئت فإنه سيأتيها ما قدر لها^(٢).

ويجتنب وطأها في حال الحيض والنفاس، وكذلك بعد انقطاع الدم حتى تغتسل من الحيض قولاً واحداً، وفي النفاس قبل الأربعين استحباباً.

فإن لم تجد الماء وجب التيمم.

فإن خالف فوطئ في الحيض تصدق بدينار أو نصف دينار على إحدى الروايتين،

(١) ابن ماجه (١٩٢١)، والبيهقى ١٩٣/٧، والخطيب ٢٤٨/١٣.

(٢) مسلم فى: النكاح: حديث (١٣٤)، وأبو داود (٢١٧٣)، وأحمد ٣/٣١٢.

والأخرى: يستغفر الله تعالى ويتوب إليه ألا يرجع إلى مثله، ولا يكفر.
ويجتنب وطأها في الموضع المكروه. قال النبي ﷺ: «ملعون من أتى امرأة في دبرها»^(١).

فإن لم تتق نفسه إلى الجماع لا يجوز له تركه، لأن لها حقاً في ذلك، وعليها مضرة في تركه، لأن شهوتها أعظم من شهوته، وقد روى أبو هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «فضلت شهوة النساء على الرجال بتسعة وتسعين، إلا أن الله تعالى ألقى عليهن الحياء»^(٢).

وقيل: الشهوة عشرة أجزاء تسعة منها للنساء وواحدة للرجال.
والقدر الذي لا يجوز أن يؤخر الوطء عنه أربعة أشهر، إلا أن يكون له عذر، فإن جاوز أربعة أشهر كان لها فراقه.

وإن سافر عنها مدة أكثر من ستة أشهر فطلبت منه القدوم فأبى أن يقدم مع القدرة كان للحاكم أن يفرق بينهما، إذا طلبت الزوجة ذلك، وهذا هو التوقيت الذي وقته عمر ابن الخطاب رضي الله عنه للناس في مغازيهم، يسرون شهراً، ويقيمون أربعة أشهر، ويسرون راجعين إلى أهلهم شهراً.

وإذا رأى امرأة غيره فأعجبته جامع امرأته، ليسكن ما به من التوقان، لما روى عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا رأى أحدكم امرأة تعجبه فليأت أهله، فإن لم يكن له امرأة فإن الشيطان يقبل في صورة امرأة ويدبر في صورة امرأة»^(٣).

فمن لم تكن له امرأة يلتجئ إلى الله عز وجل ويسأله السلامة من معاصيه، ويستعيذ به من الشيطان الرجيم.

ولا يجوز له أن يحدث غيره بما جرى بينه وبين أهله من أمر الجماع، ولا المرأة أن تحدث بذلك النساء، لأن ذلك سخف ودناءة وقبيح في الشرع والعقل، لما روى أبو هريرة رضي الله عنه في حديث فيه طول عن النبي ﷺ إلى أن قال: ثم أقبل على الرجال فقال: هل منكم الرجل إذا أتى أهله فأغلق عليه بابه وألقى عليه ستره، واستتر

(١) أبو داود في: النكاح: ب (٤٦)، وأحمد ٤٤٤/٢، وشرح السنة ١٠٦/٩.

(٢) كنز العمال (٤٤٨٤٥)، وتذكرة الموضوعات (١٣٠)، والفوائد المجموعة (١٣٦).

(٣) كنز العمال (١٣٠٥٠).

بستر الله؟ قالوا: نعم، قال: ثم يجلس بعد ذلك فيقول: فعلت كذا، فعلت كذا، قال: فسكتوا، قال: فأقبل على النساء، فقال: هل منكن من تحدث؟ فسكتن، فجثت فتاة على إحدى ركبتيها، وتناولت لرسول الله ﷺ ليراها ويسمع كلامها، فقالت: يا رسول الله، إنهم ليتحدثون وإنهن ليتحدثن، فقال: هل تدرون ما مثل ذلك؟ إنما مثل ذلك مثل شيطانة لقيت شيطاناً في السكة، ففضى منها حاجته، والناس ينظرون إليه، ألا وإن طيب الرجال ما ظهر ريحه ولم يظهر لونه، ألا إن طيب النساء ما ظهر لونه ولم يظهر ريحه^(١).

(فصل) وإذا دعا امرأته للجماع فأبت عليه كانت عاصية لله تعالى، وعليها وزر، قال النبي ﷺ في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «أيما امرأة منعت زوجها حاجته كان عليها قيراطان من الأصر، وأيما رجل منع امرأته حاجتها كان عليه من الأصر قيراط»^(٢). يعني الإثم.

وفي بعض الأحاديث قال ﷺ: «إذا دعا الرجل زوجته لحاجته فلتأته وإن كانت على التنور»^(٣).

وروى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا دعا أحدكم امرأته إلى فراشه فلم تأته فبات غضبان عليها لعنتها الملائكة حتى تصبح»^(٤).

وعن قيس بن سعد رضي الله عنه قال: أتيت الحيرة فرأيتهم يسجدون لمرزبان لهم، فقلت لرسول الله ﷺ أحق أن يسجد له، قال: فأتيت النبي ﷺ فقلت له: إني أتيت الحيرة فرأيتهم يسجدون لمرزبان لهم، فأنت يا رسول الله أحق أن يسجد لك، فقال ﷺ: أرايت لو مررت بقبري أكنت تسجد له؟ قال: قلت: لا. قال ﷺ: فلا تفعلوا ذلك، لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد لأمرت النساء أن يسجدن لأزواجهن لما جعل الله تعالى لهم عليهن من حق^(٥).

والمرزبان: هو ملك لهم.

(١) أبو داود في: النكاح: ب (٥٠)، وكنز العمال (٤٨٧٩ و ٤٤٩٠٨).

(٢) لم أقف عليه في المصادر التي بين يدي.

(٣) الترمذي في: الرضاع: ب (١٠)، وأحمد ٢٣/٤.

(٤) مسلم في: النكاح: حديث (١٢٢)، وأبو داود (٢١٤١)، والبيهقي ٢٩٢/٧.

(٥) أبو داود في: النكاح: ب (٤١)، وأحمد ٣٨١/٤.

وعن حكيم بن معاوية القشيري عن أبيه رضى الله عنه قال: قلت يا رسول الله: ما حق زوجة أحدنا عليه؟ قال ﷺ: أن تطعمها إذا طعمت، وتكسوها إذا اكتسيت، ولا تضرب الوجه، ولا تقبح، ولا تهجر إلا في البيت^(١).

فإن أصرت المرأة على النشور وهو الامتناع عن الإجابة لهذا الشأن، أو تحجيه متكرهة متبرمة، فليبدأ الزوج بوعظها ويخوفها بالله عز وجل، فإن أقامت على ذلك هجرها في المضجع والكلام فيما دون ثلاثة أيام، فإن ارتدعت وإلا كان له ضربها بما لا يكون مبرحاً كالدرّة أو مخراق؛ لأن المقصود ارتداعها وطاعتها له لا إهلاكها.

فإن لم ينصلح الحال بينهما بعث الحاكم حكمين حرين مسلمين عدلين من أهلها، ويوكلهما الزوجان، فينظران بينهما ما فيه من المصلحة من إصلاح أو فراق بآل وغيره، فما يفعلان يلزمهما حكمه.

(فصل) ويستحب وليمة العرس والسنة ألا ينقص فيها عن شاة، وبأى شيء أولم من الطعام جاز، وتحب إجابته إذا كان مسلماً في اليوم الأول، ويستحب في اليوم الثاني، ويباح في اليوم الثالث، بل هي دئاة، والأصل في ذلك ما روى عن النبي ﷺ أنه قال لعبد الرحمن رضى الله عنه: أولم ولو بشاة^(٢).

وقال ﷺ: «الوليمة في أول يوم حق، والثاني معروف، وبعد ذلك دئاة»^(٣).

وقال ﷺ: في حديث ابن عمر رضى الله عنهما: «إذا دعى أحدكم إلى وليمة عرس فليجب، فإن كان مفطراً أكل، وإن كان صائماً ترك وانصرف»^(٤).

وهل يكره النثار والتقاطه أم لا؟

على روايتين:

إحدهما: يكره لما فيه من السخف ودئاة النفس والنهبة والشره، فكانت الصيانة عن ذلك أولى، وتركه في باب الورع أخرى.

وعلى الرواية الثانية: لا يكره، لما روى أن النبي ﷺ نحر بدنة وخلي بينها وبين

(١) أبو داود (٢١٤٢)، والبيهقي ٣٠٥/٧، وشرح السنة ١٦٠/٩.

(٢) البخاري ١٣/١، ومسلم في: النكاح: حديث (٨١:٧٩)، وأحمد ١٦٥/٣.

(٣) أبو داود (٣٧٤٥)، وابن ماجه (١٩١٥)، والدارمي ١٠٥/٢، وأحمد ٢٨/٥.

(٤) ابن ماجه (١٩١٤)، وأحمد ٢٢/٢.

المساكين، وقال: من شاء اقتطع^(١) ولا فرق بين النشار وبين ذلك. وأولى من ذلك: القسمه بين الحاضرين فإنه أطيب وأحل وأدخل في باب الورع.

(فصل) فإذا كملت شرائط عقد النكاح وهو: حضور الولي العدل، والشهود العدول، والكفاءة، والخلو من المانع من الردة والعدة وغيرهما، استأذنها العاقد للنكاح إذا لم تكن مجبرة، وهو إذا كانت ثيباً أو بكرًا لا أب لها، وعرفها الزوج مقدار الصداق وصفته، ثم يخطب، ويستغفر الله عز وجل، ويأمر بذلك الولي على وجه الاستحباب والأولى، ثم يستنطقه فيقول له: قد زوجتك بتي أو أختي فلانة فيسميها على ما اتفقا عليه من الصداق، ويقول الزوج: قد قبلت هذا النكاح.

ولا ينعقد النكاح إلا بالعربية لمن يحسنها، فإن لم يحسنها فبلسانه ولغته. وهل يلزمه تعلم العربية إذا لم يحسنها لعقد النكاح أم لا؟ على الوجهين.

ويستحب أن يخطب بخطبة عبد الله بن مسعود رضى الله عنه، لأنه قد روى أن الإمام أحمد بن حنبل كان إذا شهد إماماً ولم يسمع خطبة عبد الله بن مسعود ترك الإمام وأصرف، وهو ما أخبرنا به الإمام هبة الله بن المبارك بن موسى السقطي ببغداد، عن القاضي أبي المظفر هناد بن إبراهيم بن محمد بن نصر النسفي، عن القاضي أبي عمر القاسم بن جعفر بن عبد الواحد الهاشمي البصري، عن محمد بن إسحاق اللؤلؤي، عن أبي داود، قال: حدثنا محمد بن سليمان الأنباري المفتي، قال: حدثنا وكيع عن إسرائيل، عن ابن إسحاق عن أبي الأخوص عن أبي عبيدة عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال: «علمنا رسول الله ﷺ خطبة النكاح:

الحمد لله نعمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً﴾ [النساء: ١].

﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾ [آل عمران: ١٠٣].

(١) أحمد ٣٥٠/٤، والحاكم ٢٢١/٤، والإرواء ١٩/٧.

﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً * يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً﴾ [الأحزاب: ٧٠ - ٧١] ^(١).

ويستحب أن يضيف إليها قوله عز وجل: ﴿وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله والله واسعٌ عليم﴾ [النور: ٣٢]، ﴿يرزق من يشاء بغير حساب﴾ [النور: ٣٨].

وإن قرأ غير هذه الخطبة جاز، مثل: أن يقول: الحمد لله المتفرد بآلائه، الجواد بإعطائه، الذي تجلّى في سمائه المتوحد بكبريائه، لا يصفه الواصفون حق صفته، ولا ينعتة الناعتون حق نعته، لأنه الله الأحد الصمد المعبود، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، تبارك الله العزيز الغفار، بعث محمداً ﷺ بالحق نبياً صفيّاً برياً من العاهات كلها، فبلغ ما أرسل به، سراجاً زاهراً ونوراً ساطعاً وبرهاناً لامعاً ﷺ وعلى آله أجمعين.

ثم أن هذه الأمور كلها بيد الله يصرفها في طرائقها، ويمضيها في حقائقها، لا مقدم لما آخر، ولا مؤخر لما قدم، ولا يجتمع اثنان إلا بقضاء وقدر، ولكل قدر أجل، ولكل أجل كتاب ﴿يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب﴾ [الرعد: ٣٩].

وكان من قضاء الله وقدره أن فلان ابن فلان يخطب كريمتكم فلانة بنت فلان، وقد أتاكم راغباً فيكم، خاطباً كريمتكم، وقد بذل لها من الصداق ما وقع عليه الاتفاق، فزوجوا خاطبكم، وأنكحوا راغبكم، قال الله تعالى:

﴿وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله والله واسعٌ عليم﴾ [النور: ٣٢].

فإذا فرغ من الخطبة، عقد النكاح على ما قدمنا ذكره.

(١) أبو داود في الجمعة: ب (٢٣)، والنسائي في الجمعة: ب (٢٣)، وأحمد ١/ ٣٥٠.

باب فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر

وقد ذكر الله عز وجل الأمرين بالمعروف والناهيين عن المنكر، ومدحهم فى كتابه.
قال الله عز وجل: ﴿الأمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله
وبشر المؤمنين﴾ [التوبة: ١١٢].

وقال الله تعالى: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر
وتؤمنون بالله﴾ [آل عمران: ١١٠].

وقال تعالى: ﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون
عن المنكر﴾ [التوبة: ٧١].

وروى عن النبى ﷺ أنه قال: «لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، أو ليسلطن الله
تعالى شراركم على خياركم، فيدعو خياركم فلا يستجاب لهم»^(١).

وروى سالم بن عبد الله بن عمر عن أبيه رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
«مروا بالمعروف وانهوا عن المنكر قبل أن تدعوا فلا يستجاب لكم، وقبل أن تستغفروا
فلا يغفر لكم، إن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لا يدفع رزقاً ولا يقرب أجلاً، ألا
إن الأحبار من اليهود، والرهبان من النصارى لما تركوا الأمر بالمعروف، والنهى عن
المنكر لعنهم الله على لسان أنبيائهم ثم عموا بالبلاء»^(٢).

فالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واجبان على كل مسلم حر مكلف عالم بذلك،
بشرط القدرة على وجه لا يؤدى إلى فساد عظيم وضرر فى نفسه وماله وأهله، ولا فرق
بين أن يكون إماماً أو عالماً أو قاضياً أو واحداً من الرعية.

ولما شرطنا العلم بالمنكر والقطع به، لما فى ذلك من خوف الوقوع فى الإثم، لأنه
لا يأمن المنكر أن يكون الأمر بخلاف ما ظن، لقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا
كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم﴾ [الحجرات: ١٢].

(١) أبو داود فى: الملاحم: ب (١٧)، وأحمد ٣٩١/٥، والبيهقى ٩٣/١٠.

(٢) البيهقى ٩٣/١٠، والحلية ٢٨٧/٨.

ولا يجب عليه كشف ما ستر عنه لأن الله تعالى نهى عن ذلك فقال: ﴿ولا تجسسوا﴾ [الحجرات: ١٢]، إنما الواجب عليه إنكار ما ظهر، وفي بحث ما ستر كشف الستر، وذلك ممنوع في الشرع.

(فصل) وإنما شرطنا القدرة على ذلك لما روى عن النبي ﷺ أنه قال: «ما من قوم يكون فيهم رجل يعمل المعاصي، ويقدر أن يغيروا عليه فلا يغيروا عليه إلا عمهم الله بعذاب قبل أن يتوبوا»^(١).

فقد شرط عليه الصلاة والسلام ذلك وهو إذا كانت الغلبة لأهل الصلاح وعدل السلطان وأعانه أهل الخير.

وأما إذا كان الإنكار تغريراً بالنفس مع لحوق ضرر به وبماله فلا يجب عليه ذلك؛ لقوله عز وجل: ﴿ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾ [البقرة: ١٩٥]، وقوله تعالى: ﴿ولا تقتلوا أنفسكم﴾ [النساء: ٢٩].

وقول النبي ﷺ: «لا ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه، قيل يا رسول الله: كيف يذل نفسه؟ قال ﷺ: لا يتعرض لما لا يمكنه»^(٢).

وقول النبي ﷺ: «إذا رأيتم أمراً لا تستطيعون تغييره فاصبروا حتى يكون الله تعالى هو الذي يغيره»^(٣).

فإذا ثبت أنه لا يجب عليه الإنكار فهل يجوز إنكاره إذا غلب على ظنه الخوف على نفسه، فعندنا يجوز ذلك وهو الأفضل إذا كان من أهل العزيمة والصبر، فهو كالجهاد في سبيل الله مع الكفار، وقد قال الله تعالى في قصة لقمان: ﴿وأمر بالمعروف وأنه عن المنكر واصبر على ما أصابك﴾ [لقمان: ١٧].

وقال النبي ﷺ لأبي هريرة رضي الله عنه: «يا أبا هريرة مر بالمعروف وأنه عن المنكر واصبر على ما أصابك»^(٤).

ولا سيما إذا كان ذلك عند سلطان جائر، أو لإظهار كلمة الإيمان عند ظهور كلمة

(١) ابن عدى ١٢١٦/٣، وأمالى الشجرى ٣٥/١.

(٢) الترمذى (٢٢٥٤)، وابن ماجه (٤٠١٦)، والطبرانى ٤٠٩/١٢.

(٣) الطبرانى ١٩٣/٨، ومجمع الزوائد ٢٧٥/٧ وعزاه إليه من طريق عقير بن معدان، وقال: هو ضعيف.

(٤) البيهقى ١٧٣/١٠، والخطيب ٢٥٨/٨.

الكفر، لأن الفقهاء اتفقوا على ذلك، وإنما الخلاف بيننا وبينهم في غير هذين الموضوعين.

(فصل) وإذا غلب على ظنه عدم زوال المنكر وبقاؤه على ذلك، فهل يجب عليه إنكاره، أم لا؟ على روايتين عن الإمام أحمد رحمه الله:

إحدهما: يجب لجواز أن يرتدع وينزجر، ويرق قلبه، ويلحقه التوفيق والهداية ببركة صدقه، فيرجع عما هو عليه، والظن لا يمنع من جواز إنكاره.

والرواية الأخرى: لا يجب عليه إنكاره حتى يغلب على ظنه زواله، لأن القصد بالإنكار زوال المنكر، فإذا قوى في الظن بقاؤه كان تركه أولى.

(فصل) فإذا ثبت وجوب الإنكار، فالمنكرون ثلاثة أقسام:

قسم: يكون إنكارهم باليد، وهم الأئمة والسلاطين.

والقسم الثاني: إنكارهم باللسان دون اليد، وهم العلماء.

والقسم الثالث: إنكارهم بالقلب، وهم العامة.

وقد جاء في هذا المعنى حديث، وهو ما روى أبو سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «أذا رأى أحد منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»^(١).

يعنى: أضعف فعل أهل الإيمان.

وقد روى عن بعض الصحابة رضي الله عنهم أنه قال:

«إذا رأى أحد منكم منكراً لا يستطيع النكير عليه فليقل ثلاث مرات: اللهم إن هذا منكر فأزله، فإذا قال ذلك كان له ثواب من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر»^(٢).

(فصل) ويشترط في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خمس شرائط:

أولها: أن يكون عالماً بما يأمر وينهى.

والثاني: أن يكون قصده وجه الله، وإعزاز دين الله، وإعلاء كلمته، وإظهار طاعته، دون الرياء والسمعة والحمية لنفسه، وإنما ينصر ويوثق ويزول به المنكر إذا كان صادقاً

(١) مسلم: حديث (٦٩)، والترمذي (٢١٧٣)، والنسائي ١١١/٨ و ١١٢، وأحمد ٢٠/٣.

(٢) تذكرة الموضوعات (٥٢٩).

مخلصاً، قال الله تعالى: ﴿إِنْ تَنْصَرُوا لِلَّهِ يَنْصِرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧]، وقال الله تعالى: ﴿إِنْ لَمْ يَنْصَرُوا لِلَّهِ لَآتَيْنَهُمْ بِالْعَذَابِ أَنْ يَكُونُوا زَايِلِينَ﴾ [النحل: ١٢٨].

فإذا اتقى الشرك وترك نظر الخلق في إنكاره وأحسن العمل بإخلاصه في ذلك كان الظفر له، وإن كان غير ذلك كان له الخذلان والصغار والذلة والمهانة، وبقاء المنكر على حاله، بل زيادته وتفاقمه وضراوة أهل المعاصي واتفاق شياطين الإنس والجن على مخالفة الله تعالى، وترك طاعته، وارتكاب المحرمات.

والثالث: أن يكون أمره ونهيه باللين والتودد، لا بالفظاظة والغلظة، بل بالرفق والنصح والشفقة على أخيه، كيف وافق عدوه الشيطان اللعين الذي قد استولى على عقله، وزين له معصية ربه ومخالفة أمره، يريد بذلك إهلاكه وإدخاله النار، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَدْعُو حُزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦]، وقال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لَنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وقال تعالى لموسى وهارون عليهما السلام حين بعثهما إلى فرعون: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيْسَ لَكَ بِتَذَكُّرٍ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه: ٤٤].

وقال النبی ﷺ في حديث أسامة: «لا ينبغي لأحد أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر حتى يكون فيه ثلاث خصال: عالماً بما يأمر، عالماً بما ينهى، رفيقاً فيما يأمر، رفيقاً فيما ينهى»^(١).

والرابع: أن يكون صبوراً حليماً حمولاً متواضعاً زائلاً الهوى قوى القلب لين الجانب، طيباً يداوى مريضاً، حكيماً يداوى مجنوناً، إماماً هادياً، قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا﴾ [السجدة: ٢٤] على احتمال الأذى من قومهم على نصرة دين الله وإعزازه والقيام معه، فجعلهم أئمة هداة أطباء الدين، قادة المؤمنين. وقال الله تعالى في قصة لقمان: ﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧].

والخامس: أن يكون عاملاً بما يأمر، متزهاً عما ينهى عنه، وغير متلطف به، لئلا يكون لهم تسلط عليه، فيكون عند الله مذموماً ملوماً، قال الله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٤٤].

(١) الإتحاف ٤٩/٧، والمغنى عن حمل الأسفار ٣٢٨/٢.

وقال النبي ﷺ في حديث أنس بن مالك رضى الله عنه: «رأيت ليلة أسرى بى رجالاً تقرض شفاههم بالمقاريض، فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء خطباء أمتك الذين يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب»^(١).
قال الشاعر:

لا تنه عن خلقٍ وتأتى مثله عارٌ عليك إذا فعلت عظيم

وقال قتادة رضى الله عنه: ذكر لنا أن فى التوراة مكتوباً أن ابن آدم يذكرنى وينسانى، ويدعو إلى ويفر منى، باطل ما تذهبون. وأراد بذلك عز وجل: من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويترك نفسه وهو تعالى أعلم بذلك.

(فصل) والأولى له إن استطاع أن يأمره وينهاه سرّاً فى خلوة، ليكون ذلك أبلغ وأمكن فى الموعظة والزجر والنصيحة له، وأقرب إلى القبول والإقلاع، وقد قال أبو الدرداء رضى الله عنه: «من وعظ أخاه بالعلانية فقد شانه، ومن وعظه سرّاً فقد رانه»، فإن فعل ذلك ولم ينفعه أظهر حيثئذ ذلك، واستعان عليه بأهل الخير، وإن لم ينفع فبأصحاب السلطان.

وينبغى ألا يترك إنكار المنكر أبداً، لأن الله تعالى ذم قومًا تركوا ذلك وتغافلوا عنه، قال عز وجل: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٩]، وقال تعالى: ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السَّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [المائدة: ٦٣]، يعنى: هلا نهاهم علماؤهم وفقهاؤهم وقراؤهم عن القول بالفاحش وأكل الحرام وفعل المعاصى.

وقيل: إن الله تعالى أوحى إلى يوشع بن نون عليه السلام إنى مهلك من قومك أربعين ألفاً من خيارهم وستين ألفاً من شرارهم، قال: يا رب هؤلاء الأشرار فما بال الأخيار؟ قال تعالى: إنهم لم يغضبوا بغضبى وواكلوهم وشاربوهم.

(فصل) وقد ذكرنا أن الشرط الخامس: أن يكون عالماً بما يأمر متنزهًا عما ينهى عنه، إلا أن شيوخنا ذكروا: إن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واجب على الفاسق، كوجوبه على العدل، فأشرنا إلى ذلك لما تقدم من عموم الآيات والأخبار من غير فرق.

(٥) أحمد ٢٣٩/٣، وابن حبان (٣٥).

وقد حمل بعض السلف قوله تعالى: ﴿ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله﴾ [البقرة: ٢٠٧] على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه سمع إنساناً يقرأ هذه الآية، فقال: ﴿إنا لله وإنا إليه راجعون﴾ [البقرة: ١٥٦]، قام رجل يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر فقتل.

وعن أبى أمامة رضى الله عنه قال: إن رسول الله ﷺ قال: «أفضل الجهاد كلمة حق عند إمام جائر»^(١).

وعن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «سيد الشهداء يوم القيامة حمزة بن عبد المطلب، ورجل قام إلى إمام جائر، فأمره ونهاه فقتله»^(٢).

وقد ذكر الله تعالى الذى ينهى عن المنكر، وتأخذه العزة فلا يمتنع، فقال تعالى: ﴿وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم﴾ [البقرة: ٢٠٦] الآية.

وقال ابن مسعود رضى الله عنه: إن من أكبر الذنوب عند الله تعالى أن يقال للعبد اتق الله، فيقول: عليك بنفسك.

وجميع ذلك عام فى حق الصالح والطالح.

وروى أبو هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: «مروا بالمعروف وإن لم تعملوا به، وانهاؤا عن المنكر وإن لم تنتهوا عنه»^(٣).

ولأنه لا يخلو أحد من معصية إما ظاهراً وإما باطناً.

فإن قلنا لا ينكر إلا المتنزه عنه، تعذر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فيندرس الدين ويضمحل.

(فصل) والذى يؤمر به وينكر على ضربين:

فكل ما وافق الكتاب والسنة والعقل فهو معروف.

وكل ما خالف ذلك فهو منكر.

ثم ذلك ينقسم قسمين:

(١) أبو داود (٤٣٤٤)، وابن ماجه (٤٠١١)، والطبرانى ٣٣٨/٨.

(٢) أبو داود (١٩٥)، والطبرانى ١٦٥/٣، والصحيح (٣٧٤).

(٣) مجمع الزوائد ٢٧٧/٧، وعزاه إلى الطبرانى فى «الصغير» و«الأوسط» من طريق عبد السلام بن عبد القدوس بن حبيب عن أبيه، وقال: هما ضعيفان.

أحدهما: ظاهر يعرفه العوام والخواص، وهو كوجوب الصلوات الخمس، وصوم رمضان والزكاة والحج وغير ذلك، ومن المنكر: كتحريم الزنا وشرب الخمر والسرقه وقطع الطريق والربا والغصب وغير ذلك، فهذا القسم يجب إنكاره على العوام، كما يجب على الخواص من العلماء.

والقسم الثانى: ما لا يعرفه إلا الخواص، مثل: اعتقاد ما يجوز على البارى تعالى وما لا يجوز عليه.

فهذا يختص إنكاره بالعلماء، فإن أخبر أحد من العلماء بذلك واحداً من العوام جار له ذلك.

ووجب على العامى الإنكار عند القدرة على ما بينا، ولا يجوز قبل ذلك.

وأما إذا كان الشىء مما اختلف الفقهاء فيه وساغ فيه الاجتهاد، كشرب عامى النبذ مقلداً لأبى حنيفة رحمه الله، وتزوج امرأة بلا ولى على ما عرف من مذهبه، لم يكن لأحد ممن هو على مذهب الإمام أحمد والشافعى رحمهما الله الإنكار عليه، لأن الإمام أحمد قال فى رواية المرزوى: لا ينبغى للفقهاء أن يحمل الناس على مذهبه ولا يشدد عليهم، وإذا ثبت هذا فالإنكار إنما يتعين فى خرق الإجماع دون المختلف فيه.

وقد نقل عن الإمام أحمد رحمه الله ما يدل على جواز الإنكار فى المختلف فيه وهو ما قال فى رواية الميمونى فى الرجل يمر بالقوم وهو يلعبون بالشطرنج ينهاهم ويعظهم، ومعلوم أن هذا جائز عند أصحاب الشافعى رحمهم الله.

(فصل) وينبغى لكل مؤمن أن يعمل بهذه الآداب فى سائر أحواله، ولا يترك العمل بها.

وقد روى عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال: «تأدبوا ثم تعلموا».

وقال أبو عبد الله البلخى رحمه الله: «أدب العلم أكثر من العلم».

وقال عبد الله بن المبارك رحمه الله: «إذا وصف لى رجل له علم الأولين والآخرين ولا أدب له لا أتأسف على فوت لقائه، وإذا سمعت برجل له أدب النفس أتمنى لقاءه وأتأسف على فواته».

ويقال مثل الإيمان كمثلى بلدة لها خمسة من الحصون، الأول من ذهب، والثانى من

فضة، والثالث من حديد، والرابع من آجر، والخامس من لبن، فما دام أهل الحصن متعاهدين الذى هو من لبن لا يطمع العدو فى الثانى، فإذا أهملوا ذلك طمعوا فى الحصن الثانى ثم فى الثالث حتى تخرب الحصون كلها، فكذلك الإيمان فى خمسة من الحصون، أولها اليقين، ثم الإخلاص، ثم أداء الفرائض، ثم إتمام السنن، ثم حفظ الآداب، فما دام العبد يحفظ الآداب ويتعاهدها فالشيطان لا يطمع فيه.

فإذا ترك الآداب طمع الشيطان فى السنن ثم فى الفرائض، ثم فى الإخلاص، ثم فى اليقين.

فينبغى للإنسان أن يحفظ الآداب فى جميع أموره من الوضوء والصلاة والبيع والشراء وغير ذلك.

هذا آخر ما اخترنا وأردنا ولخصنا من آداب الشريعة، فبامتنال الأمر فى العبادات الخمس المقدم ذكرها يصير مسلمًا، وبالتأدب بهذه الآداب يكون تابعًا للسنة ومقتفيًا للأثر، ويحصل له بذلك معرفة ما ينبغى.

ويبقى عليه حقيقة معرفة الصانع وهى من أعمال القلب، فأخرناها ليسهل عليه الدخول فى ديننا.

فإذا قمص بنور الإسلام ظاهرًا قلنا له: قمص بنور الإيمان باطنًا.

القسم الثاني

في

العقائد

باب فى معرفة الصانع عز وجل

نقول: أما معرفة الصانع عز وجل بالآيات والدلالات على وجه الاختصار، فهى:
أن يعرف ويتيقن أن الله واحد أحد فرد صمد، ﴿لم يلد ولم يولد * ولم يكن له كفواً أحد﴾ [الإخلاص: ٣ - ٤]، ﴿ليس كمثله شىء وهو السميع البصير﴾ [الشورى: ١١] لا شبيه له ولا نظير، ولا عون ولا ظهير، ولا شريك ولا وزير، ولا ند ولا مشير، ليس بجسم فيمس، ولا بجوهر فيحس، ولا عرض فيقضى، ولا ذى تركيب أو آلة وتآليف، أو ماهية وتحديد.

وهو الله للسماء رافع، وللأرض واضع، لا طبيعة له من الطباع، ولا طالع له من الطوالع، ولا ظلمة تظهر، ولا نور يزهر، حاضر الأشياء علماً، شاهد لها من غير مماسة، قاهر حاكم قادر، راحم غافر، سائر معز ناصر، رؤوف خالق فاطر، أول آخر، ظاهر باطن، فرد معبود، حى لا يموت، أزلى لا يفوت، أبدى الملكوت سرمدى الجبروت، قيوم لا ينام، عزيز لا يضام، منيع لا يرام، له الأسماء العظام والمواهب الجسام، قضى بالفناء على جميع الأنام فقال: ﴿كل من عليها فان * ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام﴾ [الرحمن: ٢٦ - ٢٧].

وهو بجهة العلو مستوٍ على العرش، محتو على الملك، محيط علمه بالأشياء، ﴿إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه﴾ [فاطر: ١٠].

﴿يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون﴾ [السجدة: ٥].

خلق الخلائق وأفعالهم وقدر أرواقهم وآجالهم، لا مقدم لما آخر، ولا مؤخر لما قدم، أراد ما العالم فاعلوه، ولو عصمهم لما خالفوه، ولو شاء أن يطيعوه جميعاً لأطاعوه، يعلم السر وأخفى، عليم بذات الصدور، ﴿ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير﴾ [الملك: ١٤].

هو المحرك، هو المسكن، لم تتصوره الأوهام ولا تقدره الأذهان، ولا يقاس بالناس،

جل أن يشبه بما صنعه، أو يضاف إلى ما اخترعه وابتدعه، محصى الأنفاس، القائم على كل نفس بما كسبت ﴿لقد أحصاهم وعدهم عدًا﴾ * وكلهم آتية يوم القيامة فردًا ﴿[مریم: ٩٤ - ٩٥]، ﴿لتجزى كل نفس بما تسعى﴾ [طه: ١٥]، ﴿ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى﴾ [النجم: ٣١] غنى عن خلقه، رازق لبريته، يطعم ولا يُطعم، يرزق ولا يرزق، يجير ولا يجار عليه، الخليفة مفتقرة إليه، لم يخلقهم لاجتلاب نفع ولا دفع ضرر، ولا لداع دعاه إليه، ولا لخاطر خطر له، وفكر حدث له، بل إرادة مجردة كما قال وهو أصدق القائلين: ﴿ذو العرش المجيد﴾ * فعال لما يريد ﴿[البروج: ١٥ - ١٦].

متفرد بالقدرة على اختراع الأعيان، وكشف الضرر والبلوى وتقليب الأعيان وتغيير الأحوال، ﴿كل يوم هو في شأن﴾ [الرحمن: ٢٩]. يسوق ما قدر إلى ما وقت.

وأنه تعالى حي بحياة، وعالم بعلم، وقادر بقدرة، ومريد بإرادة، وسميع بسمع، وبصير ببصر، ومدرك بإدراك، ومتكلم بكلام، وأمر بأمر، وناهٍ بنهى، ومخبر بخبر. وأنه تعالى عادل في حكمه وقضائه، ومحسن متفضل في عطائه وإنعامه، مبدئ ومعيد، محيي وميت، محدث وموجد، مثير ومعاقب، جواد لا يبخل، حلیم لا يعجل، حفيظ لا ينسى، يقظان لا يسهو، رقيب لا يغفل، يقبض ويبسط، يضحك ويفرح، يحب ويكره، ويغض ويرضى، ويغضب ويسخط، يرحم ويغفر، ويعطى ويمنع، له يدان وكلتا يديه يمين، قال جلّ وعلا: ﴿والسّموات مطويات بيمينه﴾ [الزمر: ٦٧]، روى عن نافع عن ابن عمر رضى الله عنهما أنه قال: «قرأ رسول الله ﷺ على المنبر ﴿والسّموات مطويات بيمينه﴾ [الزمر: ٦٧] وقال: تكون في يمينه يرمى بها كما يرمى الغلام بالكرة، ثم يقول: أنا العزيز، قال: فلقد رأيت رسول الله ﷺ يتحرك على المنبر حتى كاد يسقط»^(١).

قال ابن عباس رضى الله عنهما: يقبض الأرضين والسّموات جميعًا، فلا يرى طرفهما من قبضته.

وعن ابن عمر عن النّبي ﷺ أنه قال: «المقسطون عند الله يوم القيامة على منابر من

(١) الأسماء والصفات (٣٤).

نور، عن يمين الرحمن، وكلتا يديه يمين»^(١).

وخلق آدم عليه السلام بيده على صورته، وغرس جنة عدن بيده، وغرس شجرة طوبى بيده، وكتب التوراة بيده، وناولها موسى من يده إلى يده، وكلمه تكليمًا من غير واسطة ولا ترجمان، وقلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء ويوعيهها ما أراد، والسموات والأرض يوم القيامة في كفه كما جاء في الحديث.

ويضع قدمه في جهنم، فينزوي بعضها إلى بعض، وتقول: قط، قط، ويخرج قومًا من النار بيده.

وينظر أهل الجنة إلى وجهه، ويرونه لا يضامون في رؤيته، ولا يضارون، كما جاء في الحديث^(٢): «يتجلى لهم ويعطيهم ما يتمنون»، وقال عز من قائل: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦] قيل: الحسنى هي الجنة، والزيادة: النظر إلى وجهه الكريم، وقال تعالى: ﴿وَجُوهُ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢ - ٢٣].

ويعرض عليه العباد يوم الفصل والدين، يتولى حسابهم بنفسه، ولا يتولى ذلك غيره.

وأن الله تعالى خلق سموات بعضها فوق بعض، وسبع أرضين بعضها أسفل من بعض، ومن الأرض العليا إلى السماء الدنيا مسيرة خمسمائة عام، وبين كل سماء وسماء مسيرة خمسمائة عام، والماء فوق السماء السابعة، وعرش الرحمن فوق الماء، والله تعالى على العرش، ودونه حجب من نار ونور وظلمة، وما هو أعلم به، وللعرش حملة يحملونه، قال الله عز وجل: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ﴾ [غافر: ٧] الآية.

وللعرش حدٌ يعمله الله تعالى، قال الله عز وجل: ﴿وترى الملائكة حافين من حول العرش﴾ [الزمر: ٧٥] وهو من ياقوتة حمراء، وسعته كسعة السموات والأرضين.

والكرسى عند العرش كحلقة ملقاة في أرض فلاة.

وهو جل وعلا يعلم ما في السموات السبع وما بينهما وما تحتهن، وما في الأرضين السبع وما تحتهن وما بينهن وما تحت الثرى، وما في قعر البحار ومنبت كل شعرة وكل

(١) البيهقي ٨٧/١٠ - ٨٨، وأحمد ٢/٢٠٣، وشرح السنة ٦٣/١٠.

(٢) البخاري ١/١٤٥، ومسلم في: المساجد: حديث (٢١١)، وأحمد ٤/٣٦٠.

شجرة وكل زرع ينبت، ومسقط كل ورقة، وعدد ذلك كله، وعدد الحصى والرمل والتراب، ومثاقيل الجبال، ومكايل البحار، وأعمال العباد وآثارهم، وأنفاسهم وكلامهم، ويعلم كل شيء لا يخفى عليه شيء من ذلك.

وهو باين من خلقه، ولا يخلو من علمه مكان، ولا يجوز وصفه بأنه في كل مكان، بل يقال: إنه في السماء على العرش، كما قال جل ثناؤه: ﴿الرحمن على العرش استوى﴾ [طه: ٥]، وقوله: ﴿ثم استوى على العرش الرحمن﴾ [الفرقان: ٥٩]، وقال تعالى: ﴿إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه﴾ [فاطر: ١٠].

والنبي ﷺ حكم بإسلام الأمة لما قال لها: أين الله؟ فأشارت إلى السماء^(١).

وقال النبي ﷺ في حديث أبي هريرة رضى الله عنه: لما خلق الله الخلق كتب كتاباً على نفسه، وهو عنده، فوق العرش: أن رحمتي تغلب غضبي.

وفى لفظ آخر: لما قضى الله سبحانه الخلق كتب فى كتاب فهو عنده فوق العرش أن رحمتي سبقت غضبي^(٢).

وينبغى إطلاق صفة الاستواء من غير تأويل، وأنه استواء الذات على العرش لا على معنى القعود والماسة كما قالت المجسمة والكرامية، ولا على معنى العلو والرفعة كما قالت الأشعرية، ولا على معنى الاستيلاء والغلبة كما قالت المعتزلة، لأن الشرع لم يرد بذلك، ولا نقل عن أحد من الصحابة والتابعين من السلف الصالح من أصحاب الحديث، بل المنقول عنهم حملة على الإطلاق.

وقد روى عن أم سلمة زوج النبي ﷺ فى قوله عز وجل: ﴿الرحمن على العرش استوى﴾ [طه: ٥] قالت: كيف غير معقول، والاستواء غير مجهول، والإقرار به واجب، والجحود به كفر.

وقد أسنده مسلم بن الحجاج عنها عن النبي ﷺ فى صحيحه، وكذلك فى حديث أنس بن مالك رضى الله عنه.

وقال أحمد بن حنبل رحمه الله قبل موته بقريب: أخبار الصفات ثمر، كما جاءت، بلا تشبيه ولا تعطيل.

(١) مسلم فى: المساجد: حديث (٣٣)، وأحمد ٤/٢٢٢.

(٢) البخارى ٩/١٤٧، ومسلم فى: التوبة: حديث (١٤)، وأحمد ٢/٤٣٣.

وقال أيضاً في رواية بعضهم: لست بصاحب كلام، ولا أرى الكلام في شيء من هذا، إلا ما كان في كتاب الله عز وجل، أو حديث عن النبي ﷺ أو عن أصحابه رضي الله عنهم، أو عن التابعين، فأما غير ذلك فإن الكلام فيه غير محمود، فلا يقال في صفات الرب عز وجل: كيف، ولم، ولا يقول ذلك إلا شاك.

وقال أحمد رحمه الله، في رواية عنه في موضع آخر: نحن نؤمن بأن الله عز وجل على العرش، كيف شاء، وكما شاء، بلا حد ولا صفة، يبلغها واصف، أو يحده حاد، لما روى عن سعيد بن المسيب عن كعب الأحبار قال الله تعالى في التوراة: أنا الله فوق عبادي، وعرشى فوق جميع خلقي، وأنا على عرشي، عليه أدبر عبادي، ولا يخفى على شيء من عبادي.

وكونه عز وجل على العرش مذكوراً في كل كتاب أنزل على كل نبي أرسل بلا كيف، ولأن الله تعالى فيما لم يزل موصوف بالعلو والقدرة والاستيلاء والغلبة على جميع خلقه من العرش وغيره، فلا يحمل الاستواء على ذلك.

فالاستواء من صفات الذات بعدما أخبرنا به، ونص عليه، وأكدته في سبع آيات من كتابه، والسنة الماثورة به، وهو صفة لازمة له، ولائقة به كاليد والوجه والعين والسمع والبصر والحياة والقدرة، وكونه خالقاً ورازقاً ومحيياً ومميتاً، موصوف بها، ولا نخرج من الكتاب والسنة، نقرأ الآية والخبر، ونؤمن بما فيهما، ونكل الكيفية في الصفات إلى علم الله عز وجل، كما قال سفيان بن عيينة رحمه الله: كما وصف الله تعالى نفسه في كتابه.

فتفسيره قراءته، لا تفسير له غيرها، ولا نتكلف غير ذلك، فإنه غيب، لا مجال للعقل في إدراكه، ونسأل الله تعالى العفو والعافية، ونعوذ به من أن نقول فيه وفي صفاته ما لم يخبرنا به هو أو رسوله عليه الصلاة والسلام.

وأنه تعالى ينزل في كل ليلة إلى سماء الدنيا، كيف شاء وكما شاء، فيغفر لمن أذنب وأخطأ وأجرم وعصى لمن يختار من عباده ويشاء، تبارك وتعالى العلى الأعلى، لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى، لا بمعنى نزول رحمته وثوابه على ما ادعته المعتزلة والأشعرية، لما روى عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ينزل الله تبارك وتعالى كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر، فيقول: هل من

سائل فيعطى سؤله؟ هل من مستغفر فيغفر له؟ هل من عانٍ فيفك عانيه؟ حتى يصبح الصبح، ثم يعلو ربنا تبارك وتعالى على كرسيه^(١).

وفى لفظ آخر عن عبادة بن الصامت رضى الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «ينزل الله تبارك وتعالى كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير فيقول: ألا عبد من عبادى يدعونى فأستجيب له؟ ألا ظالم لنفسه يدعونى فأغفر له؟ ألا مقتر عليه رزقه يدعونى فأرزقه؟ ألا مظلوم يذكرنى فأنصره؟ ألا عانٍ يدعونى فأفكه؟ قال: فيكون كذلك إلى أن يطلع الصبح، ويعلو على كرسيه^(٢).

وقد روى هذا الحديث بألفاظ مختلفة عن أبى هريرة وجابر بن عبد الله وعلى رضى الله عنهم، وعن عبد الله بن مسعود وأبى الدرداء وابن عباس وعائشة رضوان الله عليهم، كلهم عن رسول الله ﷺ.

ولهذا كانوا يفضلون صلاة آخر الليل على أوله.

وروى أبو بكر الصديق رضى الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «ينزل الله عز وجل ليلة النصف من شعبان إلى سماء الدنيا، فيغفر لكل نفس إلا لإنسان فى قلبه شحناء، أو شرك بالله عز وجل^(٣).

وروى عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله عز وجل إذا ذهب شطر الليل الأول ينزل إلى سماء الدنيا فيقول: هل من مستغفر فأغفر له؟ هل من سائل فأعطيه هل من تائب فاتوب عليه؟ حتى ينشق الفجر^(٤).

وقيل لإسحاق^(٥) بن راهويه: ما هذه الأحاديث التى تحدث بها أن الله تعالى ينزل

(١) البخارى ٦٦/٢، ومسلم فى: صلاة المسافرين: حديث (١٦٨)، وأحمد ٤٨٧/٢.

(٢) مجمع الزوائد ١٠/١٥٤، وعزاه إلى الطبرانى فى «الكبير» و «الأوسط» من طريق يحيى بن إسحاق وقال: لم يسمع من عبادة، ولم يرو عنه غير موسى بن عقبة، وبقيّة رجال الكبير رجال الصحيح.

(٣) الميزان (٥٢٢٨)، ولسان الميزان ١٩٧/٤.

(٤) سبق بنحوه.

(٥) إسحاق بن راهويه هو: إسحاق بن إبراهيم بن مَخْلَد الإمام الحافظ الكبير المجتهد أبو يعقوب الحنظلى المروزي. قال أحمد: لا أعلم له بالعراق نظيراً. قال البخارى: مات سنة (٢٣٨). له ترجمة فى: شذرات الذهب ٨٩/٢، والعبر ٤٢٦/١، والنجوم الزاهرة ٢٩٣/٢.

إلى السماء الدنيا، والله يصعد ويتحرك، قال للسائل: تقول إن الله تعالى يقدر على أن ينزل ويصعد، ولا يتحرك؟ قال: نعم، قال: فلم تنكره؟.

وقال يحيى بن معين: إذا قال لك الجهمي: كيف ينزل؟ فقل له: كيف صعد؟.

وقال الفضيل بن عياض رحمه الله: إذا قال لك الجهمي: أنا كافر بربّ ينزل، فقل له: وأنا مؤمن بربّ يفعل ما يشاء.

وعن شريك بن عبد الله رحمه الله - لما قيل له عندنا قوم ينكرون هذه الأحاديث -: من جاءنا بأسماء ليست عن رسول الله ﷺ الصلاة والصيام والزكاة والحج، وإنما عرفنا الله عزّ وجلّ بهذه الأحاديث.

(فصل) ونعتقد أن القرآن كلام الله وكتابه وخطابه ووحيه الذي نزل به جبريل على رسول الله ﷺ.

كما قال عزّ وجلّ: ﴿نزل به الروح الأمين * على قلبك لتكون من المنذرين * بلسان عربي مبين﴾ [الشعراء: ١٩٣ - ١٩٥].

هو الذي بلغه رسول الله ﷺ أمته امتثالاً لأمر رب العالمين بقوله تعالى: ﴿يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك﴾ [المائدة: ٦٧].

وروى عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أنه قال: «كان النبي ﷺ يعرض نفسه على الناس بالموقف فيقول: هل من رجلٍ يحملني إلى قومه فإن قريشاً قد منعوني أن أبلغ كلام ربي»^(١).

وقال عز وجلّ: ﴿وإن أحدٌ من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله﴾ [التوبة: ٦] وكلام الله تعالى هو القرآن غير مخلوق كيفما قرئ وتلى وكتب، وكيفما تصرفت به قراءة قارئ، ولفظ لا فظ، وحفظ حافظ، هو كلام الله وصفة من صفات ذاته، غير محدث ولا مبدل ولا مغير ولا مؤلف ولا منقوص ولا مصنوع ولا مزاد فيه، منه بدأ تنزيله، وإليه يعود حكمه، كما قال النبي ﷺ، في حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه: «إن فضل القرآن على سائر الكلام كفضل الله على سائر خلقه»^(٢).

وذلك أن القرآن منه تبارك وتعالى خرج وإليه يعود فمعناه: أن تنزيله وبدايته وظهوره

(١) أحمد ٣/ ٣٩٠، والحاكم ٢/ ٦١٣.

(٢) الكثر (٢٣٠١)، وابن عدى ٥/ ١٧٠٥، والأسماء والصفات (٢٣٧: ٢٣٩).

منه عز وجل، وإليه يعود حكمه الذى هو العبادات من أداء الأوامر وانتهاه النواهي، لأجله تفعل وتترك، فالاحكام عائدة إليه عز وجل.

وقيل: منه بدء حكمًا، وإليه يعود علمًا، وهو كلام الله فى صدور الحافظين وألسن الناطقين وفى أكف الكاتبين وملاحظة الناظرين ومصاحف أهل الإسلام وألواح الصبيان حيثما رؤى ووجد.

فمن زعم أنه مخلوق أو عبارته أو التلاوة غير المتلو، أو قال: لفظى بالقرآن مخلوق فهو كافر بالله العظيم، ولا يخالط ولا يؤاكل ولا يناكح ولا يجاور، بل يهجر ويهان، ولا يصلى خلفه، ولا تقبل شهادته، ولا تصح ولايته فى نكاح وليه، ولا يصلى عليه إذا مات، فإن ظفر به استتيب ثلاثًا كالمرتد، فإن تاب وإلا قتل.

سئل الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله عمن قال: لفظى بالقرآن مخلوق فقال: كفر. وقال رحمه الله فيمن قال: القرآن كلام الله ليس بمخلوق، والتلاوة مخلوقة، أو ألفاظنا بالقرآن مخلوقة: هو كافر.

وروى عن أبى الدرداء رضى الله عنه أنه سأل النبى ﷺ عن القرآن فقال: «كلام الله غير مخلوق»^(١).

وروى عن عبد الله بن عبد الغفار وكان مولى لرسول الله ﷺ، عتاقة عن النبى ﷺ قال: «إذا ذكر القرآن فقولوا: كلام الله غير مخلوق، فمن قال مخلوق فهو كافر».

وقال الله عز وجل: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الاعراف: ٥٤]، ففصل بين الخلق والأمر، فلو كان أمره الذى هو كن، الذى به يخلق الخلق مخلوقًا لكان ذلك تكرارًا وعيبًا لا فائدة فيه. كأنه قال: ألا له الخلق والخلق، والله عز وجل يتعالى عن ذلك.

وعن ابن مسعود وابن عباس رضى الله عنهما أنهما فسرا قوله عز وجل: ﴿قَرَأْنَا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾ [الزمر: ٢٨] أنه غير مخلوق.

وقد هدد الله تعالى الوليد بن المغيرة المخزومى حين سمى القرآن قول البشر - بسقر فقال: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ * إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ * سَأَصْلِيهِ سَقَرٌ﴾ [المندر: ٢٤] - .[٢٦].

(١) كنز العمال (٢٤٧٠)، والخطيب ٣٨٩/٢، وتنزيه الشريعة ١٣٤/١، وتذكرة الموضوعات (٧٧).

فكل من قال: القرآن عبارة أو مخلوق، أو لفظي بالقرآن مخلوق، فله سقر، كما هو للوليد، إلا أن يتوب.

وقال تعالى: ﴿وإن أحدٌ من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله﴾ [التوبة: ٦]، ولم يقل: حتى يسمع كلامك يا محمد.

وقال تعالى: ﴿إننا أنزلناه في ليلة القدر﴾ [القدر: ١]، يعنى القرآن الذى هو فى الصدور والمصاحف.

وقال عز وجل: ﴿وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون﴾ [الأعراف: ٢٠٤].

وقال تعالى: ﴿وقرآنًا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث﴾ [الإسراء: ١٠٦] والناس إنما سمعوا قراءة النبي ﷺ ولفظه، فلفظه بالقرآن هو القرآن، ومدح الله سبحانه وتعالى الجن الذين سمعوا قراءة النبي ﷺ: ﴿فقالوا إنا سمعنا قرآنًا عجبا * يهدي إلى الرشدا فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا﴾ [الجن: ١ - ٢].

وقال تعالى: ﴿وإذ صرنا إليك نفرًا من الجن يستمعون القرآن﴾ [الحاف: ٢٩].

وسمى الله قراءة جبريل عليه السلام للقرآن قرآنًا، فقال جل وعلا: ﴿لا تحرك به لسانك لتعجل به * إن علينا جمعه وقرآنه * فإذا قرأناه فاتبع قرآنه﴾ [القيامة: ١٦ - ١٨].

وقال تعالى: ﴿فأقرؤوا ما تيسر من القرآن﴾ [المزمل: ٢٠].

وأجمع المسلمون على أن من قرأ فاتحة الكتاب فى صلاة إنه قارئ كتاب الله، وأن من حلف أنه لا يتكلم فقرأ القرآن لم يحنث، فدلّ على أنه ليس بعبارة.

وقال النبي ﷺ فى حديث معاوية بن الحكم رضى الله عنه: «إن صلاتنا هذه لا يصلح فيها شيء من كلام الأدميين، إنما هى القراءة، والتسبيح، والتهليل، وتلاوة القرآن»^(١).

فأخبر أن تلاوة القرآن هى القرآن، فعلم بذلك أن التلاوة هى المتلو، والله تعالى، ورسوله ﷺ أمرا المؤمنين بالقراءة فى الصلاة، ونهيا عن الكلام، فلو كانت قراءتنا كلامنا لا كلام الله لكنا مرتكبين للنهى فى الصلاة.

(١) النسائى ١٧/٣، والبيهقى ٢/٢٤٩، والطبرانى ٤٠١/١٩، والإرواء ١١١/٢.

(فصل) ونعتقد أن القرآن حروف مفهومة وأصوات مسموعة.

لأن بها يصير الأخرس والساكت متكلمًا وناطقًا، وكلام الله عز وجل لا ينفك عن ذلك، فمن جحد ذلك الكتاب فقد كابر حسه، وعميت بصيرته، قال الله عز وجل: ﴿ألم * ذلك الكتاب﴾ [البقرة: ١ - ٢]، ﴿حم﴾، ﴿طسم * تلك آيات الكتاب﴾ [القصص: ١ - ٢]، فقد ذكر حروفًا وكنى عنها بالكتاب، وقال تعالى: ﴿ولو أنما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله﴾ [لقمان: ٢٧].

فأثبت لنفسه كلمات متعددة غير متناهية الأعداد، وكذلك قوله: ﴿قل لو كان البحر مدادًا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدادًا﴾ [الكهف: ١٠٩].

وقال النبي ﷺ: «إقرءوا القرآن فإنكم تؤجرون عليه بكل حرف عشر حسنات، أما إنني لا أقول: ﴿الم﴾ حرف، ولكن الألف عشر، واللام عشر، والميم عشر، فذلك ثلاثون»^(١).

وقال النبي ﷺ: «أنزل القرآن على سبعة أحرف كلها شاف كاف»^(٢).
وقال تعالى في حق موسى عليه السلام: ﴿وإذ نادى ربك موسى﴾ [الشعراء: ١٠]، ﴿وناديتاه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجيبًا﴾ [مريم: ٥٢].
وقال تعالى لموسى عليه السلام: ﴿إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني﴾ [طه: ١٤].
كل هذا لا يكون إلا صوتًا، ولا يجوز أن يكون هذا النداء وهذا الاسم والصفة إلا لله عز وجل، دون غيره من الملائكة وسائر المخلوقات.

وعن أبي هريرة رضى الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «إذا كان يوم القيامة، يأتي الله عز وجل في ظلل من الغمام، فيتكلم بكلام طُلُقٍ ذُلُقٍ، فيقول - وهو أصدق القائلين -: انصتوا فطالما أنصت لكم، منذ خلقتكم، أرى أعمالكم، وأسمع أقوالكم، فلما هي صحائفكم، تقرأ عليكم، فمن وجد خيرًا فليحمد الله سبحانه وتعالى، ومن وجد غير

(١) الخطيب ٢٨٥/١، والصحيحة (٦٤٠).

(٢) النسائي في: الافتتاح: ب (٢٦)، وأحمد ٢/٢٣٢، والطبراني ٣/١٨٥.

ذلك فلا يلومنَّ إلا نفسه»^(١).

وروى البخارى فى صحيحه^(٢) بإسناده عن عبد الله بن أنيس رضى الله عنه أنه قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: يحشر الله سبحانه العباد فيناديهم بصوت يسمعه من بعد، كما يسمعه من قرب: أنا الملك أنا الديان».

وروى عبد الرحمن بن محمد المحاربى، عن الأعمش عن مسلم عن مسروق عن عبد الله رضى الله عنه قال: «إذا تكلم الله بالوحي سمع صوته أهل السماء فيخرون سجداً حتى إذا فزع عن قلوبهم، قال: سكن عن قلوبهم، نادى أهل السماء: أهل السماء ماذا قال ربكم؟ قالوا: الحق، قال: كذا وكذا، يعنى ذكر الوحي»^(٣).

وعن عبد الله بن الحرث، عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال: «إن الله تبارك وتعالى إذا تكلم بالوحي سمع أهل السموات صوتاً كصوت الحديد إذا وقع على الصفا فيخرون له سجداً فإذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم، قالوا الحق وهو العلى الكبير»^(٤).

قال محمد بن كعب: قال بنو إسرائيل لموسى عليه السلام: بم شبهت صوت ربك حين كلمك فى هذا الخلق، قال: شبهت صوت ربي بصوت الرعد حين لا يرتفع.

وهذه الآيات والأخبار تدل على أن كلام الله صوت لا كصوت آدميين، كما أن علمه وقدرته وبقيه صفاته لا تشبه صفات آدميين، كذلك صوته.

وقد نص الإمام أحمد رحمه الله على إثبات الصوت فى رواية جماعة من الأصحاب رضوان الله عليهم أجمعين.

خلاف ما قالت الأشعرية من أن كلام الله معنى قائم بنفسه، والله حسيب كل مبتدع ضال مضلّ، فالله سبحانه لم يزل متكلماً وقد أحاط كلامه بجميع معانى الأمر والنهى والاستخبار.

وقال ابن خزيمة رحمه الله: كلام الله تعالى متواصل لا سكوت فيه ولا صوت.

(١) المغنى عن حمل الأسفار ١٥٨/٤، وضعفه.

(٢) فى التوحيد: ب (٣٢)، وأحمد ٤٩٥/٣.

(٣) أبو داود (٤٧٣٨)، والكنز (٣٢١٥٢).

(٤) الخطيب ٣٩٢/١١، والأسماء والصفات (٢٠١).

وقيل لأحمد بن حنبل رحمه الله: هل يجوز أن تقول إن الله تعالى متكلم، ويجوز عليه السكوت؟ فقال رحمه الله: نقول في الجملة إن الله تعالى لم يزل متكلمًا، ولو ورد الخبر بأنه سكت لقلنا به ولكننا نقول إنه متكلم كيف شاء بلا كيف ولا تشبيه.

(فصل) وكذلك حروف المعجم غير مخلوقة وسواء كان ذلك في كلام الله تعالى أو في كلام الآدميين.

وقد ادعى قوم من أهل السنة أنها قديمة في القرآن الشريف محدثة في غيره، وهذا خطأ منهم، بل القول السديد هو الأول من مذهب أهل السنة بلا فرق، لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

وهي حرفان فلو كانت «كن» مخلوقة لاحتاجت إلى «كن» تخلق بها إلى ما لا نهاية له، وقد تقدمت أدلة كثيرة من الآيات فلا نعيدها.

وأما من السنة فما روى عن النبي ﷺ أنه قال لعثمان بن عفان لما سئل عن أ، ب، ت، ث، إلى آخر الحروف.

فقال: الألف من اسم الله الذي هو الله، والباء من اسم الله الذي هو الباري، والتاء من اسم الله الذي هو المتكبر، والثاء من اسم الله الذي هو الباعث والوارث، حتى أتى إلى آخرها، فذكر أنها كلها من أسماء الله وصفاته.

وأسماءه عز وجل غير مخلوقة. وقال النبي ﷺ في حديث على كرم الله وجهه لما سأله عن معنى أبجد هوز حطي... إلى آخرها: يا على ألا تعرف تفسير أبي جاد؟ الألف من اسم الله عز وجل الذي هو الله، والباء من اسم الله الذي هو الباري، والجيم من اسم الله الذي هو الجليل... إلى آخرها. فذكر النبي ﷺ أنها من أسماء الله وهي في كلام الآدميين^(١).

وقد نص أحمد بن حنبل رحمه الله على قدم حروف الهجاء، فقال في رسالته إلى أهل نيسابور وجرجان: ومن قال إن حروف التهجي محدثة فهو كافر بالله، ومتى حكم أن ذلك مخلوق فقد جعل القرآن مخلوقًا.

ولما قيل له رحمه الله إن فلانًا يقول: إن الله تعالى لما خلق الحروف انضجعت اللام، وانتصبت الألف، فقالت لا أسجد حتى أؤمر. فقال أحمد هذا كفر من قائله.

(١) تنزيه الشريعة ٢٢٦/١.

وقال الشافعي رحمه الله: لا تقولوا بحدث الحروف فإن اليهود أول ما هلكت بهذا، ومن قال بحدث حرف من الحروف فقد قال بحدث القرآن.

ولأنه لا يخلو إما أن يقال هي قديمة في القرآن أو محدثة فيه فإن قيل هي قديمة في القرآن فوجب أن تكون قديمة في غيره، لأنه لا يجوز أن يكون الشيء الواحد قديماً وهو بعينه محدث.

فإن قالوا هي محدثة في القرآن فقد تقدمت الأدلة على قدمها في القرآن، فإذا ثبت ذلك في القرآن فكذلك في غيره.

فإن قالوا فهذا يفضي إلى أن جميع الكلام يكون قديماً، قيل يلزم القرآن لما لم يقل ذلك في حروف الهجاء.

(فصل) ونعتقد أن الله عز وجل له تسعة وتسعون اسماً، مائة إلا واحد، من أحصاها دخل الجنة.

وذلك مروى عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «إن لله تعالى تسعة وتسعون اسماً مئة إلا واحداً من أحصاها دخل الجنة»^(١).

وجميعها في القرآن في سور متفرقة: منها خمسة أسماء في الفاتحة، وهي: يا الله، يا رب، يا رحمن، يا رحيم، يا مالك.

وفي سورة البقرة ستة وعشرون اسماً: يا محيط، يا قدير، يا علیم، يا حلیم، يا تواب، يا بصير، يا واسع، يا بديع، يا سمیع، يا كافي، يا رؤوف، يا شاکر، يا واحد، يا غفور، يا حكيم، يا قابض، يا باسط، يا لا إله إلا هو، يا حي، يا قيوم، يا على، يا عظيم، يا ولي، يا غني، يا حميد.

وفي آل عمران أربعة أسماء: يا قائم، يا واهب، يا سريع، يا خير.

وفي سورة النساء ستة أسماء: يا رقيب، يا حسيب، يا شهيد، يا غفور، يا مقيت، يا وكيل.

وفي الأنعام خمسة أسماء: يا فاطر، يا قاهر، يا قادر، يا لطيف، يا خير.

وفي الأعراف اسمان: يا محيي، يا مميت.

(١) البخاري ٢٥٩/٣، ومسلم في: الذكر والدعاء: حديث (٦)، وأحمد ٢/٢٥٨.

وفى الأنفال اسمان: يا نعم المولى، ويا نعم النصير.
 وفى هود سبعة أسماء: يا حفيظ، يا رقيب، يا مجيد، يا قوى، يا مجيب، يا
 ودود، يا فعال لما يريد.
 وفى الرعد اسمان: يا كبير، يا متعال.
 وفى إبراهيم اسم واحد: وهو يا منان.
 وفى الحجر اسم واحد: وهو يا خلاق.
 وفى النحل اسم: يا باعث.
 وفى مريم اسمان، يا صادق، يا وارث.
 وفى المؤمنين اسم: يا كريم.
 وفى النور ثلاثة أسماء: يا حق، يا مبين، يا نور.
 وفى الفرقان: يا هادى.
 وفى سبأ: يا فتاح.
 وفى المؤمن أربعة أسماء: يا غافر، يا قابل، يا شديد، يا ذا الطول.
 وفى الذاريات ثلاثة أسماء: يا رزاق، يا ذا القوة، يا متين.
 وفى الطور: يا منان.
 وفى اقتربت الساعة: يا مقتدر.
 وفى الرحمن: يا باقى، يا ذا الجلال، يا ذا الإكرام.
 وفى الحديد أربعة: يا أول، يا آخر، يا ظاهر، يا باطن.
 وفى الحشر عشرة أسماء: يا قدوس، يا سلام، يا مؤمن، يا مهيمن، يا عزيز، يا
 جبار، يا متكبر، يا خالق، يا بارئ، يا مصور.
 وفى البروج: يا مبدىء، يا معيد.
 وفى قل هو الله أحد: يا أحد، يا صمد.
 هكذا ذكرها سفيان بن عيينة رحمه الله.
 وذكر عبد الله بن أحمد أسماء زوائد على هذه: وهى: يا قاهر، يا فاضل، يا فائق،
 يا رقيب، يا ماجد، يا جواد، يا أحكم الحاكمين.

وذكر أبو بكر النقاش في كتاب تفسير الأسماء والصفات، عن جعفر بن محمد -
يعنى الصادق رحمه الله - أنه قال: إن لله ثلاثمائة وستين اسماً.

وروى أيضاً عن غيره: مئة وأربعة عشرة اسماً.

وكل ذلك محمول على أنهم وجدوا في القرآن أسماء مكررة فعدها أسماء،
والصحيح ما ذكر عن أبي هريرة رضى الله عنه.

(فصل) ونعتقد أن الإيمان قول باللسان، ومعرفة بالجنان، وعمل بالأركان، يزيد
بالطاعة وينقص بالعصيان، ويقوى بالعلم ويضعف بالجهل، وبالتوفيق يقع.

كما قال الله عز وجل: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فزادتهم إيماناً وهو يستبشرون﴾
[التوبة: ١٢٤].

وما جار عليه الزيادة جار عليه النقصان. وقال تعالى: ﴿وَإِذَا تَلَّيْت عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ
زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَيْبِهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢].

وقوله عز وجل: ﴿لَيْسَتِ يَاقِينِ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَزَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا﴾ [المائدة: ٣١].

وما روى عن ابن عباس وأبي هريرة وأبي الدرداء رضى الله عنهم، أنهم قالوا:
الإيمان يزيد وينقص. وغير ذلك مما يطول شرحه.

وقد أنكرت الأشعرية زيادة الإيمان ونقصانه. وهو في اللغة تصديق القلب المتضمن
للعلم بالمصدق به، وهو في الشريعة: التصديق؛ وهو العلم بالله وصفاته مع جميع
الطاعات الواجبات منها والنوافل واجتناب الزلات والمعاصي.

ويجوز أن يقال الإيمان: هو الدين والشرعية والملة؛ لأن الدين هو ما يدان به من
الطاعات مع اجتناب المحظورات والمحرمات، وذلك هو صفة الإيمان.

وأما الإسلام: فهو من جملة الإيمان وكل إيمان إسلام، وليس كل إسلام إيماناً.

لأن الإسلام هو بمعنى الاستسلام والانقياد وكل مؤمن مستسلم منقاد لله تعالى.
وليس كل مسلم مؤمناً بالله، لأنه قد يسلم مخافة السيف.

فالإيمان اسم يتناول مسميات كثيرة، أفعالاً وأقوالاً، فيعم جميع الطاعات.

والإسلام عبارة عن الشهادتين مع طمأنينة القلب والعبادات الخمس.

وقد أطلق الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله أن الإيمان غير الإسلام، فذهب إلى

الحديث المروى عن ابن عمر رضى الله عنهما أنه قال: حدثنى عمر بن الخطاب رضى الله عنه، أنه قال: «بينما أنا عند رسول الله ﷺ ذات يوم، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثوب، شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى رسول الله ﷺ، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه، ثم قال: يا محمد أخبرنى عن الإسلام فقال ﷺ: أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتى الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً، قال: صدقت، قال: فتعجبنا منه يسأله ويصدق، ثم قال: أخبرنى عن الإيمان: قال ﷺ: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، قال: صدقت، قال: فأخبرنى عن الإحسان: قال: أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك، قال: فأخبرنى عن الساعة؟ قال: ما المسؤول عنها بأعلم من السائل، قال: فأخبرنى عن أماراتها، قال: أن تلد الأمة ربتها، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون فى البنيان.

قال عمر رضى الله عنه: فلبثت هنيهة. ثم قال لى رسول الله ﷺ: هل تدرى من السائل؟ قال: قلت: الله ورسوله أعلم، قال ﷺ: فإنه جبريل جاءكم يعلمكم دينكم»^(١).

وفى لفظ آخر قال: «ذلك جبريل أتاكم ليعلمكم أمر دينكم، وما أتانى قط فى صورة إلا عرفته إلا فى صورته هذه».

فقد فرق جبريل عليه السلام بين الإسلام والإيمان بسؤالين: فأجاب النبى ﷺ عنهما بجوابين مختلفين فذهب الإمام أحمد رضى الله عنه إلى حديث الأعرابى حيث قال: «يا رسول الله أعطيت فلاناً ومنعتنى فقال له النبى ﷺ ذلك مؤمن: فقال الأعرابى: وأنا مؤمن. فقال له النبى ﷺ أو مسلم أنت؟»^(٢).

وذهب أيضاً إلى قول الله تعالى: «قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم» [الحجرات: ١٤].

واعلم أن زيادة الإيمان: إنما تكون على التحقيق بعد أداء الأوامر وانتهاء النواهى

(١) البخارى ٢٠/١، ومسلم فى: الإيمان (٥)، وأحمد ٥١/١ و ٥٣.

(٢) المغنى عن حمل الأسفار ١٢٢/١.

بالتسليم في القدر، وترك الاعتراض على الله عز وجل في فعله في خلقه، وترك الشك في وعده في الأقسام والرزق وفي الثقة به، والتوكل عليه، والخروج من الحول والقوة والصبر على البلاء والشكر على النعماء، والتنزيه للحق، وترك التهمة له عز وجل في سائر الأحوال، وأما بمجرد الصلاة والصوم فلا.

وسئل الإمام أحمد رحمه الله عن الإيمان أمخلوق هو أم غير مخلوق؟ فقال: من قال إن الإيمان مخلوق فقد كفر؛ لأن في ذلك إيهامًا وتعريضًا بالقرآن، ومن قال إنه غير مخلوق فقد ابتدع؛ لأن في ذلك إيهام أن إمارة الأذى عن الطريق وأفعال الأركان غير مخلوقة فقد أنكر على الطائفتين.

وذكر في الحديث أن النبي ﷺ قال: «الإيمان بضع وسبعون خصلة، أفضلها قول: لا إله إلا الله، وأدناها إمارة الأذى عن الطريق»^(١).

وإنما كفر القائل بخلق القرآن، وبدع الآخر لأن مذهبه رحمه الله مبني على أن القرآن إذا لم ينطق بشيء ولم يرو في السنة عن رسول الله ﷺ شيء فانقرض عصر الصحابة ولم ينقل أحد منهم قولاً، فالكلام فيه بدعة وحدث.

ولا يجوز للمؤمن أن يقول: أنا مؤمن حقاً، بل يجب أن يقول: أنا مؤمن إن شاء الله، خلاف ما قالت المعتزلة إنه يجب أن يقول: أنا مؤمن حقاً.

وإنما قلنا ذلك لما روى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: من رعم أنه مؤمن فهو كافر.

وعن الحسن رضي الله عنه: أن رجلاً قال عند عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: إني مؤمن.

فقيل لابن مسعود إن هذا يزعم أنه مؤمن قال: فاسألوه أفي الجنة هو أم هو في النار؟ فسألوه فقال: الله أعلم. فقال عبد الله: فهلا وكلت الأخرى كما وكلت الأولى.

ولأن المؤمن حقاً من هو عند الله تعالى مؤمن، وهو الذي يكون من أهل الجنة. ولا يكون كذلك إلا بعد موافاته بالإيمان، ويختم له بذلك، ولا يعلم أحد بما يختم له.

(١) مسلم في: الإيمان: حديث (٥٨)، والترمذي (٢٦١٤)، والنسائي ١١٠/٨، وأحمد ٤١٤/٢.

فينبغي أن يكون خائفًا راجيًا مصلحًا حذرًا مترقبًا حتى يأتيه الموت على خير عمل، وإن الناس يموتون على ما عشوا عليه، ويحشرون على ما ماتوا عليه، كما جاء في الحديث: قال عليه الصلاة والسلام: «كما تعيشون تموتون، وكما تموتون تبعثون».

ونعتقد أن أفعال العباد خلق الله عز وجل وكسب لهم خيرها وشرها، حسنها وقبيحها ما كان منها طاعة ومعصية، لا على معنى أنه أمر بالمعصية، لكن قضى بها وقدرها، وجعلها على حسب قصده، وأنه قسم الأرزاق وقدرها، فلا يصدها صاد ولا يمنعها مانع، لا زائدها ينقص، ولا ناقصها يزيد، ولا ناعمها يخشن، ولا خشنها ينعم، ورزق غدٍ لا يؤكل اليوم، وقسم زيد لا ينقل إلى عمرو.

وإنه تعالى يرزق الحرام كما يرزق الحلال، على معنى أنه يجعله غذاء للأبدان وقوامًا للأجسام لا على معنى إباحة الحرام.

وكذلك القاتل لم يقطع أجل المقتول المقدر له، بل يموت بأجله، وكذلك الغريق، ومن هدم عليه الحائط وألقى من شاطئ، ومن أكله سبع، وكذلك هداية المسلمين والمؤمنين وضلالة الكافرين إليه عز وجل، جميع ذلك فعل له وصنعة، لا شريك له في ملكه.

وإنما أثبتنا للعباد كسبًا لموضع توجه الأمر والنهي والخطاب إليهم، ثم استحقاق الثواب والعقاب لديه كما وعده وضمن جل وعزّ، قال الله تعالى: ﴿جزاء بما كانوا يعملون﴾ [السجدة: ١٧، والأحقاف: ١٤، والواقعة: ٢٤].

وقال عز وجل: ﴿بما صبرتم﴾ [الرعد: ٢٤]، وقال جل وعلا: ﴿ما سلككم في سقر﴾ قالوا لم نك من المصلين * ولم نك نطعم المسكين﴾ [الدثر: ٤٢ - ٤٤].

وقال تبارك وتعالى: ﴿هذه النار التي كنتم بها تكذبون﴾ [الطور: ١٤]، وقال تعالى: ﴿ذلك بما قدمت يداك﴾ [الحج: ١٠] وغير ذلك من الآيات.

فعلق سبحانه الجزاء على أفعالهم، فأثبت لهم كسبًا خلاف ما قالت الجهمية من أنه لا كسب للعباد، وأنه كالباب يرد ويفتح، والشجرة تحرك وتهز. وهم الجاحدون للحق، الرادون للكتاب والسنة.

والدليل على أن ذلك خلق الله عز وجل وكسب للعباد خلافاً للقدرية في قولهم: إن جميع ذلك خلق للعباد دون الله عز وجل.

تَبَّأَ لَهُمْ وَهُمْ مَجُوسُ هَذِهِ الْأُمَّةِ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ وَنَسَبُوهُ إِلَى الْعِجْزِ، وَأَنْ يَجْرَى فِي مَلِكِهِ مَا لَا يَدْخُلُ فِي قُدْرَتِهِ وَلَا إِرَادَتِهِ تَعَالَى اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ عُلُوكًا كَبِيرًا لِقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦]، وكَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧، والأحقاف: ١٤، والواقعة: ٢٤].

فَلَمَّا كَانَ الْجَزَاءُ أَقْعًا عَلَى أَعْمَالِهِمْ كَانَ الْخَلْقُ أَقْعًا عَلَى أَعْمَالِهِمْ، وَلَا جَائِزَ أَنْ يُقَالَ: الْمُرَادُ بِذَلِكَ مَا يَعْمَلُونَ مِنَ الْحِجَارَةِ وَالْأَصْنَامِ، لِأَنَّ الْحِجَارَةَ أَجْسَامَ، وَالْعِبَادَ لَا يَعْمَلُونَ، وَإِنَّمَا الْأَعْمَالُ الَّتِي يَقَعُ فِيهَا مَا يَعْمَلُهَا الْعِبَادُ فَوْجِبَ أَنْ يَرْجَعَ الْخَلْقُ إِلَى أَعْمَالِهِمْ مِنَ الْحَرَكَاتِ وَالسَّكَنَاتِ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مِنْ رَحْمِ رَبِّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [مرد: ١١٨ - ١١٩] والمعْنَى لِلْخِلَافِ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَلَخَقَهُ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الرعد: ١٦].

وَقَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [فاطر: ٣]، وَقَالَ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنِ الْمُشْرِكِينَ: ﴿وَإِنْ تَصْبِهِمْ حَسَنَةً يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تَصْبِهِمْ سَيِّئَةً يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَا لَهُؤُلَاءِ الْقَوْمُ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٧٨].

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ فِي حَدِيثٍ حَذِيفَةٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ كُلَّ صَانِعٍ وَصَنَعْتَهُ، حَتَّى خَلَقَ الْجَازِرَ وَجَزُورَهُ»^(١).

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ قَالَ: أَنَا خَلَقْتُ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ فَطَوَّبِي لِمَنْ قَدَّرْتُ عَلَى يَدَيْهِ الْخَيْرَ، وَوَيْلٌ لِمَنْ قَدَّرْتُ عَلَى يَدَيْهِ الشَّرَّ»^(٢).

وَسُئِلَ عَلَى رَضَى اللَّهِ عَنْهُ عَنْ أَعْمَالِ الْعِبَادِ الَّتِي يَسْتَوْجِبُونَ مِنَ اللَّهِ السَّخَطَ وَالرَّضَى، أَشَيْئًا مِنَ اللَّهِ أَمْ شَيْءٌ مِنَ الْعِبَادِ، قَالَ هِيَ: لِلَّهِ خَلْقٌ وَلِلْعِبَادِ عَمَلٌ.

وَيَعْتَقِدُ أَنَّ الْمُؤْمِنَ وَإِنْ أَذْنَبَ ذُنُوبًا كَثِيرَةً مِنَ الْكِبَائِرِ وَالصَّغَائِرِ لَا يَكْفُرُ بِهَا وَإِنْ خَرَجَ مِنَ الدُّنْيَا بِغَيْرِ تَوْبَةٍ إِذَا مَاتَ عَلَى التَّوْحِيدِ وَالْإِخْلَاصِ، بَلْ يَرُدُّ أَمْرَهُ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ إِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ وَأَدْخَلَهُ الْجَنَّةَ، وَإِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ، وَأَدْخَلَهُ النَّارَ، فَلَا يَدْخُلُ بَيْنَ اللَّهِ تَعَالَى

(١) ابن أبي عاصم ١/١٥٨، ومجمع الزوائد ٧/١٩٧ وعزاه إلى «البراز» وقال: رجاله رجال الصحيح غير أحمد بن عبد الله أبو الحسين وهو ثقة.

(٢) الطبراني ١٢/١٧٣، والإتحاف ٩/٦٥٢، والكنز (١٥/٤٣٠).

وبين خلقه ما لم يخبرنا الله بمصيره .

(فصل) ونعتقد أن من أدخله الله النار بكبيرته مع الإيمان فإنه لا يخلد فيها، بل يخرجها منها .

لأن النار في حقه كالسجن في الدنيا فيستوفى منه بقدر كبيرته وجريمته، ثم يخرج برحمة الله تعالى ولا يخلد فيها، ولا تلفح وجهه النار ولا تحرق أعضاء السجود منه، لأن ذلك محرم على النار، ولا ينقطع طمعه من الله عز وجل في كل حال ما دام في النار حتى يخرج منها فيدخل الجنة، ويعطى الدرجات على قدر طاعته التي كانت له في الدنيا، خلاف ما قالته القدريّة إن الكبيرة تحبط الطاعات، فلا يثاب عليها، وكذلك قول الخوارج تباً لهم .

(فصل) وينبغي أن يؤمن بخير القدر وشره، وحلو القضاء ومره .

وأن ما أصابه لم يكن ليخطئه بالخذر، وما أخطاه من الأسباب لم يكن ليصيبه بالطلب، وأن جميع ما كان في سالف الدهور والأزمان، وما يكون، إلى يوم البعث والنشور بقضاء الله وقدره المقدور، وأنه لا محيص لمخلوق من القدر المقدور الذي خط في اللوح المسطور، وأن الخلائق لو جهدوا أن ينفعوا المرء بما لم يقضه الله تعالى لم يقدروا عليه، ولو جهدوا أن يضروه لما لم يقضه الله عليه لم يستطيعوا .

كما ورد في خبر ابن عباس رضى الله عنهما وقال: قال الله تعالى: ﴿وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فلا راد لفضله يصيب به من يشاء من عباده﴾ [يونس: ١٠٧] .

وروى عن زيد بن وهب عن عبد الله بن مسعود - رضى الله عنه - قال : حدثني رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق: «إن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوماً نطفة» وفي لفظ آخر «أربعين ليلة، ثم يكون علقه مثل ذلك، ثم يكون مضغة، مثل ذلك، ثم يبعث الله ملكاً بأربع كلمات: خلقه ورزقه وعمله وشقى أم سعيد، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار حتى لا يكون بينه وبينها إلا باع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى لا يكون بينه وبينها إلا باع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها»^(١) .

(١) البخارى ١٣٥/٤، ومسلم فى: القدر: حديث (١)، وأحمد ١/٣٨٢ .

وعن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضى الله عنها عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة وإنه لمكتوب في الكتاب أنه من أهل النار فإذا كان عند موته تحول فعمل بعمل أهل النار، فمات فدخل النار، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار وإنه لمكتوب في الكتاب أنه من أهل الجنة، فإذا كان قبل موته عمل بعمل أهل الجنة، فمات فدخل الجنة»^(١).

وعن أبي عبد الرحمن السلمى عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال: «بينما نحن مع رسول الله ﷺ وهو ينكت في الأرض إذ رفع رأسه فقال: ما من أحد إلا وقد علم مقعده من النار، أو مقعده من الجنة، فقالوا: أفلا نتكل؟ قال ﷺ اعملوا فكل ميسر لما خلق له»^(٢).

وعن سالم بن عبد الله عن أبيه رضى الله عنه قال: إن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال: «يا رسول الله، أرايت ما نعمل فيه، شيء قد فرغ منه، أو شيء مبتدع، أو مبتدأ؟ قال رسول الله ﷺ: لا، بل فيما قد فرغ منه، قال: أفلا نتكل؟ قال عليه الصلاة والسلام: اعمل يا ابن الخطاب فكل ميسر لما خلق له، فمن كان من أهل السعادة فيعمل للسعادة، ومن كان من أهل الشقاوة فيعمل للشقاوة»^(٣).

(فصل) ونؤمن بأن النبي ﷺ رأى ربه عز وجل ليلة الإسراء بعينى رأسه لا بفؤاده ولا فى المنام.

لما روى جابر بن عبد الله رضى الله عنهما أنه قال: «قال رسول الله ﷺ: فى قوله تعالى: ﴿ولقد رآه نزلة أخرى﴾ [النجم: ١٣].

قال: رأيت ربي جل اسمه مشافهة لا شك فيه، وفى قوله تعالى: ﴿عند سدرة المنتهى﴾ [النجم: ١٤] قال: رأيت عند سدرة المنتهى حتى تبين لى نور وجهه».

وقال ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله عز وجل: ﴿وما جعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنة للناس﴾ [الإسراء: ٦٠] هى رؤيا عين أريها النبي ﷺ ليلة أسرى به».

(١) البخارى ٤/٤٥، ومسلم فى: الإيمان: حديث (١٧٩)، وأحمد ٥/٣٣٥.

(٢) البخارى ٦/٢١١، ومسلم فى: القدر: حديث (٦، ٧، ٨)، وأحمد ١/٨٢.

(٣) مجمع الزوائد ٧/١٩٤، وعزاه إلى «الطبرانى» من طريق سليمان بن عتبة، وثقه أبو حاتم وجماعة، وضعفه ابن معين وغيره، وبقيت رجاله ثقات.

والى «البراز» وقال: حسن حديثه.

وقال ابن عباس رضى الله عنهما: كانت الخلعة لإبراهيم عليه السلام والكلام لموسى عليه السلام، والرؤية لمحمد ﷺ^(١).

وقال ابن عباس رضى الله عنهما: رأى محمد ﷺ ربه عز وجل بعينه مرتين^(٢). ولا يعارض هذا ما روى عن عائشة رضى الله عنها من إنكار ذلك، لأنه نفى وهذا إثبات فقدم عند الاجتماع لأن النبى ﷺ أثبت لنفسه الرؤية.

وقال أبو بكر بن سليمان: رأى محمد ﷺ ربه إحدى عشرة مرة، منها بالسنة تسع مرات فى ليلة المعراج حين كان يتردد بين موسى عليه السلام وبين ربه عز وجل يسأله أن يخفف عن أمته الصلاة فنقص خمساً وأربعين صلاة فى تسع مقامات ومرتين بالكتاب.

(فصل) ونؤمن بأن منكرًا ونكيرًا إلى كل أحد ينزلان سوى النبيين.

فيسألانه ويمتحنانه عما يعتقد من الأديان، وهما يأتیان القبر، فيرسل فيه الروح، ثم يقعد، فإذا سئل سئل روحه بلا ألم.

ونؤمن بأن الميت يعرف من يزوره إذا أتاه، وأكده يوم الجمعة بعد طلوع الفجر قبل طلوع الشمس.

والإيمان بعذاب القبر وضغطته واجب لأهل المعاصى والكفر وجميع الخلق سوى النبيين ثم يخفف عن المؤمنين برحمة الله عز وجل، وكذلك النعيم فيه لأهل الطاعة والإيمان، خلاف ما قالت المعتزلة من إنكارهم ذلك، وإنكارهم مسألة منكر ونكير.

ودليل أهل السنة على إثبات ذلك، قوله عز وجل: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

قيل فى التفسير ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾: عند خروج الروح، ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾: عند مسألة منكر ونكير.

وما روى عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا قبر أحدكم أو الإنسان أتاه

(١) مجمع الزوائد ٧٩/١: باب فى الرؤية، وعزاه إلى «الأوسط» من طريق حفص بن عمر العدنى، روى ابن أبى حاتم توثيقه عن أبى عبد الله الطهرانى، وقد ضعفه النسائى وغيره.

(٢) المصدر السابق، وقال: رجاله رجال الصحيح خلا جمهور بن منصور الكوفى، وقد ذكره ابن حبان فى «الثقات».

ملكان أسودان أزرقان يقال لأحدهما المنكر والآخر النكير، فيقولان له: ما كنت تقول فى هذا الرجل؟ يعنى محمداً رسول الله، فهو قائل ما كان يقول، فإذا كان مؤمناً قال هو عبد الله ورسوله أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله، فيقولان إنا كنا لنعلم أنك تقول مثل ذلك. ثم يفسح له فى قبره سبعون ذراعاً فى سبعين ذراعاً، وينور له فيه، ثم يقال له: نم. فيقول: دعونى أرجع إلى أهلى فأخبرهم، فيقال له: نم كنومة العروس التى لا يوقظها إلا أحب أهلها إليها، حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك. وإن كان منافقاً قال: لا أدرى كنت أسمع الناس يقولون شيئاً وكنت أقوله، فيقولان: إنا كنا نعلم أنك تقول ذلك، ثم يقال للأرض التسمى عليه، فتلتام حتى يختلف فيها أضلاعه، فلا يزال فيها معذباً حتى يبعثه الله عز وجل من مضجعه ذلك»^(١).

وتعلقوا أيضاً بما روى عطاء بن يسار قال: قال رسول الله ﷺ لعمر بن الخطاب رضى الله عنه: «يا عمر كيف أنت إذا أعد لك من الأرض ثلاثة أذرع وشبر فى عرض ذراع وشبر، ثم قام إليك أهلك فغسلوك وكفنوك وحنطوك، ثم حملوك حتى يغيبوك فيه، ثم يهيلوا عليك التراب، ثم انصرفوا عنك، وأتاك مُسائلاً القبر منكر ونكير، أصواتهما مثل الرعد القاصف، وأبصارهما مثل البرق الخاطف قد سدلا شعورهما فتلتاك وتوهلاك وقالوا: من ربك وما دينك؟».

قال: يا نبي الله أو يكون معى قلبى الذى هو معى اليوم؟ قال ﷺ: نعم. قال: إذا أكفيكهما بإذن الله عز وجل»^(٢).

وهذا دليل ونص على أن ذلك يكون بعد إعادة الروح، لأن عمر قال أو يكون قلبى، فقال النبى ﷺ: نعم.

وعن المنهال بن عمرو عن البراء بن عازب رضى الله عنهما قال: «خرجنا مع رسول الله ﷺ فى جنازة رجل من الأنصار وانتهينا إلى القبر ولما يلحد، فجلس النبى ﷺ وجلسنا حوله وكأن على رؤوسنا الطير من هيئته، وفى يده عود ينكت به الأرض ورفع رأسه وقال: أستعيذ بالله من عذاب القبر، مرتين أو ثلاث.

ثم قال ﷺ: إن العبد المؤمن إذا كان فى إقبال من الآخرة وانقطاع من الدنيا نزلت

(١) الترمذى (١٠٧١) وقال: حسن غريب، وابن حبان (١٨٠)، والإتحاف ١٠/٤١٣.

(٢) المغنى عن حمل الأسفار ٤/٤٨٧.

عليه ملائكة بيض الوجوه كأن وجوههم الشمس، ومعهم كفن من أكفان الجنة وحنوط من حنوط الجنة، فيجلسون معه مد البصر، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول: أيتها النفس المطمئنة الطيبة اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوانه، قال: فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من السقاء فيأخذونها ولا يدعونها في يده طرفة عين حتى يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن والحنوط، فيخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا ما هذه الروح الطيبة؟ فيقولون هذا فلان ابن فلان بأحسن أسمائه، ثم ينتهون بها إلى سماء الدنيا فيستفتحون لها فيفتح لهم فيستقبلوها ويشيعوها من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تليها حتى ينتهوا إلى السماء السابعة، فيقول الله عز وجل اكتبوا كتابه في عليين وأعيدوه إلى الأرض: ﴿منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى﴾ [طه: ٥٥].

فتعاد الروح إلى جسده، ويأتيه ملكان فيقولان له: من ربك وما دينك؟ فيقول: ربى الله ودينى الإسلام، فيقولان له: ما تقول فى هذا الرجل الذى بعث فيكم؟ فيقول: هو رسول الله ﷺ، جاءنا بالحق، فيقولان له: وما علمك بذلك؟ فيقول: قرأت كتاب الله تعالى، وآمنت به وصدقت، فينادى من السماء: صدق عبدى فافرشوا له من الجنة وألبسوه من الجنة وافتحوا له باباً إلى الجنة، فيأتيه ريحها وطيبها ويفسح له فى قبره، مد البصر، ويأتيه رجل حسن الوجه طيب الريح فيقول له: أبشر بالذى يسرك هذا يومك الذى كنت توعده، فيقول له: من أنت فيقول: أنا عمك الصالح، فيقول عند ذلك: رب أقم الساعة، رب أقم الساعة .

وإن العبد الكافر إذا كان فى إقبال من الآخرة وانقطاع من الدنيا أنزل الله تعالى عليه ملائكة من السماء سود الوجوه معهم المسوح، فيجلسون معه مد البصر، ثم يجيء ملك الموت يجلس عند رأسه فيقول: أيتها النفس الخبيثة اخرجي إلى سخط الله وغضبه فتتفرق فى أعضائه كلها فيتزعاها كما ينزع العود من الصوف المبلول، فتقطع منه العروق والعصب فيأخذونها فيجعلونها فى تلك المسوح فيخرج منها كأتان جيفة، فيصعدون بها فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذه الروح الخبيثة؟ فيقولون: هذا فلان ابن فلان بأقبح أسمائه حتى ينتهوا بها إلى سماء الدنيا فيستفتحون لها فلا يفتح لهم، ثم قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿لا تفتح لهم أبواب السماء﴾ [الاعراف: ٤٠]،

ثم يقول الله سبحانه وتعالى: «اكتبوا كتابه في سجين» ثم تطرح روحه طرحاً، ثم قرأ رسول الله ﷺ: «ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح في مكان سحيق» [الحج: ٣١].

يعنى ترد فتعاد إليه روحه في جسده، فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول: هاه هاه، لا أدري، فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: هاه هاه لا أدري، فيقولان له: ما تقول في هذا الرجل الذى بعث فيكم؟ فيقول: هاه هاه لا أدري، فينادى المنادى من السماء: كذب عبدي فافرشوا له فراشاً، من النار وألبسوه من النار وافتحوا له باباً من النار، فيدخل عليه من حرها وسمومها، ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه، ويأتيه رجل قبيح المنظر والثياب منتن الريح فيقول له: أبشر بالذى يسوءك هذا يومك الذى كنت توعده، فيقول من أنت؟ فيقول: أنا عمك السوء، فيقول: رب لا تقم الساعة^(١).

وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما: قال: إن المؤمن إذا وضع في قبره يوسع عليه في قبره سبعون ذراعاً عرضاً وسبعون ذراعاً طولاً، وتشر عليه الرياحين، ويستتر بالحرير في الجنة، فإن كان معه شيء من القرآن كفاه نوره، وإن لم يكن معه شيء من القرآن جعل له نور مثل نور الشمس، ويكون مثله كمثل العروس تنام فلا يوقظها من نومتها إلا أحب أهلها إليها، فتقوم من نومتها كأنها لم تشع منها.

وإن الكافر إذا وضع في قبره يضيق عليه قبره حتى تدخل أضلاعه في جوفه، ويرسل عليه حيات كأمثال أعناق البخت فتأكل لحمه حتى لا يذرن على عظمه لحماً، ويرسل عليه شياطين صم بكم عمى، ويقال: هو الشيطان الرجيم، ومعهم فطاطيس من حديد، فيضربونه بها حتى لا يسمعون صوته فيرحمونه، ولا يبصرونه فيرحمونه، وتعرض عليه النار بكرة وعشياً.

فهذه أخبار دالة على إثبات عذاب القبر ونعيمه، فإن اعترضوا عليها فقالوا: كيف القول في المصلوب والمحترق والغريق ومن أكلته السباع فتفرقت بلحمه والطير معها فحصل أجزاء متعددة؟

(١) أحمد ٢٨٧/٤، والحاكم ٣٧/١، ومجمع الزوائد ٤٩/٣ - ٥٠، وعزاه إلى «أحمد» وقال: رجاله رجال الصحيح.

فيقال لهم إن النبي ﷺ ذكر عذاب القبر والمسألة على ما هو معهود وعادة في الخلق أنهم يدفنون في القبور، وإن وجد ميت على هذه الصفة البعيدة السادرة لا يمتنع أن يقال: إن الله يصير روحه إلى الأرض، ثم تضغط وتسل وتغذب وتنعم، كما أن أرواح الكفار تعذب كل يوم مرتين، غدوة وعشية، حتى تقوم الساعة، ثم تدخل النار مع الأجساد حينئذ، كما قال الله تعالى: ﴿النار يعرضون عليها غدواً وعشياً ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب﴾ [غافر: ٤٦].

وإن أرواح الشهداء والمؤمنين في حواصل طيور خضر، تسرح في الجنة، وتأوى إلى قناديل من نور تحت العرش ثم تأتي إلى الأجساد عند النفخة الثانية إلى الأرض للعرض والحساب يوم القيامة.

كما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «لما أصيب إخوانكم بأحد، جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة وتاكل أثمارها، وتأوى إلى قناديل من ذهب في ظل العرش، فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم ومقيلهم، قالوا: من يبلغ عنا إخواننا أننا أحياء في الجنة نرزق، فلا يزهدها في الجهاد، ولا يتركوا عن الحرب، فقال الله عز وجل وهو أصدق القائلين: أنا أبلغهم فأنزل عز وجل: ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون﴾ فرحين بما آتاهم الله من فضله» [آل عمران: ١٦٩ - ١٧٠] (١).

فيجوز أن تقع المسألة والعذاب والنعيم ببعض جسد الكافر والمؤمن دون بقية أجزائه ويكون ما فعل البعض فعلاً بالكل، وقد قيل: إن الله يجمع تلك الأجزاء المتفرقة للضغط والمسألة كما يفعل ذلك في الحشر والمحاسبة.

ثم إن الإيمان بالبعث من القبور والنشر عنها واجب، كما قال الله عز وجل: ﴿وإن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور﴾ [الحج: ٧]. وكما قال الله عز وجل: ﴿كما بدأكم تعودون﴾ [الاعراف: ٢٩]، وقال جل وعلا: ﴿منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى﴾ [طه: ٥٥].

سيحشرهم ويجمعهم جميعاً جل وعلا: ﴿لتجزى كل نفس بما تسعى﴾ [طه: ١٥]، ﴿ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى﴾ [النجم: ٣١]، وقال

(١) أبو داود (٢٥٢٠)، وأحمد ١/٢٦٦، والبيهقي ٩/١٦٣، ودلائل النبوة ٣/٣٠٤.

جل جلاله: ﴿الذى خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم﴾ [الروم: ٤٠].
 فالذى قدر على إنشاء الخلق قادر على إعادتهم، وقد أنكرت المعطلة ذلك تباً لهم.
 (فصل) والإيمان بأن الله تعالى يقبل شفاعة نبينا ﷺ فى أهل الكبائر والأوزار واجب.

قبل دخول النار عامّاً للحساب لجميع أمم المؤمنين، وبعد دخولها لأمته خاصة، فيخرجون منها بشفاعته ﷺ وغيره من المؤمنين حتى لا يبقى فى النار من كان فى قلبه مثقال ذرة من الإيمان، ومن قال: لا إله إلا الله محمد رسول الله مرة واحدة فى عمره مخلصاً لله عز وجل خلاف ما زعمت القدرية من إنكار ذلك.

وفى كتاب الله تكذيبهم قال الله عز وجل: ﴿فما لنا من شاعفين * ولا صديق حميم﴾ [الشعراء: ١٠٠ - ١٠١].

وقوله عز وجل: ﴿فما لنا من شفعاء فيشفعوا لنا...﴾ [الاعراف: ٥٣] الآية.

وقال الله جل جلاله: ﴿فما تنفعهم شفاعة الشافعين﴾ [المدثر: ٤٨].

فقد أثبت الله تعالى فى الآخرة شفاعة، وكذلك فى السنة.

وهو ما روى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: «إنَّ أول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة أنا ولا فخر، وأنا سيد ولد آدم ولا فخر، وأنا صاحب لواء الحمد ولا فخر، وأنا أول من يدخل الجنة ولا فخر، وأنا آخذ بحلقة باب الجنة، فيؤذن لى فيستقبلنى وجه الجبار عز وجل، فأخبر له ساجداً. فيقول تعالى: يا محمد ارفع رأسك واشفع تشفع وسل تعط، فأرفع رأسى فأقول: يا رب أمتى أمتى، فلا أزال أرجع إلى ربى، فيقول لى: اذهب فانظر، فمن وجدت فى قلبه مثقال حبة من الإيمان فأخرجه من النار.

قال ﷺ فأخرج من أمتى أمثال الجبال، ثم يقول لى النبيون: ارجع إلى ربك فاسأله، فأقول قد رجعت إلى ربى حتى استحييت منه»^(١).

وقال النبى ﷺ فى حديث جابر بن عبد الله رضى الله عنهما: «شفاعتى لأهل الكبائر من أمتى»^(٢).

(١) الترمذى (٣١٤٨)، وابن ماجه (٤٣٠٨)، وأحمد ٢٨١/١، وابن أبى شيبة ٩٨/١٤.

(٢) أبو داود (٤٧٣٩)، والترمذى (٢٤٣٦)، وأحمد ٢١٣/٣.

وعن أبي هريرة رضى الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لكل نبي دعوة مستجابة فتعجل كل نبي دعوته، وإنى اختبأت دعوتى شفاعة لأمتى يوم القيامة، فهى نائلة إن شاء الله تعالى لمن مات من أمتى لا يشرك بالله شيئاً»^(١).

وقال ﷺ فى حديث أنيس الأنصارى رضى الله عنه: «إنى لأشفع يوم القيامة لأكثر مما على وجه الأرض من حجر ومدر»^(٢).

وله ﷺ شفاعة فى القيامة عند الميزان وعلى الصراط، وكذلك ما من نبي إلا وله شفاعة.

وعن حذيفة رضى الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: يقول إبراهيم عليه السلام يوم القيامة: يا رباه. فيقول الله عز وجل: يا لبيكاه، فيقول: يا رب أحرق بني آدم. فيقول جل وعلا: أخرجوا من النار من كان فى قلبه مثقال برة أو شعيرة من الإيمان^(٣). وكذلك للصديقين والصالحين من كل أمة شفاعة.

وقال ﷺ فى حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه: «لكل نبي عطية، وإنى اختبأت عطيتى شفاعة لأمتى، وإن الرجل من أمتى ليشفع للقبيلة فيدخلهم الله تعالى الجنة بشفاعته، وإن الرجل ليشفع لفئام من الناس فيدخلهم الله الجنة بشفاعته، وإن الرجل ليشفع لثلاثة نفر، والرجل لاثنين، وإن الرجل ليشفع لرجل»^(٤).

وقال النبي ﷺ فى حديث ابن مسعود رضى الله عنه: «ليدخل الجنة قوم من المسلمين قد عذبوا فى النار برحمة الله تعالى وشفاعة الشافعين»^(٥).

وأيضاً فى حديث أويس^(٦) القرنى رحمه الله ورضى عنه المعروف: «ولله عز وجل تفضل وتكرم ورحمة ومنة على من يشاء من أهل النار فى إخراجهم من النار بعدما احترقوا وصاروا فحمًا».

(١) مسلم فى: الإيمان: حديث (٣٣٨)، وابن ماجه (٤٣٠٧)، وأحمد ٢/٢٧٥.

(٢) الإتحاف ١٠/٤٨٩، والخطيب ١٢/٣٣٠.

(٣) ابن أبى عاصم ٢/٤٠٣.

(٤) سبق تخريجه بنحوه.

(٥) الطبرانى ١٠/٢٦٥، ومجمع الزوائد ١٠/٣٧٩ وعزاه إليه، وقال: فيه من لم أعرفهم.

(٦) أويس القرنى هو: ابن عامر المرادى سيد التابعين. ويقال: أويس بن عمرو، العابد. نزل الكوفة. له ترجمة فى: الميزان ١/٢٧٨ - ٢٨٢.

وعن الحسن عن أنس رضى الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «ما زلت أشفع إلى ربي فيشفعني حتى أقول: يا رب شفّعني فيمن قال: لا إله إلا الله.

فيقول جل وعلا: هذه ليست لك يا محمد ولا لأحد، هذه لى، وعزتى وجلالى ورحمتى لا أدع فى النار واحداً يقول: لا إله إلا الله»^(١).

(فصل) والإيمان بالصراط على جهنم واجب.

وهو جسر ممدود على متن جهنم يأخذ من يشاء الله إلى النار، ويجوز من يشاء ويسقط فى جهنم من يشاء.

ولهم فى تلك الأحوال أنوار على قدر أعمالهم فهم بين ماش وساع وراكب وزحف وسحب.

وقد وصفه النبي ﷺ بأنه ذو كلاليب فى خبر فيه طول إلى أن قال ﷺ: «ذو كلاليب مثل شوك السعدان، هل تعرفون شوك السعدان؟ قالوا: نعم يا رسول الله، قال: فإنها مثل شوك السعدان غير أنه لا يعلمها إلا الله عز وجل، فتخطف الناس، فمنهم موبق بعمله ومنهم المخردل، ثم ينجو المخردل، المرمى المصروع»^(٢) وقيل ذلك للمتقطع أيضاً.

وقال ﷺ: «استجدوا ضحاياكم فإنها مطاياكم على الصراط»^(٣).

وجاء فى وصف الصراط عنه ﷺ «أنه أدق من الشعرة وأحرّ من الجمرة وأحد من السيف، طوله ثلاثمائة سنة من سنى الآخرة، يجوزه الأبرار وتزل عنه الفجار، وقيل طوله ثلاثة آلاف سنة من سنى الآخرة».

(فصل) وأهل السنة يعتقدون أن لنبينا ﷺ حوضاً فى القيامة.

يسقى منه المؤمنون، دون الكافرين، ويكون ذلك بعد جواز الصراط قبل دخول الجنة، من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبداً، عرضه مسيرة شهر، ماؤه أشدّ بياضاً من اللبن وأحلى من العسل، حوله أباريق على عدد لنجوم السماء، فيه ميزابان يصبان من الكوثر، أصله فى الجنة وفرعه فى الوقف.

(١) الإنحافات (٢٦٦)، وابن أبى عاصم ٣٩٦/٢، وتاريخ أصفهان ٢٣٤/١.

(٢) مسلم فى: الإيمان: حديث (٣١٦)، وأحمد ٣٤٥/٣.

(٣) تلخيص الخبير ١٣٨/٤، والضعيفة (٧٤).

وقد ذكره النبي ﷺ في حديث ثوبان^(١) رضى الله عنه: «أنا عند حوضي يوم القيامة، فسئل النبي ﷺ عن سعة الحوض، فقال ﷺ: ما بين مقامي هذا إلى عمان، شرا به أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل، فيه ميزابان من الجنة، أحدهما من ورق والآخر من ذهب، من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبداً»^(٢).

وقال ﷺ في حديث عبد الله بن عمر رضى الله عنهما: «موعدكم حوضي عرضه مثل طوله، وهو أبعد ما بين إيلة إلى مكة، وذلك مسيرة شهر، فيه أباريق أمثال الكواكب، ماؤه أشد بياضاً من الفضة، من ورده فشرب منه لم يظمأ بعدها أبداً»^(٣).

وكذلك لكل نبي من الأنبياء حوض إلا صالحاً النبي، فإن حوضه ضرع ناقته يسقى من ذلك مؤمنو كل أمة منهم دون الكافرين.

وفى حديث آخر عن النبي ﷺ أنه قال: «حوضي ما بين عدن وعمان، حافته خيام الدر المجوف، وآيته عدد نجوم السماء، طينة المسك الأذفر، وماؤه أبيض من اللبن وأبرد من الثلج، وأحلى من العسل، من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبداً، فيزاد عنى يوم القيامة رجال كما تزداد الغريبة من الإبل فأقول: ألا هلم ألا هلم، فيقال لى إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، فأقول: وما أحدثوا؟ فيقال: إنهم غيروا وبدلوا فأقول: ألا سحقاً وبعداً»^(٤).

وقد أنكرت ذلك المعتزلة فلا يسقون منه، ويدخلون النار ورداً عطشاً إن لم يتوبوا عن مقالاتهم وجحودهم الحق ورد الآيات والأخبار والآثار.

وروى عن أنس بن مالك رضى الله عنه يرفعه إلى النبي ﷺ أنه قال: «من كذب بالشفاعة لم يكن له فيها نصيب ومن كذب بالحوض لم يكن له فيه نصيب».

(فصل) وأهل السنة يعتقدون أن الله يجلس رسوله ونبيه المختار على سائر رسله وأنبيائه معه على العرش يوم القيامة.

(١) ثوبان هو: ابن بُجْدُ الهاشمي، مولى رسول الله ﷺ، أصله من حمير، فسبى في الجاهلية فاشتراه رسول الله ﷺ وأعتقه، فلزمه حضراً وسفراً، فلما توفى رسول الله ﷺ خرج إلى الشام، فنزل الرملة. مات سنة (٤٥). له ترجمة في: الرياض ص (٤٣).

(٢) ابن أبي شيبة ١٣/١٤٦.

(٣) الحاكم ١/٧٥، وصححه، ووافقه الذهبي.

(٤) الطبراني ٩٦/٢، وابن أبي عاصم ٣٢٦/٢، وابن عساكر ٢٢٥/٧.

لما روى عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما عن النبي ﷺ فى قوله عز وجل: ﴿عسى أن يعثلك ربك مقاماً محموداً﴾ [الإسراء: ٧٩] قال يجلسه معه على السرير^(١).

وعن هشام بن عروة عن أبيه، عن عائشة رضى الله تعالى عنها أنها قالت سألت رسول الله ﷺ عن المقام المحمود، فقال ﷺ: «وعندى ربى القعود على العرش»^(٢).

وكذلك عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه، وعن عبد الله^(٣) بن سلام رضى الله عنه قال: إذا كان يوم القيامة جئ بنبيكم ﷺ فأقعد بين يدى الله على كرسيه، فقيل له يا أبا مسعود إذا كان معه على كرسيه أليس هو معه؟ قال: ويلكم هذا أقر حديث فى الدنيا لعينى.

وقال الحجاج فى حديثه: إذا كان يوم القيامة نزل الجبار جل اسمه على عرشه وقدماء على الكرسى، ويؤتى بنبيكم ﷺ فيقعد بين يديه على الكرسى، فقالوا للحميدى: إذا كان على الكرسى فهو معه، قال: نعم، ويلكم هو معه..

(فصل) ويعتقد أهل السنة أن الله تعالى يحاسب عبده المؤمن يوم القيامة، ويدنيه منه فيضع كنفه عليه حتى يستره من الناس.

لما روى عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «يؤتى بالمؤمن يوم القيامة فيدنيه الله تعالى منه، فيضع كنفه عليه حتى يستره من الناس فيقول: عبدى أتعرف ذنب كذا، أتعرف ذنب كذا؟ مرتين، فيقول: نعم رب، حتى إذا قرره بذنوبه كلها فرأى نفسه أنه قد هلك، قال: فإنى قد سترتها عليك فى الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم»^(٤).

ومعنى المحاسبة: تعريف الله تعالى عبده بمقادير ثواب الأعمال وعذابه بقراءة سيئاته أو حسناته وما له وما عليه.

وقد أنكرت المعطلة المحاسبة، وقد كذبهم الله تعالى بقوله: ﴿إن إلينا إيابهم﴾ ثم إن

(١) الدر المنثور ٤/ ١٩٨.

(٢) موضوع.

(٣) عبد الله بن سلام بن الحارث الإسرائيلى نسباً، الأنصارى وكان اسمه فى الجاهلية حصناً، فسماه النبى ﷺ عبد الله، وكان من سادات اليهود وأجبارهم. مات سنة (٤٣). له ترجمة فى: الرياض المستطابة ص (١٩٣ - ١٩٤).

(٤) البخارى فى: الأدب: ب (٦٠)، ومسلم فى: التوبة: حديث (٥٢)، وأحمد ٧٤/٢ و ١٠٥.

علينا حسابهم ﴿[الغاشية: ٢٥ - ٢٦].﴾

(فصل) ويعتقد أهل السنة أن الله تعالى ميزاناً يزن فيه الحسنات والسيئات يوم القيامة، له كفتان ولسان.

وقد أنكرت المعتزلة مع المرجئة والخوارج ذلك، فقالت: إن معنى الميزان: العدل دون موازنة الأعمال، وفى كتاب الله وسنة رسوله تكذيبهم، قال الله تعالى: ﴿ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أثينا بها وكفى بنا حاسبين﴾ [الانباء: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿فأما من ثقلت موازينه * فهو فى عيشة راضية * وأما من خفت موازينه * فأمه هاوية﴾ [القارعة: ٦ - ٩].

والعدل لا يوصف بالخفة والثقل، وإنما هو بيد الرحمن جل جلاله؛ لأنه هو الذى يتولى حسابهم، لما روى النواس بن سمعان الكلابى - رضى الله عنه - قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الميزان بيد الرحمن عز وجل، يرفع أقواماً ويضع آخرين يوم القيامة»^(١).

وقيل إنه بيد جبرائيل عليه السلام لما روى عن حذيفة بن اليمان رضى الله عنهما قال: إن جبرائيل عليه السلام صاحب الميزان، فيقول له ربه زن يا جبريل بينهم فيرجح بعضهم على بعض.

وروى عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «يوضع الميزان يوم القيامة، فيؤتى بالرجل فيوضع فى كفة الميزان، ويوضع ما أحصى من عمله فى كفة، فيميل به الميزان، فيبعث الله به إلى النار فإذا أدبر به إذا صائح يصيح من عند الرحمن: لا تعجلوا لا تعجلوا، فإنه قد بقى له، فيؤتى بشيء فيه لا إله إلا الله فيوضع مع الرجل فى كفة حسناته حتى يميل به الميزان، فيؤمر به إلى الجنة»^(٢).

وفى حديث آخر عن النبى ﷺ أنه قال: إنه يؤتى بالرجل يوم القيامة إلى الميزان ثم يؤتى بتسعة وتسعين سجلاً كل سجل مد البصر فيها كلها سيئاته وخطيئاته فترجح سيئاته على حسناته فيؤمر به إلى النار، فإذا أدبر به إذا صائح يصيح من عند الرحمن لا تعجلوا لا تعجلوا فقد بقى له، فيؤتى بمثل رأس الإبهام، وأمسك على النصف منها،

(١) ابن ماجه (١٩٩)، وأحمد ٤/١٨٢، والطبرانى ٧/١٣٨.

(٢) الإتحاف ١٠/٥٦٤.

فيه شهادة أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله، فيوضع فى كفة حسناته فتثقل حسناته على سيئاته، فيؤمر به إلى الجنة.

وفى لفظ آخر: فيخرج له بقرطاس مثل هذا - وأمسك على إبهامه - فيه: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله... إلى آخر الحديث.

وقيل إن الصنج يومئذ مئاقيل الذر والخردل تكون الحسنات فى صورة حسنة تطرح فى كفة النور فيثقل بها الميزان برحمة الله وتكون السيئات فى صورة سيئة تطرح فى كفة الظلمة فيخف بها الميزان بعدل الله تعالى.

وعلاوة تثقيل الميزان ارتفاعها، وعلاوة خفتها انحطاطها بخلاف موازين الدنيا، وقد قيل مثل موازين الدنيا.

وسبب تثقيلها الإيمان وقول الشهادتين، وسبب خفتها الشرك بالله عز وجل، فإذا ارتفعت أدخل صاحبها الجنة لأنها عالية، وإذا خفت أدخل صاحبها النار الهاوية، لأنها فى التخوم أسفل السافلين.

كما قال الله عز وجل: ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ [القارعة: ٦] - [٧] أى فى جنة عالية. ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ * فَأُمَّهُ هَاوِيَةٌ﴾ [القارعة: ٨ - ٩] أى أصله ومأواه ومرجعه نار حامية، وهى هاهوية.

والناس فى موازنة الأعمال على ثلاثة أضرب: منهم من ترجح حسناته على سيئاته، فيؤمر به إلى الجنة، ومنهم من ترجح سيئاته على حسناته، فيؤمر به إلى النار. ومنهم من لا ترجح إحداهما على الأخرى، فهم أصحاب الأعراف، ثم ينالهم الله برحمته إذا شاء فيدخلهم الجنة. فهو قوله عز وجل: ﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ رَجَالٌ﴾ [الأعراف: ٤٦].

والذى يورن صحائف أعمالهم على ما ذكرنا من تسعة وتسعين سجلاً وطريق ذلك النقل والسمع.

وأما المقربون فيدخلون الجنة بغير حساب، كما جاء فى الحديث: «أنه يدخل الجنة سبعون ألفاً بغير حساب، ومع كل واحد منهم سبعون ألفاً» على نص الحديث المشهور. وأما الكافرون فيدخلون النار بغير حساب، ومن المؤمنين من يحاسب حساباً يسيراً ثم يؤمر به إلى الجنة على ما تقدم.

(١) البخارى ١٢٤/٨، ومسلم فى: الإيمان (٣٧١ - ٣٧٢)، وأحمد ٣٢١/١.

ومنهم من يناقش ثم أمره إلى الله عز وجل إن شاء أمر به إلى الجنة أو إلى النار. قال الله عز وجل: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَوْتَىٰ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ * فَسَوْفَ يَحَاسِبُ حِسَابًا يَسِيرًا * وَيَنْقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مُسْرُورًا﴾ [الانشقاق: ٧-٩] الآية، وقال جل وعلا: ﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ لِّزَمَانِهِ طَائِرُهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا * أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٣-١٤].

وقال النبي ﷺ في حديث على رضى الله عنه: «إن الله يحاسب كل الخلق إلا من أشرك بالله، فإنه لا يحاسب ويؤمر به إلى النار».

(فصل) ويعتقد أهل السنة أن الجنة والنار مخلوقتان، وهما الداران أعدهما الله تعالى.

إحدهما للنعيم والثواب لأهل الطاعة والإيمان، والأخرى للعقاب والنكال لأهل المعاصي والطغيان، وهما منذ خلقهما الله تعالى باقيتان لا تغنيان أبدًا، وهى الجنة التى كان فيها آدم وحواء عليهما السلام وإبليس اللعين، ثم أخرجا منها، القصة المشهورة. وقد أنكرت المعتزلة ذلك، فأما الجنة فلا يدخلونها، وأما النار فلمعمرى هم فيها خالدون مخلدون لإنكارهم ولحكمهم بذلك للمؤمن الموحد المطيع لله عز وجل سبعين سنة بكبيرة واحدة، وفى كتاب الله العزيز عز وجل وسنة رسول الله ﷺ تكذيبهم. قال الله عز وجل: ﴿وَجَنَّةٌ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

وقال عز وجل: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣١] وما كان معدًا كان موجودًا يعلمه كل عاقل فعلم أنهما مخلوقتان.

وقال رسول الله ﷺ فى حديث أنس بن مالك رضى الله عنه: «دخلت الجنة فإذا أنا بنهر يجرى؟ حافتاه خيام اللؤلؤ، فضربت ييذى إلى ماء يجرى إذ مسك أذفر، قلت: يا جبريل ما هذا، قال: هذا الكوثر الذى أعطاك الله تعالى»^(١).

وقال ﷺ فى حديث أبى هريرة رضى الله عنه: حين قيل له يا رسول الله أخبرنا عن الجنة ما بناؤها؟ قال عليه الصلاة والسلام: لبنة من فضة ولبنة من ذهب، وبلاطها المسك الأذفر، وحصاها الياقوت واللؤلؤ، وترابها الورس والزعفران، من دخلها يخلد

(١) أحمد ١٠٣/٣ و ١١٥ و ٢٦٣، وابن أبى شيبه ٤٣٧/١١.

ولا يموت وينعم ولا يبأس، ولا يخلق ثيابهم ولا يبلى شبابهم»^(١).
فهذا دليل على كونهما مخلوقتين، وأن نعيم الجنة دائم لا يفنى، كما قال الله تعالى: ﴿أكلها دائم وظلها﴾ [الرعد: ٣٥]، وقال عز وجل: ﴿لا مقطوعة ولا ممنوعة﴾ [الواقعة: ٣٣].

ومن نعيمها الحور العين خلقهن الله تعالى في الجنة للبقاء، لا يفنين ولا يمتن كما قال الله عز وجل: ﴿فيهن قاصرات الطرف لم يطمثنهن أنس قبلهم ولا جان﴾ [الرحمن: ٥٦]، وقوله تبارك وتعالى: ﴿حور مقصورات في الخيام﴾ [الرحمن: ٧٢].
وروت أم سلمة زوج النبي ﷺ قالت: قلت: يا رسول الله، أخبرني عن قول الله عز وجل: ﴿كأمثل اللؤلؤ المكنون﴾ [الواقعة: ٢٣].

قال: صفاؤهن كصفاء الدر في الأصداف... إلى أن قال: يقلن نحن الخالدات فلا نموت أبداً، ونحن الناعمات فلا نبأس أبداً، ونحن المقيمات فلا نظعن أبداً، ونحن الراضيات فلا نسخط أبداً، وهن في دار حق ولا يقلن إلا حقاً، والنبي ﷺ صادق لا يقول إلا حقاً فقد أخبر أنهم خالدات لا يمتن أبداً^(٢).

وروى معاذ بن جبل رضى الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «لا تؤذى امرأة زوجها في الدنيا إلا قالت زوجته من الحور العين: لا تؤذيه قاتلك الله، فإنما هو عندك دخيل يوشك أن يفارقك إلينا»^(٣).

فإذا ثبت أنهما لا يفنيان وما فيهما أبداً فلا يخرج الله تعالى من الجنة أحداً، ولا يسלט على أهلها الموت فيها، ولا يزول عنهم نعيمها فهم في كل يوم في مزيد نعيم أبداً الآباد.

وتقام نعيمهم أن الله عز وجل يأمر بالموت فيذبح على صورة كبش أملح بين الجنة والنار، وينادى المنادى: يا أهل الجنة خلود ولا موت، يا أهل النار خلود ولا موت، على ما ورد به الخبر الصحيح عن النبي ﷺ^(٤).

(١) الترمذى (٢٥٢٦)، وأحمد ٣٠٥/٢ و ٤٤٥.

(٢) المجمع ١١٩/٧ بنحوه، وعزاه إلى «الطبراني» من طريق سليمان بن أبى كريمة، ضعفه أبو حاتم وابن عدى.

(٣) البخارى (١١٧٤)، وابن ماجه (٢٠١٤)، وأحمد ٢٤٢/٥، والصحيحه (١٧٣).

(٤) البخارى ١١٨/٦، وأحمد ٤٢٣/٢.

(فصل) ويعتقد أهل الإسلام قاطبة أن محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم رسول الله، وسيد المرسلين وخاتم النبيين عليهم السلام، وأنه مبعوث إلى الناس كافة وإلى الجن عامة.

كما قال الله عز وجل: ﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس﴾ [سبا: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

وقال النبي ﷺ في حديث أبي أمامة رضى الله عنه: «إن الله فضلني على الأنبياء بأربع: أرسلني إلى الناس كافة...» وذكر الحديث^(١).

وأنه ﷺ أعطى من المعجزات ما أعطى غيره من الأنبياء وزيادة، وقد عدها بعض أهل العلم ألف معجزة.

منها القرآن المنظوم على وجه مخصوص مفارق لجميع أوزان كلام العرب ونظمه وترتيبه وبلاغته وفصاحته على وجه جاوز فصاحة كل فصيح، وبلاغة كل بليغ، وعجزت العرب أن تأتي بمثله، ولا بسورة منه كما قال الله تعالى: ﴿فأتوا بعشر سور مثله مفتريات﴾ [هود: ١٣] فلم يأتوا، ثم قال تعالى: ﴿فأتوا بسورة من مثله﴾ [البقرة: ٢٣] فعجزوا عن ذلك مع براعتهم وفصاحتهم على أهل زمانهم، وانقطعوا فظهر فضله عليهم، فلذلك صار القرآن معجزة له ﷺ، كالعصا في حق موسى عليه السلام لأن موسى بعث في زمن السحرة الحذاق في صنعتهم، فتلقفت عصا موسى عليه السلام ما سحروا به أعين الناس وخيلوه إليهم: ﴿فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين﴾ * وألقى السحرة ساجدين﴾ [الأعراف: ١١٩ - ١٢٠].

وكإحياء عيسى عليه السلام الموتى، وإبراءه الأكمه والأبرص لأنه عليه السلام بعث في زمن الناس فيه أطباء حذاق، يوقفون الأعلال والأسقام التي لا تبرا ببراعتهم في حذق الصنعة، فانقادوا إليه وآمنوا به لمجاورته في الصنعة عليهم وبراعته في المعجزة فيما تعاطوه منه.

ففصاحة القرآن وإعجازه معجزة للنبي ﷺ كالعصا وإحياء الموتى في حق موسى وعيسى عليهما السلام.

ومن معجزاته عليه الصلاة والسلام نبع الماء من بين أصابعه وإطعام الزاد القليل

(١) الترمذى (١٥٥٣) وقال: حسن صحيح، والمشكاة (٤٠٠١)، والكنز (٣١٩٥١).

للخلق الكثير، وكلام الذراع المسموم، وقوله: لا تأكل مني فأني مسموم، وانشقاق القمر، وحنين الجذع، وكلام البعير، ومجيء الشجرة إليه، وغير ذلك مما يبلغ ألف معجزة على ما ذكروا.

وإنما لم يأت النبي ﷺ بمثل عصا موسى ويده البيضاء، وإحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص ومثل ناقة صالح، والمعجزات التي كانت للأنبياء لأمرين اثنين. أحدهما: لئلا يكذب بها أمته فيهلكوا كما هلكت الأمم قبلهم، كما قال الله تعالى: ﴿وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون﴾ [الإسراء: ٥٩].

والثاني: لو جاء بمثل ما جاء به الأولون لقالوا له ما جئت بغريب وقد تعلمت من موسى وعيسى، فأنت من أتباعهم لا تؤمن لك حتى تأتينا بما لم يأت به الأولون. ولهذا لم يؤت الله سبحانه نبياً من أنبيائه معجزة غيره، بل خص كل نبي بمعجزة غير معجزة من كان قبله.

(فصل) ويعتقد أهل السنة أن أمة نبينا محمد ﷺ خير الأمم أجمعين، وأفضلهم أهل القرن الذين شاهدوه وآمنوا به وصدقوه وبايعوه وتابعوه وقاتلوا بين يديه ومدوه بأنفسهم وأموالهم وعزروه ونصروه.

وأفضل أهل القرون أهل الحديبية الذين بايعوه بيعة الرضوان وهم ألف وأربعمائة رجل.

وأفضلهم أهل بدر وهم ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً عدد أصحاب طلوت.

وأفضلهم الأربعون أهل دار الخيزان الذين كملوا بعمر بن الخطاب.

وأفضلهم العشرة الذين شهد لهم النبي ﷺ بالجنة وهم: أبو بكر وعمر وعثمان وعلى وطلحة^(١) والزبير^(٢) وعبد الرحمن بن عوف وسعد وسعيد وأبو عبيدة بن الجراح.

وأفضل هؤلاء العشرة الأبرار الخلفاء الراشدون الأربعة الأخيار.

(١) طلحة هو: ابن عبيد الله بن عثمان القرشي التيمي، كان أحد العشرة، وأحد الستة أصحاب الشورى، وأحد الثمانية السابق إلى الإسلام، ومناقبه جمة. قتل يوم الجمل سنة (٣٦). له ترجمة في: الرياض ص (١٣٥ - ١٣٨).

(٢) الزبير هو: ابن العوام بن خويلد القرشي الأسدي. كان رابعاً أو خامساً في الإسلام، وقد عذب في الله، وهاجر الهجرتين، وشهد المشاهد كلها. قتل يوم الجمل سنة (٣٦). له ترجمة في: الرياض ص (٧٤ - ٧٩).

وأفضل الأربعة أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم على رضى الله تعالى عنهم .
ولهؤلاء الأربعة الخلافة بعد النبي ﷺ ثلاثون سنة ولى منها أبو بكر رضى الله عنه ستين وشيئاً، وعمر رضى الله عنه عشراً، وعثمان رضى الله عنه اثنتى عشرة، وعلى رضى الله عنه تسعاً، ثم وليها معاوية تسعة عشرة سنة، وكان قبل ذلك ولاء عمر الإمارة على أهل الشام عشرين سنة .

وخلافة الأئمة الأربعة كانت باختيار الصحابة واتفاقهم ورضاهم، ولفضل كل واحد منهم فى عصره وزمانه على من سواه من الصحابة ولم تكن بالسيف والقهر والغلبة والأخذ بمن هو أفضل منه .

وأما خلافة أبى بكر الصديق رضى الله عنه فباتفاق المهاجرين والأنصار كانت .
وذلك أنه لما توفى رسول الله ﷺ قامت خطباء الأنصار فقالوا: منا أمير ومنكم أمير، فقام عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال: يا معشر الأنصار أستم تعلمون أن النبي ﷺ أمر أبا بكر أن يؤم الناس ؟ فقالوا: بلى، قال: فأيكم تطيب نفسه أن يتقدم أبا بكر؟ قالوا: معاذ الله أن نتقدم أبا بكر .

وفى لفظ آخر قال عمر رضى الله تعالى عنه: فأيكم تطيب نفسه أن يزيله عن مقام أقامه فيه رسول الله ﷺ؟ فقالوا كلهم: كلنا لا تطيب أنفسنا، نستغفر الله، فاتفقوا مع المهاجرين فبايعوه بأجمعهم، وفيهم على الزبير .

ولهذا فى النقل الصحيح: «لما بويع أبو بكر الصديق رضى الله تعالى عنه قام ثلاثاً يقبل على الناس يقول: يا أيها الناس أفلتكم بيعتى هل من كاره؟ فيقوم على رضى الله عنه فى أوائل الناس فيقول: لا نقيلك ولا نستقيلك أبداً، قدمك رسول الله ﷺ فمن يؤخرك»^(١).

وبلغنا عن الثقات أن علياً رضى الله عنه كان أشد الصحابة قولاً فى إمامة أبى بكر رضى الله عنه .

وروى أن عبد الله بن الكواء دخل على على* بعد قتال الجمل وسأله: هل عهد إليك رسول الله ﷺ فى هذا الأمر شيئاً؟ فقال: نظرنا فى أمرنا فإذا الصلاة عضد الإسلام

(١) مجمع الزوائد ٥/ ١٨٣ : كتاب الخلافة، وعزاه إلى «أحمد» و «أبى يعلى» من طريق عاصم بن أبى النجود، وهو ثقة وفيه ضعف، وبقيّة رجاله رجال الصحيح .

فرضينا لدنيانا من رضى الله ورسوله لديتنا، فولينا الأمر أبا بكر .
وذلك أن النبي ﷺ استخلف أبا بكر الصديق رضى الله عنه فى إمامة الصلاة
المفروضة أيام مرضه، فكان يأتيه بلال وقت كل صلاة فيؤذنه بالصلاة، فيقول عليه
الصلاة والسلام: «مروا أبا بكر فليصل بالناس» .
وكان النبي ﷺ يتكلم فى شأن أبى بكر رضى الله عنه فى حال حياته بما يتبين
للسحابة أنه أحق الناس بالخلافة بعده .
وكذلك فى حق عمر وعثمان وعلى رضى الله عنهم أن كل واحد منهم أحق بالأمر
فى عصره وزمانه .

من ذلك ما روى عن ابن بطة بإسناده عن على رضى الله عنه أنه قال: « قيل يا
رسول الله من نؤمر بعدك؟ قال ﷺ: «إن تؤمروا أبا بكر تجدوه أميناً راهداً فى الدنيا
راغباً فى الآخرة، وإن تؤمروا عمر تجدوه قوياً أميناً لا يخاف فى الله لومة لائم، وإن
تؤمروا عثمان تجدوه قائماً بالدليل والبرهان، وإن تولوا علياً تجدوه هادياً مهدياً، فلذلك
أجمعوا على خلافة أبى بكر رضى الله عنه»^(١) .

وقد روى عن إمامنا أبى عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل رحمه الله رواية أخرى:
إن خلافة أبى بكر رضى الله عنه ثبتت بالنص الخفى والإشارة، وهذا مذهب الحسن
البصرى وجماعة من أصحاب الحديث رحمهم الله .

وجه هذه الرواية ما روى عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «لما
عرج بى إلى السماء سألت ربي عز وجل أن يجعل الخليفة من بعدى على بن أبى
طالب، فقالت الملائكة: يا محمد إن الله يفعل ما يشاء ! الخليفة من بعدك أبو بكر»^(٢) .
وقال عليه الصلاة والسلام فى حديث ابن عمر رضى الله عنهما: «الذى بعدى أبو
بكر لا يلبث بعدى إلا قليلاً»^(٣) .

وعن مجاهد رحمه الله قال: قال لى على بن أبى طالب رضى الله عنه ما خرج
النبي ﷺ من دار الدنيا حتى عهد إلى أن أبا بكر يلى من بعدى، ثم عمر من بعده، ثم

(١) أحمد ١٠٩/١، والعلل المنتاهية ٢٥٢/١، المشكاة (٦١٢٤)، والمجروحين ٢٠٩/٢ .

(٢) (موضوع) اللآلىء ١٥٦/١ .

(٣) الطبرانى ٧/١، وابن عدى ١٥٢٤/٤، والصحيحة ٦٣/٣ .

عثمان من بعده ثم على من بعده .

وأما خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فإنها كانت باستخلاف أبى بكر له رضى الله عنه ، فانقادت الصحابة إلى بيعته وسموه أمير المؤمنين ، فقال عبد الله بن عباس رضى الله عنهما : قالوا لأبى بكر رضى الله عنه : ما تقول لربك غداً إذا لقيتَه وقد استخلفت علينا عمر وقد عرفت فظاظته ؟ فقال : أقول استخلفت عليهم خير أهلِكَ .

وأما خلافة عثمان بن عفان رضى الله عنه ، فكانت أيضاً عن اتفاق الصحابة رضى الله عنهم ، وذلك أن عمر رضى الله عنه أخرج أولاده عن الخلافة ، وجعلها شورى بين ستة نفر ، وهم طلحة ، والزبير ، وسعد بن أبى وقاص ، وعثمان ، وعلى ، وعبد الرحمن ابن عوف ، فأخرج طلحة ، والزبير ، وسعد أنفسهم منها ، فبقيت بين على ، وعثمان ، وعبد الرحمن .

فقال عبد الرحمن لعلى وعثمان : أنا أختار أحكما لله ورسوله وللمؤمنين ، فأخذ بيد على رضى الله عنه فقال : عليك عهد الله وميثاقه وذمته وذمة رسوله إن أنا بايعتكَ لتنصحن لله ولرسوله وللمؤمنين ، ولتسيرن بسيرة رسول الله وأبى بكر وعمر ، فخاف على ألا يقوى على ما قووا عليه فلم يجبه .

ثم أخذ بيد عثمان فقال له مثل ما قال لعلى ، فأجابه عثمان على ذلك ، فمسح يد عثمان فبايعه ، وبايع على رضى الله عنه معه ، ثم بايع الناس أجمع .
فصار عثمان بن عفان خليفة من بين الستة باتفاق الكل .

فكان إماماً حقاً إلى أن مات ، ولم يوجد فيه أمر يوجب الطعن فيه ولا فسقه ولا قتله ، خلاف ما قالت الروافض تباً لهم .

وأما خلافة على رضى الله عنه بعد عثمان فكانت عن اتفاق الجماعة وإجماع الصحابة ، لما روى عن عبد الله بن بطة عن محمد بن الحنفية قال : كنت مع على بن أبى طالب وعثمان بن عفان محصوراً ، فأتاه رجل فقال : إن أمير المؤمنين مقتول الساعة .

قال فقام على رضى الله عنه فأخذت بوسطه تخوفاً عليه .

فقال : خل لا أم لك ، قال فأتى على الدار وقد قتل عثمان رضى الله عنه فأتى داره فدخلها وأغلق بابها .

فأتاه الناس فضربوا عليه الباب فدخلوا عليه فقالوا: إن عثمان قد قتل ولا بد للناس من خليفة، ولا نعلم أحداً أحق بها منك.

فقال لهم علي: لا تريدوني فلني لكم وزير خير من أمير، قالوا: والله لا نعلم أحداً أحق بها منك، قال رضى الله عنه: فلان أبيتم على فلان بيعتى لا تكون سرّاً، ولكن أخرج إلى المسجد، فمن شاء أن يبايعنى يبايعنى.

قال: فخرج رضى الله عنه إلى المسجد فبايعه الناس، فكان إماماً حقاً إلى أن قتل رضى الله عنه، خلاف ما قالت الخوارج إنه لم يكن إماماً قط. تبّاً لهم إلى آخر الدهر. وأما قتاله رضى الله عنه لطلحة والزبير وعائشة ومعاوية رضى الله عنهم فقد نص الإمام أحمد رحمه الله على الإمساك عن ذلك، وجميع ما شجر بينهم من منازعة ومنافرة وخصومة.

لأن الله تعالى يزيل ذلك من بينهم يوم القيامة، كما قال عز وجل: ﴿ونزعنا ما فى صدورهم من غل إخواناً على سرر متقابلين﴾ [الحجر: ٤٧].

ولأن علياً رضى الله عنه كان على الحق فى قتالهم.

لأنه كان يعتقد صحة إمامته على ما بينا من اتفاق أهل الحل والعقد من الصحابة على إمامته وخلافته، فمن خرج عن ذلك بعد وناصبه حرباً كان باغياً خارجاً على الإمام فجاز قتاله، ومن قاتله من معاوية وطلحة والزبير طلبوا ثار عثمان بن عفان خليفة الحق المقتول ظلماً، والذين قتلوه كانوا فى عسكر على رضى الله عنه، فكل ذهب إلى تأويل صحيح، فأحسن أحوالنا الإمساك فى ذلك، وردهم إلى الله عز وجل وهو أحكم الحاكمين وخير الفاضلين، والاشتغال بعيوب أنفسنا وتطهير قلوبنا من أمهات الذنوب وظواهرنا من موبقات الأمور.

وأما خلافة معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه فثابتة صحيحة بعد موت على رضى الله عنه وبعد خلع الحسن بن على رضى الله عنهما نفسه من الخلافة وتسليمها إلى معاوية لرأى رآه الحسن ومصلحة عامة تحققت له، وهى حقن دماء المسلمين وتحقيق قول النبى ﷺ فى الحسن رضى الله عنه: «إن ابنى هذا سيد يصلح الله تعالى به بين فئتين عظيمتين»^(١).

(١) البخارى ٣/ ٢٤٤، وأحمد ٣٨/٥.

فوجبت إمامته بعقد الحسن له، فسمى عامه عام الجماعة، لارتفاع الخلاف بين الجميع واتباع الكل لمعاوية رضى الله عنه، لأنه لم يكن هناك منارح ثالث فى الخلافة. وخلافته مذكورة فى قول النبى ﷺ، وهو ما روى عن النبى ﷺ أنه قال: «تدور رضى الإسلام خمساً وثلاثين سنة أو ستاً وثلاثين أو سبعاً وثلاثين»^(١).

والمراد بالرحى، فى هذا الحديث القوة فى الدين والخمس السنين الفاضلة من الثلاثين فهى من جملة خلافة معاوية إلى تمام تسع عشرة سنة وشهور، لأن الثلاثين كملت بعلى رضى الله عنه كما بينا.

ونحسن الظن بنساء النبى ﷺ أجمعين، ونعتقد أنهن أمهات المؤمنين. وأن عائشة رضى الله عنها أفضل نساء العالمين وبرأها الله تعالى من قول الملحددين فيها بما يقرأ ويتلى إلى يوم الدين.

وكذلك فاطمة بنت نبينا محمد ﷺ ورضى الله تعالى عنها وعن بعليها وأولادها أفضل نساء العالمين، ويجب موالاتها ومحبتها كما يجب ذلك فى حق أبيها ﷺ قال النبى ﷺ: «فاطمة بضعة منى، يربىنى ما يربىها»^(٢).

فهذا القرن هم الذين ذكرهم الله عز وجل فى كتابه وأثنى عليهم، فهم المهاجرون الأولون والأنصار الذين صلوا إلى القبلتين.

قال الله تعالى فيهم: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتِلْ أُولَئِكَ أَكْثَرُ دَرَجَةٍ مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَاتِلُوا وَكَلَّا وَعَدَ اللَّهُ الْحَسَنَى﴾ [الحديد: ١٠].

وقال جل وعلا: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ [النور: ٥٥].

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشْدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رَحِمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكْعًا سَجِدًا...﴾ إلى قوله: ﴿يَعِجْبُ الزَّرْعَ لِیَغِیْظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ [الفتح: ٢٩].

وروى جعفر بن محمد عن أبيه فى قوله عز وجل: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ فى العسر واليسر فى الغار والعريش أبو بكر ﴿أَشْدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ﴾ عمر بن الخطاب

(١) أبو داود (٤٢٥٤)، وأحمد ٣٩٠/١، ودلائل النبوة ٣٩٣/٦.

(٢) البخارى ٢٦/٥ و ٣٦، والبيهقى ٦٤/٧.

﴿رحماء بينهم﴾ عثمان بن عفان ﴿تراهم ركعاً سجداً﴾ على بن أبى طالب ﴿يتفتنون فضلاً من الله ورضواناً﴾ طلحة والزبير حوارياً رسول الله ﷺ ﴿سيماهم فى وجوههم من أثر السجود﴾ سعد وسعيد وعبد الرحمن بن عوف وأبو عبيدة بن الجراح هؤلاء العشرة ﴿ذلك مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطأه﴾ يعنى محمداً ﷺ ﴿فأزره﴾ بابى بكر ﴿فاستغلظ﴾ بعمر ﴿فاستوى على سوقه﴾ بعثمان بن عفان ﴿يعجب الزراع﴾ بعلى بن أبى طالب ﴿ليغيظ بهم﴾ بالنبى ﷺ وأصحابه ﴿الكفار﴾.

واتفق أهل السنة على وجوب الكف عما شجر بينهم، والإمساك عن مساوئهم، وإظهار فضائلهم ومحاسنهم، وتسليم أمرهم إلى الله عز وجل على ما كان وجرى من اختلاف على وطلحة والزبير وعائشة ومعاوية رضى الله عنهم على ما قدمنا بيانه، وإعطائه كل ذى فضل فضله، كما قال الله عز وجل: ﴿والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم﴾ [الحشر: ١٠].

وقال تعالى: ﴿تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون﴾ [البقرة: ١٣٤].

وقال ﷺ: «إذا ذكر أصحابى فأمسكوا»^(١).

وفى لفظ آخر: «إياكم وما شجر بين أصحابى، فلو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه»^(٢).

وقال ﷺ: «طوبى لمن رآنى ومن رأى من رآنى»^(٣).

وقال ﷺ: «لا تسبوا أصحابى فمن سبهم فعليه لعنة الله»^(٤).

وقال ﷺ فى رواية أنس: «إن الله عز وجل اختارنى واختار لى أصحابى، فجعلهم أنصارى وجعلهم أصهارى، وأنه سيجىء فى آخر الزمان قوم ينقصونهم، ألا فلا تواكلوهم، ألا فلا تشاربوهم، ألا فلا تناكحوهم، ألا فلا تصلوا معهم، ألا فلا تصلوا

(١) الطبرانى ٩٣/٢، والصحيحه (٣٤).

(٢) البخارى ١٠/٥، ومسلم فى: الصحابة (٢٢١)، وأبو داود (٤٦٥٨)، والترمذى (٣٨٦١)، وابن ماجه (١٦١).

(٣) أحمد ٧١/٣، والصحيحه (١٢٤١).

(٤) ابن عدى ١٠٩٣/٣، وكنتز العمال (٣٢٥٤٥).

عليهم، عليهم حلت اللعنة»^(١).

وروى جابر رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل النار أحد ممن بايع تحت الشجرة»^(٢).

وروى أبو هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اطلع الله على أهل بدر فقال يا أهل بدر اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»^(٣).

وروى ابن عمر رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما أصحابي مثل النجوم، فأيهم أخذتم بقوله اهتديتم»^(٤).

وعن ابن بريدة عن أبيه رضى الله عنه قال إن النبي ﷺ قال: «من مات من أصحابي بأرض جعل شفيعاً لأهل تلك الأرض»^(٥).

وقال سفيان بن عيينة رحمه الله: من نطق فى أصحاب رسول الله ﷺ بكلمة فهو صاحب هوى.

وأهل السنة أجمعوا على السمع والطاعة لأئمة المسلمين واتباعهم، والصلاة خلف كل بر منهم وفاجر، والعدل منهم والجائر، ومن ولوه ونصبوه واستنابوه، وألا ينزلوا أحداً من أهل القبلة بجنة ولا نار، مطيعاً كان أو عاصياً، رشيداً كان أو غاوياً أو عاتياً إلا أن يطلع منه على بدعة وضلالة.

وأجمعوا على تسليم المعجزات للأنبياء، والكرامات للأولياء.

وأن الغلاء والرخص من قبل الله، لا من أحد من خلقه من السلاطين والملوك، ولا من الكواكب كما زعمت القدرية والمنجمون.

لما روى أنس بن مالك رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الغلاء والرخص جندان من جنود الله، اسم أحدهما الرغبة، والآخر الرهبة.

فإذا أراد الله أن يغليه قذف الرغبة فى قلوب التجار فحبسوه.

(١) ابن أبى عاصم ٤٨٣/٢، والحلية ١١/٢، والخطيب ٩٩/٢، والحاكم ٦٣٢/٣.

(٢) أبو داود (٤٦٥٣)، والترمذى (٣٨٦٠)، وأحمد ٣٥٠/٣.

(٣) البخارى ٣٢/٨، وأحمد ٧٩/١ و ٨٠.

(٤) جامع بيان العلم ٩٠/٢، والضعيفة (٦١) وقال: موضوع.

(٥) كنز العمال (٣٢٥١٥)، وكشف الخفاء ٣٨٧/٢.

وإذا أراد أن يرخص قذف الرهبة في صدور التجار فأخرجوه من أيديهم»^(١).
والأولى للعاقل المؤمن الكيس أن يتبع ولا يتبدع، ولا يغالى ويعمق ويتكلف لثلا
يضل. ويزل فيهلك.

قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه: اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم»^(٢).
وقال معاذ بن جبل رضى الله عنه: إياك ومغمضات الأمور، وأن تقول للشئ ما
هذا، فقال مجاهد رحمه الله حين بلغه هذا عن معاذ: قد كنا نقول للشئ ما هذا؟ فأما
الآن فلا.

فعلى المؤمن اتباع السنة والجماعة، فالسنة ما سنه رسول الله ﷺ، والجماعة ما اتفق
عليه أصحاب رسول الله ﷺ في خلافة الأئمة الأربعة الخلفاء الراشدين المهديين رحمة
الله عليهم أجمعين.

والأ يكثر أهل البدع ولا يدانيهم، ولا يسلم عليهم، لأن إمامنا أحمد بن حنبل
رحمه الله قال: من سلم على صاحب بدعة فقد أحبه.
ولقول النبي ﷺ: «افشوا السلام بينكم تحابوا»^(٣).

ولا يجالسهم ولا يقرب منهم ولا يهنيهم في الأعياد وأوقات السرور، ولا يصلى
عليهم إذا ماتوا، ولا يترحم عليهم إذا ذكروا بل يباينهم ويعاديهم في الله عز وجل،
معتقداً ومحسباً بذلك الثواب الجزيل والأجر الكثير.

وروى عن النبي ﷺ أنه قال: «من نظر إلى صاحب بدعة بغضاً له في الله ملأ الله
قلبه أمناً وإيماناً، ومن انتهر صاحب بدعة بغضاً له في الله أمنه الله يوم القيامة، ومن
استحقر بصاحب بدعة رفعه الله تعالى في الجنة مائة درجة، ومن لقيه بالبشر أو بما يسره
فقد استخف بما أنزل الله تعالى على محمد ﷺ»^(٤).

وعن أبى المغيرة عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه قال: قال رسول الله ﷺ:
«أبى الله عز وجل أن يقبل عمل صاحب بدعة حتى يدع بدعته»^(٥).

(١) الخطيب ٥٠/٨، وتنزيه الشريعة ١٨٨/٢، والفوائد المجموعة (١٤٣)، والموضوعات ٢٤٠/٢.

(٢) المجمع ١٨١/١، وعزاه إلى الطبراني في «الكبير» وقال: رجاله رجال الصحيح.

(٣) مسلم في: الإيمان: حديث (٩٣)، وابن ماجه (٣٦٩٢)، وأحمد ١/١٦٥.

(٤) الإتحاف ١٣٥/٦، وتذكرة الموضوعات (١٥).

(٥) ابن ماجه (٥٠)، وقال محققه: رجال إسناده كلهم مجهولون، وقاله الذهبي. والخطيب =

وقال فضيل بن عياض: من أحب صاحب بدعة أحبط الله عمله وأخرج نور الإيمان من قلبه.

وإذا علم الله عز وجل من رجل أنه مبغض لصاحب بدعة رجوت الله تعالى أن يغفر ذنوبه وإن قل عمله، وإذا رأيت مبتدعاً في طريق فخذ طريقاً آخر.

وقال فضيل بن عياض رحمه الله: سمعت سفيان بن عيينة رحمه الله يقول: من تبع جنارة مبتدع لم يزل في سخط الله تعالى حتى يرجع.

وقد لعن النبي ﷺ المبتدع، فقال ﷺ: «من أحدث حدثاً أو آوى محدثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، ولا يقبل منه صرفاً ولا عدلاً»^(١).

يعنى بالصرف: الفريضة، وبالعدل: النافلة.

وعن أبي أيوب السجستاني رحمه الله أنه قال: إذا حدث الرجل بالسنة فقال: دعنا من هذا وحدثنا بما في القرآن، فاعلم أنه ضال.

(فصل) واعلم أن لأهل البدع علامات يعرفون بها.

فعلامه أهل البدعة الواقعة في أهل الأثر.

وعلامه الزنادقة تسميتهم أهل الأثر: بالحشوية، ويريدون إبطال الآثار.

وعلامه القدرية تسميتهم أهل الأثر: مجبرة.

وعلامه الجهمية تسميتهم أهل السنة: مشبهة.

وعلامه الرافضة تسميتهم أهل الأثر: ناصبة.

وكل ذلك عصبية وغيظ لأهل السنة، ولا اسم لهم إلا اسم واحد: وهو «أصحاب الحديث».

ولا يلتصق بهم ما لقبهم به أهل البدع، كما لم يلتصق بالنبي ﷺ تسمية كفار مكة له ساحراً وشاعراً ومجنوناً ومفتوناً وكاهناً، ولم يكن اسمه عند الله وعند ملائكته وعند إنسه وجنه وسائر خلقه إلا رسولاً نبياً برياً من العاهات كلها.

قال الله تعالى: ﴿انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوها فلا يستطيعون سبيلاً﴾

[الإسراء: ٤٨].

= ١٨٦/١٣، وابن أبي عاصم ٢٢/١، والجامع الصغير ٥/١ وحسنه.

(١) أبو داود في: الديات: ب (١١)، والنسائي في: القسامة: ب (١٠)، وأحمد ١١٩/١.

هذا آخر ما ألفنا في باب معرفة الصانع والاعتقاد على مذهب أهل السنة والجماعة على وجه الاختصار والقدرة.

ثم نردف هذه الجملة بفصيلين آخرين: لا يسع العاقل المؤمن جهلها إذا أراد سلوك المحجة.

أحد الفصيلين: فيما لا يجوز إطلاقه على الباري عز وجل من الصفات، وأخلاق العباد والنقائص، وما يجوز من ذلك.

والفصل الثاني: في بيان مقالة الفرق الضالة عن طريق الهدى الداحضة الحجة في يوم الدين والمحاسبة.

أما الفصل الأول:

فبما لا يجوز إطلاقه على البارى عز وجل من الصفات
ويستحيل إضافته إليه من الأخلاق ، وما يجوز من ذلك

لا يجوز أن يوصف البارى تعالى بالجهل والشك والظن وغلبة الظن والسهو والنسيان
والسنة والنوم والغلبة والغفلة والعجز والموت والخرس والصمم والعمى والشهوة والنفور
والميل والحرذ والغيب والحزن والتأسف والكمذ والحسرة والتلف والآلم واللذة والنفع
والمضرة والتمنى والعزم والكذب، ولا يجوز أن يسمى إيماناً خلاف ما قالت السالمية،
وتعلقهم بقوله عز وجل: ﴿ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله﴾ [المائدة: ٥] محمول على
أنه من يكفر بوجوب الإيمان، كان كمن كفر بالرسول، وما جاء به ﷺ من الله عز
وجل من الأوامر والنواهي.

ولا يجوز أن يوصف عز وجل بأنه مطيع ولا محبل لنساء العالم.
ولا يجوز عليه الحد ولا النهاية، ولا القبل ولا البعد، ولا تحت ولا قدام، ولا
خلف ولا كيف، لأن جميع ذلك ما ورد به الشرع إلا ما ذكرناه من أنه على العرش
استوى، على ما ورد به القرآن والأخبار، بل هو عز وجل خالق لجميع الجهات ولا
يجوز عليه الكمية.

واختلف فى جواز إطلاق تسميته بالشخص، فمن جوز ذلك فلقول النبى ﷺ فى
حديث المغيرة بن شعبة رضى الله عنه: (لا شخص أغير من الله، ولا شخص أحب إليه
المعاذير من الله)^(١).

ومن منع ذلك فلأن لفظ الخبر ليس بصريح فى الشخص لاحتماله أن يكون معناه:
لا أحد أغير من الله.

وقد ورد فى بعض الألفاظ: (لا أحد أغير من الله).

ولا يجوز أن يسمى فاضلاً وعتيقاً وفقياً ولا فهيماً ولا فطناً ولا محققاً وعاقلاً
وموقراً ولا طيباً، وقيل يجوز.

(١) البخارى ١٥١/٩، ومسلم فى: اللعان: حديث (١٧)، وأحمد ٢٤٨/٤.

ولا عاديًا، لأن ذلك منسوب إلى زمن عاد وهو محدث، ولا مطيقًا، لأنه خالق كل طاقة وهي متناهية، ولا محفوظًا لأنه هو الحافظ.

ولا يجوز وصفه بالمباشرة، ولا يجوز وصفه بأنه مكتسب، لأن ذلك محدث بقدره محدثه، والله تعالى منزّه عن ذلك.

ولا يجوز عليه العدم وهو قديم لا بقدم، ولا أول لوجوده خلاف ما قال ابن كلاب من أنه قديم بقدم، وهو باق لا ببقاء، وهو عزّ وجلّ عالم بمعلومات غير متناهية، قادر بمقدورات غير متناهية خلاف ما أذاعت المعتزلة من أن كل ذلك متناه.

وأما الصفات التي يجوز وصفه عزّ وجلّ بها: فالفرح والضحك والغضب والسخط والرضا، وقد قدمنا ذلك في أول الباب.

ويجوز وصفه عزّ وجلّ بأنه موجود لقوله عزّ وجلّ: ﴿ووجد الله عنده﴾ [النور: ٣٩].
ويجوز وصفه بأنه شيء لقوله تعالى: ﴿قل أي شيء أكبر شهادة قل الله﴾ [الأنعام: ١٩].

ويجوز أن يوصف بأنه: نفس وذات وعين من غير تشبيه بجارحة الإنسان على ما تقدم بيانه.

ويجوز وصفه بأنه كائن من غير حد لقوله تعالى: ﴿وكان الله بكل شيء عليماً﴾ [الأحزاب: ٤٠، والفتح: ٢٦].

﴿وكان الله على كل شيء رقيباً﴾ [الأحزاب: ٥٢].

ويجوز وصفه بأنه قديم وباق، وبأنه مستطيع، لأن معنى الاستطاعة القدرة، وهو موصوف بالقدرة.

ويجوز وصفه بأنه سيد، ويجوز وصفه بأنه عارف ومتمين وواثق ودرى ودار.
لأن جميع ذلك راجع إلى معنى العالم، ولم يرد الشرع بمنع ذلك ولا اللغة، بل قال الشاعر:

اللهم لا أدري وأنت الدارى

ويجوز وصفه بأنه راءٍ ويرجع إلى معنى العالم، ويجوز وصفه بأنه مطلع على خلقه وعباده بمعنى عالم بهم، وكذلك واجد بمعنى عالم.

ويجوز وصفه بأنه جميل ومجمل، يعنى فى الصنع إلى خلقه.

ويجوز وصفه بأنه ديان، على معنى أنه مجاز لعباده على أفعالهم.
الدين: الحساب، «كما تدين تدان»^(١) ﴿مالك يوم الدين﴾ [الفاتحة: ٤] أى يوم الحساب،
وعلى معنى الشارع لعباده عبادة وشريعة دعاهم إليها، وفرض ذلك عليهم ثم هو
يجازيهم على ما فعلوا فيها.

ويجوز وصفه بأنه مقدر على معنى التقدير: ﴿إنا كل شىء خلقناه بقدر﴾
[القمر: ٤٩]، ﴿والذى قدر فهدى﴾ [الأعلى: ٣].

وعلى معنى الخبر قال تعالى: ﴿إلا امرأته قدرنا إنها لمن الغابرين﴾ [الحجر: ٦٠]، أى
أخبرنا لو طأ عليه السلام أن امرأته من الباقين فى العذاب من دون أهله، ولا يجوز أن
يكون معناه الظن والشك تعالى الله عن ذلك.

ويجوز وصفه بأنه ناظر على معنى أنه راء مدرك للأشياء، لا على معنى أنه مترو
مفكر، تعالى عن ذلك.

ويجوز وصفه أنه شفيق على معنى الرحمة بخلقه والرافة بهم، لا على معنى الخوف
والحزن.

وكذلك يجوز وصفه بأنه رفيق على معنى الرحمة والتعطف بخلقه لا على معنى
التشيت فى الأمور والإجمال فى إصلاحها والسلامة من عواقبها.

ويجوز وصفه بأنه سخي كما يجوز وصفه بأنه كريم وجواد لأن معنى الكل التفضل
والإحسان إلى خلقه.

ولا يقصد بذلك الرخاوة واللين على ما هو فى اللغة مستعمل فى أرض سخية
وقرطاس سخي إذا كانا لينين.

ويجوز وصفه بأنه آمر وناه، ومبيح وحاضر، ومحلل ومحرم، وفارض وملهم،
وموجب ونادب، ومرشد وقاض، وحاكم على ما ذكرناه.

وكذلك يجوز وصفه بأنه واعد ومتوعد، ومخوف ومحذر، وذام ومادح، ومخاطب
ومتكلم، وقائل كل ذلك راجع إلى معنى أنه موصوف بالكلام.

ويجوز وصفه بأنه معدم على معنى أنه لم يوجد ولم يفعل، وعلى معنى أنه معدم

(١) كنز العمال (٢٣٠٣٢)، والأسماء والصفات (٧٩)، والأسرار (١٧٢).

لما أوجده بعد إيجاداه بقطع البقاء عنه فينعدم بذلك .

ويجوز وصفه بأنه فاعل بمعنى أنه مخترع لذات ما فعله، وخالق له، وجاعل بقدرته، فاستحق لذلك هذا الوصف، لا على معنى المباشرة للأشياء لأن حقيقة ذلك تلاقى الأجسام ومماستها، والله سبحانه متعالٍ عن ذلك .

وكذلك يجوز وصفه بأنه جاعل على معنى أنه فاعل وفعله مفعول، كقوله تعالى: ﴿وجعلنا الليل والنهار آيتين﴾ [الإسراء: ١٢].

ويجوز أن يكون الجعل بمعنى الحكم، قال عز وجل: ﴿إنا جعلناه قرآناً عربياً﴾ [الزخرف: ٣].

ويجوز وصفه بأنه تارك في الحقيقة كما وصف بأنه فاعل، على معنى أنه فاعل ضد فعله الآخر بدلاً من الأول بقدرته العامة الشاملة، لا على معنى كف النفس ومنعها عما يدعو إلى فعله .

ويجوز وصفه بأنه يوجد على معنى أنه يخلق؟ وكذلك يجوز وصفه بأنه مكون على معنى أنه موجد .

ويجوز وصفه بأنه مثبت على معنى أنه يوجد في الشيء البقاء والثبات، كما قال عز وجل: ﴿يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت﴾ [إبراهيم: ٢٧]، وقوله تعالى: ﴿يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب﴾ [الرعد: ٣٩].

ويجوز وصفه بأنه عامل وصانع بمعنى خالق .

ويجوز وصفه بأنه مصيب، على معنى أن أفعاله واقعة على ما قصده وأراده من غير تفاوت وتزايد وتناقص، لأنه تعالى عالم بها وبحقائقها وكيفياتها، لا على معنى أن ذلك موافق لأمر أمره بفعلها، تعالى عن ذلك .

ويجوز إطلاق هذه الصفة على عبد من عبده فيقال له إنه مصيب، بمعنى أنه مطيع لربه، متبع لأمره، منته لنتهيه، وكذلك إذا كان مطيعاً لمن هو فوقه ورئيسه .

ويجوز وصف أفعاله عز وجل بأنها صواب على معنى أنها حق وثابت .

ويجوز وصفه بأنه مثير ومنعم، على معنى أنه يجعل المثاب منعماً معظماً .

وكذلك يجوز وصفه بأنه معاقب ومعجز، على معنى أنه يهين العاصي ويؤله على

معصيته .

ويعجوز وصفه بأنه قديم الإحسان على معنى أنه موصوف بالخلق والرزق في القدم، قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ﴾ [الأنبياء: ١٠١].

ويعجوز وصفه بأنه دليل، وقد نص الإمام أحمد عليه في حق رجل قال له: زودني دعوة فإني أريد الخروج إلى طرطوس، فقال له: قل يا دليل الحائرين، دلي على طريق الصادقين، واجعلني من عبادك الصالحين.

ويعجوز وصفه بأنه طيب لما روى عن أبي رمثة التميمي أنه قال: «كنت مع أبي عند النبي ﷺ، فرأيت على كتف النبي ﷺ مثل التفاحة. قال: فقال أبي: يا رسول الله إني طيب أفأطبها لك، قال ﷺ: طيبها الذي خلقها»^(١).

وروى عن أبي السفر أنه قال: مرض أبو بكر رضى الله عنه فعادوه فقالوا له: ألا ندعو لك الطبيب؟ فقال قد رأيته، قالوا: فأى شيء قال لك؟ قال: قال لى: إني فعال لما أريد.

وكذلك يروى أن أبا الدرداء رضى الله عنه مرض، فعادوه، فقالوا له: أى شيء تشتكى؟ قال: ذنوبى، فقالوا: أى شيء تشتبهى؟ قال: الجنة، قالوا: ألا ندعو لك الطبيب؟ قال: هو أمرضى.

فإذا ثبت هذا على ما ذكرنا فلا يعجوز أن يدعى عز وجل بكل اسم لا يعجوز إطلاقه عليه عز وجل، على ما ذكرنا في أول الفصل.

ولما يعجوز أن يدعى بما يسمى به من الأسماء التى يعجوز وصفه بها، وصفاته التى يعجوز أن يوصف بها، وقد ذكرنا التسعة والتسعين اسماً فيما تقدم، فهى أكد فى الدعاء.

وإذا أراد أن يصفه ويدعو بما ذكرنا فى هذا الفصل جاز ذلك، إلا أنه يجتنب فى دعائه من أن يدعوه عز وجل بقوله يا ساخر يا مستهزئ يا ماكر يا خادع، ومبغض وغضبان، ومتقم ومعاد، ومعدم ومهلك، فلا يدعو بها وإن كان مما يعجوز وصفه بها على وجه الجزاء والمقابلة لأهل الإحرام على وجه الاستحقاق.

(١) أبو داود فى: الترجل: ب (١٨)، وأحمد ٢/٢٢٧ و ٢٢٨، وابن سعد ٢/١.

وأما الفصل الثاني: في بيان مقالة الفرق الضالة عن طريق الهدى

فالأصل في ذلك ما روى عن كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف عن أبيه عن جده رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لتسلكن سنن من قبلكم حذو النعل بالنعل، ولتأخذن مثل أخذهم إن شبراً فشبراً وإن ذراعاً فذراعاً وإن باعاً فباعاً، حتى لو دخلوا في جحر ضب لدخلتم فيه معهم»^(١).

ألا إن بنى إسرائيل افترت على موسى بإحدى وسبعين فرقة كلها ضالة، إلا فرقة واحدة: الإسلام وجماعتهم.

ثم إنها افترت على عيسى ابن مريم باثنين وسبعين فرقة كلها ضالة إلا واحدة: الاسلام وجماعتهم.

ثم إنكم تكونون على ثلاث وسبعين فرقة كلها ضالة إلا فرقة واحدة: الإسلام وجماعتهم».

وعن عبد الرحمن بن جبير بن نفيير عن أبيه عن عوف بن مالك الأشجعي رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «تفترق أمتي على ثلاثة وسبعين فرقة أعظمها فتنة على أمتي الذين يقيسون الأمور برأيهم يحرمون الحلال ويحللون الحرام»^(٢).

وعن عبد الله بن زيد عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إن بنى إسرائيل افترقوا على إحدى وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة. وستفترق أمتي على ثلاثة وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة، قالوا: وما تلك الواحدة؟ قال ﷺ: من كان على مثل ما أنا عليه وأصحابي»^(٣).

وهذا الافتراق الذي ذكره النبي ﷺ لم يكن في زمانه ولا في زمن أبي بكر وعمر وعثمان وعلى رضى الله عنهم.

(١) البخارى ٢٠٦/٤، ومسلم فى: العلم: حديث (٦)، وأحمد ٣٢٧/٢، والحاكم ١٢٩/١.

(٢) أحمد ٣٣٢/٢، والإتحاف ١٤٠/٨.

(٣) الترمذى (٢٦٤٢)، وابن ماجه (٣٩٩٣)، وأحمد ١٤٥/٣.

وإنما كان بعد تقادم السنين والأعوام، وفوت الصحابة والتابعين والفقهاء السبعة فقهاء المدينة، وعلماء الأمصار وفقهائها قرناً بعد قرن، وقبض العلم بموتهم إلا شردمة قليلة، وهم الفرقة الناجية فحفظ الله الدين بهم.

كما روى عن عروة عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى لا ينزع العلم من صدور الرجال بعد أن يعطيهم، ولكن يذهب بالعلماء، فكلما ذهب بعالم ذهب بما معه من العلم حتى يبقى من لا يعلم، فيضلون ويضلون»^(١).

وفى لفظ آخر عن عروة عن أبيه عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من الناس، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالم اتخذ الناس رؤساء جهالاً، فسئلوا فأفتوا بغير علم، فضلوا وأضلوا»^(٢).

وعن كثير بن عبد الله بن عوف عن أبيه عن جده رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال:

«إن الدين ليأزر إلى الحجار كما تأزر الحية إلى جحرها، وليعقلن الدين من الحجار معقل الأروية من رأس الجبل، إن الدين بدأ غريباً وسيعود غريباً كما بدأ فطوبى للغرباء. قيل: ومن الغرباء؟ قال ﷺ: الذين يصلحون ما أفسد الناس من ستنى بعدى»^(٣).

وعن عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: لا يأتى على الناس زمان إلا أमतوا فيه سنة وأحيوا فيه بدعة.

وعن الحارث عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال:

ذكر رسول الله ﷺ الفتن فقلنا: ما المخرج منها يا رسول الله؟ قال رسول الله ﷺ: «كتاب الله هو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، هو الذى لا تلبس له اللسن، هو

(١) مسلم فى: العلم: حديث (١٤)، وأحمد ٢/٢٠٣.

(٢) البخارى ١/٣٦، ومسلم فى: العلم: حديث (١٣)، وأحمد ٢/١٦٢.

(٣) الترمذى (٢٦٣٠)، والطبرانى ١٦/١٧.

الذى لم تنته الجن إذ سمعته أن قالوا: ﴿إنا سمعنا قرآنا عجبا﴾ [الجن: ١] من قال به صدق، ومن حكم به عدل^(١).

وعن عبد الرحمن بن عمر عن العرياض بن سارية رضى الله عنه قال:
«صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح، فوعظنا موعظة بليغة، ذرفت منها العيون ووجلت بها القلوب ورمضت منها الجلود، فقلنا يا رسول الله كأنها موعظة مودع، فقال ﷺ: «أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة، وإن كان عبداً حبشياً، فإنه من يعش من بعدى يرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدى، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ، إياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدث بدعة، وكل بدعة ضلالة»^(٢).

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
«أَيُّمَا دَاعٍ دَعَا إِلَى الْهُدَى فَاتَّبِعْ فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِ مَنْ اتَّبَعَهُ، لَا يَنْقُصُ مِنْ أَجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَأَيُّمَا دَاعٍ دَعَا إِلَى الضَّلَالَةِ فَاتَّبِعْ فَعَلَيْهِ مِثْلُ أَوْزَارِ مَنْ اتَّبَعَهُ لَا يَنْقُصُ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ»^(٣).

(فصل) فأصل ثلاث وسبعين فرقة عشرة: أهل السنة، والخوارج، والشيعة، والمعتزلة، والمرجئة، والمشبهة، والجهمية، والضرارية، والتجارية، والكلائية.
فأهل السنة طائفة واحدة، والخوارج خمس عشرة فرقة، والمعتزلة ست فرق، والمرجئة اثنتا عشرة فرقة، والشيعة اثنتان وثلاثون فرقة، والجهمية والتجارية والضرارية والكلائية كل واحدة فرقة واحدة، والمشبهة ثلاث فرق، فجميع ذلك ثلاث وسبعون فرقة على ما أخبر به النبي ﷺ.

* أما الفرقة الناجية فهي أهل السنة والجماعة.
وقد بينا مذهبهم واعتقادهم على ما قدمنا ذكره.
وتُسمَّى هذه الفرقة الناجية القدريّة والمعتزلة: مجبرة لقولها إن جميع المخلوقات بمشيئة الله تعالى وقدرته وإرادته وخلقه.

(١) الدر المشور ٣٧/٢، والقرطبي ١١/٢٠.

(٢) أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وأحمد ١٢٦/٤.

(٣) ابن ماجه (٢٠٥)، والإتحاف ٨/٣٢٠.

وتسميها المرجئة شكائية لاستثنائها فى الإيمان، يقول أحدهم: أنا مؤمن إن شاء الله تعالى، على ما قدمنا بيانه.

وتسميها الرافضة ناصبة، لقولها باختيار الإمام ونصبه بالعقد.

وتسميها الجهمية والنجارية مشبهة، لإتيانها صفات البارى عز وجل من العلم والقدرة والحياة وغيرها من الصفات.

وتسميها الباطنية حشوية، لقولها بالأخبار وتعلقها بالآثار.

وما اسمهم إلا أصحاب الحديث وأهل السنة، على ما بينا.

* * *

* وأما الخوارج فلهم أسام وألقاب:

سموا الخوارج؛ لخروجهم على على بن أبى طالب رضى الله عنه.

وسموا محكمة؛ لإنكارهم الحكمين أبا موسى الأشعرى وعمرو بن العاص رضى الله عنهما، ولقولهم لا حكم إلا لله، لا حكم الحكمين.

وسموا أيضاً حرورية؛ لأنهم نزلوا بحروراء، وهو موضع.

وسموا شراة؛ لقولهم شرينا أنفسنا فى الله: أى بعناها بثواب الله وبرضاه الجنة.

وسموا مارقة؛ لمروقهم من الدين، وقد وصفهم النبى ﷺ، بأنهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية ثم لا يعودون فيه.

فهم الذين مرقوا من الدين والإسلام، وفارقوا الملة وشردوا عنها وعن الجماعة، وضلوا عن سواء الهدى والسبيل وخرجوا على السلطان، وسلوا السيف على الأئمة، واستحلوا دماءهم وأموالهم، وكفروا من خالفهم، ويسبون أصحاب رسول الله ﷺ وأصهاره، ويتبرؤون منهم ويرمونهم بالكفر والعظائم، ويرون خلافهم، ولا يؤمنون بعذاب القبر ولا الخوض ولا الشفاعة، ولا يخرجون أحداً من النار، ويقولون: من كذب كذبة أو أتى صغيرة أو كبيرة من الذنوب فمات من غير توبة فهو كافر وفى النار مخلد.

ولا يرون الجماعة إلا خلف إمامهم، ويرون تأخير الصلاة عن وقتها والصوم قبل رؤية الهلال، والفطر مثل ذلك، والنكاح بغير ولى.

ويرون المتعة والدرهم بالدرهمين يداً بيد حلالاً.

ولا يرون الصلاة فى الخفاف ولا المسح عليها ولا طاعة السلطان ولا خلافة قريش .
وأكثر ما يكون الخوارج بالجزيرة وعمان والموصل وحضرموت ونواحي المغرب .
والذى وضع لهم الكتب وصنفها عبد الله بن زيد ومحمد بن حرب ويحيى بن كامل
وسعيد بن هارون .

فهم خمس عشرة فرقة:

- منهم النجدات: نسبوا إلى نجدة بن عامر الحنفى ، من اليمامة وقيم ، وهم أصحاب
عبد الله بن ناصر .

ذهبوا إلى أن من كذب كذبة أو أتى صغيرة وأصر عليها فهو مشرك ، وإن زنى
وسرق وشرب الخمر من غير أن يصر عليها فهو مسلم ، وأنه لا يحتاج إلى إمام إنما
الواجب العلم بكتاب الله فحسب .

- ومنهم الأزارقة: وهم أصحاب نافع بن الأزرق ذهبوا إلى أن كل كبيرة كفر وأن
الدار دار كفر ، وأن أبا موسى وعمرو بن العاص رضى الله عنهما كفرا بالله حين
حكمهما على رضى الله عنه بينه وبين معاوية رضى الله عنه فى النظر فى الأصالح
للرعية .

ويرون أيضاً قتل الأطفال ، يعنى أولاد المشركين ، ويحرمون الرجم ، ولا يحدون
قاذف المحصن ، ويحدون قاذف المحصنات .

- ومنهم الفدكية: منسوبة إلى ابن فديك .

- ومنهم العطوية: منسوبة إلى عطية بن الأسود .

- ومنهم العجاردة: وهم فرق كثيرة .

- ومنهم اليمونية: جميعاً .

يجيزون بنات البنين وبنات البنات وبنات الإخوة وبنات الأخوات ، ويقولون إن سورة
يوسف ليست من القرآن .

- ومنهم الخازمية: تفردت بأن الولاية والعداوة صفتان فى ذاته تعالى .

وتشعبت الخازمية من المعلومية ، ذهبت إلى أن من لم يعلم الله بأسمائه فهو جاهل ،
ونفوا أن تكون الأفعال خلقاً لله تعالى ، وأن تكون الاستطاعة مع الفعل .

ومن أصل الخمس عشرة:

- المجهولية: وهى تقول أن من علم الله ببعض أسمائه فهو عالم به غير جاهل.
- ومنهم الصلتية: وهى منسوبة إلى عثمان بن الصلت، وادعت أن من استجاب لنا وأسلم وله طفل فليس له إسلام حتى يدرك، ويدعوه فإن أبى فيقتله.
- ومنهم الأخنسية: منسوبة إلى رجل يقال له الأخنس، ذهبوا إلى أن السيد يأخذ من زكاة عبده ويعطيه من زكاته إذا احتاج وافتقر.
- ومنهم الصفرية: والحفصية طائفة متشعبة منها، يزعمون أن من عرف الله وكفر بما سواه من رسول وجنة ونار، وفعل سائر الجنائيات من قتل النفس، واستحلال الزنا فهو برىء من الشرك، وإنما يشرك من جهل الله وأنكره فحسب.
- ويزعمون أن الحيران الذى ذكره الله تعالى فى القرآن هو على وحزبه وأصحابه، يدعونه إلى الهدى اثنتا، وهم أهل النهروان.
- ومنهم الأباضية: زعموا أن جميع ما افترضه الله تعالى على خلقه إيمان، وأن كل كبيرة فهو كفر نعمة لا كفر شرك.
- ومنهم البيهسية: منسوبة إلى أبى بيهس، تفردوا فزعموا أن الرجل لا يكون مسلمًا حتى يعلم جميع ما أحل الله له وحرم عليه بعينه ونفسه.
- ومن البيهسية من يقول: كل من واقع ذنبًا حرامًا عليه ليس يكفر حتى يرفع إلى السلطان فيحده عليه، فحيثئذ يحكم بالكفر.
- ومنهم الشمراخية: منسوبة إلى عبد الله بن الشمراخ زعم أن قتل الأبوين حلال.
- وكان حين ادعى ذلك فى دار التقية، فتبرأت منه الخوارج بذلك.
- ومنهم البدعية: قولها كقول الأزارقة، وتفردت بأن الصلاة ركعتان بالغداة وركعتان بالعشى، لقول الله عز وجل: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَى النِّهَارِ وَزُلْفًا مِنْ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾ [مؤد: ١١٤].
- واتفقت مع الأزارقة على جواز سبى النساء وقتل الاطفال من الكفار مغتالاً لقوله تعالى: ﴿لَا تَذَرُ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دِيَارًا﴾ [نوح: ٢٦].
- واتفقت جميع الخوارج على كفر على رضى الله عنه لأجل التحكيم، وعلى كفر مرتكب الكبيرة، إلا النجدات فإنها لم توافقهم على ذلك.

* (فصل) وأما الشيعة فلهم أسام منها: الشيعة والرافضة والغالية والطيارية. وإنما قيل لها الشيعة، لأنها شيعت علياً رضي الله عنه وفضلوه على سائر الصحابة. وقيل لها الرافضة لرفضهم أكثر الصحابة وإمامة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما. وقيل سمو الروافض لرفضهم زيد بن علي لما تولى أبا بكر وعمر رضي الله عنهما وقال بإمامتهما، وقال زيد: رفضوني، فسموا رافضة.

وقيل إن الشيعة من لا يفضل عثمان على رضي الله عنهما، لأن الرافضى من فضل علياً على عثمان رضي الله عنهما.

ومنهم القطعية لقبوا به لقطعهم على موت موسى بن جعفر ومنهم الغالية سمو بذلك لغلوهم في علي رضي الله عنه، وقولهم فيه ما لا يليق به من صفات الربوبية والنبوة.

والذين صنفوا كتبهم: هشام بن الحكم، وعلي بن منصور، وأبو الأحوص، والحسين بن سعيد والفضل بن شاذان وأبو عيسى الوراق وابن الراوندى والمنيعي.

وأكثر ما يكونون في بلاد قم وقاشان وبلاد إدريس والكوفة.

(فصل) فأما الرافضة، فهم ثلاثة أصناف: الغالية، والزيدية، والرافضة.

أما الغالية فيتفرق منها اثنتا عشرة فرقة:

منها البيانية والطيارية، والمنصورية، والمغيرية، والخطابية، والمعمرية، والبزيعية، والمفضلية، والمتناسخة، والشريعية، والسبئية، والمفوضة.

وأما الزيدية فتشعبت ست شعب:

منها الجارودية، والسليمانية، والبترية، والنعمية، واليعقوبية، والسادسة لا تنكر الرجعة ويتبرؤون من أبي بكر وعمر رضي الله عنهما.

وأما الرافضة فتفرقت أربع عشرة فرقة:

القطعية، والكيسانية، والكريبية، والعميرية، والمحمدية، والحسينية، والناوسية، والإسماعيلية، والقرامطة، والمباركية، والشميطية، والعمارية، والممطورية، والموسوية، والإمامية.

والذى اتفقت عليه طوائف الرافضة وفرقها، إثبات الإمامة عقلاً وأن الإمامة نص،

وأن الأئمة معصومون من الآفات من الغلط والسهو والخطأ.

ومن ذلك إنكارهم إمامة المفضول والاختيار الذي قدمناه في ذكر الأئمة.

ومن ذلك تفضيلهم علياً رضي الله عنه على جميع الصحابة وتنصيبهم على إمامته بعد النبي ﷺ، وتبرؤهم من أبى بكر وعمر رضي الله عنهما وغيرهما من الصحابة إلا نفرًا منهم سوى ما حكى عن الزيدية، فإنهم خالفوهم في ذلك.

ومن ذلك أيضاً ادعاؤهم أن الأمة ارتدت بتركهم إمامة على رضي الله عنه إلا ستة نفر.

وهم على وعمار والمقداد بن الأسود وسلمان الفارسي ورجلان آخران.

ومن ذلك قولهم: إن للإمام أن يقول لست بإمام في حال التقية.

وإن الله تعالى لا يعلم ما يكون قبل أن يكون، وإن الأموات يرجعون إلى الدنيا قبل يوم الحساب.

إلا الغالية منهم، فإنها زعمت بأن لا حساب ولا حشر.

ومن ذلك قولهم: أن الإمام يعلم كل شيء ما كان وما يكون من أمر الدنيا والدين حتى عدد الحصى وقطر الأمطار وورق الشجر، وأن الأئمة تظهر على أيديهم المعجزات كالأنبياء عليهم السلام.

وقال الأكثرون منهم: إن من حارب علياً رضي الله عنه فهو كافر بالله عز وجل، وأشياء ذكروها غير ذلك.

وأما الذي انفردت به كل فرقة:

فمنهم الغالية: وقد ادعت أن علياً رضي الله عنه أفضل من الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين.

وادعت أنه ليس بمدفون في التراب كبقية الصحابة رضي الله عنهم، بل هو في السحاب يقاتل أعداءه تعالى من فوق السحاب، وأنه كرم الله وجهه يرجع في آخر الزمان يقتل مبغضيه وأعداءه، وأن علياً وسائر الأئمة لم يموتوا، بل هم باقون إلى أن تقوم الساعة، ولا يجوز عليهم الموت.

وادعت أيضاً أن علياً رضي الله عنه نبي وأن جبريل عليه السلام غلط في نزول

الوحي عليه .

وادعت أيضاً أن علياً كان إلهاً - عليهم لعنة الله وملائكته وسائر خلقه إلى يوم الدين، وقلع آثارهم وأباد خضراءهم، ولا جعل منهم فى الأرض دياراً - .
لأنهم بالغوا فى غلوهم ومردوا على الكفر، وتركوا الإسلام وفارقوا الإيمان، وجحدوا الإله والرسل والتنزيل، فنعوذ بالله ممن ذهب إلى هذه المقالة .

ويتفرع عن الغالية:

- البيانية: وهم ينسبون إلى بيان بن سمعان .

ومن جملة فريتهم وأباطيلهم أن الله على صورة الإنسان . كذبوا على الله، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، قال عز وجل: ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾ [الشورى: ١١] .

- وأما الطيارية: من الغالية، وهى منسوبة إلى عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر الطيار يقولون بالتناسخ، وأن روح آدم عليه السلام روح الله نسخت فيه .

والمتممقون من الغالية القائلون بالتناسخ يزعمون أن الروح المنقولة إلى هذه الدار بعد أن خرجت من الدنيا بالموت أول ما تنسخ فى حمل، ثم تنقل إلى ما دون هيكله أبداً حالاً بعد حال، إلى أن تنقل إلى دود العذرة وما شاكل ذلك، وهو آخر ما ينسخ فيه .

حتى قال بعضهم: إن أرواح العصاة تنسخ فى الحديد والطين والفسخار، وتكون معذبة بالنار والطبخ والضرب والسبك والابتذال والامتهان عقاباً على إجرامهم .

- وأما المغيرية: فمنسوبة إلى مغيرة بن سعيد، ادعى النبوة، وزعم أن الله نور على صورة رجل، وادعى إحياء الموتى وغير ذلك .

- وأما المنصورية: فمنسوبة إلى أبى منصور، كان يزعم أنه صعد إلى السماء، ومسح الرب رأسه، وزعم أن عيسى عليه السلام أول خلق الله، ثم على رضى الله عنه، ورسل الله لا تنقطع، وأن لاجنة ولا نار، وتزعم هذه الطائفة أن من قتل أربعين نفساً ممن خالفهم دخل الجنة، ويستحلون أموال الناس، وأن جبريل عليه السلام أخطأ بالرسالة، وهو الكفر الذى لا يشوبه شيء .

- وأما الخطابية: فمنسوبة إلى أبى الخطاب، يزعمون أن الأئمة أنبياء أمناء، وفى كل وقت رسول ناطق وصامت فمحمد ناطق وعلى رضى الله عنه صامت .

- وأما المعمرية: فكَذَلِكَ تقول، وانفردت عن الخطائية بالزيادة في ترك الصلاة.
- وأما البزيعية: المنسوبة إلى بزيع، زعموا أن جعفرًا هو الله فلا يرى ولكن شبه هذه الصورة، تَبَّأَ لهم ما أعظم فريتهم وكذبهم وأباطيلهم، بل يحطون إلى أسفل السافلين، إلى الهاوية والدرك الأسفل من النار بمقاتلتهم السوء ودعواهم الزور.
- وأما المفضلية: فمنسوبة إلى المفضل الصيرفي، يتحلون الرسالة والنبوة، وقولهم في الأئمة كقول النصارى في المسيح.
- وأما الشريعة: فمنسوبة إلى شريع، زعموا أن الله تعالى في خمسة أشخاص النبي وآله، يعنى في النبي وآله وهم: العباس وعلى وجعفر وعقيل.
- وأما السبئية: فمنسوبة إلى عبد الله بن سبأ، من دعواهم أن عليًا لم يمت، وأنه يرجع قبل يوم القيامة، والسيد الحميرى منهم.
- وأما المفوضية: فهم القائلون إن الله فرض تديسر الخلق إلى الأئمة، وإن الله تعالى قد أقدر النبي ﷺ على خلق العالم وتدييره، وإن كان ما خلق الله من ذلك شيئًا، وكذلك قالوا في حق على رضى الله عنه، ومنهم من إذا رأى السحاب سلم عليه، يزعم أن عليًا رضى الله عنه فيه، على ما بينا من قبل.
- وأما الزيدية: فإنما سمو بذلك لميلهم إلى قول زيد بن على في تولية أبى بكر وعمر رضى الله عنهما.
- وأما الجارودية: فمنسوبة إلى أبى الجارود، زعموا أن عليًا رضى الله عنه وصى رسول الله ﷺ وهو الإمام.
- وقالوا إن النبي ﷺ نص على على رضى الله عنه بصفته لا باسمه، ويسوقون الإمامة إلى الحسين، ثم هى شورى بينهم فيمن خرج منهم.
- وأما السليمانية: فمنسوبة إلى سليمان بن كثير، قال زرقة: زعموا أن عليًا كرم الله وجهه كان الإمام، وأن بيعة أبى بكر وعمر رضى الله عنهما خطأ، لا يستحقان اسم السبق، وأن الأمة تركت الأصلح.
- وأما البترية: فمنسوبة إلى الأبر وهو النواء، وكان يلقب به وزعموا أن بيعة أبى بكر وعمر رضى الله عنهما ليست بخطأ، لأن عليًا رضى الله عنه ترك الإمارة لهما، وهم واقفون فى عثمان، ويقولون على إمام حين بوع.

- وأما النعيمية: فمنسوبة إلى نعيم بن اليمان، وهى تقول بقول الأبترية، إلا أنها تبرأت من عثمان بن عفان رضى الله عنه وكفرت به.
- وأما اليعقوبية: فيقولون: (بإمامة أبى بكر وعمر رضى الله عنهما إلا أنهم يقولون بتفضيل على عليهما) وينكرون الرجعة، فهى تنسب إلى رجل يقال له يعقوب.
- ومنهم من تبرأ من أبى بكر وعمر رضى الله عنهما ويقولون بالرجعة.
- (فصل) وأما الرافضة، فالأربع عشرة فرقة التى تفرعت عنها:
- أولها: القطعية: سموا بذلك لقطعهم على موت موسى بن جعفر، ساقوا الإمامة إلى محمد بن الحنفية، وهو القائم المنتظر.
- والثانية: الكيسانية: وهى منسوبة إلى كيسان، يقولون بإمامة محمد بن الحنفية، لأنه دفع إليه الراية بالبصرة.
- والثالثة: الكريية: وهم أصحاب ابن كريب الضرير.
- والرابعة: العميرية: وهم أصحاب عمير وهو إمامهم إلى خروج المهدي.
- والخامسة: المحمدية: وقد زعمت أن القائم محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسين، وأنه أوصى إلى أبى منصور دون بنى هاشم، كما أوصى موسى عليه السلام إلى يوشع بن نون ولده وولد هارون.
- وأما السادسة: فالحسينية: زعمت أن أبا منصور أوصى إلى ولده الحسين بن أبى منصور وهو الإمام بعده.
- وأما الناسوبية: فلقبوا به لأنهم نسبوا إلى ناسوب البصرى.
- وأما الإسماعيلية: فقد قالوا إن جعفرًا ميت والإمام بعده إسماعيل، وقالوا إنه يملك، وهو المنتظر عندهم.
- وأما القرامطة: فهم يسوقون الإمامة إلى جعفر، وأن جعفرًا نص على واثمة محمد ابن إسماعيل، ومحمد لم يمت وهو حى، وهو المهدي.
- وأما المباركية: فمنسوبة إلى رئيسهم المبارك، زعموا أن محمد بن إسماعيل مات، وأن الإمامة فى ولده.
- وأما الشمطية: فمنسوبة إلى رئيسهم يقال له يحيى بن شमित، زعموا أن الإمام جعفر ثم محمد بن جعفر ثم فى ولده.

- وأما المعمرية: ويقال لهم الأفطحية، لأن عبد الله بن جعفر كان أفطح الرجلين، يقولون إن الإمام بعد جعفر ابنه عبد الله وهم عدد كثير.

- وأما الممطورية: فسموا بذلك لأنهم ناظروا يونس بن عبد الرحمن وهو من القطعية الذين يقطعون على موت موسى بن جعفر، فقال لهم يونس: أنتم أهون من الكلاب الممطورية، فلزمهم هذا اللقب، ويسمون الواقفة، لوقوفهم على موسى بن جعفر، وقولهم هو حي لم يمت، ولا يموت، وهو المهدي عندهم.

- أما الموسوية: فسموا بذلك لوقوفهم فى موسى وقولهم لا ندرى أميت هو أم حى؟ وقالوا إن صحت إمامة غيره أنفذوها.

- وأما الإمامية: فيسوقون الإمامة إلى محمد بن الحسن، وأنه القائم المنتظر الذى يظهر فيملا الأرض عدلاً كما ملئت جوراً.

- وأما الزرارية: فهم أصحاب زرارة، ادعى ما ادعت العمارية، وقيل إنه ترك مقالاتها وأنه سأل عبد الله بن جعفر عن مسائل ولم يعلمها فصار إلى موسى بن جعفر.

فقد شبهت مذاهب الروافض باليهودية؛ قال الشعبى: محبة الروافض محبة اليهود، قالت اليهود: لا تصلح الإمامة إلا لرجل من آل داود، وقالت الرافضة: لا تصلح الإمامة إلا لرجل من ولد على بن أبى طالب؛ وقالت اليهود: لا جهاد فى سبيل الله حتى يخرج المسيح الدجال، وينزل بسبب من السماء، وقالت الروافض: لا جهاد فى سبيل الله حتى يخرج المهدي وينادى مناد من السماء، وتؤخر اليهود صلاة المغرب حتى تشتبك النجوم، وكذلك الروافض يؤخرونها؛ واليهود تزول عن القبلة شيئاً، وكذلك الرافضة؛ واليهود تنور فى الصلاة، وكذلك الرافضة؛ واليهود تسدل أبوابها فى الصلاة، وكذلك الروافض؛ واليهود تستحل دم المسلم، وكذلك الروافض؛ واليهود لا ترى على النساء عدة، وكذلك الرافضة؛ واليهود لا ترى فى الطلاق الثلاث شيئاً، وكذلك الروافض؛ واليهود حرّفت التوراة، وكذلك الرافضة حرّفوا القرآن؛ لأنهم قالوا القرآن غير وبدل، وخولف بين نظمه وترتيبه، وأحيل عما أنزل عليه، وقرىء على وجوه غير ثابتة عن الرسول ﷺ، وأنه قد نقص منه وزيد فيه؛ واليهود ييغضون جبريل عليه السلام ويقولون هو عدونا من الملائكة، وكذلك صنف من الروافض يقولون غلط جبريل عليه السلام بالوحى إلى محمد ﷺ، وإنما بعث إلى على رضى الله عنه، كذبوا تباً لهم إلى آخر الدهر.

* (فصل) وأما المرجئة ففرقها اثنتا عشرة فرقة:

الجهمية، والصاحية، والشمريّة، واليونسية، واليونانية، والنجارية، والغيلانية، والشيبية، والغسانية، والمعاذية، والمريسية، والكرامية.

وإنما سموا المرجئة لأنها زعمت أن الواحد من المكلفين إذا قال لا إله إلا الله محمد رسول الله وفعل بعد ذلك سائر المعاصي لم يدخل النار أصلاً.

وأن الإيمان قول بلا عمل، والأعمال الشرائع، والإيمان قول مجرد، والناس لا يتفاضلون في الإيمان، وأن إيمانهم وإيمان الملائكة والأنبياء واحد لا يزيد ولا ينقص ولا يستثنى فيه، فمن أقر بلسانه ولم يعمل فهو مؤمن.

(فصل):

- وأما الجهمية: فمنسوبة إلى جهم بن صفوان، وكان يقول: الإيمان هو المعرفة بالله ورسوله وجميع ما جاء من عنده فقط.

ويزعمون أن القرآن مخلوق، وأن الله تعالى لم يكلم موسى، وأنه تعالى لم يتكلم ولا يرى ولا يعرف له مكان وليس له عرش ولا كرسي، ولا هو على العرش.

وأنكروا الموازين وعذاب القبر، وكون الجنة والنار مخلوقين.

وادعوا أنهما إذا خلقتا تفنيان، والله عز وجل لا يكلم خلقه ولا ينظر إليهم يوم القيامة، ولا ينظر أهل الجنة إلى الله تعالى ولا يرونه فيها، وأن الإيمان معرفة القلب دون إقرار اللسان، وأنكروا جميع صفات الحق عز وجل، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

- وأما الصاحية: فإنما سميت بذلك لقولها بمذهب أبي الحسين الصالحى.

وكان يقول: الإيمان هو المعرفة، والكفر هو الجهل، وإن قول من قال ثالث ثلاثة ليس بكفر وإن كان لا يظهر إلا ممن كان كافراً، وأن لا عبادة إلا الإيمان.

- وأما اليونسية: فمنسوبة إلى يونس البرى، زعم أن الإيمان هو المعرفة والخضوع والمحبة لله عز وجل، وأنه من ترك خصلة منها فهو كافر.

- وأما الشمريّة: فمنسوبة إلى أبى شمر، زعم أن الإيمان هو المعرفة والخضوع والمحبة والإقرار بأنه واحد ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾ [الشورى: ١١] وذلك باجتماعه إيماناً.

وقال أبو شمر: لا أسمى من ركب الكبيرة فاسقًا على الإطلاق دون أن أقول فاسق في كذا وكذا.

- وأما اليونانية: فمنسوبة إلى يونان، زعموا أن الإيمان هو الإيمان والإقرار بالله ورسله، وما يجوز في العقل إلا أن يفعله.

- وأما التجارية: فمنسوبة إلى الحسين بن محمد النجار.

يقولون: إن الإيمان هو المعرفة بالله ورسله، وفرائضه المجتمع عليها، والخضوع له والإقرار باللسان، فمتى جهل منه شيئًا وقامت عليه الحجة ولم يقربه كان كافرًا.

- وأما الغيلانية: فمنسوبة إلى غيلان، وافقوا الشمرية وزعموا أن العلم بحدوث الأشياء ضروري، والعلم بالتوحيد باللسان.

وفي حكاية زرقان أن غيلان يقول: بأن الإيمان هو الإقرار باللسان وهو التصديق.

- وأما الشيبية: فهم أصحاب محمد بن شبيب.

زعموا أن الإيمان هو الإقرار بالله والمعرفة بوحدانيته ونفى التشبيه عنه.

وزعم محمد أن الإيمان كان في إبليس، وإنما كفر لاستكباره.

- وأما الغسانية: فهم أصحاب غسان الكوفي، زعم أن الإيمان هو المعرفة والإقرار

بالله ورسوله وبما جاء من عنده جملة على ما ذكره البرهوتى في كتاب الشجرة.

- وأما المعاذية: فمنسوبة إلى معاذ الموصى، كان يقول: من ترك طاعة الله يقال له إنه فسق، ولا يقال فاسق، والفاسق ليس بعدو لله ولا ولي.

- وأما المريسية: فمنسوبة إلى بشر المريسي، يزعمون أن الإيمان هو التصديق، وأن

التصديق يكون بالقلب واللسان وإلى هذا كان يذهب ابن الراوندى.

وزعم أيضًا أن السجود للشمس ليس بكفر ولكنه أمانة الكفر.

(فصل):

- وأما الكرامية: فمنسوبة إلى أبى عبد الله محمد بن كرام، زعموا أن الإيمان هو

الإقرار باللسان دون القلب، وأن المنافقين كانوا مؤمنين في الحقيقة.

ومن قولهم إن الاستطاعة تتقدم الفعل مع وجود كونها مقارنة له، بخلاف ما قال

أهل السنة من أنها مع الفعل، ولا يجوز أن تتقدمه من غير شرط.

ومؤلفو كتبهم: أبو الحسين الصالحى، وابن الراوندى، ومحمد بن شبيب، والحسين

ابن محمد النجار.

وأكثر ما يكون مذهبهم بالمشرق ونواحي خراسان.

* (فصل) في ذكر مقالة المعتزلة والقدرية.

· وإنما سموا المعتزلة لاعتزالهم الحق، وقيل لاعتزالهم أقاويل المسلمين، لأن الناس كانوا مختلفين في مرتكب الكبيرة.

فقال بعضهم: هم مؤمنون بما معهم من الإيمان، وقال بعضهم: هم كافرون، فأحدث وأصل بن عطاء قولاً ثالثاً وفارق المسلمين واعتزل المؤمنين فقال: ما هم بمؤمنين ولا كافرين فسموا بذلك المعتزلة.

وقيل: إنما سموا بذلك، لاعتزالهم مجلس الحسن البصري رحمه الله، فمر الحسن بهم وقال: هؤلاء معتزلة فلقبوا بذلك.

وهم يقتدون بعمر بن عبيد، ولما غضب الحسن البصري على عمرو بن عبيد عوتب في ذلك، فقال: أتعايبونني في رجل رأيته يسجد للشمس من دون الله في المقام؟ وسموا أيضاً قدرية لردهم قضاء الله عز وجل وقدره في معاصي العباد، وإتيانهم بها بأنفسهم.

ومذهب المعتزلة والجهمية والقدرية في نفى الصفات واحد، وقد ذكرنا بعض مذاهبهم في الاعتقاد.

ومؤلفو كتبهم: أبو الهذيل، وجعفر بن حرب، والخطاط، والكعبي، وأبو هاشم، وأبو عبد الله البصري، وعبد الجبار بن أحمد الهمداني.

وأكثر ما يكون مذهبهم بالعسكر والأهواز وجهرم.

وهم ست فرق: الهذلية، والنظامية، والمعمرية، والجبائية، والكعبية، والبهشية.

والذي اجتمعت عليه فرق المعتزلة نفى الصفات جميعها.

فنفت أن يكون له عز وجل علم وقدرة وحياة وسمع وبصر.

وكذلك نفى الصفات المثبتة بالسمع، من الاستواء والنزول وغير ذلك.

واجتمعت أيضاً على أن كلام الله محدث، وإرادته محدثة، وأنه تعالى تكلم بكلام خلقه في غيره، ويريد بإرادة محدثة، لا في محل، وأنه تعالى يريد خلاف معلومه، ويريد من عباده ما لا يكون، ويكون ما لا يريد، وأنه تعالى لا يقدر على مقدرات غيره، بل يستحيل ذلك.

وأنه لم يخلق أفعال عبده، بل هم الخالقون لها دون ربهم.
 وإن أكثر ما يتغذاه الإنسان لم يررقه الله إذا كان حراماً، وإنما الذى يرزق الله الحلال
 دون الحرام، وأن الإنسان قد يقتل دون أجله، والقاتل يقطع أجله قبل حينه.
 وأن من ارتكب كبيرة من الموحدين وإن لم يكن كفراً فإنه يخرج بها من إيمانه،
 ويخلد فى النار أبد الآبدين، وتبطل جميع حسناته.
 وأبطلوا شفاعة النبى ﷺ لأهل الكبائر، وأكثرهم نفوا عذاب القبر والميزان، ورأوا
 الخروج على السلطان وترك طاعته.

وأنكروا انتفاع الميت بدعاء الحى له والصدقة عنه ووصول ثوابها إليه.
 وزعمت أيضاً أن الله سبحانه لم يكلم آدم ونوحاً وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمداً
 صلوات الله عليهم أجمعين، ولا جبريل ولا ميكائيل ولا إسرافيل ولا حملة العرش ولا
 ينظر إليهم، مثل ما لا يكلم إبليس واليهود والنصارى.
 وأما الذى انفردت به كل فرقة منها:

- أما الهذيلية: فقد انفرد شيخهم أبو الهذيل بأن الله علماً وقدرة وسمعاً وبصراً، وأن
 كلام الله بعضه مخلوق وبعضه غير مخلوق، وهو قوله تعالى: ﴿كُنْ﴾ [البقرة: ١١٧]، وآل
 عمران: ٤٧، ٥٩، والأنعام: ٧٣، والنحل: ٤٠، ومريم: ٣٥، ويس: ٨٢، وغافر: ٦٨.
 وقال: إن الله تعالى ليس بخلاف خلقه، وأن مقدور الله متناه فيبقى أهل الجنة لا
 حركة لهم، والله تعالى لا يقدر على تحريكهم ولا هم يقدر على ذلك.
 ويجوز أن يكون الميت والمعدوم والعاجز يفعل الأفعال، وأبى أن يكون الله تعالى لم
 يزل سميعاً.

- وأما النظامية: فكان شيخهم النظام يقول: إن الجمادات تفعل بإيجاب الخلقة.
 وكان ينفى الأعراض إلا الحركة الاعتمادية، ويقول: إن الإنسان هو الروح، وإن
 أحداً لم ير النبى ﷺ، وإنما رأى ظرفه يعنى جسمه.
 وخرق الإجماع فقال: من ترك الصلاة عامداً ذاكراً فلا إعادة عليه.
 وكان ينفى إجماع الأمة، ويجوز اجتماعها على باطل، ويقول: إن الإيمان مثل
 الكفر، والطاعة كالمعصية وفعل النبى ﷺ كفعل إبليس اللعين وأن سيرة عمر وعلى
 رضى الله عنهما كسيرة الحجاج.

وإنما التزم ذلك وركبه لأنه كان يقول إن الحيوان كله جنس واحد.

ورغم أن القرآن ليس بمعجز في نظمه، وأن الله تعالى ليس بقادر على تحريق الطفل ولو كان على شفير جهنم ولا على طرحه فيها.

وهو أول من قال بالكفر من أهل القبلة، وكان يقول: إن الجسم يتجزأ إلى ما لا غاية له.

وكان يقول: إن الحيات والعقارب والخنافس في الجنة، وكذلك الكلاب والخنازير في الجنة.

- وأما المعمرية: فكان شيخهم معمر يقول بقول أهل الطبائع ويتجاوز ويزعم أن الله تعالى لم يخلق لونا ولا طعما ولا رائحة ولا موتا ولا حياة، ولأن ذلك كله فعل الجسم بطبعه.

وكان يقول إن القرآن فعل الأجسام، وليس هو بفعل الله تعالى.

وأكرر أن يكون الله تعالى قديما - تبأ له وأبعده الله تعالى مع هذه المقالة -.

- وأما الجبائية: فكان شيخهم الجبائي، خرق الإجماع وشذ عنه في أشياء منها:

أنه كان يقول: إن العباد خالقون لأفعالهم ولم يسبقه إلى هذه المقالة أحد.

وكان يقول: إن الله تعالى أحبل نساء العالمين بخلقه الحبل فيهن.

وكان يقول: إن الله مطيع لعباده إذا فعل ما أَراده.

وقال من حلف أن يعطى غريمه حقه غداً واستثنى في ذلك بقول إن شاء الله لم ينفعه الاستثناء، فإذا لم يعط حنث.

وكان يقول إن من سرق خمسة دراهم كان فاسقا، وإن نقصت منه حبة لم يفسق.

- وأما البهشمية: فمنسوبة إلى أبي هاشم بن الجبائي.

وكان أبو هاشم يجوز أن يكون المكلف قادرا، وهو لا يكون فاعلا ولا تاركا، فيعاقبه الله تعالى على فعله.

وكان يقول: من تاب من سائر الذنوب إلا ذنبا واحداً لم تصح توبته فيما تاب منه.

- وأما الكعبية: فمنسوبة إلى أبي القاسم الكعبي وكان بغدادى المذهب.

فأنكر أن يكون الله سميعا بصيرا، وأن يكون مريداً بالحقيقة، وأن إرادة الله تعالى من فعل عباده هي الأمر به، وإرادته من فعل نفسه فعله، وزعم أن العالم كله ملاء، وأن المتحرك إنما هو الصفحة الأولى من الأجسام، وأن الإنسان لو تدهن بدهن ومشى لم يكن المتحرك، وإنما الدهن هو المتحرك.

وكان يقول: إن القرآن محدث ولا يقول مخلوق.

* (فصل) في ذكر مقالة المشبهة، فهم ثلاث فرق: الهشامية، والمقاتلية، والواسمية. والذي اتفقت عليه الفرق الثلاث إن الله جسم، وأنه لا يجوز أن يعقل الموجود إلا جسمًا، والذي غلب عليهم التشبيه فرق الروافض والكرامية. والذي ألف كتبهم: هشام بن الحكم، وله كتاب في إثبات الجسم. - أما الهشامية: فمنسوبة إلى هشام بن الحكم زعم أن الله تعالى جسم طويل عريض عميق نور ساطع له قدر من الأقدار كالسيكة الصافية يتحرك ويسكن ويقوم ويقعد. وحكى عنه أنه قال: أحسن الأقدار أن يكون سبعة أشبار، وقيل له: ربك أعظم أم أحد؟ فقال ربي أعظم.

- وأما المقاتلية: فمنسوبة إلى مقاتل بن سليمان حكى عنه أنه قال: إن الله تعالى جسم، وإنه جثة على صورة الإنسان لحم ودم وله جوارح وأعضاء من رأس ولسان وعنق.

وإنه في جميع ذلك لا يشبه الأشياء، والأشياء لا تشبهه.

* (فصل) في ذكر مقالة الجهمية:

تفرد جهم بن صفوان بأن الإنسان إنما ينسب إليه ما يظهر منه على المجاز لا على الحقيقة، كما يقال: طالت النخلة وأدركت الثمرة. وكان يأبى أن يقول: (إن الله شيء ويقول يحدث علم الله ويمتنع أن يقول)، إن الله كان عالمًا بالأشياء قبل كونها، ويقول: إن الجنة والنار تفتيان وينفى الصفات. وكان مذهب جهم بترمد وهو بلد، وقيل بمرو، وله تأليف في نفى الصفات، قتله مسلم بن أحوار المازني.

* وأما الضرارية: فمنسوبة إلى ضرار بن عمرو، وكان يقول ضرار إن الأجسام أعراض مجتمعة، وجوز أن تنقلب الأعراض أجسامًا، وأن الاستطاعة بعض المستطيع وهي قبل الفعل ومع الفعل، وأنكر قراءة ابن مسعود وأبى بن كعب رضى الله عنه.

* وأما النجارية: فهي منسوبة إلى الحسين بن محمد النجار كان يثبت فعل الفاعلين بالحقيقة لله وللعبد.

وكان يقول بنفى الصفات، وقال بقول المعتزلة فى نفى الصفات، إلا فى نفى الإرادة، فإنه أثبت أن القديم مرید لنفسه.

وكان يقول بخلق القرآن، ويقول إن الله مرید على أنه ليس بمقهور ولا مغلوب، وإن الله متكلم بمعنى أنه ليس بعاجز عن الكلام، وأنه لم يزل جواداً بمعنى نفى البخل عنه.

ومذهبه موافق لمذهب ابن عون وابن يوسف الرازى، وأكثر ما يكون مذهبه بقاشان.

* وأما الكلاية: فمنسوبة إلى عبد الله بن كلاب، وكان يقول صفات الله ليست بقديمة ولا محدثة وكان يقول: لا أقول صفاته هى هو، ولا هى غيره، وإن معنى الاستواء نفى الاعوجاج فى قوله تعالى: ﴿الرحمن على العرش استوى﴾ [طه: ٥] وإن الله لم يزل على ما كان عليه من قبل وأن لا مكان له، ونفى أن يكون القرآن حروفاً. (فصل) فى ذكر مقالة السالمية: وهى منسوبة إلى ابن سالم.

من قولهم إن الله سبحانه يرى يوم القيامة فى صورة آدمى محمدى، وإنه عز وجل يتجلى لسائر الخلق يوم القيامة من الجن والإنس والملائكة والحيوان أجمع لكل واحد فى معناه، وفى كتاب الله تكذيبهم، وهو فى قوله عز وجل: ﴿ليس كمثله شئ وهو السميع البصير﴾ [الشورى: ١١].

ومن قولهم إن الله تعالى سرّاً لو أظهره لبطل التدبير، وللأنبياء سرّاً لو أظهره لبطلت النبوة، وللعلماء سرّاً لو أظهره لبطل العلم.

وهذا فاسد، لأن الله تعالى حكيم وتدبيره محكم لا يتطرق نحوه البطلان والفساد، وما ذكره يؤدى إلى إبطال حكمته تعالى وهذا كفر.

ومن قولهم إن الكفار يرون الله تعالى فى الآخرة ويحاسبهم.

ومن قولهم إن إبليس سجد لآدم فى الثانية، وفى القرآن تكذيبهم، وهو قول الله عز وجل: ﴿إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين﴾ [البقرة: ٣٤]، وقوله تعالى: ﴿إلا إبليس لم يكن من الساجدين﴾ [الاعراف: ١١].

ومن قولهم: إن إبليس ما دخل الجنة، وفى القرآن تكذيبهم، وهو قوله تعالى: ﴿فأخرج منها فإنك رجيم﴾ [الحجر: ٢٤، وص: ٧٧].

ومن قولهم: إن جبريل كان يجيء إلى النبي ﷺ ولا يبرح من مكانه.

ومن قولهم إن الله تعالى لما كلم موسى عليه السلام أعجب موسى بنفسه، فأوحى الله إليه يا موسى أتعجبك نفسك، مد عينيك، فمد موسى عينه فنظر فإذا مائة طور، على كل طور موسى.

وهذا منكر عند أهل النقل وأصحاب الحديث، وقد أوعد النبي ﷺ من كذب عليه فقال: «من كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار»^(١).

ومن قولهم إن الله تعالى يريد من العباد الطاعات ولا يريد منهم المعاصي، وإنه عز وجل أرادها بهم لا منهم.

وهذا باطل منهم، لأن الله تعالى قال: ﴿ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً﴾ [المائدة: ٤١] يعنى كفره، وقال الله تعالى: ﴿ولو شاء ربك ما فعلوه﴾ [الأنعام: ١١٢]، ﴿ولو شاء الله ما فعلوه﴾ [الأنعام: ١٣٧]، وقال تعالى: ﴿ولو شاء الله ما اقتتلوا﴾ [البقرة: ٢٥٣].

ومن قولهم إن النبي ﷺ كان يحفظ القرآن قبل النبوة وقبل أن يأتيه جبريل عليه السلام.

وفى القرآن تكذيبهم، وهو قوله تعالى: ﴿ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان﴾ [الشورى: ٥٢]، وقوله تعالى: ﴿وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه يمينك﴾ [العنكبوت: ٤٨].

ومن قولهم: إن الله تعالى يقرأ على لسان كل قارئ، وإنهم إذا سمعوا القرآن من قارئ فإنما يسمعون من الله.

وهذا القول يفضى إلى الحلول، نعوذ بالله من ذلك، ويؤدى إلى أن الله تعالى يلحن ويغلط، وهذا كفر.

ومن قولهم: إن الله تعالى فى كل مكان، ولا فرق بين العرش وغيره من الأمكنة.

(١) البخارى ٣٨/١، ومسلم فى: المقدمة: حديث (٣، ٤)، وأحمد ٧٨/١.

القسم الثالث

في

المجالس

باب

وأما الاتعاظ بمواضع القرآن والألفاظ النبوية ففي مجالس نسوقها

الأول من ذلك:

مجلس في قوله عز وجل:

﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨]

اعلم أن هذه الآية في سورة النحل وهي مكية، إلا ثلاث آيات من آخرها أنزلت بالمدينة، وعدد آياتها مائة وعشرون آية وثمان آيات، وعدد كلماتها ألف وثمانمائة وإحدى وأربعون كلمة، وحروفها سبعة آلاف وسبعمائة وتسعة أحرف.

قال أهل التفسير: كان سبب نزول هذه الآية «أن النبي ﷺ قرأ سورة النجم وقرأ ﴿والليل إذا يغشى...﴾ [الليل: ١] في صلاة الفجر بمكة أعلنهما فلما بلغ إلى قوله: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ﴾ ومناة الثالثة الأخرى» [النجم: ١٩ - ٢٠] نعى النبي ﷺ فألقى الشيطان على لسانه «الغرائيق العلا عندها الشفاعة ترتجي»^(١) يعنى الأصنام.

قال: ففرح المشركون بذلك، لأنهم اثبتوا لها الشفاعة، ويقولون: هؤلاء شفعاؤنا عند الله، كما قال الله عز وجل: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٢٣].

وكانوا يقولون إنها أجسام طاهرة ليس لها ذنوب، فهي أولى بالعبادة لها من غيرها من الملوك والملائكة، لأن لهم ذنوباً وهم ذوو أرواح، فشبهوا الأصنام بالغرائيق، وهي الذكور من الطيور، واحدها: غرنوق وغرنيق، لكونها تعلو وترتفع في السماء.

وقيل: هو طائر أبيض من طير الماء.

وقيل: هو الكركى.

ويسمى أيضاً الشاب الناعم غرنوقاً. ومنه حديث على رضي الله عنه: فكأنى انظر إلى غرنوق من قريش يتشحط في دمه: أى شاب.

وقال مقاتل: يعنى الملائكة رجوا أن تكون للملائكة شفاعة، لأن طائفة من الكفار

(١) الدر المنثور ٤/ ٣٦٧. وقد ألف العلامة الألبانى رسالة في ذلك سماها: نصب المجانيق في نفس

كانت تعبد الملائكة، فلما بلغ الرسول ﷺ خاتمة النجم سجد وسجد كل من حضر من مسلم ومشرك، غير أن الوليد بن المغيرة كان رجلاً شيخاً كبيراً، فرفع ملء كفه من التراب إلى جبهته فسجد عليه، فقال: نحنى كما تحنى أم أيمن وصواحباتها، وكان أيمن خادم النبي ﷺ فقتل يوم حنين.

فوقعت هاتان الكلمتان في قلب كل مشرك، وهما من سجع الشيطان وفتنته ألقاهما على لسان النبي ﷺ عند آخر ذكر الطواغيت والأصنام.

فعجب الفريقان كلاهما من سجودهم أجمعين، واتباعهم للنبي ﷺ في ذلك.

فأما المسلمون فعجبوا من سجود المشركين على غير إيمان ولا يقين، وأما المشركون فطابت أنفسهم إلى النبي ﷺ وأصحابه، لما سمعوا منه ما ألقى الشيطان في أمنيته واستبشروا وقالوا: إن محمداً قد رجع إلى دينه الأول ودين قومه، فسجدوا تعظيماً لآلهتهم، ففشت الكلمتان في الناس بإظهار الشيطان حتى بلغنا الحبشة، فكبر ذلك على النبي ﷺ فلما أمسى أتاه جبريل عليه السلام وقال: معاذ الله من هاتين الكلمتين ما أنزلهما ربى عز وجل ولا أمرنى بهما ربك، فلما رأى ذلك رسول الله ﷺ شق عليه وقال: أطعت الشيطان وتكلمت بكلامه، وأشركته في أمر الله عز وجل، فنسخ الله ما ألقى الشيطان وأنزل عليه: ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته﴾ [الحج: ٥٢] يعنى فى تلاوته وقراءته ﴿فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم﴾ [الحج: ٥٢].

فلما برأ الله عز وجل نبيه ﷺ من سجع الشيطان وفتنته انقلب المشركون بضلاتهم وعداوتهم، ثم أمر النبي ﷺ بالاستعاذة فأنزل الله عز وجل ﴿فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم﴾ [النحل: ٩٨].

قال عبد الله بن عباس رضى الله عنهما: معناه إذا أردت أن تقرأ القرآن فقل: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، يعنى احتزر بالله من الشيطان الرجيم: أى إبليس اللعين، يعنى المرجوم باللعنة، يقال: ليس شئ قط أغيظ على إبليس اللعين من التعوذ بالله منه ﴿إنه ليس له سلطان﴾ [النحل: ٩٩] يعنى ملكاً ﴿على الذين آمنوا﴾ [النحل: ٩٩] فى علم الله فى الشرك فيضلهم عن الهدى ﴿وعلى ربهم يتوكلون﴾ [النحل: ٩٩] يعنى بالله يثقون ﴿إنما سلطانه﴾ [النحل: ١٠٠] يعنى ملكه ﴿على الذين يتولونه﴾ [النحل: ١٠٠] يعنى إبليس

اللعين، يعنى يتبعونه على أمره فيضلهم عن دينهم الإسلام ﴿والذين هم به﴾ [النحل: ١٠٠] يعنى بالله ﴿مشركون﴾ [النحل: ١٠٠] أى من أجله مشركون.

(فصل) ومعنى أعوذ: الاستعاذة والاستجارة والالتجاء والمعاذ والملتجأ، يقال: عاذ به يعوذ عيادًا وأعوذ عوذًا، ومعنى معاذ الله: أى ألبأ إليه وأعوذ به. يقال: هذا عوذ لى عما أخاف، أى مجيرى والدافع عنى، فكان العبد يعوذ بالله ليقية شر الشيطان، والتعوذ بالقرآن هو التشفى به.

وقيل: معنى الاستعاذة: الاحترار بالله عز وجل، قال الله تعالى حاكيا عن أم مريم حنة: ﴿وانى أعيذها بك وذريتها﴾ [آل عمران: ٣٦] يعنى مريم وعيسى ﴿من الشيطان الرجيم﴾ [آل عمران: ٣٦] يعنى احترز بالله فى حقهما من الشيطان الرجيم.

واشتقاق الشيطان مأخوذ من الشطن وهو الحبل الطويل المضطرب، والشطن: البعد، فكأنه تباعد من الخير وطال فى الشر واضطرب فيه، ثم قيل للإنسان شيطان: أى كالشيطان فى فعله، وكل شىء مستقبح فهو مشبه بالشيطان، فيقال كأن وجهه وجه الشيطان، وكأن رأسه رأس الشيطان، ومنه قوله عز وجل: ﴿طلعها كأنه رؤوس الشياطين﴾ [الصفات: ٦٥] فهو رأس الشيطان المعروف، وقد قيل هى حيات لها رؤوس منكرة وأعراف، وقيل رؤوس الشياطين ثبت معروف.

وأما الرجيم: فهو المرجوم باللعن: أى رماه باللعن وأبعده من الحضرة بعصيانه فى ترك السجود لآدم عليه السلام، ورجمته الملائكة بالرماح وطردته بها حيثئذ من السماء إلى الأرض، ثم جعلت له الكواكب رجوماً، فيرجم هو وذريته إلى أن تقوم الساعة بالكواكب وباللعن. كما قال الله عز وجل: ﴿وجعلناها رجوماً للشياطين﴾ [الملك: ٥].

(فصل) الشيطان بعيد من الله، وبعيد من كل خير، وبعيد من الجنة، وقريب إلى النار.

فأمر النبى ﷺ وأمته الكرام بالتعوذ من الشيطان الرجيم، المبعد من الرحمن ليعبدوا من النيران، ويقربوا إلى الجنان، وينظروا إلى وجه المنان.

فكان الله عز وجل يقول: يا عبدى، الشيطان منى بعيد، وأنت منى قريب، فأحسن الأدب فى حفظ الحال حتى لا يكون للشيطان عليك سبيل لسبب من الأسباب، وحسن الأدب فى أداء الأمر وانتهاء النهى والرضا بجريان المقدور فى النفس والمال والأهل والولد والخلائق أجمعين.

فإذا دام العبد على ذلك ولازمه وواظب عليه وعانقه، كانت له النجاة من فتن الشيطان ووساوسه، وهواجس النفس وغوائلها، وعذاب القبر وضغطته، وهول القيامة وشذتها، وألم النار وزفرتها، وكان في جوار الله في جنة المأوى، مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقًا، متقلبًا في نعم الله في كل حال، دائمًا أبدًا، قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر: ٤٢].

فإذا كان على العبد سمة العبودية للملك الأعلى، لم يكن للشيطان الضعيف الخسيس الأدنى عليه تسلط وابتلاء لا في الجلوة ولا إذا خلا، لا على القلب بالمعصية إذا نوى، ولا على الجوارح إذا كادت بها أن تهوى وتردى.

فحيثئذ يسمع النداء هكذا فعلنا بمن ترك الهوى، واتبع الحق وبه اهتدى، وفيه يختصم الملأ الأعلى، وبالعظيم يدعى في الملوكوت الأعلى، وبه يباهى الملك الأعلى على العرش إذ هو عليه استوى، بكلامه القديم، المصون من سجع الشيطان والباطل عند قراءة القارئ إذا قرأ ﴿كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين﴾ [يوسف: ٢٤] إذ هو السر والعلانية اتقى، فالفرار من الشيطان الرجيم ودعائه أخرى وأولى، إذ الحذر واقع من العلى الأعلى حيث قال: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حُزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦]، ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبَلًا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ [يس: ٦٢].

فاتباع الشيطان أصل كل شقاوة وعناء وفي المخالفة سعادة ونعماء وراحة وهدى، والخلود في دار البقاء.

(فصل) ويستفيد العبد بالاستعاذة خمسة أشياء:

أحدها: الثبات على الدين والبقا.

والثاني: السلامة من شر اللعين والعناء.

والثالث: الدخول في الحصن الحصين والزلفى.

والرابع: الوصول إلى اللقاء الأمين مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

والخامس: نيل معونة رب الأرض والسماء.

كما ذكر في بعض الكتب المتقدمة لما قال إبليس اللعين في مخاطبته لله عز وجل:

﴿لَا تَنْتَهِمُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ﴾ [الأعراف: ١٧].

قال الله تعالى: «وعزتي وجلالي لأمرنهم بالاستعاذة فإذا استعاذوا بي حفظتهم عن اليمين بالهداية، وعن الشمال بالعناية، وعن الخلف بالعصمة، وعن القدام بالنصرة، حتى لا تضرهم وسوستك يا معلون».

ورد في بعض الأحاديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من استعاذ بالله مرة حفظه الله تعالى في يومه ذلك».

وقال أيضاً عليه الصلاة والسلام: «أغلقوا أبواب المعاصي بالاستعاذة وافتحوا أبواب الطاعة بالتسمية».

وقيل: إن إبليس يبعث كل يوم ثلاثمائة وستين عسكرياً لإضلال المؤمن، فإذا استعاذ المؤمن بالله عز وجل نظر الله إلى قلبه ثلاثمائة وستين نظرة، ففي كل نظرة من نظراته يهلك عسكرياً من عساكره لعنه الله.

(فصل) والذي يخاف الشيطان منه ويحذره الاستعاذة، وشعاع نور معرفة قلوب العارفين، فإن لم تكن من العارفين فعليك بالاستعاذة المتقين إلى الله ترقى إلى درجة العارفين، فحينئذ شعاع نور قلبك يكسر شوكته، ويهزم جنده ويبيد حضراه، ويقطع شافته في خاصتك، وربما جعلت سجنه لإخوانك وأتباعك، كما ورد عن النبي ﷺ في حق عمر بن الخطاب رضى الله عنه «إن الشيطان يفر من ظلك يا عمر»^(١).

وقوله ﷺ: «ما سلك عمر وادياً إلا والشيطان سلك غير ذلك الوادي»^(٢).

وقيل: إن الشيطان كان يصرع إذا رأى عمر رضى الله عنه.

فإذا علم الشيطان من العبد الصدق في عداوته والمخالفة لدعوته أيس منه وتركه واشتغل بغيره.

وإنما يأتيه لما أحياناً على وجه الاختفاء والتلصص، فليكن العبد أبداً ملازماً للصدق مستيقظاً مرتقباً لمجيء الشيطان وكيدته، فإن مثقبه دقيق، وعداوته قديمة أصلية، وإنه يجرى في الجلود واللحوم كجرى الدم في العروق.

وقد روى عن أبي هريرة رضى الله عنه أنه كان يقول بعد كبره: اللهم إني أعوذ بك من أن أرنى أو أقتل، فقيل له: أتخاف من ذلك؟ فقال كيف لا أخاف وإبليس حى.

(١) بنحوه: كنز العمال ٣٢٧٦٤.

(٢) جامع المسانيد ٢/٢٨٦.

(فصل) وأولى ما يستعان به على محاربة الشيطان ودفعه كلمة الإخلاص ، وذكر المرء ربه عز وجل.

كما قال النبى ﷺ حاكياً عن ربه عز وجل أنه قال: «لا إله إلا الله حصنى، فمن دخل حصنى أمن من عذابي»^(١).

وقوله عليه الصلاة والسلام: «من قال لا إله إلا الله مخلصاً دخل الجنة»^(٢).

فالشيطان سبب العذاب، فإذا قال العبد الكلمة وتقمص بموجباتها من أداء الأوامر وترك النواهي، فرآه الشيطان متلبساً بذلك، تباعد منه ولم يقدم عليه، فنجى العبد من فتنه، كما ينجو بجنة القتال من سلاح عدوه.

وكذلك التسمية يكثر ذكرها، فإنه روى عن النبى ﷺ «أنه سمع رجلاً يقول تعس الشيطان، فقال له عليه الصلاة والسلام: لا تقل هكذا، فإنه يتعاطم الشيطان للعين ويقول: بعزتى غلبتك، ولكن قل: بسم الله، فإنه يتصاغر الشيطان حتى يصير مثل الذرة»^(٣).

وكذلك يستعان عليه بترك الطمع فيما سوى فضل الله عز وجل من أبناء الدنيا وأموالهم وحمدهم وثنائهم وجمعهم والتكثير بهم وهداياهم، فإن الدنيا وأبناءها مال الشيطان وجنوده وحزبه، والمرء مع ماله والملك مع جنده.

فعلى العبد اليأس من ذلك كله، والاستغناء بالله عز وجل والثقة به، والتوكل عليه والرجوع إليه فى جميع أموره وأحواله واستعمال الورع من الحرام والشبهة وترك منة الخلق والتقلل من مباح الدنيا وحلالها، والأكل بشهوة وشرة كحاطب الليل من غير مفتيش وتنقيير، ومن لم يبال من أين مطعمه ومشربه لم يبال الله تعالى من أى أبواب النار يدخله.

فيلزم العبد ذلك حتى ييأس الشيطان منه، فيسلم برحمة الله وعونه، فإن لم يفعل ذلك فالشيطان قرينه فى قلبه وصدره، قال الله عز وجل: ﴿ومن يعش عن ذكر الرحمن

(١) الإتحاف ١٤٦/٣، وابن عساكر ٨٢/٢.

(٢) الطبرانى ٢٢٣/٥، ومجمع الزوائد ١٧/١، ١٨.

(٣) بنحوه: مجمع الزوائد ١٠/١٣١ - ١٣٢ وقال: رواه أحمد بأسانيده ورجالها كلها رجال الصحيح.

نقيض له شيطاناً فهو له قرين ﴿ [الزخرف: ٣٦].

فتارة يوسوسه في الصلاة، وأخرى يُمنّيه الأمانى الباطلة من شهوات النفس المحرمة منها والمباحة، ومرة يشبطه عن المسارعة في الخيرات، والإتيان بالسنن والواجبات، والعبادات والقربات، فيخسر الدنيا والآخرة، فيحشر معه، وربما سلب الإيمان في آخر عمره فيخلد معه في النار يوم القيامة، مع فرعون وهامان وقارون، نعوذ بالله من سلب الإيمان، ومتابعة الشيطان في السر والإعلان.

(فصل) روى مقاتل^(١) عن الزهري عن عروة عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت: راح أصحاب رسول الله ﷺ ذات عشية يريدون رسول الله ﷺ فيهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلى وسلمان وعمار بن ياسر رضى الله عنهم أجمعين، فخرج رسول الله ﷺ وقد أخذته الرخصاء، يعنى عرق الحمى، يتحدر منه مثل الجمان، يعنى اللؤلؤ، ثم مسح جبهته وقال: لعن الله الملعون ثلاثاً، ثم أطرق، فقال له على رضى الله عنه: بأبى أنت وأمى من لعنت أنفًا؟ فقال ﷺ: إبليس الخبيث، عدو الله دخل ذنبه في دبره، فباض سبع بيضات، فهم أولاده الموكلون ببني آدم:

أحدهم: اسمه المدهش وكُل بالعلماء، يردهم إلى الأهواء المختلفة.

والثاني: اسمه حديث، وهو صاحب الصلاة، فينسيهم الذكر، ويعبثهم بالحصى، ويطرح عليهم الثناؤب والنعاس حتى ينام أحدهم فيقال له: قد نمت، فيقول: لم أتم، فيدخل في الصلاة بغير وضوء، والذي نفس محمد بيده ليخرجن أحدهم من صلاته ما له شطرها ولا ربعها ولا عشرها، ووزرها أكثر من أجرها.

والثالث: اسمه الزلبنون، وهو صاحب الأسواق، يأمرهم بالتطفيف والكذب في الشراء والبيع والتحلية لسلعه، والمدحة لها إذا باعها حتى ينفقها عن نفسه.

والرابع: اسمه بتر، وهو صاحب قد الجيوب وخمش الوجوه، والدعاء بالويل والثبور عند نزول المصيبة، حتى يحبط أجر صاحبها.

والخامس: اسمه منشوط، وهو صاحب أخبار الكذب والنميمة والهمز والفخر حتى يؤثم العباد.

(١) مقاتل هو: ابن سليمان بن كثير الأدي الخراساني. قال الذهبي: متروك الحديث مع أنه كان من أوعية العلم بحرًا في التفسير. له ترجمة في: طبقات المفسرين ٢/ ٣٣٠ - ٣٣١.

والسادس: اسمه واسم، وهو صاحب الزنا الذى ينفخ فى إحليل الرجل وعجز المرأة حتى يزنى كل واحد منهما بصاحبه.

والسابع: اسمه الأعور، وهو صاحب السرقة، يقول للسارق: لتسد بها فافتك، وتقضى بها دينك، وتستربها عورتك ثم تتوب.

فينبغى لكل مؤمن ألا يغفل عن الشيطان فى سائر أحواله، ولا يأمنه فى جميع أموره^(١).

وقد جاء فى الحديث عن النبى ﷺ أنه قال: «إن للوضوء شيطاناً يقال له الولهان، فاستعيذوا بالله منه»^(٢).

وجاء فى الحديث عن النبى ﷺ أنه قال: «تراصوا فى الصفوف لئلا يتخللكم الشياطين كأنها بنات حذف»^(٣).

قالوا: وما بنات حذف؟ قال أبو حذيفة: قال أبو عبيدة هى هذه الغنم الصغار الحجازية، واحدها: حذفة.

ويقال نقد أيضاً، ونقاد ليس لها أذنان ولا آذان يجاء بها من جرش، بلد باليمن. وقد روى عن عثمان بن العاص رضى الله عنه أنه قال: قلت يا رسول الله كيف حال الشيطان بينى و بين صلاتى وقراءتى؟ فقال ﷺ: ذاك شيطان يقال له خنزب إذا أحسسته فتعوذ بالله منه، واتفل عن يسارك ثلاثاً ففعلت ذلك، فأذهب الله عني^(٤).

وقال النبى ﷺ فى الحديث المشهور: «ما منكم من أحد إلا وله شيطان، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال ﷺ: ولا أنا إلا أن الله تبارك وتعالى قد أعاننى عليه فأسلم»^(٥).

وفى حديث آخر عنه ﷺ: «ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن، قيل: ولا أنت يا رسول الله؟ قال ﷺ: ولا أنا إلا أن الله قد أعاننى عليه فأسلم فلا يأمرنى إلا بخير»^(٦).

(١) علامات الوضع على هذا الحديث لائحة.

(٢) بنحوه: البيهقى ١٩٧/١، والعلل المتناهية ٣٤٦/١.

(٣) الحاكم ٢١٧/١، وقال: صحيح على شرطهما ولم يخرجاه بهذا اللفظ، ووافقه الذهبى.

(٤) مسلم فى: السلام: حديث (٦٨)، وأحمد ٢١٦/٤.

(٥) دلائل النبوة ١٠١/٧، وبنحوه مسلم فى: صفات المنافقين: حديث (٦٩)، وأحمد ٣٨٥/١.

(٦) سبق تخريجه.

وقيل: إن الله لما لعن إبليس، خلق منه زوجته الشيطانة من ضلعه الأيسر، كما خلقت حواء من آدم عليه السلام، فغشيها فحملت منه إحدى وثلاثين بيضة، فصارت أصلاً لذريته، فتفرعت الذرية عنها، فطبقت البر والبحر حتى قيل: فقصت كل بيضة عشرة آلاف ذكر وأنثى، يعنى تفرعت منها، فسكنوا الجبال والجزائر والخرابات والفلوات والبحار والرمال والأدغال والآجام والعيون ومجامع الطرق والحمامات والكنف والمزابل والهواء ومعارك الحروب والنواقيس والقبور والدور والقصور وخيام الأعراب وجميع البقاع قال تعالى: ﴿أفنتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلاً﴾ [الكهف: ٥٠].

فويل لمن استبدل بعبادة الله عز وجل طاعة الشيطان وذريته، لا جرم أنه معهم في النار خالداً فيها إن لم يتب ولم يتذكر فيتبه لنفسه ويسعى في فكائها وخلصها، فيفارق قرناء السوء والأعمال الخبيثة، ودعاة الضلال وجنود الشيطان، فيرجع إلى الله، ويلزم طاعته، ويجالس العلماء من عباده، والعارفين به العاملين له الداعين إليه الراغبين فيه، والراجين لفضله الخائفين لسطوته، الراهبين من أخذته الزاهدين في الدنيا، الراغبين في العقبى، القائمين في الليل، والصائمين في النهار، الباكين على ما فات من أيام البطالات، العازمين على الخيرات فيما يأتى من الساعات، التائبين من جميع الذنوب والخطيئات، المتوكلين على خالق الأرض والسموات، الواثقين برب الخليفة والبريات في اللحظات والساعات، القائمين في آتاء الليل وأطراف النهار، أولئك آمنون من السلاسل والأغلال وآفات الدنيا وأحوال النيران، لأنهم خالفوا طاعة الشيطان، وأطاعوا الرحمن في السر والإعلان، فقابلهم الديان، وجازاهم المنان بما أخبر في قوله البيان: ﴿فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسروراً﴾ * وجزاهم بما صبروا جنة وحريراً﴾ [الإنسان: ١١ - ١٢]، وقوله تعالى: ﴿إن المتقين في جنات ونهر﴾ * في مقعد صدق عند مليك مقتدر﴾ [القمر: ٥٤ - ٥٥]، وقال تعالى: ﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان﴾ [الرحمن: ٤٦].

وقد ذكر الله عز وجل في كتابه هذا العبد المفتون بعد تقواه بقوله تعالى: ﴿إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون﴾ [الأعراف: ٢٠١].
فأخبر عز وجل أن جلاء القلوب بذكر الله وبه يزول عنها الغطاء والظلمة والرين والغفلة، وبه تنكشف الكروب، فالذكر مفتاح التقوى والورع، والتقوى باب الآخرة،

كما أن الهوى باب الدنيا، قال الله تعالى: ﴿واذكروا ما فيه لعلكم تتقون﴾ [البقرة: ٦٣] فأخبر تبارك وتعالى أن الإنسان بالذكر يتقى.

(فصل) وفي القلب لمتان: لمة من الملك، وهى إيعاد بالخير وتصديق بالحق، ولة من العدو، وهى إيعاد بالشر، وتكذيب بالحق، ونهى عن الخير، وهو مروي عن عبد الله ابن مسعود رضى الله عنه.

وقال الحسن البصرى رحمه الله: وإنما هما همان يجولان فى القلب: هم من الله، وهم من العدو، فرحم الله عبداً وقف عندهم، فما كان من الله أمضاه، وما كان من عدوه جاهدته.

وقال مجاهد رحمه الله فى قوله تعالى: ﴿من شر الوسواس الخناس﴾ [الناس: ٤] قال: هو ينبسط على قلب الإنسان، فإذا ذكر الله خنس وانقبض، وإذا غفل انبسط على قلبه. وقال مقاتل رحمه الله: هو الشيطان فى صورة خنزير معلق فى القلب فى جسد ابن آدم، يجرى منه مجرى الدم، سلطه الله عز وجل على ذلك من الإنسان، فذلك قوله: ﴿الذى يوسوس فى صدور الناس﴾ [الناس: ٥].

فإذا سها ابن آدم وسوس فى قلبه حتى يستلغ قلبه الخناس، الذى إذا ذكر الله عز وجل ابن آدم خنس عن قلبه، فذهب عنه وخرج من جسده.

وقال عكرمة رحمه الله: الوسواس محله من الرجل فى فؤاده وعينه، ومحله فى المرأة فى عينيها إذا أقبلت، وفى عجيزتها إذا أدبرت.

(فصل) وفى القلب خواطر ستة:

أحدها: خاطر النفس.

والثانى: خاطر الشيطان.

والثالث: خاطر الروح.

والرابع: خاطر الملك.

والخامس: خاطر العقل.

والسادس: خاطر اليقين.

فخاطر النفس يأمر بتناول الشهوات ومتابعة الهوى المباح منه والجناح.

وخاطر الشيطان يأمر في الأصل بالكفر والشرك والشكوى والتهمة لله عز وجل في وعده، وفي الفزع بالمعاصي والتسويف بالتوبة، وما فيه هلاك النفس في الدنيا والآخرة.

فالحاظران مذمومان محكوم لهما بالسوء، وهما لعموم المؤمنين.
وخاطر الروح، وخاطر الملك: يردان بالحق والطاعة لله عز وجل، وما يكون عاقبته سلامة الدنيا والآخرة، وما يوافق العلم.
فهما محمودان لا يعدمهما خصوص الناس.

وأما خاطر العقل، فتارة يأمر بما تأمر به النفس والشيطان، وأخرى بما يأمر به الروح والملك، وذلك حكمة من الله وإتقان لصنعه، ليدخل العبد في الخير والشر بوجود معقول، وصحة شهود وتميز، فيكون عاقبة ذلك من الجزاء والعقاب عائداً له وعليه، لأن الله تعالى جعل الجسم مكاناً لجريان أحكامه، ومحلّاً لنفاذ مشيئته في مبانى حكمته، كذلك جعل العقل مطية الخير والشر، يجرى معهما في خزانة الجسم إذ كان مكاناً للتكليف وموضعاً للتصريف، وسبباً للتعريف العائد إلى لذة النعيم أو عذاب اليم.

وأما خاطر اليقين، وهو روح الإيمان ومورد العلم، فيرد من الله تعالى، ويصدر عنه.

وهو مخصص بخواص من الأولياء الموقنين الصديقين، والشهداء والأبدال، لا يرد إلا بحق، وإن خفى وروده ودق مجيئه، ولا ينقذح إلا بعلم لدنى وأخبار الغيوب وأسرار الأمور، فهو للمحبوبين والمرادين والمختارين الفانين بالله فيه عنهم، الغائبين عن ظواهرهم، الذين انقلبت عبادتهم الظاهرة إلى الباطنة، ما خلا الفرائض والسنن المؤكدات، فهؤلاء أبداً في مراقبة بواطنهم، والله تعالى يتولى تربية ظواهرهم، كما قال عز وجل في كتابه العزيز: ﴿إِن وَلِيَّ اللَّهِ الَّذِي نَزَلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ [الاعراف: ١٩٦] تولاهم وكفاهم، وأشغل قلوبهم بمطالعة أسرار الغيوب، ونورها بالتجلى في كل قريب، فاصطفاهم لمحدثته، واختصهم بالأنس به، والسكون إليه، والطمأنينة لديه، فهم في كل يوم في مزيد علم ونمو معرفة، وتوفير نور، وقرب من محبوبهم ومعبودهم، وهم في نعيم لا نفاذ له، وآلاء لا انقطاع لها، وسرور لا غاية له ولا

منتهى، فإذا بلغ الكتاب أجله، وانتهى ما قدر لهم من البقاء فى دار الفناء، نقلهم منها بأحسن الانتقال، كما ينقل العروس من حجرة إلى دار، من الأدنى إلى الأعلى، فالدنيا فى حقهم جنة، وفى الآخرة لأعينهم قرّة، وهو النظر إلى وجهه الكريم من غير حجاب ولا باب ولا حاجب ولا بواب، ولا مانع ولا جدار، ولا منّ ولا امتنان، ولا ضيم ولا إضرار، ولا انقطاع ولا نفاد، كما قال عزّ من قائل: ﴿إنّ المتقين فى جنات ونهر * فى مقعد صدق عند مليك مقتدر﴾ [القمر: ٥٤ - ٥٥]، وكما قال: ﴿للذين أحسنوا الحسنى وزيادة﴾ [يونس: ٢٦].

أحسنوا فى الدنيا له بالطاعة، فجازاهم فى العقبى بالجنة والكرامة، وأعطاهم النعمة والسلامة، وزادوا له بتطهير القلوب وترك العمل لما سواه، فجازاهم سبحانه وتعالى بالزيادة فى دار البقاء والمنّة، وهو دوام النظر إلى وجهه الكريم، كما أخبر فى كتابه المبين لعباده أولى الأبواب والعقول.

(فصل) وللنفس والروح مكانان لإلقاء الملك والشیطان، فالملك يلقى التقوى إلى القلب، والشیطان يلقى الفجور إلى النفس، فتطالب النفس القلب باستعمال الجوارح بالفجور.

وفى مكانين فى البنية: العقل والهوى: يتصرفان بمشيئة حاكم، وهو التوفيق والإغواء.

وفى القلب نوران ساطعان: وهما العلم، والإيمان.

فجميع ذلك أدوات القلب وحواسه وآلاته، والقلب فى وسط كالمملك وهذه جنوده تؤدى إليه، أو كالمراة المجلوة، وهذه الآلات حولها تظهر فيراها ويقدح فيها فيجدها.

(فصل) أعوذ برب العرش والكرسى من الشيطان الغوى، وخواطر السوء وهواجس النفس، ومن فتنة كل جنى وإنسى، ومن رياء ونفاق وعجب وكبر وشرك وخلال السوء الناشئة فى قلبى، ومن كل شهوة ولذة مردية فى المهالك نفسى، ومن البدع والضلال والأهوية المسلطة للنيران على جسمى، ومن كل قول وفعل وهمة تحجب عن القلوب العرشية قلبى، ومن اتباع الأهوية المضلة والطبائع النفسية والأخلاق الردية أعوذ بالملك الحميد المجيد من الشيطان الخبيث المرید، أعوذ بالرب الودود من نقمته إذا غفلت عن طاعته إذ هو أقرب إلى من حبل الوريد، أعوذ به من سطوته إذا غضب على أهل

معصيته، أعوذ به من هيئته عند شدة بطشه في يوم القيامة للطاغين من بريته، وأعوذ به من كشف الغطاء والستر والتهيان في معصيته في البر والبحر، ونسيان الأصل والفرع، والميل إلى الزيغ والرعونة والخيلاء والكبر، وترك الطاعة والقربة والبر والتألي عليه، والأيمان الكاذبة، والحنت دون البر، وخاتمة السوء والإفلاس من كل خير، الموافاة عند حضور المنية بالشر.

(فصل) ومجاهدة الشيطان باطنة وهي بالقلب والجنان والإيمان، فإذا جاهدته كان مددك الرحمن، ومعتمدك الملك الديان، ورجاؤك رؤية وجه الجليل المئان. وجهاد الكفار جهاد ظاهر بالسيوف والرماح، ومددك فيه الملك والأعوان، ورجاؤك فيه دخول الجنان.

فإن قتلت في مجاهدة الكفار كان جزاؤك الخلود في دار البقاء، وإن قتلت في مجاهدة الشيطان ومخالفتك إياه بفناء أجلك واخترام منيتك كان جزاؤك رؤية وجه رب العالمين عند اللقاء، فإن قتل الكافر كنت شهيداً، وإن قتل الشيطان بمتابعتك إياه، والانقياد لأمره كنت من قرب الملك الجبار طريداً، فجهاد الكفار له نهاية وفناء، وجهاد الشيطان والنفس لا غاية له ولا منتهى.

قال الله جل وعلا: ﴿واعبد ربك حتى يأتيك اليقين﴾ [الحجر: ٩٩] يعنى الموت واللقاء.

فالعابدة بمخالفة الشيطان والهوى، قال الله عز وجل: ﴿فكذبوا فيها هم والغاوون * وجنود إبليس أجمعون﴾ [الشعراء: ٩٤ - ٩٥].

وقال النبي ﷺ حين رجع من غزوة تبوك: «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر»^(١).

عنى به ﷺ مجاهدة الشيطان والنفس والهوى لمداومتها وطول ممارستها وخطورها والخوف من سوء خاتمتها.

مجلس آخر: فى قوله عز وجل:

﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [النمل: ٢٣]

اعلم أن هذه الآية الشريفة فى سورة النمل، وهى مكية، وعدد آياتها ثلاث وتسعون آية، وكلماتها ألف ومائة وتسع وأربعون كلمة، وحروفها أربعة آلاف وسبعمائة وتسعة وتسعون حرفاً.

وذلك أن سليمان بن داود النبى الملك عليه السلام وعلى نبينا المصطفى وعلى سائر الأنبياء والمرسلين وسائر عباد الله الصالحين وملائكته المقربين، لما خرج من وادى النمل فى مسيره من بيت المقدس إلى اليمن، أخذ بالناس فى مفازة فعتش الناس، فسألوه عن الماء، ففقد الهدهد عند ذلك فسأل عنه، ودعا أمير الطيور، وهو الكركى، فسأل عنه، ولم يكن معه إلا هدهد واحد، فقال الكركى: لا أدرى أين ذهب ولا استأمرنى، وكان عليه السلام يريد الهدهد ليضع منقاره فى الأرض فيخبره كم بعد الماء وقربه، وكم بينه وبين الماء من قامة أو فرسخ، وكان الهدهد مخصصاً بذلك من دون بقية الطيور، وكان إذا أريد منه ذلك ارتفع فى طيران إلى الجو فينظر ذلك ثم ينقض إلى طين تلك البقعة التى فيها الماء فيضع منقاره فيها فيعرف ذلك، فتبادر الشياطين فتحفرت تلك البقعة فيخرج الماء، وتتخذ الأحواض والبرك والركايا، وتملأ الروايا والقرب والظروف، وتشرب الدواب والناس والجان، ثم يرتحلون.

فلما فقد الهدهد فى تلك الساعة، غضب سليمان عند ذلك غضباً شديداً وأوعده فقال: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ [النمل: ٢١] يعنى لأنتفن ريشه فلا يطير مع الطيور حولاً كاملاً ﴿أَوْ لَأَذِيبَنَّهُ﴾ [النمل: ٢١] ثم استثنى فقال: ﴿أَوْ لِيَأْتِنِي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ [النمل: ٢١] يقول: أو ليأتينى بعذر وحجة بيّنة، وكان أشد عذابه الذى يعذب به الطير لما يريد عذابه أن ينتف ريشه حتى يتركه أقرع ليس عليه ريش.

قال: ﴿فَمَكَثْ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ [النمل: ٢٢] أى لبث غير طويل، ثم أقبل الهدهد فقيل له: إن سليمان قد أوعدك فقال: هل استثنى؟ قيل: نعم، قال: فأقبل حتى قام بين يديه وسجد، فقال: دام ملكك الدهر وعشت الأبد فجعل ينكت بمنقاره ويومئ برأسه إلى سليمان ﴿فَقَالَ﴾ [النمل: ٢٢] له: ﴿أَحْطَتْ بِمَا لَمْ تَحْطُ بِهِ﴾ [النمل: ٢٢] يقول: أبلغت

وعلمت ما لم تبلغ وتعلم يقول: جئتكم بأمر لم يخبركم به الجن، ولم ينصحوك فيه، ولم تعلم به الإنس ﴿وجئتكم من سبأ﴾ [النمل: ٢٢] يقول: من قرية سبأ ﴿بنبأ يقين﴾ [النمل: ٢٢] يعنى بخبر عجيب لا شك فيه، فقال له سليمان: ما هو؟ فقال: ﴿إني وجدت امرأة تملكهم﴾ [النمل: ٢٣] يقال لها بلقيس بنت أبى السرح الحميرية ﴿وأوتيت من كل شيء﴾ [النمل: ٢٣] يقول: وأعطيت من كل شيء فى بلادها اليمن وما والاها يعنى: العلم والسلطان والمال والجنود وأنواع الخيل ﴿ولها عرش عظيم﴾ [النمل: ٢٣] يقول: سرير حسن، وكان طول عرشها فى السماء ثلاثين ذراعاً وقيل فى السماء ثمانون ذراعاً، وفى العرض ثمانون فى ثمانين، مكللاً بأنواع الجواهر والدرر واللؤلؤ ﴿وجدتها وقومها يسجدون للشمس﴾ [النمل: ٢٤] يقول: يصلون للشمس ﴿من دون الله﴾ [النمل: ٢٤] دين المجوسية ﴿وزين لهم الشيطان أعمالهم﴾ [النمل: ٢٤] يعنى حسنها لهم ﴿فصدهم عن السبيل﴾ [النمل: ٢٤] يعنى أن الشيطان صدها وجنودها عن طريق الإسلام والهدى ﴿فهم لا يهتدون﴾ [النمل: ٢٤] يقول: لا يعرفون الإسلام ﴿ألا يسجدوا لله﴾ [النمل: ٢٥] يعنى هلا يسجدوا لله ﴿الذى يخرج الخبء﴾ [النمل: ٢٥] يعنى الغيب والسر ﴿فى السموات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون﴾ [النمل: ٢٥] بالستهم ﴿الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم﴾ [النمل: ٢٦] يعنى بالعظيم العرش ف ﴿قال﴾ [النمل: ٢٧] سليمان للهدد: دلنا على الماء ﴿سننظر﴾ [النمل: ٢٧] فيما تقول: ﴿أصدقت﴾ [النمل: ٢٧] فى مقاتلك ﴿أم كنت من الكاذبين﴾ [النمل: ٢٧] فلما دلهم على الماء وشربوا واستكفوا دعا سليمان الهدد وكتب معه كتاباً وختمه بخاتمه ودفعه إليه، ثم قال: ﴿أذهب بكتابتى هذا فآلقه إليهم﴾ [النمل: ٢٨] يعنى أهل سبأ ﴿ثم تول عنهم﴾ [النمل: ٢٨] يعنى أرجع ﴿فانظر ماذا يرجعون﴾ [النمل: ٢٨] يعنى ماذا يردون عليك من الجواب.

والذى كتب فى الكتاب ﴿إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم﴾ [النمل: ٣٠] إنه من سليمان بن داود ﴿ألا تعلقوا على﴾ [النمل: ٣١] يعنى ألا تعظموا على طاعتي ﴿وأتئونى مسلمين﴾ [النمل: ٣١] يعنى مصالحين، فإن كنتم من الجن فقد عبدتم لى، وإن كنتم من الإنس فعليكم السمع والطاعة، قال: فانطلق الهدد بالكتاب حتى انتهى إليها ظهيرة وهى قائلة فى قصرها قد غلقت عليها الأبواب، فلا يصل إليها شيء والحرس حول قصرها، وكان لها من قومها اثنا عشر ألف مقاتل، كل واحد منهم أمير على مائة ألف مقاتل، سوى نسايتهم وذرايتهم، وكانت تخرج إلى قومها تقضى بينهم فى أمورهم

وحوائجهم في كل جمعة يوماً، قد جعلت على عرشها أربع أعمدة من ذهب، ثم تجلس هي فيه وهي تراهم ولا يرونها فإذا أراد الرجل منها الحاجة والأمر سألها، فقام بين يديها فينكس ولا ينظر نحوها، ثم يسجد فلا يرفع رأسه، حتى تأذن له إعظاماً لها، فإذا قضت حوائجهم وأمرت بأمرها دخلت قصرها ولم يروها إلى مثل ذلك اليوم، ملكها ملك عظيم.

فلما أتى الهدد بالكتاب وجد الأبواب قد غلقت دونها، والحرس حول القصر دائر حوله، فطلب السبيل إليها حتى وصل إليها من كوة في القصر، فدخل منها من بيت إلى بيت حتى انتهى إلى أقصى سبعة آيات علا عرشها في السماء ثلاثون ذراعاً، فرآها مستلقية على عرشها نائمة، ليس عليها إلا خرقة على عورتها، وكذلك كانت تصنع إذا نامت، قال: فوضع الكتاب إلى جنبها على السرير، ثم طار فوقف في كوة ينتظرها حتى تقرأه، فمكث طويلاً وهي لا تستيقظ، فلما أبطأ عليه ذلك انحط فنقرها فاستيقظت، فنظرت فإذا هي بالكتاب إلى جنبها على السرير، فأخذته وفركت عينيها فجعلت تنظر ما حال الكتاب وكيف وصل الكتاب إليها والأبواب مغلقة، فخرجت فإذا الحرس حول القصر، فقالت: هل رأيتم أحداً دخل على وفتح باباً؟ قالوا: لا، ما رالت الأبواب مغلقة كما هي ونحن حول القصر نحرس، ففتحت الكتاب وقرأته وكانت كاتبة وقارئة، فإذا فيه ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ فلما قرأته أرسلت إلى قومها فاجتمعوا إليها و﴿قالت﴾ [النمل: ٢٩] لهم: ﴿يا أيها الملأ إني ألقي إلي كتاب كريم﴾ [النمل: ٢٩] يعني مختوماً وحسناً ﴿إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم﴾ * ألاّ تعلوا علىّ واثتوني مسلمين﴾ [النمل: ٣٠ - ٣١] يعني مصالحين و﴿قالت يا أيها الملأ افتوني في أمري﴾ [النمل: ٣٢] يعني أخبروني بما أريد أن أصنع في أمري ﴿ما كنت قاطعة أمراً﴾ [النمل: ٣٢] يعني عاملة ﴿حتى تشهدون﴾ [النمل: ٣٢] يعني تسمعون وتحضرون المشورة ف﴿قالوا نحن أولوا قوة﴾ [النمل: ٣٣] يعني منعة ﴿وأولوا بأس شديد﴾ [النمل: ٣٣] لم يغلبنا عدو قط بالقتال والمنعة والكثرة، ولم نعط أحداً المقادة، وأنت أعلم بأمرك، فأمرينا بأمر نتبعه، فأبوا إلا تعظيماً لحقها، فهو قوله عز وجل: ﴿والأمر إليك فانظري ماذا تأمرين﴾ [النمل: ٣٣] به نتبع أمرك، فتنطقت بعلم وحكم و﴿قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها﴾ [النمل: ٣٤] يعني خربوها ﴿وجعلوا أعزة أهلها أذلة﴾ [النمل: ٣٤] يعني منعة أهلها أذلة صغيرة ﴿وكذلك يفعلون﴾ [النمل: ٣٤] الملوك المحاربون، يأخذون

أموالهم ويقتلون مقاتلتهم ويسبون ذرايعهم، ثم قالت: ﴿وإني مرسله إليهم بهدية﴾ [النمل: ٣٥] يعنى إلى سليمان ﴿فناظرة بم يرجع المرسلون﴾ [النمل: ٣٥] يعنى فأنظر ماذا يردون على رسلى وماذا يخبرونى عنه، قال: فأهدت إليه اثنى عشر غلاماً فيهم تأنيث، مخضبة أيديهم، قد مشطتهم وألبستهم لباس الجوارى وتقدمت إليهم إذا كلموهم يردوا عليهم بكلام فيه تأنيث، وأهدت إليه اثنتى عشرة جارية فيهن غلظ، فاستأصلت رؤوسهن وأزرتهن وألبستهن النعال، وقالت لهن: إذا كلمكن سليمان فارددن له جواباً صحيحاً، وأرسلت إليه يعود الحرج البخور وبالمسك والعنبر والحريز فى الأطباق على أيدي الوصائف، وأرسلت بثنى عشرة بختية تحلب كذا وكذا من اللبن، وأرسلت إليه بخرزتين إحداهما مثقوبة وثقبتها ملتوية، والثانية غير مثقوبة، وأرسلت بقدح ليس فيه شئ، وأرسلت إليه مع هديتها إلى سليمان امرأة، وأوصتها بأن تحفظ جميع ما يكون من أمر سليمان وكلامه حتى تخبرها به، وقالت لهم: قوموا بين يديه قياماً ولا تجلسوا حتى يأمركم، فإنه إن كان جباراً لم يأمركم بالجلوس فأرضيه بالمال فيسكت عنا، وإن كان حليماً عليماً عالماً أمركم بالجلوس، وأمرت المرأة أن تقول له بأن يدخل فى الخزانة المثقوبة خيطاً بغير علاج إنس ولا جان، وأمرتها أن تقول له أن يثقب الأخرى بغير حديد ولا علاج إنس ولا جان، وأن يميز بين الغلمان والجوارى، وأمرتها أن تقول له أن يملأ القدح ماء مزيداً رويًا، ليس من الأرض ولا من السماء، وكتبت إليه تسأله عن ألف باب من العلم.

فانطلق رسلها بهديتها حتى أتوا بها إلى سليمان، فوضعوا الهدية بين يديه وقاموا على أرجلهم ولم يجلسوا، فنظر إليهم سليمان لحظاً لم يحرك يداً ولا رجلاً ولا تهشش لها ولم يفرح ولم يعرف الرسل ذلك فيه ولا من مقالته، ثم رفع رأسه ونظر إلى رسلها وقال: إن الله عز وجل رفع السماء، ووضع الأرض فمن شاء وقف ومن شاء جلس، فأذن لهم بالجلوس، قال فتقدمت المرسله إلى سليمان وقدمت إليه الخرزتين وقالت له أن بلقيس تقول لك بأن تدخل فى هذه الخزانة المثقوبة خيطاً ينفذ إلى الجانب الآخر من غير علاج إنس ولا جان وأن تثقب الخزانة الثانية ثقباً ينفذ إلى الجانب الآخر بغير حديد ولا علاج إنس ولا جان، ثم قربت إليه القدح وقالت له إنها تقول لك بأن تملأ هذا القدح ماء مزيداً رويًا ليس من الأرض ولا من السماء، ثم قدمت الوصف والوصائف وقالت إن بلقيس تقول لك أنك تميز بين الغلمان والجوارى.

فعند ذلك جمع سليمان أهل مملكته، فاجتمعوا عليه، ثم أخرج الخرزتين فقال: من لى بهذه الخرزة يدخل فيها خيطاً يخرج من الجانب الآخر، فتكلمت دودة تكون فى الفصصة يعنى فى الأرض الرطبة وهى دودة حمراء وقالت: أيها الملك أنا لك بها على أن تجعل رزقى فى الرطبة، فقال: نعم، فعلق فى رأس الدودة خيطاً فدخلت فى الخرزة تحكها حتى خرجت من الجانب الآخر، فجعل رزقها فى الرطبة، ثم قرب الخرزة الثانية وقال: من لى يشق هذه الخرزة بغير حديد فتكلمت دودة أخرى بين يديه وهى الأرضة، فقالت: أيها الملك أنا لك بهذه، على أن تجعل رزقى فى الخشب، فقال: ذلك لك، فوقفت على الخرزة فثقتبها إلى الجانب الآخر، فجعل رزقها فى الخشب، ثم قدم القدح وأمر بإحضار الخيل العرب فحضرها، فأجريت حتى إذا جهدت واتبعت وسال عرقها فحيث ملأ القدح من العرق، وهو الماء المزد الروى ليس هو من الأرض ولا من السماء، ثم أمر بماء فوضع بين يديه فقال للوصفاء: توضؤوا ليتميز الغلمان من الجوارى.

قالت: فجعلت الجوارى يصيب الماء على أكفهن فجعلت إحداهن تأخذ الماء بكفها اليسرى وتفرغه على ذراعها الأيسر، ثم تتبعها كفها اليمنى فتغسلها، فتعرف عند ذلك أنها جارية، فيعزلها حتى عزل اثنتى عشرة جارية وصيفة.

وأما الغلمان فجعل الوصيف يأخذ الماء بكفه اليمنى فيغسل به ذراعه اليمنى ثم يتبع بها كفه اليسرى فيعرف أنه غلام، حتى عزل اثنى عشرة غلاماً.

ثم نظر إلى المسائل فأجاب عنها بألف جواب مع رسولها، ثم رد عليها هديتها، و ﴿قال﴾ [النمل: ٣٦] لمسلتها: ﴿أتمدوننى بمال فما آتانى الله﴾ [النمل: ٣٦] من النبوة والملك ﴿خير مما آتاكم﴾ [النمل: ٣٦] من المال ﴿بل أنتم بهديتكم تفرحون﴾ [النمل: ٣٦] يعنى تعجبون.

ثم كتب إليها كتاباً ودفعه إلى الهدهد وقال: ﴿ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها﴾ [النمل: ٣٧] يعنى بجموع لا قبل لهم بها ﴿ولنخرجنهم منها أذلة﴾ [النمل: ٣٧] يعنى من قرية سباً أذلة صغيرة ﴿وهم صاغرون﴾ أذلاء.

فلما أتى الهدهد بالكتاب مرة أخرى فقرأته ورجعت رسلها عنده، فقصت عليها قصة سليمان وما فعل فى جميع ما أرسلت به إليه وما رد إليها من الجواب، فقالت

لقومها: هذا أمر نزل علينا من السماء، لا ينبغي منابذته ولا نطيقه، ثم عمدت إلى عرشها فجعلته في آخر سبعة أبيات، ثم أقامت عليه الحرس، ثم أقبلت إلى سليمان.

قال: فرجع الهدهد إلى سليمان فأخبره أنها قد أقبلت إليه، فجمع أهل مملكته إليه ثم ﴿قال يا أيها الملاء أيكم يأتيني بعرشها﴾ [النمل: ٣٨] يعنى سريرها ﴿قبل أن يأتوني مسلمين﴾ [النمل: ٣٨] يعنى مصالحين، فلا يحل لنا بعد الصلح أخذه ﴿قال﴾ له ﴿عفريت من الجن﴾ [النمل: ٣٩] يقال له عمرو وهو العفريت الشديد الغليظ من الجن ﴿أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك﴾ [النمل: ٣٩] يعنى من مجلسك للقضاء وهو إلى نصف النهار ﴿وإني عليه لقوى﴾ [النمل: ٣٩] أى على حملة ﴿أمين﴾ [النمل: ٣٩] على ما فيه من اللؤلؤ والجواهر والزمرد والذهب والفضة، وكانت قوة العفريت أنه يضع قدمه حيث ينال طرفه يعنى يتسهي بصره، فقال لسليمان: أنا أضع قدمي حيث يبلغ بصرى فأتيتك به، فقال سليمان: أريد أعجل من ذلك ف ﴿قال الذى عنده علم من الكتاب﴾ [النمل: ٤٠] يعنى اسم الله الأعظم وهو: يا حى يا قيوم ﴿أنا﴾ [النمل: ٤٠] أدعو ربى فأراجع همى وأنظر كتاب ربى و ﴿أتيتك به قبل أن يرتد إليك طرفك﴾ [النمل: ٤٠] وهو آصف بن برخيا بن شعياء واسم أمه باطورا، وهو من بنى إسرائيل، وكان يعلم اسم الله الأعظم: ﴿أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك﴾، يعنى قبل أن يجىء إليك الشئ الذى يبلغه طرفك أى نظرك، فقال له سليمان: غلبت إن فعلت، وإن لم تفعل فصحتنى بين الجن وأنا سيد الإنس والجن، وقام آصف بن برخيا فتوضأ ثم سجد لله عز وجل يدعو الله باسمه الأعظم وهو يقول: يا حى يا قيوم.

وروى عن على بن أبى طالب رضى الله عنه أنه قال: هو الاسم الذى إذا دُعى به أجاب وإذا سئل به أعطى، وهو: يا ذا الجلال والإكرام: قال فغاب عرشها تحت الأرض حتى نبغ عند كرسى سليمان.

وقيل: إنه نبغ تحت كرسى كان يضع سليمان قدميه عليه إذا جلس على كرسيه الكبير، فلما رأى العرش قد نبغ قالت الجن لسليمان: أيقدر آصف أن يجىء بالسرير ولا يجىء ببلقيس، فقال آصف لسليمان: أنا آتيك بها، قال: فأمر سليمان فُبنى له صرح أملس من قوارير، ثم أُجرى تحته الماء وأُلقي فيه المسك، يرى من فوق الصرح من صفائه، ثم أمر سليمان بكرسيه فوضع فى وسط الصرح، وأمر بكراسى لأصحابه،

فوضعت فجلس عليه وجلس أصحابه، وكان الذين يلونه عليه السلام من أهل الكراسى الإنس ثم الجن ثم الشياطين، وكان هذا دأبه عليه السلام حتى إذا أراد أن يسير في البلاد يجلس هو على كرسيه وأولئك على كراسيهم، ثم يأمر الريح فتحملهم بين السماء والأرض، وإذا أراد أن يسير على الأرض أمر الريح فتسكن فيسير على وجه الأرض.

وكان لسليمان عليه السلام مجلس كما هو للملوك اليوم، فلما استقر بهم المجلس أمر آصف فعاد وسجد ودعا الله عز وجل باسمه الأعظم وهو: يا حي يا قيوم، فإذا يلقى مستقرة عنده.

وقيل: إن الذي عنده علم من الكتاب هو ضبة بن آد، وكان هو على خيل سليمان. وقيل: إن الذي عنده علم من الكتاب هو الخضر عليه السلام، ﴿فلما رآه مستقراً عنده قال هذا من فضل ربي ليبلوني﴾ [النمل: ٤٠] يعني ليختبرني ﴿أشكر﴾ على ما أعطيت من الملك ﴿أم أكفر﴾ [النمل: ٤٠] بالنعمة إذا رأيت من هو دوني أفضل مني علماً، فعزم لله عز وجل على الشكر وقال: ﴿ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر﴾ [النمل: ٤٠] بنعمته ﴿فإن ربي غني كريم﴾ [النمل: ٤٠] لا يعجل بالعقوبة.

فلما سمعت الجن بذلك وقعوا في بلقيس عند سليمان ليكرهوها إليه، خافوا أن يتزوجها فتظهره على أمورهم وكانت تعلم بذلك، لأن أمها جنية، وكان اسمها عميرة بنت عمرو، وقيل: إن اسمها رواحة بنت السكن ملك الجن، فقالوا: أصلح الله الملك إن في عقلها شيئاً ورجلاها كحافر الحمار وكانت بلقيس هلباء شعراء، فلما قيل له ذلك أراد أن يروى عقلها ويرى قدميها، فمن ثمة أجرى الماء وجعل فيه الضفادع والسمك، وأمر بعرشها أن يغير فيزاد فيه، وينقص منه ليروى عقلها فذلك قوله تعالى: ﴿قال نكروا لها عرشها﴾ [النمل: ٤١] يعني غيروا لها سريرها ﴿ننظر أتهتدي﴾ [النمل: ٤١] يعني أتعرفه ﴿أم تكون من الذين لا يهتدون﴾ [النمل: ٤١] يعني الذين لا يعرفون، فأقبلت حتى انتهت إلى الصرح فـ ﴿قيل لها ادخلي الصرح﴾ [النمل: ٤٤] يعني القصر، وقيل الصرح: هو البيت بلغة حمير ﴿فلما رآته حسبته لجة﴾ [النمل: ٤٤] يعني ماء غمر، فقالت في نفسها إنما أراد أن يغرقني كان غير هذا أحسن من ذا؟ ﴿وكشفت عن ساقها﴾ [النمل: ٤٤] فإذا ساقان شعراوان، وإنما هي من أحسن الناس وأبعد عما قيل له فيها، فقيل

لها: ﴿إنه صرح بمرد﴾ [النمل: ٤٤] يعنى قصرًا أملس لا شعث فيه كالأمرد الذى لا شعر فى وجهه، كان ملزق بعضه ببعض اتخذ بلاطه من القوارير، قال: فمضت نحو سليمان وقد أبصر قدميها وأبصر الشعر الذى على ساقها مهذبًا.

قال فأعجبه ما رأى عجبًا شديدًا ﴿فلما جاءت﴾ [النمل: ٤٢] إلى سليمان فـ ﴿قيل﴾ [النمل: ٤٢] لها ﴿أهكذا عرشك﴾ [النمل: ٤٢] فنظرت إليه فجعلت تعرف وتنكر فقالت فى نفسها: من أين تخلص إلى ذلك السرير الذى هو داخل سبعة أبيات والحرس حوله، فلم تعرف ولم تنكر فـ ﴿قالت كأنه هو﴾ [النمل: ٤٢] فقال سليمان: ﴿وأوتينا العلم من قبلها﴾ [النمل: ٤٢] يعنى من قبل بلقيس، وكانت مجوسية ﴿وكنا مسلمين﴾ [النمل: ٤٢] من قبلها فـ ﴿قالت﴾ حيثنذ ﴿رب إنى ظلمت نفسى﴾ [النمل: ٤٤] يعنى فى الظن الذى ظننت بسليمان أنه أراد أن يغرقنى، وقيل: ظلمت نفسى يعنى ضررت نفسى بعبادة الشمس ﴿وأسلمت مع سليمان﴾ [النمل: ٤٤] يعنى وأطعت الله مع سليمان، ويقال: أخلصت مع سليمان ﴿لله رب العالمين﴾ [النمل: ٤٤] فى العبادة فأسلمت ﴿وصدها﴾ [النمل: ٤٣] يعنى أن سليمان صدها عـ ﴿ما كانت تعبد من دون الله إنها كانت من قوم كافرين﴾ [النمل: ٤٣] فتزوج بها سليمان، فأمر بالنورة فاتخذت فتور سليمان وبلقيس، وهو أول من اتخذ النورة، قال: فسألها سليمان عن أشياء وهى سألته، ودخل بها سليمان، فولدت له غلامًا فسماه داود، ومات فى حياته، ثم مات سليمان ومات بلقيس بعده بشهر.

وقيل: إن سليمان أعطاها قرية بالشام، فكانت تأخذ خراجها حتى ماتت.

وقيل: إن سليمان لما دخل بها سرحها فى جنوده وردها إلى ملكها وكان يأتيها فى كل شهر مرة، فيركب من بيت المقدس إلى اليمن على ما تقدم ذكره.

(فصل) وإنما استوفيت هذه القصة فى هذا المجلس لما فيها من العبرة لكل مؤمن عاقل ناظر فى العواقب معتبر فى سير السلف الصالح والطالح، وقدرة الله عز وجل النافذة فى الأمم الماضية والحالية، وكرامته لأهل الطاعة وتسخيره أهل معصيته لهم وإعطائه مقادتهم وإذلالهم وتمليكهم الخلق لأهل ولايته ومحبته، لما أطاع سليمان ربه عز وجل كيف ملكه بلقيس وملكها، وقد كان فى أهل مملكته اثنا عشر ألف مقاتل، كل واحد منهم أمير على مائة ألف منهم، وجند سليمان يحتوى على أربعمائة ألف، مائتا

ألف من إنس ومائتا ألف من الجن، والتفاوت ما بين الجندين ظاهر.
فهذا ملك لطاعته، وهذه ملكت لكفرها ومعصيتها.
الإسلام يعلو ولا يعلى عليه ﴿ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً﴾
[النساء: ١٤١].

وكذلك أنت يا موفق إذا آمنت أمنت من أعدائك فى الدنيا، ومن نار الله الموقدة التى فى العقبى، تخدمك النار وتطرق بين يديك، وترشدك الطريق مكرمة لك ومعظمة وطاعة لأمر مولاها وممثلة له، فتقول لك: جز يا مؤمن فقد أطفأ نورك لهبى.
(عبارة لطيفة) أى أنك مكرم منور، خلعة الملك عليك، علامته الوقار عليك، فعلى الحواشى والعبيد تعظيمك وتوقيرك وخدمتك.

وأما الكافر والعاصى، فتتغيظ النار عليه وتتقم منه انتقام الجبار من عدوه عند ظفـره به، كما قال عز وجل: ﴿إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظاً وزفيراً﴾
[الفرقان: ١٢].

فإن أردت العزة فى الدنيا والآخرة، فعليك بطاعة الله والصبر عن معصية الله، تجدها برحمة الله تعالى، قال الله عز وجل: ﴿من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً﴾
[فاطر: ١٠]، وقال تعالى: ﴿والله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون﴾
[المنافقون: ٨].

فنفاقك يا مدعى الإيمان، وشركك يا مدعى الإخلاص حجبك عن رؤية عزة الجبار ونبية المختار والمؤمنين الأخيار.

فلو كنت عاملاً بموجب الإيمان موقناً بشرائط الإيقان، لأمنت فى الدنيا من كل مؤذ وكل شيطان من الإنس والجان، وفى الآخرة من عذاب النيران، وكانت النصره لك ولأعدائك الهوان، قال الله عز وجل: ﴿إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم﴾
[محمد: ٧]، وقال تعالى: ﴿فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم﴾
[محمد: ٣٥] ولكن الغفلة قد تكاثفت على قلبك وتراكم الرين عليه، وترادف السواد والظلمة لديه، فيا لها من حسرة وندامة ﴿يوم تبلى السرائر﴾ [الطارق: ٩] فى يوم القيامة، يوم الحاقة، يوم الطامة الكبرى، يوم القارعة، يوم الصاخة ﴿يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية﴾ [الحاقة: ١٨]، ﴿يومئذ يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم﴾ فمن يعمل

مثقال ذرة خيراً يره * ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴿ [الزلزلة: ٦ - ٨].

قيل: إن الذرة هي قشر الهباء الذي يظهر في شعاع الشمس مثل رؤوس الإبر، وقيل: أربع ذرات مثقال خردلة، وقيل: هي النملة الحمراء الصغيرة التي لا تكاد ترى إذا دبت، وقيل: إن الذرة جزء من ألف جزء من شعيرة.

وقال عبد الله بن عباس رضى الله عنهما: إذا وضعت كفك على التراب ثم رفعتها، فكل شيء يعلق بها من التراب فهو ذرة.

فأين أنت من يوم توزن فيه الأعمال بهذه الزنة تثقل وتخف بهذه الخفة، ويوم يقول الله تعالى فيه: ﴿يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً * ونسوق المجرمين إلى جهنم ورداً﴾ [مريم: ٨٥ - ٨٦] أى عطاشاً.

وحينئذ ينكشف الغطاء ويظهر المخبأ، ويمتاز المؤمن من الكافر، والصديق من المنافق، والموحد من المشرك، والولى من العدو، والمحق من المدعى.

فاحذر يا مسكين من هول ذلك اليوم، وانظر من أى الحزبين تكون؟ فإن أنت عملت لله العظيم واتقيت فى عملك الخير وصفيته عما يسوء للناقد البصير، فأنت فى حزب المتقين الوافدين على الرحمن فى يوم النشور.

فلك الكرامة يا كريم، ولك السلامة والبشرى يا حكيم.

وإن كان غير ذلك فاعلم أنك بالحزب الآخر لاحق وهالك، مع من هو هالك فى النار مع فرعون وهامان وقارون متلاحق، قال الله عز وجل: ﴿فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً﴾ [الكهف: ١١٠] فلا ينجيك فى ذلك اليوم غير العمل الصالح.

(فصل: فى فضل ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾)

عن عطاء عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال: «لما نزل ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ هرب الغيم إلى الشرق، وسكنت الرياح وهاج البحر، وأصغت البهائم بأذانها، ورجمت الشياطين من السماء، وحلف الله عز وجل بعزته لا يسمى اسمه على شيء إلا شفاهاً، ولا يسمى اسمه على شيء إلا بارك فيه، ومن قرأ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ دخل الجنة»^(١).

(١) تدريب الراوى ٥٣/١ وعزاه إلى ابن مردويه فى تفسيره.

وعن أبي وائل عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال: «من أراد أن ينجيّه الله من الزبانية التسع عشرة فليقل: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾، فإنها تسعة عشر حرفاً، ليجعل الله تعالى لكل حرف منها جنة من واحد منهم»^(١).

وعن طاوس عن ابن عباس رضى الله عنهما أن عثمان بن عفان رضى الله عنه «سأل النبي ﷺ عن ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ قال: فقال: هو اسم من أسماء الله عز وجل وما بينه وبين اسم الله الأعظم إلا كما بين سواد العين وبياضها من القرب»^(٢).

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من رفع قرطاساً من الأرض فيه ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ إجلالاً لله أن يداس، كتب عند الله من الصديقين، وخفف عن والديه وإن كانا مشركين»^(٣). يعنى العذاب.

وقيل: «لم يرن إبليس اللعين مثل ثلاث رنات قط: رنة حين لعن وأخرج من ملكوت السماء، ورنة حين ولد النبي ﷺ، ورنة حين أنزلت فاتحة الكتاب لكون ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ فيها»^(٤).

وعن سالم بن أبي الجعد أن علياً رضى الله عنه قال: «لما أنزلت ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ قال رسول الله ﷺ: أول ما أنزلت هذه الآية على آدم، فقال: أمن ذريتى من العذاب ما داموا على قراءتها، ثم رفعت فأُنزلت على إبراهيم الخليل فتلاها وهو فى كفة المنجنيق فجعل الله عليه النار برداً وسلاماً، ثم رفعت بعده، فما أنزلت إلا على سليمان وعندها قالت له الملائكة: الآن تم والله ملكك، ثم رفعت فأُنزلها الله عز وجل على، ثم تأتى أمتى يوم القيامة وهم يقولون: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾، فإذا وضعت أعمالهم فى الميزان رجحت حسناتهم، قال رسول الله ﷺ: اكتبوها فى كتبكم فإذا كتبتموها فتكلموا بها».

(فصل آخر: فى فضل ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾)

عن عكرمة رحمه الله أنه قال: أول ما خلق الله اللوح والقلم، أمر الله القلم فجرى

(١) الدر المنثور ٩/١.

(٢) الحاكم ٥٥٢/١ وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبى.

(٣) العلل المتناهية ٨١/١، والضعيفة (٢٦٨) وقال: موضوع.

(٤) الدر المنثور ٥/١.

على اللوح بما هو كائن إلى يوم القيامة، فأول ما كتب على اللوح: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾، فجعل الله هذه الآية أماناً خلقه ما داموا على قراءتها، وهى قراءة أهل سبع سموات، وأهل الصفح الأعلى وأهل سرادقات المجد والكروبيين، والصافين، والمسيحين، فأول ما أنزلت على آدم عليه السلام، فقال: قد أمن ذريتى من العذاب ما داموا على قراءتها، ثم رفعت بعده فأنزلت على إبراهيم الخليل عليه السلام فى سورة الحمد فتلاها وهو فى كفة المنجنيق، فجعل الله النار عليه برداً وسلاماً، ثم رفعت بعده فأنزلت على موسى عليه السلام فى الصحف، فيها قهر فرعون وسحرته وهامان وجنوده وقارون وأتباعه، ثم رفعت بعده فأنزلت على سليمان بن داود عليهما السلام، فعندها قالت الملائكة: اليوم والله تم ملكك يا ابن داود، فلم يقرأها سليمان على شيء إلا خضع له، وأمره الله يوم أنزلها عليه أن ينادى فى أسباط بنى إسرائيل، ألا من أحب منكم أن يسمع آية أمان الله فليحضر إلى سليمان فى محراب داود عليه السلام، فإنه يريد أن يقوم خطيباً، فلم يبق محبوس نفسه فى العبادة ولا سائح إلا هرول إليه، حتى اجتمعت الأحزاب والعباد والزهاد والأسباط كلها عنده، فقام فرقى منبر الخليل إبراهيم وتلا عليهم آية الأمان، ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾، فلم يسمعها أحد إلا امتلاً فرحاً، وقالوا: نشهد أنك لرسول الله حقاً، فيها قهر سليمان ملوك الأرض، وبها افتتح الله لنبيه محمد ﷺ مكة، ثم رفعت بعد سليمان فأنزلت على المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام، ففرح بها واستبشر بها الحواريون، فأوحى الله تعالى إليه: يا ابن العذراء البتول أتدرى أى آية أنزلت عليك؟ إنها آية الأمان، قوله: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾، فأكثر تلاوتها فى قيامك وقعودك ومضجعك ومجيئك وذهابك وصعودك وهبوطك، فإنه من وافى بها يوم القيامة وفى صحيفته ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ ثمانمائة مرة وكان مؤمناً بى وبربوبيتى أعتقته من النار، وأدخلته الجنة، فلتكن افتتاح قراءتك وصلاتك، فإن من جعلها فى افتتاح قراءته وصلاته إذا مات على ذلك لم يرعه منكر ونكير، وهون عليه سكرات الموت وضغطة القبر، وكانت رحمتى عليه، وأفسح له فى قبره، وأنور له فى قبره، وأنور له فيه مد بصره، وأخرجه من قبره أبيض الجسم وأنور الوجه، يتلألاً نوره، وأحاسبه حساباً يسيراً، وأثقل موازينه، وأعطيه النور التام على الصراط حتى يدخل الجنة، وأمر المنادى أن ينادى به فى عرصات القيامة بالسعادة والمغفرة.

قال عيسى عليه السلام: اللهم يا رب فهذا لى خاصة؟ فقال: لك خاصة ولن تبعك

وأخذ أخذك وقال بقولك، وهو لأحمد وأمه من بعدك.
وأخبر عيسى عليه السلام بذلك أتباعه فقال: ﴿ومبشراً برسول يأتي من بعدى اسمه أحمد﴾ [الصف: ٦] من صفته ونعته وفضله كيت وكيت، وأخذ ميثاقهم بالإيمان به، وجدد شأنه عندما رفعه الله تعالى إلى السماء لأصحابه، فلما انقرض الخواريون ومن اتبعه وجاء الآخرون، فضلوا وأضلوا، وبدلوا واستبدلوا بالدين دنياهم، فرفعت عندها آية الأمان من صدور النصارى، وبقيت فى صدور مسلمى أهل الإنجيل مثل بحيرا الراهب وأمثاله، حتى بعث الله النبي ﷺ فأنزلت عليه فى سورة الحمد بمكة، فأمر رسول الله ﷺ فكتبت تلك على رؤوس السور وصدور الرسائل والدفاتر، فكان نزول هذه الآية على رسول الله ﷺ فتحاً عظيماً، وحلف رب العزة بعزته ألا يسمى مؤمن موقن على شىء إلا باركت له فيه، ولا يقرؤه مؤمن إلا قالت الجنة له: لبيك وسعديك اللهم أدخل عبدك هذا فى ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾، فإذا دعت الجنة لعبد فقد استوجب له دخولها.

وقد قال ﷺ: «لا يرد دعاء أوله ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾». قال: «وإن أمتى يأتون يوم القيامة وهم يقولون ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾، فتثقل حسنايتهم فى الميزان، فتقول الأمم: ما أرجح موازين أمة محمد ﷺ فتقول الأنبياء لهم: لأن أمة محمد ﷺ مبتدأ كلامهم ثلاثة أسماء من أسماء الله تعالى الكرام، لو وضعت فى كفة الميزان ووضعت سيئات الخلق جميعاً فى الكفة الأخرى لرجحت حسنايتهم». قال: وجعل الله تعالى هذه الآية شفاء من كل داء، وعوداً لكل دواء، وغنى من كل فقر، وسترًا من النار، وأماناً من الخسف والمسخ والقذف ما داموا على قراءتها.

(فصل: فى تفسير قوله: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾)

قوله عز وجل: ﴿بسم الله﴾ روى عن عطية العوفى عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن عيسى عليه السلام أرسلته أمه رضى الله عنها إلى الكتاب ليتعلم، فقال له المعلم: قل ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾، فقال عيسى عليه السلام: وما بسم الله؟ قال: لا أدري، قال: الباء: بهاء الله، والسين: سناء الله، والميم ملكته»^(١).

(١) الطبرى ٤١/١ - ٤٢، والموضوعات ٢٠٤/١.

وقال أبو بكر الوراق: بسم الله: روضة من رياض الجنة لكل حرف منها تفسير على حدة.

فالباء على ستة أوجه:

- بارىء خلقه من العرش إلى الثرى، بيانه ﴿الخالق البارىء﴾ [الحشر: ٢٤].
- بصير بخلقه من العرش إلى الثرى، بيانه ﴿والله بصير بما تعملون﴾ [الحجرات: ١٨].
- باسط رزق خلقه من العرش إلى الثرى، بيانه ﴿الله ييسط الرزق لمن يشاء ويقدر﴾ [الرعد: ٢٦].

- باق بعد فناء خلقه من العرش إلى الثرى، بيانه ﴿كل من عليها فان * ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام﴾ [الرحمن: ٢٦ - ٢٧].
- باعث الخلق بعد الموت من العرش إلى الثرى للشواب والعقاب، بيانه ﴿وأن الله يبعث من فى القبور﴾ [الحج: ٧].

- بار بالمؤمنين من العرش إلى الثرى، بيانه ﴿هو البر الرحيم﴾ [الطور: ٢٨].

والسين على خمسة أوجه:

- سميع لأصوات خلقه من العرش إلى الثرى، بيانه ﴿أم يحسبون أننا لا نسمع سرهم ونجواهم﴾ [الزخرف: ٨٠].

- سيد قد انتهى سؤده من العرش إلى الثرى، بيانه ﴿الله الصمد﴾ [الإخلاص: ٢].
- سريع الحساب مع خلقه من العرش إلى الثرى، بيانه ﴿والله سريع الحساب﴾ [النور: ٣٩].

- سلام سلم خلقه من ظلمه من العرش إلى الثرى، بيانه ﴿السلام المؤمن﴾ [الحشر: ٢٣].

- ساتر ذنوب عباده من العرش إلى الثرى، بيانه ﴿غافر الذنب وقابل التوب﴾ [غافر: ٣].

والميم: على اثني عشر وجهًا:

- ملك الخلق من العرش إلى الثرى، بيانه ﴿الملك القدوس﴾ [الحشر: ٢٣].
- مالك خلقه من العرش إلى الثرى بيانه ﴿قل اللهم مالك الملك﴾ [آل عمران: ٢٦].

- منان على خلقه من العرش إلى الثرى، بيانه ﴿بل الله يمين عليكم﴾ [الحجرات: ١٧].
- معجيد على خلقه من العرش إلى الثرى، بيانه ﴿ذو العرش المجيد﴾ [البروج: ١٥].
- مؤمن آمن خلقه من العرش إلى الثرى، بيانه ﴿وآمنهم من خوف﴾ [قريش: ٤].
- مهيمن اطلع على خلقه من العرش إلى الثرى، بيانه ﴿المؤمن المهيمن﴾ [الحشر: ٢٣].
- مقتدر على خلقه من العرش إلى الثرى، بيانه ﴿فى مقعد صدق عند مليك مقتدر﴾ [القمر: ٥٥].

- مقيت على خلقه من العرش إلى الثرى، بيانه ﴿وكان الله على كل شىء مقيتاً﴾ [النساء: ٨٥].

- مكرم أولياءه من العرش إلى الثرى، بيانه ﴿ولقد كرمنا بنى آدم﴾ [الإسراء: ٧٠].
- منعم على خلقه من العرش إلى الثرى، بيانه ﴿وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة﴾ [لقمان: ٢٠].

- متفضل على خلقه من العرش إلى الثرى، بيانه ﴿إن الله لذو فضل على الناس﴾ [البقرة: ٢٤٣].

- مصور خلقه من العرش إلى الثرى، بيانه ﴿الخالق البارىء المصور﴾ [الحشر: ٢٤].
وقال أهل الحقائق: وإنا المعنى فى ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾: التيمن والتبرك وحث الناس على الابتداء فى أقوالهم وأفعالهم بسم الله كما افتتح الله سبحانه وتعالى كتابه العزيز به.

(فصل) اعلم أن الناس اختلفوا فى هذا الاسم:

فقال الخليل بن أحمد وجماعة من أهل العربية: أنه اسم موضوع لله عز وجل لا يشاركه فيه أحد، قال الله تعالى: ﴿هل تعلم له سمياً﴾ [مريم: ٦٥].

يعنى أن كل اسم لله تعالى مشترك بينه وبين غيره، له على الحقيقة ولغيره على المجاز إلا هذا الاسم فإنه مختص به، فيه معنى الربوبية والمعانى كلها تحته، ألا ترى أنك إذا أسقطت منه الألف بقى لله، وإذا أسقطت من لله اللام الأولى بقى له، وإذا أسقطت من له اللام بقى هو.

واختلفوا فى اشتقاقه:

فقال النضر بن شميل: هو من التآله، وهو التنسك والتعبد، يقال آله إلهة: أى

عبد عبادة.

وقال آخرون: هو من الإله، وهو الاعتماد، يقال: ألّـهت إلى فلان إلهاً: أى فزعت إليه واعتمدت عليه.

ومعناه: أن الخلق يفرعون ويتضرعون إليه في الحوادث والحوائج، فهو يألهم: أى يجبرهم، فسمى إلهاً - كما يقال: إمام للذى يؤتم به - فالعباد يؤلهون إليه: أى مضطرون إليه في المنافع والمضار، كالواله المضطر المغلوب.

وقال أبو عمرو بن العلاء: هو من ألّـهت فى الشيء: إذا تحيرت فيه فلم تهتد إليه. ومعناه: أن العقول تتحير فى كنه صنعته وعظمته والإحاطة بكيفيته، فهو إله كما يقال: للمكتوب كتاب، وللمحسوب حساب، وقال المبرد: هو من قول العرب: ألّـهت إلى فلان: أى سكنت إليه، فكان الخلق يسكنون ويطمئنون بذكره. قال الله عز وجل: ﴿الْأَبْذُكْرَ اللَّهِ تَطْمِئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

وقيل: أصله من الوله، وهو ذهاب العقل لفقدان من يعز عليه، فكأنه سمي بذلك لأن القلوب توله بمحبته وتطرب وتشتاق عند ذكره.

وقيل: معناه المحتجب لأن العرب إذا عرفت شيئاً ثم حجب عن أبصارها سمته لاهاً، يقال: لاهت العروس تلوه لوهاً: إذا احتجبت، فالله تعالى هو الظاهر بالربوبية بالدلائل والأعلام، والمحتجب من جهة الكيفية عن الأوهام.

وقيل: معناه المتعالى، يقال لاه: أى ارتفع، ومنه قيل للشمس إلاهة.

وقيل: معناه القدرة على الاختراع، وقيل: معناه السيد.

﴿الرحمن الرحيم﴾ قد قال قوم: هما بمعنى واحد، وهو ذو الرحمة، وهما من صفات الذات.

وقيل: هما بمعنى ترك عقوبة من يستحق العقوبة، وإسداء الخير إلى من لا يستحقه، وهما من صفات الفعل.

وفرق الآخرون بينهما فقالوا: الرحمن: للمبالغة، فمعناه: الذى وسعت رحمته كل شىء، والرحيم دون ذلك فى الرتبة.

وقال بعضهم: الرحمن: العاطف على جميع خلقه مؤمنهم وكافرهم وبرهم وفاجرهم بأن خلقهم ورزقهم، قال الله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]،

والرحيم: بالمؤمنين خاصة بالهداية والتوفيق فى الدنيا وبالجنة والرؤية فى الآخرة، قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الاحزاب: ٤٣].

فالرحمن خاص اللفظ عام المعنى، والرحيم عام اللفظ خاص المعنى، فالرحمن خاص من حيث أنه لا يجوز أن يسمى به أحد غير الله، عام من حيث أنه يشمل جميع الموجودات من طريق الخلق والرزق والنفع والدفع، والرحيم عام من حيث اشتراك المخلوقين فى المسمى به خاص من طريق المعنى، لأنه يرجع إلى اللطف والتوفيق. وقال ابن عباس رضى الله عنهما: هما اسمان دقيقان أحدهما أدق من الآخر. وقال مجاهد رحمه الله: الرحمن بأهل الدنيا الرحيم بأهل الآخرة.

وفى الدعاء: يا رحمن الدنيا يا رحيم الآخرة.

وقال الضحاك رحمه الله: الرحمن بأهل السماء حيث أسكنهم السموات وطوقهم الطاعات، وجنبهم الآفات، وقطع عنهم المطامع واللذات، والرحيم بأهل الأرض حيث أرسل إليهم الرسل، وأنزل عليهم الكتب.

وقال عكرمة رحمه الله: الرحمن برحمة واحدة، والرحيم بمائة رحمة.

وروى أبو هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال: «إن لله عز وجل مائة رحمة، وأنه أنزل منها رحمة واحدة إلى الأرض فقسمها بين خلقه، فبها يتعاطفون وبها يتراحمون، وآخر تسعة وتسعين لنفسه يرحم بها عباده يوم القيامة»^(١). وفى لفظ آخر: «وإن الله تعالى قابض هذه إلى تلك فيكملها مائة ويرحم بها عباده يوم القيامة».

الرحمن الذى إذا سئل أعطى، والرحيم الذى إذا لم يُسأل غضب.

وقال النبى ﷺ فى حديث أبى هريرة رضى الله عنه: «من لا يسأل الله يغضب عليه»^(٢).

وقال الشاعر:

الله يغضب إن تركت سؤاله وبنى آدم حين يسأل يغضب

(١) مسلم فى التوبة: ١٩، ٢٠، والبيهقى ٤٢٩٣، وأحمد ٥٢٦/٢.

(٢) أحمد ٤٤٢/٢.

الرحمن بالنعماء وهى ما أعطى وحباً، الرحيم بالآلام، وهى ما صرف وزوى.
الرحمن بالإنقاذ من النيران كما قال جل من قائل: ﴿وكنتم على شفا حفرة من النار
فأنقذكم منها﴾ [آل عمران: ١٠٣]، والرحيم بإدخال الجنان كما قال: ﴿ادخلوها بسلام
آمنين﴾ [الحجر: ٤٦].

الرحمن برحمة النفوس، والرحيم برحمة القلوب.
الرحمن بكشف الكروب، والرحيم بغفران الذنوب.
الرحمن بتبيين الطريق، والرحيم بالعصمة والتوفيق.
الرحمن بغفران السيئات، وإن كن عظيمات، والرحيم بقبول الطاعات، وإن كن غير
صافيات.

الرحمن بمصالح معاشهم، الرحيم بمصالح معادهم.
الرحمن الذى يرحم ويقدر على كشف الضر ودفع الشر، الرحيم يرزق ويطعم ولا
يطعم ﴿إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين﴾ [الذاريات: ٥٨].

الرحمن بمن جمده، الرحيم بمن وحده.

الرحمن بمن كفره، والرحيم بمن شكره.

الرحمن بمن قال ند، والرحيم بمن قال فرد.

(فصل) قل بسم الله تجد عفو الله، هذا سماعك من القارئ، فكيف سماعك من
البارئ، فهذا سماعك والغم باق، فكيف سماعك والرب ساق، هذا سماعك
بواسطة، فكيف سماعك بلا واسطة، هذا سماعك فى دار الغرور، فكيف سماعك فى
دار السرور، هذا سماعك فى جوار الشيطان، فكيف سماعك فى جوار الرحمن، هذا
سماعك من عبد ذليل، فكيف سماعك من الملك الجليل، هذه لذة الخبر، فكيف لذة
النظر، هذه لذة المجاهدة، فكيف لذة المشاهدة، هذه لذة البيان، فكيف لذة العيان، هذه
لذة المغايب، فكيف لذة المعاينة.

(فصل) قل بسم الله الذى تعالى عن الأضداد، بسم الله الذى تنزه عن الأنداد، بسم
الله الذى تقدس عن اتخاذ الأولاد، بسم الله الذى نور الأنوار، بسم الله الذى أكرم
الأبرار، بسم الله الذى قدر الأقدار، ونور القلوب والأبصار، بسم الله الذى تجلى
لقلوب الأبرار فى أوقات الأسحار، بسم الله الذى علم الأحياء الأسرار، فغمرها

بالأنوار واستودعها الأسرار، وأزاح عنها الأخطار، وحفظها من رق الأغيار، وحط عنها الأثقال والأغلال والآصال والأوزار، إذ كان موصوفاً في الأزل بالإحسان والإفضال وغفران الذنوب لأهل الاستغفار.

قل بسم الله، اسم الذى أجرى الأنهار وأنبث الأشجار، اسم من عمر البلاد بأهل الطاعة من العباد، فجعلهم لها أوتاداً كالجبال فصارت الأرض بهم لمن عليها كالمهاد، فهم الأربعون الأخيار من الأبدال، المنزهون الرب عن الشركاء والأنداد وملوك فى الدنيا وشفعاء الأنام يوم التناد، إذ خلقهم ربى مصلحة للعالم ورحمة للعباد.

(فصل) بسم الله للذاكرين ذخراً وللأقوياء عزاً وللضعفاء حرراً وللمحبين نوراً وللمشتاقين سروراً، بسم الله راحة الأرواح، بسم الله نجاة الأشباح، بسم الله نور الصدور، بسم الله نظام الأمور، بسم الله تاج الوثائق، بسم الله سراج الواصلين، بسم الله مغنى العاشقين، بسم الله اسم من أعز عبداً وأذل عبداً، بسم الله اسم من جعل النار لأعدائه مرصداً، وجعل الرؤية لأحبائه ميعاداً، بسم الله اسم الواحد بلا عدد، بسم الله اسم الباقي بلا أحد، بسم الله اسم القائم بلا عمد، بسم الله افتتاح كل سورة، اسم من طابت به الخلوات، اسم من به تمت الصلوات، اسم من به حسنت الظنون، اسم من سهرت له العيون، اسم من إذا قال للشئ كن فيكون، اسم من تنزه عن المساس، اسم من استغنى عن الإيناس، اسم من جل عن القياس.

قل بسم الله حرقاً حرقاً، تأخذ الأجر ألفاً ألفاً، وتحط عنك الأوزار جرقاً جرقاً، من قالها بلسانه شهد الدنيا، ومن قالها بقلبه شهد العقبى، ومن قالها بسره شهد المولى.

بسم الله كلمة طاب بها الفم، بسم الله كلمة لا يبقى معها الغم، كلمة تمت بها النعمة، كلمة كشفت بها النعمة، كلمة خصت بها هذه الأمة، كلمة جمعت بين جلال وجمال، فقلوه بسم الله جلال فى جلال، وقوله الرحمن الرحيم جمال فى جمال، فمن شهد جلاله طاش، ومن شهد جماله عاش، كلمة جمعت بين قدرة ورحمة، فالقدرة جمعت طاعات المطيعين، والرحمة محقت ذنوب المذنبين.

(فصل) قل بسم الله، فكأنه يقول بى وصل من وصل إلى الطاعات، ثم بنور الطاعات وصل إلى العيان، ثم استغنى بالعيان عن البيان، فصار قلبه وعاء للأسرار وعلم الأديان، ومن وصل إلى الحبيب نجاً من النحيب، ومن وصل إلى النظر استغنى

عن الخبر، ومن وصل إلى الصمد نجا من الكمد، ومن وصل إلى الرفاق نجا من الفراق، ومن وصل إلى ذى المجد سلم من الوجد، ومن وصل إلى اللقاء أمن من الشقاء.

(فصل) قل بسم الله، فالبراء: بارىء البرايا، والسين: ستار الخطايا، والميم: المنان بالعطايا.

وقيل: إن الباء برىء من الأولاد، والسين: سميع الأصوات، والميم: مجيب الدعوات.

وقيل: اطعموا فإنى مطعمكم، واسقوا فإنى ساقاكم، وانظروا إلى فإنى باقيكم.

وقيل: الباء: بكاء الثائمين، والسين: سجود العابدين، والميم: معذرة المذنبين.

وقيل: الله كاشف البلايا، الرحمن معطى العطايا، الرحيم غافر الخطايا، الله للعارفين، الرحمن للعابدين، الرحيم للمذنبين، الله الذى خلقكم وهو أحسن الخالقين، الرحمن الذى رزقكم وهو خير الرازقين، الرحيم الذى يغفر لكم وهو خير الغافرين.

وقيل: الله بإسباغ النعم، الرحمن الرحيم بالجود والكرم، الله بإخراجنا من البطون، الرحمن بإخراجنا من القبور، الرحيم بإخراجنا من الظلمات إلى النور.

(فصل) رحم الله من خالف الشيطان، وجانب العصيان، واتقى النيران، وأكثر الإحسان، وأدام ذكر الرحمن، فقال: بسم الله.

رحم الله من اعتصم بالله، وأناب إلى الله، وتوكل على الله، واشتغل بذكر الله، فقال: بسم الله.

رحم الله من زهد فى الدنيا، ورغب فى العقبى، وصبر على العطى وشكر على النعمى، واشتغل بذكر المولى، فقال: بسم الله.

طوبى لعبد اجتنب الطاغوت، وقنع من الدنيا بالقوت، واشتغل بذكر الحى الذى لا يموت، فيقول: بسم الله.

مجلس: فى قوله تعالى:

﴿وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون﴾ [النور: ٣١]

هذا خطاب للعموم بالتوبة.

وحقيقه التوبة فى اللغة: الرجوع، يقال: تاب فلان من كذا: أى رجع عنه، فالتوبة هى الرجوع عما كان مذموماً فى الشرع إلى ما هو محمود فى الشرع.

والعلم بأن الذنوب والمعاصى مهلكات مبعديات من الله عز وجل ومن جنته، وتركها مقرب إلى الله عز وجل وجنته، فكأنه عز وجل يقول: ارجعوا إلى من هوى نفوسكم ووقوفكم مع شهواتكم عسى أن تظفروا ببغيتكم عندى فى المعاد، وتبقوا فى نعيمى فى دار البقاء والقرار، وتفلحوا وتفوزوا وتنجوا وتدخلوا برحمتى الجنة العليا المعدة للأبرار، وخاطبهم أيضاً بخطاب الخصوص والافتضاء فقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحاً عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ [التحريم: ٨].

ومعنى النصوح الخالص لله تعالى الخالى عن الشوائب، مأخوذ من النصاح وهو الخيط.

وهو توبة مجردة لا تتعلق بشيء، ولا يتعلق بها شيء، يكون العبد معها مستقيماً على الطاعة غير مائل إلى المعصية، لا يروغ كما يروغ الثعلب، ولا يحدث نفسه بعود إلى معصية، ولا ذنب من الذنوب، وأن يترك الذنب لله خالصاً كما ارتكبه للهوى خالصاً حتى يختم له بحسن الخاتمة.

فالتوبة من سائر الذنوب واجبة بإجماع الأمة، وقد ذكر الله سبحانه وتعالى التائبين فى غير موضع، قال عز من قائل: ﴿إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين﴾ [البقرة: ٢٢٢] فذكر أنه يحبهم لتوبتهم وتطهرهم من الذنوب المبعدة عنه عز وجل، وقال فى موضع آخر: ﴿التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين﴾ [التوبة: ١١٢] فذكر اسماً معروفاً يعنى التائبون ثم وصفه بهذه الأوصاف الحميدة، فعلم أن التائب من هذه صفته، فإذا

اتصف بها استحق البشارة واسم الإيمان بقوله: ﴿وبشر المؤمنين﴾ [التوبة: ١١٢].

(فصل) والذى عنه التوبة من الذنوب كبائر وصغائر:

أما الكبائر: فقد اختلف فيها العلماء، فقليل: هى ثلاث، وقيل أربع، وقيل سبع، وقيل تسع، وقيل: إحدى عشرة.

وكان ابن عباس رضى الله عنهما إذا بلغه قول ابن عمر رضى الله عنهما: الكبائر سبع يقول: هى إلى سبعين أقرب منها إلى سبعة.

وكان يقول: كل ما نهى الله عنه فهو كبيرة.

وقيل: إنها مبهمة لا يعرف عددها كليلة القدر وساعة يوم الجمعة، ليعظم جد الناس فى طلبها، فكذلك الكبائر ليستد حذر الناس فى ترك الذنوب كلها.

وقيل: كل ما أوعد الله عليه بالنار فهو كبيرة.

وقيل: كل ما أوجب الحد فى الدنيا فهو كبيرة.

وقد جمعها بعض العلماء بالله عز وجل فقال: هى سبع عشرة:

أربع فى القلب وهى: الشرك بالله، والإصرار على معصية الله، والقنوط من رحمة الله، والأمن من مكر الله.

وأربع فى اللسان وهى: شهادة الزور، وقذف المحصن، واليمين الغموس وهى التى يحق بها باطل ويبطل بها حق أو يقطع بها مال امرئ مسلم باطلاً ولو سواكاً من أراك، والسحر.

وثلاث فى البطن وهى: شرب الخمر والمسكر من كل شراب، وأكل مال اليتيم، وأكل الربا وهو يعلم به.

واثنتان فى الفرج وهما: الزنا واللواط.

واثنتان فى اليدين وهما: القتل، والسرقه.

وواحدة فى الرجلين وهى: الفرار من الزحف، الواحد من الاثنين، والعشرة من العشرين، والمائة من المائتين.

وواحدة فى جميع الجسد كله وهى: عقوق الوالدين، وهو ألا تبر قسمهما إذا أقسما عليك، وأن تضربهما إذا سباك، وألا تعطيهما إذا سألاك، وألا تطعمهما إذا جاعا واستطعماك.

(فصل) وأما الصغائر فأكثر من أن تحصى، ولا سبيل إلى تحقيق معرفتها وبيان حصرها، لكننا نعلم ذلك بشواهد الشرع وأنوار البصائر، فإن مقصود الشرع سباق الخلق إلى الله عز وجل وقربه وجواره بترك الذنوب، كما قال تعالى: ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٠].

ومنها النظر إلى مستحسن والقبلة له والمضاجعة معه من غير جماع، والسبب لأخيه المسلم والشتيم له دون القذف والضرب له، والغيبة والنميمة والكذب، وغير ذلك مما يطول شرحه.

فإذا تاب المؤمن من الكبائر اندرجت الصغائر في ضمنها لقوله تعالى: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نَكْفُرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ [النساء: ٣١] ولكن لا يطمع نفسه في ذلك، بل يجتهد في التوبة عن جميع الذنوب كبيرها وصغيرها، كما قال الشاعر:

خل الذنوب كبيرها وصغيرها فهو التقى لمن استقام وشمرا

واصنع كماش فوق أرض الشوك يسـ سلك ما خلا حتى يحاذر ما يرى

لا تحقرن صغيرة في نفسها إن الجبال من الحصى لم تحقرا

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه أنه قال: «نزل رسول الله ﷺ بواد هو وأصحابه ليس فيه حطب ولا شيء يروونه، فأمرهم أن يحتطبوا، فقالوا: يا رسول الله ما نرى حطبًا، قال: لا تحقروا شيئًا تأخذونه، فجعل الرجل يجمع الشيء بعضه إلى بعض حتى جمعوا سوادًا عظيمًا، فقال لأصحابه: ألا ترون، هكذا تكون المحقرات من خير وشر، حتى الذنب الصغير إلى الصغير، والكبير إلى الكبير، والخير إلى الخير، والشر إلى الشر».

وقيل: إن الذنب إذا صغر عند العبد عظم عند الله تعالى، فإذا استعظمه العبد صغر عند الله تعالى، فإنما يستعظم الذنب الصغير العبد المؤمن لعظم إيمانه وثبوته معرفته، كما جاء في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «المؤمن يرى ذنبه كالجبل فوقه يخاف أن يقع عليه، والمتافق يرى ذنبه كذباب طائر على أنفه فأطاره»^(١).

وقال بعضهم: الذنب الذي لا يغفر قول العبد: ليت كل شيء عملته مثل هذا، وهذا من نقصان إيمانه، وضعف معرفته، وقلة علمه بجلال الله عز وجل، ولو كان

عنده علم بذلك لرأى الصغير كبيراً، والحقير عظيمًا، كما أوحى الله تعالى إلى بعض أنبيائه: لا تنظر إلى قلة الهدية وانظر إلى عظم مهديها، ولا تنظر إلى صغر الخطيئة وانظر إلى كبرياء من واجهته بها.

ولهذا قال: من جلت رتبته وعظمت منزلته عند الله عز وجل فلا صغيرة بل كل مخالفة كبيرة.

وقال بعض الصحابة لأصحابه من التابعين: «إنكم لتعملون أعمالاً هي أدق في أعينكم من الشعر كنا نعدها على عهد رسول الله ﷺ من الموبقات» وإنما قال ذلك لقربه من رسول الله ﷺ ومن الله ومن جلاله، فيعظم من العالم ما لم يعظم من الجاهل، ويتجاوز عن العامى ما لا يتجاوز عن العارف على قدر ما بينهما من التفاوت في العلم والمعرفة والمنزلة.

(فصل) والتوبة فرض عين في حق كل شخص.

لا يتصور أن يستغنى عنها أحد من البشر؛ لأنه لا يخلو أحد عن معصية الجوارح، فإن خلا عنها فلا يخلو عن الهم بالذنوب بالقلب، وإن خلا عن ذلك فلا يخلو من وسواس الشيطان بإيراد الخواطر المتفرقة المذهلة عن ذكر الله تعالى، فإن خلا عنها فلا يخلو عن غفلة وتقصير في العلم بالله عز وجل بصفاته وأفعاله.

كل ذلك على قدر منازل المؤمنين في أحوالهم ومقاماتهم، فلكل حال طاعات وذنوب وحدود وشروط، فحفظها طاعة، وتركها والغفلة عنها ذنب، فيحتاج إلى توبة، وهو الرجوع عن التعرّيج الذى وجد إلى سنن الطريق المستقيم الذى شرع له، ومقام أقيم فيه، ومنزلة مهدت له، والكل مفتقر إلى التوبة وإنما يتفاوتون في المقادير، فتوبة العوام من الذنوب، وتوبة الخواص من الغفلة، وتوبة خاص الخواص من ركوب القلب إلى ما سوى الله عز وجل كما قال ذو النون المصرى رحمه الله: توبة العوام من الذنوب، وتوبة الخاص من الغفلة.

وكما قال أبو الحسين النورى: التوبة أن تتوب من كل شئ سوى الله عز وجل، فشتان بين تائب يتوب من الزلات، وتائب يتوب من الغفلات، وتائب يتوب من رؤية الحسنات، وتائب يتوب من طمأنينة القلب إلى غير خالق البريات.

فالأنبياء عليهم السلام لم يستغنوا عن التوبة، ألا ترى إلى ما روى عن النبى ﷺ أنه

قال: «إنه ليغان على قلبي ، وإنى لاستغفر الله عز وجل فى اليوم والليلة سبعين مرة»^(١).

وآدم عليه السلام لما أكل من الشجرة - القصة المشهورة - تطايرت الحلل عن جسده وبدت عورته وبقي التاج والأكليل على رأسه، فاستحيا أن يرتفعا عنه، فجاءه جبريل عليه السلام فأخذ التاج عن رأسه والأكليل عن جبينه، ونودى هو وحواء: أن اهبطا من جوارى، فإنه لا يجاورنى من عصائى، فالتفت إلى حواء بالحياء وقال لها: هذا أول شؤم المعصية أخرجنا من جوار الحبيب، فأحوجنا إلى التوبة والتضرع والافتقار والاستكانة والذلة من بعد عيش قار، ومن ذلك الملك العظيم والفضل الكبير والعز والدلال وارتفاع المنزلة فى أشرف الأمكنة وأطهرها وأمنها وأقربها إلى الله تعالى.

فلو استغنى أحد عن التوبة وآمن من العدو وشؤم النفس ووسواس الشيطان ومكايده، واغتر بشرف المكان وطهارته والقرب إلى الله ودنو منزلته، لكان ذلك حقيقاً بآدم عليه السلام، فلم يستغن عن التوبة حتى تاب الله عليه لقوله عز وجل: ﴿فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم﴾ [البقرة: ٣٧].

وروى عن الحسن بن على رضى الله عنهما أنه قال: لما تاب الله على آدم عليه السلام هتته الملائكة فهبط جبريل عليه السلام وميكائيل ودردائيل عليهم السلام فقالوا: يا آدم قرت عينك بتوبة الله عليك، فقال آدم عليه السلام: يا جبريل فإن كان بعد هذه التوبة سؤال فأين مقامى؟ فأوحى الله إليه: يا آدم ورثت ذريتك التعب والنصب، وورثتهم التوبة، فمن دعائى منهم لبيتهم كما لبيتك، ومن سألنى منهم المغفرة لم أبخل عليه، لأننى قريب مجيب يا آدم، وأحشر التائبين من القبور مستبشرين ضاحكين، ودعاؤهم مستجاب.

وكذلك نوح النبى عليه السلام الذى أغرق الله تعالى أهل الشرق والغرب بدعوته والغيرة على عرضه، ولتكذيبهم إياه وشدة غضبه عليهم لذلك، وهو آدم الثانى، لأن الخلق من ذريته على ما قيل إنه لم يتوالد من الذين كانوا معه فى السفينة من الناس غير أولاده الثلاثة وهم سام وحام ويافث، فالخلق تشعبت منهم ومع هذه المنزلة قال: ﴿رب إنى أعوذ بك أن أسألك ما ليس لى به علم وإلا تغفر لى وترحمنى أكن من

(١) مسلم فى: الذكر: حديث ٤١، وأحمد ٢١١/٤.

الخاسرين ﴿هود: ٤٧﴾.

وإبراهيم الخليل عليه السلام مع جلالة قدره واصطفاء الله له بخلته وجعله أبا الأنبياء والمرسلين، كما روى أنه أخرج من ولده وولد ولده أربعة آلاف نبي عليه وعليهم السلام، قال الله تعالى: ﴿وجعلنا ذريته هم الباقين﴾ [الصافات: ٧٧].

حتى نبينا محمد ﷺ من ولده، وموسى وعيسى وداود وسليمان عليهم السلام وغيرهم لم يستغن عن التوبة والاستكانة والافتقار إلى الله عز وجل فقال: ﴿الذى خلقتنى فهو يهدين * والذى هو يطعمنى ويسقئنى * وإذا مرضت فهو يشفين * والذى يميئتنى ثم يحيينى * والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين﴾ [الشعراء: ٧٨ - ٨٢]، وقوله عز وجل: ﴿وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم﴾ [البقرة: ١٢٨].

وموسى عليه السلام مع جلالة قدره واصطفاء الله له بالرسالة والكلام واصطناعه لنفسه، وإلقائه المحبة عليه، وتأيينه له بالمعجزات الباهرات من اليد والعصا والآيات التسع والأشياء التى كانت له فى التيه، من عمود النور بالليل والمن والسلوى وغير ذلك من الآيات التى لم تكن لأحد من الأنبياء قبله ﴿قال رب اغفر لى ولأخى وأدخلنا فى رحمتك وأنت أرحم الراحمين﴾ [الأعراف: ١٥١].

وداود النبى عليه السلام مع جلالة قدره وإعطاء الله له ذلك الملك العظيم، كان حراسه ثلاثة وثلاثين ألف حارس، وكان إذا قرأ الزبور اصطفقت الطير على رأسه، ووقف الماء عن جريانه وحدته، واصطفقت الإنس والجن حوله، والسباع والهوام كذلك لا يؤذى بعضها بعضاً، وتسبح الجبال بتسبيحه، وألين له الحديد لرزقه إجلالاً لقدره وصيانة لأمره، بكى أربعين يوماً ساجداً، حتى نبت العشب من دموعه، فرحمه الله تعالى وتاب عليه، حتى قال عز وجل: ﴿ففغفرنا له ذلك وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب﴾ [ص: ٢٥].

وسليمان بن داود عليهما السلام مع ملكه العظيم وريحه المسخرة له، غدوها شهر ورواحها شهر، والملك الذى لا ينبغى لأحد من بعده، لما عوقب على خطيئته من أجل التمثال الذى عبد فى داره أربعين يوماً من غير علمه فسلب ملكه أربعين يوماً فهرب تائهاً على وجهه، وكان يسأل بكفيه فلا يطعم، فإذا قال أطعمونى فإننى سليمان بن داود شج رأسه وضرب وأهين وكذب، ولقد استطعم يوماً من بيت فطرد وبزقت امرأة فى وجهه.

وروى أنه ذات يوم أخرجت عجوز جرة فيها بول وصبته على رأسه، فبقى في الذل على ذلك إلى أن أخرج الله له الخاتم من بطن حوت، فلبسه حتى انتهت الأربعون يوماً من أيام العقوبة، فجاءت الطير حينئذ فعكفت عليه، وجاءت الجن والشياطين والوحوش فاجتمعت حوله، فلما عرفه الذين أهانوه وضربوه اعتذروا إليه مما جرى منهم إليه من الإساءة، فقال: لا ألومكم فيما صنعتُم من قبل، ولا أحمدكم الآن فيما تصنعون، فإن هذا أمر من السماء ولا بد منه، فتاب الله عليه، ورد إليه ملكه، وأحسن موثله ومرجعه عليه السلام.

فإذا كان هؤلاء السادة الكبراء القادة ولادة الخلق والشرع وملوكها وخلفاء الله في خلقه حالهم كذلك، فما حالك واغترارك يا مسكين، وأنت في دار الغرور في إقطاع الشياطين، محيط بك جنود الأعداء من الخلق والهوى والنفس والشهوات والإرادات والوساوس وتزيين الشيطان وتحسينه، واغتررت بالعبادات الظاهرة من: الصوم والصلاة والزكاة والحج، وكف الجوارح عن المعاصي الظاهرة، وباطنك عار عن العبادات الباطنة صفر عنها من: الورع الشافى والتأني والتقوى والزهد والصبر والرضا والقناعة والتوكل والتفويض واليقين وسلامة الصدر وسخاوة النفس ورؤية المنة والنية والإحسان وحسن الظن وحسن الخلق وحسن المعاشرة وحسن المعرفة وحسن الطاعة والصدق والإخلاص وغير ذلك مما يطول شرحه.

بل أنت مشحون ممتلىء بخلال قبيحة وأمهات الذنوب التي منها تتفرع كل محنة وداهية، وكل بلية مهلكة موبقة في الدنيا والآخرة من: خوف الفقر والسخط لقدر الله عز وجل، والاعتراض عليه في قضائه في خلقه، والتهمة له في ذلك، والشك في وعده، والغل والحق والحسد والغش، وطلب العلو والمنزلة، وحب الثناء والمحمدة، وحب الجاه في الدنيا والرضا بها والطمأنينة إليها، والتكبر على عباد الله والتعظيم عليهم، والشمخ بالأنف كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾ [البقرة: ٢٠٦]، والغضب والحمية والأنفة، وحب الرياسة والعداوة والبغضاء والطمع والبخل والشح والرغبة والرغبة والفرح والأشر والبطر والتعظيم للأغنياء والاستهانة بالفقراء، والفخر والخيلاء، والتنافس في الدنيا والمباهاة بها، والرياء والسمة، والإعراض عن الحق استكباراً، والخوض فيما لا يعنى، وكثرة الكلام من غير نفع، والتهيه والصلف، واختبار أحوال الغير، وترك حالتك التي أنت عليها، وجعلت عبادتك

فى حفظها، والتملك والاعتدار، والتهاون فى أمر الله، والتوقير للمخلوقين، والمداهنة لهم والعجب بالأعمال، وحب المدح بما لم تفعله، والاشتغال بعيوب الخلق والتعامى عن عيوبك، ونسيان نعمة الله وإضافتها إلى نفسك أو إلى الخلق الذين هم مسخرون وآلة لتلك النعمة، والوقوف مع الظاهر، والتقاعد عن النظر فى الأصول، وحفظ الحدود ووضع الشئ فى محله، وإيثار الفرح، ونبض الحزن الذى يكون بعده خراب القلب، وخروج الخشية منه، وبيعه أطفاء نور الحكمة، وبتزايد إيجاب قرب الرب والأنس به والاستماع إليه والفهم منه، والاستغناء به عن جميع البرية، والسعادة الأبدية، والنجاة السرمدية، والنعمة الكلية، ومشحون بالانتصار للنفس إذا نالها الذل الذى دواؤها فيه وسعادتها به، ودخولها فى زمرة أحباب الله تعالى وأصفائه وخلصائه وشهادته وعلمائه، والعارفين بمجارى أقداره وأبدال أنبيائه عليهم السلام، وبضعف الانتصار للحق جلّت عظمتهم وأنصار دينه وأوليائه القائمين بحجته، الداعين للخلق إلى طاعته، المحذرين لنقمته وتارة بتذكركم لأيامه، المرغبين فى رحمته وجنته، واتخاذ إخوان العلانية مع عداوتك إياهم فى السر، والإعراض عن موافقة الأخيار الأبرار المنكسرى القلوب والأفئدة، الذين هم جلساء الرحمن جلّت عظمتهم، المطمئنون إليه، الملازمون للشدة، المداومون على الخدمة، المتنعمون بالمنة، المتلبسون بالخلة، الموسومون بخلصاء الرحمن رب العزة، الآمنون فى الدنيا من دوران الدول والفتنة، وفى القبور من شر هول المطلع والضغط، وفى القيامة من طول الحساب والوحشة، الخالدون فى دار البقاء فى النعمة والسرور والبهجة والفرحة، المخصوصون فيها بكل ظريف ولطيف فى ساعة لحظة وطرفة.

واغتررت أيضاً بما خولت من الدنيا، وما أطلقت فيها من القضاء، وأرحت من العناء، فأمنت من سلب العطاء والفضل والنعم الذى كان لغيرك، ثم انتقل منه إليك ممن تقدم ومضى، من فرعون وهامان وقارون وشداد وعاد وقيصر وكسرى، من الملوك الخالية والأمم الفانية الذاهبة، الذين تلاعبت بهم الدنيا وغرتهم الأمانى، حتى جاء أمر الله وغرهم بالله الغرور، وحيل بينهم وبين ما يشتهون، وجمعوا وفرقوا وقطع بينهم وبين ما خولوا وأزيلوا عن الفرش التى مهدوها لأنفسهم، وأهبطوا عن المنازل التى شيدها، وأزيلوا عن العز الذى كانوا به ظفروا، وعن الملك الذى ادعوا وخيلوا، فطولبوا بالودائع التى استودعوها، وبالعوارى التى استؤمنوها، فجاءهم من الله ما لم

يكونوا احتسبوا، وأوقفوا على مساوىء ما عملوا، ونوقشوا على دقائق ما اقترفوا، وحبسوا فى أضييق الحبوس التى فى الدنيا لغيرهم حبسوا، وشددوا بأشد الذى شددوا، وعوقبوا بأبلغ ما عاقبوا، وبالنار أحرقوا، وبأيديهم وأرجلهم فيها بالأغلال غلّوا، ومن رقوم وضريع طعموا، ومن حميم سقوا، ومن طينة الخبال ثنوا.

أما كانت لك بهؤلاء الماضين عبرة، وبالمأسورين عن أهاليهم عظة عن ادعاء ملك ما خلفوا، وسكنى ما بنوا وعنه أجلوا، إذ كانوا فى بنائهم ذلك جاروا أو ظلموا، فكم من عرض وظهر وخد ورأس حينئذ نالوا وضربوا، وكم من عين مسكين بائس فقير ذليل أبكوا وأدمعوا، وكم من غنى ذى حسب أذلوا وأفقروا، وكم من بدعة وسنة سيئة ورسم شرعوا ورسموا، وكم من قلب حكيم لبيب عليهم كسروا وأغضبوا، وكم من دعاء ونحيب وصوت حزين فى جنح الليل من أرباب القلوب لظلمهم إلى الرحمن رفعوا، شكاية منهم إليه فى كشف ما بهم، إذ هم على الخبير سقطوا، فانتدبت لذلك الملائكة الكرام وإليه بادروا، وإلى الملك العظيم المنصف غير الجائر وصلوا وانتهوا، فنظر العزيز الحكيم العليم بما فى صدورهم، والخبير بما يخفون وما يعلنون فيما شكوا ومنه ضجوا فأجابهم العزيز الجليل «لأنصركم ولو بعد حين».

فجعلهم حصيدا ﴿فهل ترى لهم من باقية﴾ [الحاقة: ٨] فقوم بالغرق، وقوم بالخسف، وقوم بالحصب، وقوم بالقتل، وقوم بالمسخ فى الصور، وقوم بالمسخ بالمعانى بأن جعل قلوبهم قاسية كالحجارة الصماء، فطبع عليها بطابع الكفر، وختمها بخاتم الشرك والرين والغطاء والظلمة، فلم يلج فيها الإسلام ولا الإيمان، ثم أخذهم أخذة رابية، وبطش بهم بطشة الجبار، فأدخلهم دار البوار ﴿كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها﴾ [النساء: ٥٦] فهم أبداً فى نكال وجحيم وطعام ذى غصة وعذاب أليم ﴿خالدين فيها ما دامت السموات والأرض﴾ [مرد: ١٠٧] لا يموتون فيها ومنها لا يخرجون، لا غاية لويلهم ولا منتهى لثبورهم، ولهم فيها معيشة ضنك، لا يتخلص إليهم روح ولا يخرج منهم نفس ولا روح، انقطعت آمالهم وأصواتهم، وتشتت قلوبهم فى حلوقهم، وخرست ألسنتهم، وقيل لهم: ﴿احسثوا فيها ولا تكلمون﴾ [المؤمنون: ١٠٨].

فاحذر يا مسكين أن تفعل بأفعالهم، أو تستن بسنتهم، فتقفو آثارهم، فتموت من غير توبة، وتؤخذ على غفلة وغرة، من غير أن تمهد لنفسك عذراً، وتعد لك جواباً ومخلصاً، وتقدم بها راداً ومجازاً، فيحل بك من العذاب والنكال ما حل بهم.

(فصل: في شروط التوبة وكيفيةها)

أما شروطها: فثلاثة:

أولها: الندم على ما عمل من المخالفات، وهو قول النبي ﷺ: «الندم توبة»^(١).
وعلاوة صحة الندم: رقة القلب، وغزارة الدمع، ولهذا روى عن النبي ﷺ أنه قال:
«جالسوا التوابين، فإنهم أرق أفئدة»^(٢).

والثاني: ترك الزلات في جميع الحالات والساعات.

والثالث: العزم على ألا يعود إلى مثل ما اقترف من المعاصي والخطيئات، وهو معنى
قول أبي بكر الواسطي حين سئل عن التوبة النصوح فقال: ألا يبقى على صاحبها أثر
من المعصية سرّاً ولا جهراً.

ومن كانت توبته نصوحاً فلا يبالي كيف أمسى وأصبح، فالندم يورث عزماً وقصدًا،
فالعزم ألا يعود إلى مثل ما اقترف من المعاصي لعلمه المستفاد بالندم أن المعاصي حائلة
بينه وبين معبوده وبين محاب الدنيا والآخرة السليمة من التبعات، كما ورد في الخبر «إن
العبد يحرم الرزق الكثير بذنب يصيبه»^(٣).

وفي الخبر الآخر «إن الزنا يورث الفقر»^(٤).

وعن بعض العارفين قال: إذا رأيت التغير والتضييق في المعيشة والتعسر في الرزق
وتشعب الحال، فاعلم أنك تارك لأمر مولاك تابع لهواك، وإذا رأيت الأيدي تسلطت
عليك والألسن وتناولتك الظلمة في النفس والأهل والمال والولد، فاعلم أنك مرتكب
للمناهى ومانع للحقوق ومتجاوز للحدود، ومزق للرسوم.

وإذا رأيت الهموم والغموم والكروب في القلب قد تراكت، فاعلم أنك معترض
على الرب فيما قدر عليك وقضى لك متهم له في وعده، ومشارك به خلقه في أمره،
غير واثق به ولا أنت راض بتدبيره فيك وفي خلقه، فإذا علم التائب هذا بالنظر في
حاله والتفكر فيها ندم على ذلك.

(١) ابن ماجه (٤٢٥٢)، وأحمد (٣٧٦/١)، والبيهقي (١٥٤/١٠).

(٢) الإتحاف (٥٧٤/٨)، والضعيفة (١٠٣).

(٣) أحمد ٢٨٠/٥، والإتحاف ٣٠/٥.

(٤) ابن عدى ٢٤٢٥/٦، والضعيفة (١٤٠).

ومعنى الندم: توجع القلب عند علمه بفوات محبوبه، فتطول حسراته وأحزانه وبكاؤه ونحيبه وانسكاب عبراته، فيعزم على ألا يعود إلى مثل ذلك لما تحقق عنده من العلم بشؤم ذلك، وأنه أضر من السم القاتل والسبع الضار والنار المحرقة والسيوف القاطع «وإن المؤمن لا يلسع من جحر مرتين»^(١) فيهرب ضرورة من المعاصي كما يهرب من هذه المضار والمهالك، ففي المعاصي هلاك كلي، وفي الطاعات بقاء كلي، والسلامة الأبدية سعادة دنيوية وأخروية.

فيا ليت المعاصي لم تخلق ولم تكن، فرب شهوة ساعة أورثت حزناً طويلاً وأعقبت داءً دويماً وأهدمت عمراً طويلاً وأوقعت في النار جيلاً كبيراً.

وأما القصد الثاني الذي ينبعث منه، وهو إرادة التدارك، فله تعلق بالحال، وهو موجب ترك كل محظور وهو ملابس له ومداوم عليه، وأداء كل فرض هو متوجه عليه في الحال، وله تعلق بالماضي وهو تدارك ما فرط بالمستقبل، وهو المداومة على الطاعة وترك المعصية إلى الموت.

فأما شرط صحته فيما يتعلق بالماضي وهو أن يرد فكره إلى أول يوم بلغ فيه السن والاحتلام، فيفتش عما مضى من عمره سنة سنة وشهراً شهراً ويوماً يوماً وساعة ساعة ونفساً نفساً، فينظر إلى الطاعات ما الذي قصر فيها، وإلى المعاصي ما الذي قارف منها.

أما الطاعات فإن كان ترك صلاة فلم يصلها ألبتة أو صلاها بغير شرائطها وغير أركانها، مثل إن صلاها من غير وضوء، أو مع وضوء مختل من شرط كالنية، أو بعض واجباته كالمضمضة والاستنشاق وغسل الوجه وغير ذلك من الأعضاء، أو صلى في ثوب نجس أو حرير أو غصب أو على أرض مغصوبة فإنه يقضيها جميعاً من حين بلوغه إلى حين توبته، فيشتغل بقضاء الفرائض أولاً، ولا يزال يصلّيها إلى أن يضيق وقت صلاة الحاضرة ثم يصلّي الحاضرة أداء، ثم يشتغل بقضاء الفوائت هكذا إلى أن يأتي على آخرها.

فإذا حضرت الجماعة صلاها مع الجماعة، وينويها قضاء، ثم يصلّي على عادته حتى إذا تضايق وقت التي صلاها مع الإمام صلاها وحده أداء، كل ذلك إنما يفعله احتياطاً

(١) أحمد ١١٥/٢، والبيهقي (٣٩٨٢).

لتحصيل الترتيب في القضاء إذ هو واجب عندنا، فإن نوى مع الإمام أداء جماعة سومح ورخص له في ذلك، ولا يعيدها مرة أخرى والصحيح هو الأول.

فإن كان في عمره الماضي مخطئاً في دينه من الذين قال الله تعالى في حقهم: ﴿وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم﴾ [التوبة: ١٠٢] تارة يغلب عليه الإيمان فيحسن العمل من صلاته وصيامه والتحرز من النجاسات والمحرم في الشرع ويحتاط لدينه، وأخرى تغلبه الشقاوة وتزيين الشيطان فينجز في صلاته ويتساهل في شرائطها وأركانها وواجباتها، فيأتي ببعضها ويترك بعضها، أو يصلي يوماً ويترك أياماً، أو يصلي من صلاة يوم وليلة صلاة أو صلاتين ويترك باقيها، فليجتهد وليتحر في ذلك، فما تيقن أنه أتى بها على التمام والكمال على وجه يسوغ في الشرع لم يقضها ويقضى الباقي، وإن نظر لنفسه وارتكب العزيمة والأشد فقضى الجميع كان ذلك احتياطاً وخيراً قدمه لنفسه، وكفارة وترقيعاً لكل ما فرط من سائر الأوامر يوم القيامة، ودرجات في الجنة إذا مات على التوبة والإسلام والسنة.

وإذا فرغ من قضاء الفرائض ومد الله في أجله، وأمهل في مدته، ووفقه لخدمته، ورضيه لطاعته، وأقامه في أهل محبته، وأنقذه من ضلالاته، وأخرجه من مرافقة الشيطان ومتابعته ومن ركوب الهوى، وملأ نفسه، فأدبره من دنياه، وأقبله على أخراه، فليشتغل حيثئذ بقضاء السنن المؤكدات وما يتعلق بكل صلاة على مما ذكرنا في الفرائض.

ثم بعد ذلك يجتهد في التهجد وصلاة الليل والأوراد التي نشير إليها في آخر الكتاب إن شاء الله تعالى.

وأما الصوم فإن كان تركه في سفر أو مرض أو أفطر عمداً في الحضر أو ترك النية ليلاً عمداً أو سهواً، فليقض ذلك جميعه، وإن شك في ذلك، فليتحر ويجتهد في ذلك فليقض ما غلب على ظنه تركه، ويترك باقيه فلا يقضيه، وإن أخذ بالأحوط فقضى الجميع كان خيراً له، فيحسب من حين بلوغه إلى حين توبته، فإن كان بين ذلك عشر سنين صام عشرة أشهر، وإن كان اثنتي عشرة سنة صام سنة عن كل سنة شهراً وهو شهر رمضان.

وأما الزكاة فيحسب جميع ماله وعدد السنين من أول تمام ملكه لا من زمان بلوغه وعقله، إذ الزكاة واجبة على الصبى والمجنون عندنا، فيخرجها ويدفعها إلى مستحقها من الفقراء والمساكين وغيرهم، فإن كان قد أدى في بعض السنين وتوانى في بعض حسب ذلك، وأدى المتروك وترك المؤدى على ما تقدم فى الصوم والصلاة.

وأما الحج فإن كان قد تم شروطه فى حقه فوجب عليه السعى فيه والقصد إليه، فتوانى وفرط حتى افتقر واختلت الشرائط فى حقه برهة من الزمان ثم قدر، فعليه الخروج والقصد إليه، وإن لم يجد المال وكان له قدرة على الخروج ببذنه مع الإفلاس فعليه الخروج، فإن لم يقدر إلا بمال فعليه أن يكتسب من الحلال قدر الزاد والراحلة، فإن لم يقدر على الكسب فليسال الناس ليدفعوا إليه من زكاتهم وصدقاتهم ليحج، لأن الحج من السبيل عندنا، وهو واحد من الأصناف الثمانية، وهو قوله عز وجل: ﴿وفى سبيل الله﴾ [التوبة: ٦٠] فإن مات قبل ذلك مات عاصياً أثماً، لأنه فرط فى أداء الحج.

وهو عندنا على الفور، قال النبى ﷺ: «من وجد راداً وراحلة تبلغه البيت فلم يحج فلا عليه أن يموت يهودياً أو نصرانياً أو على أى ملة»^(١)، وفى لفظ آخر «من مات ولم يحج فليمت إن شاء يهودياً وإن شاء نصرانياً».

وإن كان عليه كفارات ونذور فعليه الخروج منها والاحتياط فيها والتحرز على ما ذكرنا.

وأما المعاصى فينبغى أن يفتش من أول بلوغه عن سمعه وبصره ولسانه ويده ورجله وفرجه وجميع جوارحه، ثم ينظر فى جميع أيامه وساعاته، ويفصل عند نفسه ديوان معاصيه، حتى يطلع على جميعها صغائرها وكبائرها، ويتذكرها جميعها برؤية قرنائته الذين كانوا معه فيها وشاركوه فى اقترافها، والبقاع التى قارف عليها، والمنازل التى تستر فيها عن الأعين فى زعمه، وغفل عن الأعين التى لا تنام ولا تغمض طرفة عين عنه ﴿كراماً كاتبين﴾ يعلمون ما تفعلون ﴿[الانفطار: ١١ - ١٢]، ﴿ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد﴾ [ق: ١٨] غفل عن هؤلاء الكرام الحفظة ﴿له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله﴾ [الرعد: ١١] ويحسون عليه أفعاله وأنفاسه، وغفل عن عالم السر وأخفى العليم بذات الصدور، والخبير بما يخفون وما يعلنون، ثم ينظر فى ذلك، فإن

(١) البيهقى ٤/ ٣٣٠، والطبرى ٤/ ١٢.

كانت المعاصي تتعلق بحق الله وهى بينه وبينه لا تتعلق بمظالم العباد كالزنا وشرب الخمر وسماع الملاحى، وكالنظر إلى غير محرم، والقعود فى المسجد وهو جنب، ومس المصحف بغير وضوء، واعتقاد وبدعة، فتوبته عنها بالندم والتحسر والاعتذار إلى الله عز وجل عنها ويحسب مقدارها من حيث الكثرة ومن حيث المدة، ويطلب لكل معصية عنها حسنة تناسبها، فيأتى من الحسنات بمقدار تلك السيئات أخذًا من قوله تعالى: ﴿إِنْ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: ١١٤]، ومن قول النبى ﷺ: «اتق الله حيثما كنت، واتبع السيئة الحسنة تمحها»^(١) فتكفير كل سيئة بحسنة من جنسها بما تقارب أن تكون كفارة له دون غيره فى التشبيه.

فتكفير شرب الخمر بالتصدق بكل شراب حلال هو أحب إليه وأطيب عنده، وسماع الملاحى بسماع القرآن وأحاديث رسول الله ﷺ، وحكايات الصالحين، وتكفير القعود فى المسجد جنبًا بالاعتكاف فيه مع الاشتغال بالعبادة، وتكفير مس المصحف محدثًا بإكرام المصحف وكثرة قراءة القرآن منه وكثرة تلقيه على الطهارة، والاعتبار بما فيه، والاعتاظ، واحترامه والعمل به، وبأن يكتب مصحفًا ويجعله وقفًا على المسلمين ليقروا فيه.

وأما مظالم العباد، ففيها أيضًا معصية وجناية على حق الله تعالى، فإن الله تعالى نهى عن الظلم للعباد، كما نهى عن الزنا وشرب الخمر والربا، فما يتعلق من ذلك بحق الله تعالى تداركه بالندم والتحسر، وترك مثله فى ثانى الحال، والإتيان بالحسنات لتكفر عنه، فتكفير إيدائه للناس بالإحسان إليهم والدعاء لهم، فإن كان المؤذى ميتًا فبالترحم عليه والإحسان إلى ولده وورثته إذا كانت الأذى باللسان أو الضرب، وتكفير غصب أموالهم فى حق الله تعالى بالتصدق بما يملكه من الحلال.

وإذا كانت الأذى فى الأعراض مثل إن اغتابهم ومشى بينهم بالنميمة وقدرح فيهم، فتكفير ذلك بالثناء عليهم إن كانوا من أهل الدين والسنة وإظهار ما يعرف فيهم من خصال الخير فى أقرانه وأمثاله فى المحافل والمجامع. وتكفير قتل النفوس فى حق الله تعالى بإعتاق الرقاب لأن ذلك إحياء للعبد، لأن العبد كالمفقود المعلوم فيما يرجع إلى نفسه، كما قال الله عز وجل: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾ [النحل: ٧٥] فكليته لمولاه وتصرفاته وحركاته وسكناته، فهو موجود لسيده، إذ جميع ذلك

(١) الترمذى (١٩٨٧)، والدارمى ٣٢٣/٢، وأحمد ١٥٣/٥.

له، ففى إعتقائه إيجاده وإحياؤه. فكأن القاتل أعدم عبداً عابداً لله تعالى وعطل طاعته له، فجنى على حقه، فأمره بإقامة عبد مثله عابد لله تعالى، ولا يتحقق ذلك إلا بعثته عن رق العبودية، فيتصرف فى نفسه لنفسه من غير مانع ولا حاجر، فيقابل الإعدام بالإيجاد، وهذا فى حق الله تعالى.

وأما فى حق العباد فلا يخلو إما أن يكون فى النفوس أو فى الأموال أو الأعراض أو القلوب، وهذا هو الإيذاء المحض.

وأما إذا كانت المظلمة فى النفوس بأن جرى على يده قتل خطأ، فتوبته بتسليم الدية إلى من يستحقها من مناسب، أو مولى أو الإمام، فهى فى عهدة ذلك حتى تصل الدية إليهم، إما من العاقلة، والعاقلة هو القرابة العصبية، أو الإمام.

فإن لم تكن له عاقلة، ولا وجد فى بيت المال شئ سقطت، فإن كان هو قادراً على أدائها ولا عاقلة له، فليس له غير عتق رقبة مؤمنة، فإن تطوع بالدية كان أولى، إذ الدية إنما تجب عندنا على العاقلة، فلا يخاطب بها القاتل وهو الصحيح.

وقيل: إنه يجب عليه أداء الدية فى هذه الحالة إذا لم تكن له عاقلة وله يسار، وهو مذهب الشافعى رحمه الله، لأن الدية تجب ابتداء على القاتل، ثم تتحملها عنه العاقلة على وجه التخفيف عنه والنصرة له، والمواساة له فى الغرامة لما بينهما من التوارث، وقد عدت العاقلة هاهنا، فوجبت عليه، لا سيما وهو فى حالة التوبة والخروج من المظالم والتورع والخلاص عن حقوق الآدميين.

وأما إن كان القتل عمداً فلا يتخلص إلا بالقصاص، وكذلك إن كان دون النفس فى محل يمكن الاقتصاص منه، فإن كان فى النفس، فالكلام مع الوارث، وإن كان فيما دون النفس فمع المجنى عليه، فإن طابت النفوس بإسقاط ذلك والعفو عنه سقط، وإن طلبوا العفو على مال بذله وتبرأ عن عهده.

فإن قتل قتيلاً ولم يعرف أنه هو القاتل كان عليه أن يعترف عند ولى الدم، ويحكمه فى روحه، فإن شاء عفا عنه، وإن شاء قتله أو أخذ المال عليه، ولا يجوز له إخفاؤه لأنه لا يسقط بمجرد التوبة، فإن قتل جماعة فى أوقات مختلفة ومحال متعددة، وقد تقادم الزمان، ولا يعرف أولياءهم ولا عدد من قتلهم، أحسن توبته وعمله، وأقام على نفسه حد الله بأنواع المجاهدات والتعذيب لها، والعفو عن ظلمه وآذاه، وأعتق

الرقاب، وتصدق بمال، وأكثر النوافل، ليفرق ثواب ذلك عليهم على قدر حقوقهم يوم القيامة، فينجو هو، ويدخل الجنة برحمة الله تعالى التي وسعت كل شيء وهو أرحم الراحمين.

ولا فائدة إذ ذاك في التحدث بما جرى عليه من أنواع القتل والجراحات وقطع الطريق، إذ لا يعثر بأربابها ومستحقيها ليوفيهم أو يستحل منهم، بل يشتغل بما ذكرناه. وكذلك إن زنا أو شرب أو سرق، ولا يعرف مالکها، أو قطع الطريق ولا يعرف المقطوع عليه، أو باشر امرأة دون الفرج مما يجب فيه حد الله أو التعزير، فإنه لا يلزمه في صحة التوبة أن يفصح ويهتك ستره، ويلتمس من الإمام أو الحاكم إقامة الحدود عليه، بل يستتر بستر الله تعالى، ويتوب إلى الله عز وجل فيما بينه وبين الله، ويستغل بأنواع المجاهدات من صيام النهار، والتقليل من المباح واللذات، وقيام الليل، وقراءة القرآن، وكثرة التسييح والتورع، وغير ذلك، قال النبي ﷺ: «من أتى بشيء من هذه القاذورات فليستتر بستر الله تعالى عليه، ولا يبدى لنا صفحته، فإن من أبدى لنا صفحته أقمنا عليه حدود الله»^(١).

فإن خالف ما قلناه، ورفع أمره إلى الوالى فأقام عليه الحد وقع موقعه وصحت توبته، وتكون مقبولة عند الله، وبريء من عهدة دينه، وتطهر من إثمه ولطخه.

وأما الأموال، فإن كان تناول مال إنسان بغصب أو سرقة أو قطع طريق أو خيانة في عين من وديعة أو عارية أو معاملة بنوع تلبيس، كترويج رائف أو ستر عيب في المبيع، أو نقص أجرة أجير، أو منع أجرته جملة فكل ذلك عليه أن يفتش عنه لا من مدة بلوغه، بل من مدة وجود ذلك بعد بلوغه وعقله وتمييزه، أو قبل بلوغه وهو في حجر وليه ووصيه، واختلط ماله بماله، وتهاون الولي في ذلك، ولم يبال به بأن كان ظالماً مجازقاً في دينه فاختلط ذلك الحرام بمال الصبي تارة من فعل الصبي، وأخرى من ظلم الوصى وجب على الصبي التائب بعد بلوغه تفتيش ذلك، ورد كل حق إلى أهله، وتصفية ماله من تلك الشبهات والحرام، فليحاسب نفسه على الحبات والذرات من أول يوم جنائته إلى يوم توبته، قبل أن يأتيه الموت على غفلة من غير حساب، وتقوم عليه القيامة على غرة من غير تحصيل ثواب وتهذيب كتاب فيسأل فلا يسمع جواباً، ويندم

(١) المغنى عن حمل الأسفار ٣/ ١٣٥.

فلا ينفعه الندم، ويستعجب فلا يعتب، ويعتذر فلا يعذر، ويستمهل فلا يمهل، ويستشفع فلا يشفع له إذا كان مفرطاً فى حال حياته، ومجازقاً فى حال يقظته وفطنته، متبصراً فى أمور معاشه، حريصاً فى تحصيل شهواته ولذاته، متابعاً لهواه ولشيطانه، معرضاً عن طاعة ربه وجنابه، متبطلاً عن إجابته، متسارعاً فى معصيته وخلافه، فلذلك طال فى القيامة حسابه، وعظم ويله ونحيبه، وانقطع ظهره، ونكس رأسه، واشتد خجله وحيأوه، وانقطعت حجته وبرهانه، وأخذت حسناته، وتضاعفت سيئاته، وخسرت صفقته وظهر إفلاسه، واشتد عليه غضب ربه وأخذه، وأخذته الزبانية إلى ما مهد لنفسه من عذاب ربه وأربقها فأرداها، فساوى من فى النار من قارون وفرعون وهامان، إذ مظالم العباد لا تسامح فيها، ولا ترك، وفى الأثر «إن العبد ليقف بين يدى الله تعالى وله من الحسنات أمثال الجبال، لو سلمت له لكان من أهل الجنان، فيقوم أصحاب المظالم فيكون قد سب عرض هذا وأخذ مال هذا، وضرب هذا، فتقتص حسناته فلا يبقى له شيء، فتقول الملائكة: يا رب فنيث حسناته وبقي طالبون كثيرون، فيقول: ألقوا من سيئاتهم إلى سيئاته، وصكوا له صكاً إلى النار، فيهلك هو بسيئة غيره بطريق القصاص»^(١).

فكذلك ينجو المظلوم بحسنة الظالم، إذ ينقل إليه عوضاً مما ظلمه.

وروت عائشة رضى الله عنها عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الدواوين ثلاثة: ديوان يغفره الله، وديوان لا يغفره الله، وديوان لا يترك منه شيء.

فأما الديوان الذى لا يغفره الله تعالى، فالشرك بالله جل جلاله، قال الله عز وجل: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾ [المائدة: ٧٢].

وأما الديوان الذى يغفره الله فظلم العبد نفسه فيما بينه وبين ربه.

وأما الديوان الذى لا يترك منه شيء، فظلم العباد بعضهم بعضاً»^(٢).

وعن أبى هريرة رضى الله عنه [عن النبى ﷺ] أنه قال: «اتدرون من المفلس من أمتى يوم القيامة قالوا: يا رسول الله، المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع له، قال النبى ﷺ: المفلس من أمتى من يأتى يوم القيامة بصلاته وصيامه، وقد شتم هذا،

(١) الإتحاف ٨/ ٥٦٢.

(٢) أحمد ٦/ ٢٤٠، والصحيحه (١٩٢٧).

وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيقاص هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإذا فنيت حسناته أخذ من خطاياهم فطرحته عليه، ثم طرح في النار»^(١) فينبغي للمذنب أن يبادر إلى التوبة.

وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبي أنه قال: «هلك المسوفون؛ يقول سوف نتوب»^(٢).

وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما في قوله عز وجل: ﴿بَلْ يَرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ﴾ [القيامة: ٥] يعنى يقدم ذنوبه ويؤخر توبته، ويقول: سأتوب حتى يأتى الموت، وهو على شر ما كان عليه فيموت عليه.

وقال لقمان الحكيم لابنه: يا بني لا تؤخر التوبة إلى غد، فإن الموت يأتيك بغتة، فالواجب على كل أحد أن يتوب حين يصبح وحين يمسى.

قال مجاهد رحمه الله: من لم يتب إذا أصبح وأمسى فهو من الظالمين.

فالتوبة على وجهين:

أحدهما: فى حق العباد، وقد ذكرناها.

والثانى: بينك وبين الله تعالى فتكون بالاستغفار باللسان والندم بالقلب والإضرار على ألا يعود على ما أشرنا إليه من قبل.

فليجتهد هذا التائب من الظلم، ويبدل جهده فى تكثير الحسنات حتى يقتص منه يوم القيامة، فتؤخذ حسناته وتوضع فى موازين أرباب المظالم، ولتكن كثرة حسناته بقدر كثرة مظالمه للعباد وإلا هلك بسيئات غيره، وهذا يوجب استغراق جميع العمر فى الحسنات لو طال عمره بحسب مدة الظلم، فكيف والموت على الرصد، وربما يكون الأجل قريباً فتخترمه المنية قبل بلوغ الأمنية، وقبل إخلاص العمل، وتصحيح النية وتصفية اللقمة، فليبادر إلى ذلك، وليبدل الاجتهاد فيكتب جميع ذلك، وأسأى أصحاب المظالم واحداً واحداً، وليطف نواحي العالم وأطراف البلاد وأقطارها يطلبهم ليستحلهم وليؤد حقوقهم، فإن لم يجدهم فإلى ورثتهم، وهو مع ذلك خائف من عذاب الله، راج لرحمته تائب مقلع عن جميع ما يكره مولاه، مشمر فى طاعته

(١) مسلم فى البر والصلة: حديث (٥٩)، والترمذى (٢٤١٨)، والبيهقى ٩٣/٦.

(٢) الحاكم ٥٠٩/٢.

ومرضاته، فإن أدركته منيته وهو على ذلك فقد وقع أجره على الله، قال الله عز وجل: ﴿ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله﴾ [النساء: ١٠٠].

وقد جاء في الصحيحين المتفق عليه، عن أبي سعيد الخدري رضى الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفساً، فسأل عن أعلم أهل الأرض، فدل على راهب، فأتاه فقال له: أنه قد قتل تسعة وتسعين نفساً، فهل له من توبة؟ فقال: لا، فقتله، فأكمل به مائة، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض؟ فدل على رجل عالم، فأتاه فقال له: أنه قد قتل مائة نفس فهل له من توبة؟ قال: نعم، ومن يحول بينك وبين التوبة، انطلق إلى أرض كذا وكذا، فإن بها ناساً يعبدون الله، فاعبد الله معهم ولا ترجع إلى أرضك، فإنها أرض سوء، فانطلق حتى إذا انتصف الطريق أتاه الموت، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فقالت ملائكة الرحمة: جاء تائباً مقبلاً على الله، وقالت ملائكة العذاب: إنه لم يعمل خيراً قط، فأتاهم ملك في صورة آدمي، فجعلوه بينهم حكماً، فقال: قيسوا ما بين الأرضين إلى أيهما كان له أدنى فهو له، ففاسوا، فوجدوه كان أدنى إلى الأرض التي أراد، فقبضته ملائكة الرحمة.

وفى رواية: فكان إلى القرية الصالحة أقرب بشبر، فجعل من أهلها، وفى رواية: فأوحى الله عز وجل إلى هذه: أن تباعدى، وإلى هذه أن تقاربى وقال: قيسوا ما بينهما. فوجدوه إلى هذه أقرب بشبر، فغفر له»^(١).

فهذا دليل واضح على أن قصده إلى التوبة وسعيه إليها، ونيتة لها نافع، ودليل على أنه لا خلاص إلا برجحان ميزان الحسنات ولو بمشقال ذرة، فلا بد للتائب من تكثير الحسنات والنوافل ليرضى بها الخصوم يوم القيامة، وترقع بها الفرائض، كما قال النبي ﷺ: «أكثرُوا من النوافل ترقع بها الفرائض» أو كما قال.

ويعقد أيضاً مع الله تعالى عقداً صحيحاً مؤكداً، وعهداً وثيقاً ألا يعود إلى تلك الذنوب، ولا إلى أمثالها أبداً، ويستعين على ذلك بالعزلة والصمت وقلة الأكل وقلة النوم، وإحراز قوت حلال، والتورع عن الحرام والشبهة، إما بكسب أو بضاعة فى يده من إرث، أو سبب حلال، فإن كان فيما ورثه شبهة أو حرام أخرجه ولم يأكل منه ولم

(١) البخارى فى: الأنبياء: ب (٥٤)، ومسلم فى: التوبة: حديث (٤٧).

يتلبس بشيء منه، فإن رأس المعاصي الحرام، وملاك الدين الحلال والتورع، وتصفية اللقمة، فكل ما ينشأ من الإنسان من خير وشر فمن اللقمة، فالحلال يورث الخير، والحرام يورث الشر، كالقدر إذا طبخ ما فيها واستكمل نضجه تبين الرائحة الفاتحة عما فيها، كل إناء ينضح بما فيه، ويكثر مجالسة الفقهاء والعلماء بالله، ليستفيد منهم أمر دينه، ويعرفونه سلوك الطريق إلى الله تعالى، وحسن الأدب في طاعته، والقيام في أمره، وينبهونه على ما خفى عليه من أمر السلوك في طريقه، فلا بد لكل من سلك طريقاً لم يعرفه من دليل يده، ومرشد يرشده، وهاد يهديه، وقائد يقوده، ويستعمل الصدق في جميع ذلك، والإخلاص والجد في المجاهدة، قال الله تعالى: ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا﴾ [العنكبوت: ٦٩] فقد ضمن للمجد الصادق في المجاهدة في طريقه الهداية فإذا صدق في ذلك لا يعدم الهداية، لأن الله لا يخلف الميعاد، وليس بظلام للعبيد، وهو أرحم الراحمين، رؤوف رحيم، لطيف بخلقه، بار ببريته، معين وموفق للمقبلين عليه، وداع للمدبرين المولين عنه بالطف الدعاء، يفرح بتوبتهم كالوالدة الشفيقة إذا قدم ولدها من سفره البعيد.

قال النبي ﷺ: «لله أفرح بتوبة أحدكم من رجل مر بأرض دوية مهلكة ومعه راحلة عليها طعامه وشرابه وما يصلحه، فأضلها، فخرج في طلبها حتى كادت نفسه تخرج، فقال: أرجع إلى المكان الذي أضللتها فيه، فأموت فيه، فرجع إلى مكانه، فغلبته عينه، فغمضها لحظة، فاستيقظ فإذا راحلته عند رأسه عليها طعامه وشرابه»^(١).

قال على كرم الله وجهه: سمعت أبا بكر الصديق رضي الله عنه، وهو الصادق المصدوق قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من عبد أذنب ذنباً فقام وتوضأ وصلى واستغفر الله من ذنبه، إلا كان حقاً على الله أن يغفر له»^(٢) لأنه يقول جل وعلا: ﴿ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً﴾ [النساء: ١١٠].

وأما الأموال الحاضرة المصوبة، فليرد إلى المالك ما يعرف له مالكا معيئاً أو إلى ورثته على ما تقدم، وما لا يعرف له مالكا معيئاً فعليه أن يتصدق به عن صاحبه، فإن اختلط الحرام بالحلال، مثل اختلاط المصوب بالإرث الحلال، حسب واجتهد في معرفة

(١) الترمذی (٢٤٩٨)، وأحمد ١/٣٨٣.

(٢) الإتحاف ٨/٦٠٣، والكنز (١٠٢٧٧).

مقدار الحرام وتصدق بذلك المقدار، وترك الباقي له ولعياله.

وأما الأعراض فهو سب الناس وشتهم مشافهة، وهو الجناية على القلوب، وكذلك غيبتهم، وذكرهم بالقبيح، وما يسوءهم من الغيبة، وهو كل كلام لا يحسن أن يقال له فى وجهه فإذا قاله فى غيبة منه، كان قد اغتابه، فكفارته أن يذكر له ذلك ويستحله، فإن كانوا جماعة فواحدًا واحدًا، ومن مات منهم قبل ذلك، فتدارك ذلك بتكثير الحسنات على ما ذكرنا.

كل ذلك إذا بلغتهم الغيبة، وأما إذا لم تبلغهم فلا يجب عليه استحلالهم، بل لا يجوز، لأن فيه إيصال الألم إلى قلوبهم، بل يأتى الذين اغتابهم عندهم فيكذب نفسه عندهم، ويشنى على المغتابين.

(فصل) ولا بد أن يعرفه قدر جنايته، ويعرض له فى سائر المظالم، ولا يكفى فى ذلك الاستحلال المبهم، لجواز أن يكون المظلوم إذا عرف قدر ظلمه على الحقيقة لم تطب نفسه بالإحلال بل يؤخر ذلك ليوم القيامة، ليأخذ بدله من حسناته، أو يحمله من سيئاته، وإن كان من جملة جنايته على الغير ما لو عرفه، وذكره لتأذى بمعرفته، كزناه بجاريته وأهله، أو نسبته باللسان إلى عيب خفى من عيوبه، يعظم أذاه به، فها هنا لا طريق له إلا أن يستحله مبهمًا، ويبقى عليه له مظلمة ما، فيجبرها بالحسنات كما يجبر له مظلمة الميت والغائب، وكل جناية على الغير لم يعلم بها لو ذكر الجانى له ذلك لم تطب نفسه بالإحلال بسرعة، أو لا يأمن المجنى عليه مقابلته بها فحق الجانى فى ذلك وطريقه أن يتلطف له، ويسعى فى مهماته وأغراضه ويظهر من حبه والشفقة عليه ما يستميل به قلبه، فإن الإنسان عبد الإحسان، وكل من نفر بسيئة مال ورجع بحسنة، فإن تعذر ذلك عليه، فالكفارة بتكثير الحسنات، ليسجى بها فى يوم القيامة جنايته، فإن الله تعالى يحكم به عليه، ويلزمه قبول حسناته مقابلة لجنايته عليه إذا امتنع من القبول، كمن أتلف فى الدنيا مالاً، فجاء بمثله، فامتنع من له الحق عن قبول ذلك، وإبرائه عن ذلك، فإن الحاكم يحكم عليه بالقبض، شاء أم أبى، كذلك الله عز وجل يحكم بذلك فى عرصات القيامة، وهو أحكم الحاكمين، وأعدل العادلين.

(فصل) فإذا تخلص من مظالم العباد، وتفرغ لعبادة الله تعالى فى خاصته، سلك طريق الورع، لأن به يتخلص العبد فى الدنيا والآخرة من العباد، ومن عذاب الله عز

وجل، وبه يخفف عنه الحساب يوم القيامة، فإن الحساب يوم القيامة لحقوق العباد والمعاملات التي جرت في الدنيا بين الأنام على غير وجه الشرع.

وأما من حاسب نفسه في الدنيا، وأخذ من الخلق ما يستحقه، وأعرض عما ليس له، وخاف من طول الحساب في يوم القيامة، فعلى أى شيء يحاسب، وفي الخبر «إن الله تعالى يستحي أن يحاسب الورعين في يوم القيامة».

ولهذا قال النبي ﷺ: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنها قبل أن توزنوا».

وقال ﷺ: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»^(١).

وهذا إشارة إلى التوقف في كل شيء، وترك الإقدام عليه إلا بإذن الشرع، فإن وجد في الشرع مساعاً لتناوله والشروع فيه فعل، وإلا وقف عنه ومال إلى غيره، وإليه أشار رسول الله ﷺ حيث قال: «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك»^(٢).

وقال ﷺ: «المؤمن وقاف، والمنافق لقاف».

وفي موضع آخر: «المؤمن فتاش».

وقال ﷺ: «لو صليتم حتى تكونوا كالحنايا، وصمتتم حتى تكونوا كالأوتار فما ينفعكم إلا الورع الشافى».

وقال ﷺ: «من لم يبال من أين مطعمه ومشربه لم يبال الله تعالى من أى باب من النار يدخله»^(٣).

عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أيها الناس إن أحدكم لن يموت حتى يستكمل رزقه فلا تستبقوا الرزق، واتقوا الله وأجملوا في الطلب، وخذوا ما حل لكم، وذروا ما حرم عليكم»^(٤).

وعن ابن مسعود رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا يكتسب العبد مالا من الحرام ويتصدق به فيؤجر عليه، ولا ينفق منه شيئاً فيبارك له فيه، ولا يتركه خلف ظهره إلا كان زاده إلى النار»^(٥).

(١) أحمد ٢٠ / ١.

(٢) أحمد ٢٠ / ١، ١١٢ / ٣، والترمذي (٢٥١٨)، والنسائي في: الأشربة: ب (٤٨).

(٣) الإتحاف ٨ / ٦.

(٤) الحاكم ٣٢٥ / ٤.

(٥) الكنز (٩٢٨٠).

وقال عليه السلام: «إن الله لا يمحو الشر بالشر، ولكن يمحو الشر بالخير».

وعن عمران بن الحصين رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إن الله تعالى يقول: عبدى أد ما افترضت عليك تكن من أعبد الناس، وائته عما نهيتك عنه تكن من أروع الناس، واقنع بما رزقتك تكن من أغنى الناس»^(١).

وقال عليه السلام لأبى هريرة رضى الله عنه: «كن ورعاً تكن من أعبد الناس»^(٢).

وقال الحسن البصرى رحمه الله: «مثقال ذرة من الورع خير من ألف مثقال من الصوم والصلاة».

وأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام: لا يتقرب إلى المتقربون بمثل الورع. وقيل: رد دائق من فضة أفضل عند الله من ستمائة حجة مبرورة، وقيل: سبعين حجة متقبلة.

وقال أبو هريرة رضى الله عنه: جلساء الله تعالى غداً أهل الورع والزهد.

وقال ابن المبارك رحمه الله: ترك فلس من الحرام أفضل من مائة فلس يتصدق به.

روى عن ابن المبارك أنه كان بالشام يكتب الحديث، فانكسر قلمه فاستعار قلماً، فلما فرغ من الكتابة نسى، فجعل القلم فى مقلته، فلما رجع إلى مرو، رأى القلم وعرفه، فتجهز للقدوم إلى الشام لرد القلم إلى صاحبه.

وعن النعمان بن بشير رضى الله عنه أنه كان يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «الحلال بين والحرام بين، وبينهما أمور مشبهات لا يعلمها كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه، ومن لم يتنق الشبهات وقع فى الحرام، كالراعى يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه، وإن لكل ملك حمى ألا وإن حمى الله محارمه، ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها الجسد كله، وإذا فسدت فسد لها الجسد كله، ألا وهى القلب»^(٣).

وعن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال: لكل شىء حد، وحدود الإسلام: الورع والتواضع والصبر والشكر، فالورع ملاك الأمور، والصبر النجاة من النار،

(١) بنحوه: أحمد ٣٨٧/١، والبغوى ٢٨٨/١، والدر المنثور ٣٤٧/١.

(٢) جامع المسانيد ٦٩٤/٢، وابن ماجه (٤٢١٧)، والصحيحه (٩٣٠).

(٣) مسلم فى: المساقاة: (١٠٨)، والبخارى ٣٠/٧، والترمذى (١٢٠٥).

والشكر الفوز بالجنة .

ودخل الحسن البصري رحمه الله مكة ، فرأى غلاماً من أولاد علي بن أبي طالب رضى الله عنه قد أسند ظهره إلى الكعبة يعظ الناس فوقف عليه الحسن وقال له : ما ملاك الدين؟ فقال : الورع ، فقال : ما آفة الدين؟ قال : الطمع ، فتعجب الحسن منه .

وقال إبراهيم بن أدهم رحمه الله : الورع ورعان ، ورع فرض ، وورع حذر ، فورع الفرض : الكف عن كل معاصي الله ، وورع الحذر : الكف عن الشبهات في محارم الله تعالى .

فورع العام من الحرام والشبهة ، وهو كل ما كان للخلق عليه تبعة ، وللشرع فيه مطالبة ، وورع الخاص من كل ما كان فيه السهوى وللنفس فيه شهوة ولذة ، وورع خاص الخاص من كل ما كان لهم فيه إرادة ورؤية .

فالعام يتورع في ترك الدنيا ، والخاص يتورع في ترك الجنة العليا ، وخاص الخاص يتورع في ترك ما سوى الذي خلق وبرأ .

قال يحيى بن معاذ الرازي رحمه الله : الورع على وجهين ، ورع في الظاهر وهو ألا تتحرك إلا لله ، وورع في الباطن ، وهو ألا يدخل في قلبك سواء تبارك وتعالى .

وقال يحيى رحمه الله أيضاً : من لم ينظر في دقيق من الورع لم يحصل له شيء ولم يصل إلى الجليل من العطاء .

وقيل : من دق في الورع نظره جل في القيامة خطره .

وقيل : الورع في المنطق أشد منه في الذهب والفضة ، والزهد في الرياسة أشد منه في الذهب والفضة ، لأنك تبذلها في طلب الرياسة .

وقال أبو سليمان الداراني رحمه الله : الورع أول الزهد ، كما أن القناعة طرف الرضا .

وقال أبو عثمان رحمه الله : ثواب الورع خفة الحساب .

وقال يحيى بن معاذ الرازي رحمه الله : الورع الوقوف على حد العلم من غير تأويل .

وقال ابن الجلاء رحمه الله : من لم يصحبه الورع في فقره أكل الحرام النص .

وقال يونس بن عبيد الله رحمه الله : الورع الخروج من كل شبهة ، ومحاسبة النفس

مع كل طرفة .

وقال سفيان الثوري رحمه الله : ما رأيت أسهل من الورع ، كل ما حاك في نفسك تركته ، وهو قول النبي ﷺ : «الإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس»^(١) وهو إذا لم ينشرح الصدر به وكان في قلبك منه شيء ، وكذلك قوله ﷺ : «الإثم حزاز القلوب»^(٢) يعني ما حز في صدرك وحاك ولم يطمئن عليه القلب فاجتنبه ، ومنه الحديث «إياكم والحكاكات فإنها المآثم» وقوله ﷺ : «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك»^(٣) .

وقال معروف الكرخي رحمه الله : احفظ لسانك من المدح كما تحفظه من الذم .

وقال بشر بن الحارث رحمه الله : أشد الأعمال ثلاثة : الجود في القلة ، والورع في الخلوة ، وكلمة حق عند من يخاف ويرجى .

وقيل : جاءت أخت بشر بن الحارث الحافى إلى الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله وقالت : يا إمام إننا نغزل على سطوحنا فتمر بنا مشاعل الظاهرية ويقع الشعاع علينا ، فيجوز لنا الغزل في شعاعها؟ فقال : من أنت عافاك الله؟ قالت : أنا أخت بشر بن الحارث ، فبكى الإمام أحمد رحمه الله وقال : من بيتكم يخرج الورع الصادق ، لا تغزلي في شعاعها .

وقال علي العطار رحمه الله : مررت بالبصرة في بعض الشوارع وإذا مشايخ قعود وصبيان يلعبون ، فقلت : ألا تستحيون من هؤلاء المشايخ؟ فقال صبي من بينهم : هؤلاء المشايخ قل ورعهم فقلت هيبتهم .

وقيل : إن مالك بن دينار رحمه الله مكث بالبصرة أربعين سنة ، فلم يصح له أن يأكل من تمر البصرة ولا رطبها حتى مات ولم يذقه ، وكان إذا انقضى وقت الرطب قال : يا أهل البصرة هذا بطني ما نقص منه شيء ولا زاد فيكم شيئاً .

وقيل لإبراهيم بن أدهم رحمه الله : ألا تشرب من ماء زمزم؟ فقال : لو كان لي دلو لشربت .

وقيل : كان الحارث المحاسبى رحمه الله إذا مد بصره إلى طعام فيه شبهة ضرب على

(١) مسلم في: البر والصلة: حديث (١٤، ١٥)، وأحمد ١٨٢/٤ .

(٢) الإنحاف ١/١٥٩ ، والعراقي ١/١٩ .

(٣) سبق تخريجه .

رأس أصبعه عرق، فيعلم أنه غير حلال.

وقيل: إن بشراً الحافى رحمه الله كان إذا قدم بين يديه طعام فيه شبهة لا تمتد إليه يده.

وقيل: إن أم أبى يزيد البسطامي رحمه الله كانت إذا مدت يدها إلى طعام فيه شبهة تباعد حال كونها حبلى بأبى يزيد فلم تمد يدها إليه.

وكان بعضهم إذا قدم إليه طعام فيه شبهة فاحت منه رائحة منكرة، فعلم من ذلك فامتنع من أكله.

وقيل عن بعضهم: أنه كان إذا وضع في فيه لقمة من طعام فيه شبهة لم يمتضغ فتصير كالرمل في فمه.

وإنما فعل الله تعالى لهم ذلك تخفيفاً ورحمة وشفقة وحمية لهم، لما صفوا اللقم واجتهدوا في طلب الحلال وترك الحرام والشبهة، حماهم الله تعالى عما يكرهونه من المطاعم، فذب عنهم في معرفة ذلك، وكفاهم مؤنة التفتيش والتنقير عن بائع الطعام وكسبه ومعيشتة، وعن الثمن الذى اشترى به وأصله وتحصيله من وجه الحلال.

فجعل ذلك علامة عندهم في أى وقت رأوها كفوا أيديهم عن تناول الطعام، وإذا لم يروها تناولوه، هذا في حق هؤلاء السادة الكرام الذين سبقت لهم العناية وعمتهم الرعاية.

وأما الحلال في حق العوام من المؤمنين، فكل ما لا يكون للخلق فيه تبعة ولا للشرع عليه مطالبة، كما قال سهل بن عبد الله التستري رحمه الله حين سئل عن الحلال قال: الحلال هو الذى لا يعصى الله فيه، وقال مرة أخرى: الحلال الصافى الذى لا ينسى الله فيه.

فالحلال حلال حكم لا حلال عين، إذ لو كان حلال عين لم يحل لأحد أكل الميتة، ولا إذا اشترى الشرطى بماله الحرام طعاماً حلالاً، ثم رجع فاستقال البيع فرجع الطعام إلى يد مالكة الأول ألا يجوز أكله للمتورع المؤمن، لأنه قد تخلل بينهما حالة يحرم أكله فيها، وهو حصوله في يد الشرطى.

فلما اتفق المسلمون على جواز أكل هذا الطعام الذى حصل في ملك الشرطى المشتري بماله الحرام الذى يحرم أكله عند جميع المسلمين علم أن الحلال والحرام ما كان

الشرع حكم به لا نفس العين لأن ذلك طعام الأنبياء كما جاء في الحديث «أن النبي ﷺ سمع رجلاً يقول: اللهم ارزقني الحلال المطلق، فقال له النبي ﷺ: ذلك رزق الأنبياء، سل الله رزقاً لا يعذبك عليه».

وكذلك في الشرع من اتجر من أهل الذمة واليهود والنصارى والمجوس في المحرمات من الخمر والخنزير ولغيرهم بيعها وأخذنا منهم العشر من أثمانها، وروى ذلك عن عمر ابن الخطاب رضى الله عنه، فقال: ولوهم بيعها، وخذوا العشر من أثمانها. فإذا أخذ العشر منهم فما يصنع به، أليس ينتفع به المسلمون؟ فلو كان الحلال حلال العين لما جاز أخذ ذلك، لأن الخمر والخنزير وثمرتهما حرام، فأحل ذلك لدخول اليد والعقد، كما قيل بين الحلال والحرام يد.

فمن أخذ الشرع في يده مصباحاً فأخذ به وأعطى به ولم يتأول فيه ولم يخرج عنه، فأخذ ما أذن له الشرع وأعطى ما أذن له الشرع فيه، وصار جميع تصرفاته بالشرع أكل الحلال بالشرع، وليس عليه طلب الحلال المطلق والعين، إذ ذاك لا يكاد يدرك إلا أن يشاء الله أن يكرم به بعض أوليائه وأصفياه **﴿وما ذلك على الله بعزيز﴾** [إبراهيم: ٢٠، وفاطر: ١٧].

فالناس في الطعام على ثلاثة أضرب، متق، وولى، وبدل عارف، فحلال المتقى ما ليس للخلق عليه تبعة، ولا للشرع عليه مطالبة. وطعام الولي المحق الذى هو الزاهد الزائل الهوى ما ليس فيه الهوى، بل هو مجرد بأمره.

وطعام البدل الذى هو العارف المفعول فيه زائل الإرادة كرة القدر، وهو ما لم تكن فيه همة ولا إرادة بل فضل كله من الله عز وجل، يرزقه ويدلله ويربيه بقدرته الشاملة ومنته العامة ومشيتته النافذة، كالطفل الرضيع فى حجر أمه الشفيقة.

فما لم يتحقق له المقام الأول لا يصل إلى المقام الثانى، وما لم يتحقق له المقام الثانى لا يصل إلى المقام الثالث.

فطعام التقى شبهة فى حق زائل الهوى، وطعام زائل الهوى شبهة فى حق زائل الإرادة والهمة، كما قيل: سيئات المقربين حسنات الأبرار.

فطعام الشيخ مباح للمريد، وطعام المريد حرام فى حق الشيخ لصفاء حالته ونزاهة

رتبته وعلو منزلته وقرينه من ربه عز وجل .

ومن دقائق الورع ما نقل عن كهمس رحمه الله أنه قال: أذنبت ذنباً وأنا أبكي عليه منذ أربعين سنة، وذلك أنه زارني أخ لي فاشتريت بدائق سمكة مشوية، فلما فرغ من أكلها أخذت قطعة من طين من جدار جار لي حتى غسل يده ولم استحله .

وقيل: إن رجلاً كان في بيت بكراء، فكتب رقعة وأراد أن يتربها من جدار البيت، فخطر بباله أن البيت بالكراء، ثم إنه خطر بباله ألا خطر لهذا، فترب الكتاب فسمع هاتفاً يقول: سيعلم المستخف بالتراب ما يلقي غداً من طول الحساب .

وروى عتبة الغلام يتصبب عرقاً في الشتاء فليل له في ذلك؟ فقال: إنه مكان عصيت فيه ربي، فسئل عنه فقال: كشطت من هذا الجدار قطعة طين غسل ضيف لي يده بها ولم استحله صاحبه .

وقيل: إن الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله رهن سطلاً له عند بقال بمكة، فلما أراد فكاكه أخرج البقال إليه سطلين وقال: خذ أيهما لك، فقال الإمام أحمد: أشكل على سطلي فهو لك والدراهم لك، فقال البقال: سطلك هذا وإنما أردت أن أجربك، فقال: لا آخذه ومضى وترك السطل عنده .

وقيل: إن رابعة العدوية رحمها الله خاطت شقاً في قميصها في ضوء مشعلة سلطانية، ففقدت قلبها زماناً حتى تذكرت ذلك فشقت قميصها فوجدت قلبها .

وروى سفيان الثوري رحمه الله في المنام وله جناحان يطير بهما في الجنة من شجرة إلى شجرة، فقيل له: بم نلت هذا؟ قال: بالورع .

وكان حسان بن أبي سنان رحمه الله لا ينام مضطجعاً ولا يأكل سميناً ولا يشرب بارداً ستين سنة، فرؤى في المنام بعدما مات فقيل له: ما فعل الله بك؟ قال: خيراً، إلا أنني محبوس عن الجنة بإبرة استعرتها فلم أردّها .

وكان لعبد الواحد بن زيد غلام خدمه سنين وتعب أربعين سنة، وكان في ابتداء أمره كيالاً، فلما مات رؤى في المنام، فقيل له: ما فعل الله بك؟ قال: خيراً غير أنني محبوس عن الجنة، وقد أخرج على من غبار القفيز أربعين قفيزاً .

ومر عيسى ابن مريم عليه السلام بمقبرة، فنادى رجلاً منهم فأحياه الله تعالى فقال: من أنت؟ فقال: كنت حمالاً أنقل للناس، فنقلت يوماً لإنسان حطباً فكسرت منه خلافاً

تخللت به فأنا مطالب به منذ مت .

(فصل) ولا يتم الورع إلا أن يرى عشرة أشياء فريضة على نفسه:

أولها: حفظ اللسان من الغيبة لقوله تعالى ﴿ولا يفتب بعضكم بعضاً﴾ [الحجرات: ١٢]
والثاني: الاجتناب عن سوء الظن لقوله تعالى: ﴿اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم﴾ [الحجرات: ١٢]، ولقوله ﷺ: «إياكم والظن فإنه أكذب الحديث»^(١).

والثالث: الاجتناب عن السخرية لقوله تعالى: ﴿لا يسخر قوم من قوم﴾ [الحجرات: ١١].

والرابع: غض البصر عن المحارم لقوله تعالى: ﴿قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم﴾ [النور: ٣٠].

والخامس: صدق اللسان لقوله تعالى: ﴿وإذا قلتم فاعدلوا﴾ [الأنعام: ١٥٢] يعني فاصدقوا.

والسادس: أن يعرف منة الله تعالى عليه لكيلا يعجب بنفسه لقوله تعالى: ﴿بل الله يمنّ عليكم أن هذاكم للإيمان﴾ [الحجرات: ١٧].

والسابع: أن ينفق ماله في الحق ولا ينفقه في الباطل لقوله تعالى: ﴿والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا﴾ [الفرقان: ٦٧] يعني لم ينفقوا في المعصية ولم يمنعوا من الطاعة.

والثامن: ألا يطلب لنفسه العلو والكبر لقوله تعالى: ﴿تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً﴾ [القصص: ٨٣].

والتاسع: المحافظة على الصلوات الخمس في مواقيتها بركوعها وسجودها لقوله تعالى: ﴿حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين﴾ [البقرة: ٢٣٨].

والعاشر: الاستقامة على السنة والجماعة لقوله تعالى: ﴿وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله﴾ [الأنعام: ١٥٣].

(فصل) ويجوز أن يتوب عن بعض الذنوب دون بعض إذا لم يمكنه التوبة عن جميعها في حالة واحدة، مثل أن يتوب عن الكبائر دون الصغائر، لعلمه أن الكبائر

(١) البخاري ٥/٤، ٢٤/٧، ومسلم في: البر والصلة: (٢٨)، وأحمد ٢/٢٤٥.

أعظم عند الله وأجلب لسخطه ومقتته، والصغائر دونها، في الرتبة، إذ هي أقرب إلى تطرق العفو إليها، فلا يستحيل أن يتوب عن الأعظم، ثم إذا قوى الإيمان واليقين في قلبه، وظهرت أنوار الهداية وانشرح صدره للإنابة إلى الله تعالى، حينئذ تاب عن جميع الصغائر ودقائق الزلات والشرك الخفى وذنوب القلب أجمع، ومعاصي الحالات والمقامات بعد ذلك كلما رفع إلى حالة ومقام كان هناك ما يأتى وما يذر، أمر ونهى يعرفه كل ذائق لهذا الأمر، وسالك لهذه الطريق ومخالط لأهله.

فلا يأخذ الناس في أول وهلة بما هو منتهى الأمر «إنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين ولا منفرين، إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق، فإن المنبت - أى المنقطع - لا طريقاً سلك ولا ظهراً أبقي».

ومثل من يتوب عن بعض الكبائر دون بعض لعلمه أن بعضها أشد من البعض عند الله وأغلظ عقوبة وأبلغ، كالذى يتوب عن القتل والنهب والظلم للعباد، لعلمه أن ديون العباد لا تترك، وما بينه وما بين الله تعالى يتسارع العفو إليه.

ومثل أن يتوب عن شرب الخمر دون الزنا، لعلمه أن الخمر مفتاح الشر، فإنه إذا زال عقله ارتكب جميع المعاصي وهو لا يشعر بها من القذف والسب والكفر بالله والزنا والقتل والغصب، لأن الخمر مجمع المعاصي وأمها وأصلها.

وكمن يتوب عن صغيرة أو صغائر وهو مصر على كبيرة، مثل أن يتوب عن الغيبة أو عن النظر إلى المحرم، وهو مصر على شرب الخمر لشدة ضراوته بالخمر ولهجه بها وتعوده لها وتسويل نفسه بأنه مداو مرضه بها، وقد أمرنا باستعمال الدواء وتزيين الشيطان له ذلك وتحسينه وقوة شهوته فيها لما فى شربها من السرور والفرح وذهاب الهموم وصحة الجسم على زعمهم، وذهول عن بوائقها وعاقبتها، والغفلة عن عقوبة الله له لأجلها، وفساد الدين والدنيا بها، لأنها سبب زوال العقل الذى به انتظام أمر الدين والدنيا والآخرة.

وإنما قلنا أنه تصح التوبة عن بعض هذه الذنوب دون بعض لأنه لا يخلو كل مسلم من جمع بين طاعة الله ومعصيته فى الأحوال كلها، وإنما يتفاوتون فى الحالات وعظم الذنوب وصغرها على قرب أحوالهم من الله وبعدها.

فإذا قال الفاسق إن قهرنى الشيطان بواسطة غلبة الشهوة فى بعض المعاصي، فلا

ينبغي لى أن أرخى العنان وأخلع العذار بالكلية، فأئزج فى المعاصى، بل أجاهد فيما يخف على من ترك بعض المعاصى فأتركها فيكون قهرى لبعض ذلك كفارة لبعض الباقى، ولعل الله يرانى أخافه فى بعض معاصيه، وأتركها لأجله، وأجاهد نفسى وشيطانى فى تركها، فيعيننى ويوقننى، ويحول بينى وبين بقية المعاصى برحمته.

ولو لم يكن الأمر على ما قلنا لما صحت صلاة كل فاسق ولا صومه ولا زكاته ولا حجه ولا شىء من الطاعات، بأن يقال له: أنت فاسق خارج من طاعة الله بفسقك، مخالف لأمره، فعبادتك هذه لغير الله تعالى، فإن زعمت أنها لله عز وجل فاترك الفسق، فإن أمر الله فيه واحد ولا يتصور أن تقصد بصلاتك التقرب إلى الله ما لم تتقرب بترك الفسق.

وهذا محال لا يقال، فما هذا إلا بمشابة من عليه ديناران لرجلين وهو قادر على الأداء إليهما، فأدى أحد الدينارين إلى أحدهما وجحد الآخر، وحلف عليه مع علمه ذلك وتحققه له، فلا شك أن ذمته بريئة مما قد أدى ومشتغلة بما جحد وأبى.

فكذلك من أطاع الله تعالى فى بعض أوامره مطيع له بطاعته، وإذا عصاه فى بعض نواهيه عاص له بمعصية فهو مؤمن ملىء ناقص الإيمان طائع بطاعته عاص مخالف له بمخالفته، وهذا هو ذأب كل مخلط فى أمر دينه إلى أن يبلغ إلى حالة يزول هواه، فتتقطع عنه جميع المعاصى إلا من شاء الله أن يقضى عليه بها، إذ لا معصوم، ويتوب الله على من تاب، ويتفضل بالرحمة على من أناب.

(فصل: فى ذكر الأخبار والآثار الواردة فى التوبة)

قال جابر بن عبد الله رضى الله عنهما: «خطبنا رسول الله ﷺ يوم الجمعة فقال: أيها الناس توبوا إلى الله قبل أن تموتوا، وبادروا بالأعمال الصالحة قبل أن تشغلوا، وصلوا الذى بينكم وبين ربكم تسعدوا، وأكثروا الصدقة ترزقوا، وأمروا بالمعروف تحسنوا، وانهوا عن المنكر تنصروا»^(١).

وكان النبى ﷺ كثيراً ما يقول: «اللهم اغفر لى وتب علىَّ إنك أنت التواب الرحيم»^(٢).

(١) الترغيب والترهيب ٢٥٢/٤، وإرواء الغليل ٥٠/٣.

(٢) أحمد ٦٧/٢ و ٨٤.

وقال ﷺ: «إن إبليس حين اهبط إلى الأرض قال: وعزتك وجلالك لا أزال أغوى ابن آدم ما دام الروح في جسده، فقال الرب: وعزتي وجلالي لا أمنعه التوبة ما لم يتغرغر بنفسه»^(١).

وعن محمد بن عبد الله السلمي رحمه الله أنه قال: جلست إلى نفر من أصحاب رسول الله ﷺ بالمدينة فقال رجل منهم: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من تاب قبل موته بنصف يوم تاب الله عليه»^(٢).

وقال آخر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من تاب قبل الغرغرة تاب الله عليه»^(٣).
وعن محمد بن مطرف رحمه الله أنه قال: يقول الله تعالى: ويح ابن آدم يذنب الذنب فيستغفرني فأغفر له، ثم يعود فأغفر له، ويحه لا هو يترك ذنبه ولا هو يئأس من رحمتي، أشهدكم أنني قد غفرت له.

وقال أنس رضي الله عنه: كان رسول الله ﷺ وصحابته بعدما أنزلت ﴿وَأَن اسْتَغْفِرُوا بِكُمْ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ﴾ [هود: ٣] يستغفرون كل يوم مائة مرة ويقولون: نستغفر الله ونتوب إليه.

قال: «وجاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إني أذنبت ذنباً، قال ﷺ: استغفر الله، فقال: إني أتوب ثم أعود، قال ﷺ: كلما أذنبت فنب حتى يكون الشيطان هو الحسير، قال: يا نبي الله إذا تكثرت ذنوبي، فقال ﷺ: عفو الله أكثر من ذنوبك...»^(٤).

وقال الحسن رحمه الله: لا تتمنى المغفرة بغير التوبة ولا تتمنى الثواب بغير العمل، لأن الغرة بالله أن تتماذى في سخطه، وتترك العمل بما يرضيه، وتتمنى عليه المغفرة، فتترك الأمانى، حتى يحل بك أمره، أما سمعته يقول: ﴿وغرتكم الأمانى حتى جاء أمر الله وغركم بالله الغرور﴾ [الحديد: ١٤]، وقال الله تعالى: ﴿وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى﴾ [طه: ٨٢]، وقال عز وجل: ﴿ورحمتي وسعت كل شيء

(١) المغنى عن حمل الأسفار ٣/٣٣، والطبراني ٨/٢٤٥، والمجمع ٨/١١٩.

(٢) أحمد ٣/٤٦٥.

(٣) الحاكم ٤/٢٥٨، وينحوه: الخطيب ٨/٣١٧.

(٤) تاريخ أصفهان ٢/١٩، وينحوه: المجمع ١٠/٢٠٠.

فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون ﴿ [الأعراف: ١٥٦].

فالطمع فى الرحمة والجنة من غير توبة وغير تقوى حمق وجهل وغرور لأنهما مقيدتان بهاتين الآيتين.

وقال ﷺ: «إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه بأصل جبل يخاف أن يقع عليه، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب وقع على أنفه، فقال به هكذا فطار»^(١).

وقال ﷺ: «إن العبد ليذنب الذنب فيدخله الجنة، فقالوا: يا نبى الله وكيف يدخله الجنة؟ قال: يكون الذنب نصب عينه يستغفر منه ويندم عليه حتى يدخله الجنة»^(٢).

وقال ﷺ: «لم أر شيئاً أحسن طلباً ولا أسرع إدراكاً من حسنة حديثة للذنوب قديم ﴿إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين﴾ [هود: ١١٤]»^(٣).

وقال ﷺ: «إذا أذن العبد ذنباً كانت نكتة سوداء فى قلبه، فإذا تاب وفرغ واستغفر صفا قلبه منها، وإذا لم يتب ولم ينزع ولم يستغفر كان الذنب على الذنب والسواد على السواد حتى يعمى القلب فيموت، فذلك قوله عز وجل: ﴿كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾ [المطففين: ١٤]»^(٤).

وقال ﷺ: «ترك الخطيئة أهون من طلب التوبة فاغتنم غفلة المنية».

قال: وكان آدم بن زياد رحمه الله يقول: لينزلن أحدكم نفسه أنه قد حضره الموت، فاستقال ربه فأقاله، فليعمل بطاعة الله.

قيل: أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: اتق أن آخذك على غرة فتلقانى بلا حجة.

ودخل بعض الصالحين على عبد الملك بن مروان، فقال له: عظمى، فقال: هل أنت على استعداد لحلول الموت إن أتاك؟ قال: لا.

قال: فهل أنت مجمع على التحول عن هذه الحالة إلى حالة ترضاها؟ قال: لا.

قال: فهل بعد الموت دار فيها مستعتب؟ قال: لا.

(١) شرح السنة ٨٦/٥.

(٢) ابن المبارك (٥٢)، والكنز (١٠١٨٨)، والإتحاف ٨/٥٢٤.

(٣) الطبرانى ١٢/١٧٤، والمجمع ٧/٣٩.

(٤) الكنز (١٢٨٨)، والطبرى ٣٠/٦٢، والحاكم ١/٥.

قال: فهل تأمن الموت أن يأتيك على غرة؟ قال: لا.
 قال: ما رأيت مثل هذه الخصال يرضى بها عاقل.
 وقال النبي ﷺ: «الندم توبة»^(١).
 وقال ﷺ: «من أذنب ذنباً ثم ندم عليه فهو كفارته»^(٢).
 وقال الحسن رحمه الله: التوبة على أربع: دعاء، ثم استغفار باللسان، وندم بالقلب، وترك بالجوارح، وإضمار ألا يعود.
 وقال: التوبة النصوح: أن يتوب ثم لا يرجع فيما تاب منه.
 وقال ﷺ: «التائب من الذنب كمن لا ذنب له، والمستغفر من الذنب وهو مقيم عليه، كالمستهزئ بربه، وإن الرجل إذا قال: أستغفر وأتوب إليك، ثم عاد ثم قالها ثم عاد ثلاث مرات كتبت في الرابعة من الكبائر»^(٣).
 وقال الفضيل بن عياض رحمه الله: كن وصى نفسك ولا تجعل الرجال أوصياءك، كيف تلومهم أن يضيعوا وصيتك وقد ضيعتها في حياتك؟
 وأنشد بعضهم يقول:

تمتع إنما الدنيا متاع وإن دوامها لا استطاع
 وقدم ما ملكت وأنت حي أمير فيه متبع مطاع
 ولا يغرك من توصى إليه فقصر وصية المرء الضياع

وقال آخر:

إذا ما كنت متخذاً وصياً فكن فيما ملكت وصى نفسك
 ستحصد ما زرعت غداً وتحبى إذا وضع الحساب ثمار غرسك

(فصل آخر: في ذلك)

عن أبي أمامة الباهلي رضى الله عنه قال: «إن الرجل موكل به ملكان أحدهما عن يمينه والثاني عن شماله، صاحب اليمين أمير على صاحب الشمال، فإذا عمل العبد

(١) ابن ماجه (٤٢٥٢)، وأحمد ٣٧٦/١، والبيهقى ١٠/١٥٤، والحاكم ٤/٢٤٣.

(٢) بنحوه: الحاكم ٤/٢٤٢، وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي.

(٣) ابن ماجه (٤٢٥٠)، والبيهقى ١٠/١٥٤، والكنز (١٠١٤٩).

حسنة كتب له صاحب اليمين عشرًا، فإذا عمل سيئة فأراد صاحب الشمال أن يكتبها قال صاحب اليمين أمسك عنه فيمسك عنه ست ساعات من النهار أو سبعا، فإن استغفر الله تعالى منها لم يكتب عليه شيئا، وإن لم يستغفر كتب عليه سيئة واحدة».

وفى لفظ آخر: «إن العبد إذا أذنب لم يكتب عليه حتى يذنب ذنبا آخر فإذا اجتمعت عليه خمسة من الذنوب فإذا عمل حسنة واحدة كتب له خمس حسنات وجعل الخمس بإزاء خمس سيئات، فيصيح عند ذلك إبليس لعنه الله ويقول: كيف لى أن أستطيع على ابن آدم فأنى وإن اجتهدت عليه ييطل بحسنة واحدة جميع جهدى».

وروى يونس عن الحسن رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال: «ليس من عبد إلا عليه ملكان، وصاحب اليمين أمير على صاحب الشمال، فإذا عمل العبد السيئة قال له صاحب الشمال: أكتبها؟ فيقول له صاحب اليمين: دعه حتى يعمل خمس سيئات، فإذا عمل خمس سيئات، قال صاحب الشمال أكتبها؟ فيقول صاحب اليمين: دعه حتى يعمل حسنة، فإذا عمل حسنة، قال له صاحب اليمين: قد أخبرنا بأن الحسنة بعشر أمثالها، فتعال نمحو خمسا بخمس ونثبت له خمسا من الحسنات، قال: فيصيح الشيطان عند ذلك فيقول: متى أدرك ابن آدم^(١)».

وهذه الأحاديث موافقة لقوله عز وجل: ﴿وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى﴾ [طه: ٨٢].

قال على بن أبى طالب كرم الله وجهه: «مكتوب حول العرش قبل آدم بأربعة آلاف عام ﴿وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى﴾ [طه: ٨٢].

وموافقة لقوله تعالى: ﴿إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين﴾ [هود: ١١٤].

وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال: إذا تاب العبد وتاب الله عليه أنسى الله تعالى حفظته ما كان قد عمل من مساوئ عمله، وأنسى جوارحه ما عملت من الخطايا، وأنسى مقامه من الأرض، وأنسى مقامه من السماء فيجىء يوم القيامة وليس عليه شيء شهيد عليه^(٢).

(١) بنحوه: الدر المنثور ٤/٦، والكثر ١١٢/١٠، والطبرى ٧/٢٢٥.

(٢) بنحوه: الكثر (١٠١٧٩)، والترغيب ٤/٩٤، وابن عساکر ٤/٢٨٦.

وروى عن النبي ﷺ أنه قال: «التائب من الذنب كمن لا ذنب له...»^(١) وفي لفظ «ولو عاد في اليوم سبعين مرة».

وقال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه: «من قال: أستغفر الله العظيم الذى لا إله إلا هو الحى القيوم وأتوب إليه، ثلاث مرات، غفر له ذنوبه وإن كانت مثل ريد البحر».

وعن ابن مسعود رضى الله عنه أنه قال: «ينظر الإنسان فى كتابه يوم القيامة فيرى فى أوله المعاصى وفى آخره الحسنات، فإذا رجع إلى أول الكتاب رأى كل ذلك حسنات، وذلك قوله تعالى: ﴿فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات﴾ [الفرقان: ٧٠].

وهذا هو فى حق التائب الذى ختم الله له بالتوبة والإجابة.

وقال بعض السلف: إن العبد إذا تاب من الذنوب صارت الذنوب الماضية كلها حسنات.

ولهذا قال ابن مسعود رضى الله عنه: وليتمنين أناس يوم القيامة أن تكثر سيئاتهم، وإنما قال ذلك لما ذكر الله تعالى من تبديل السيئات بالحسنات لمن يشاء من عباده.

وروى عن الحسن البصرى رضى الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «لو أخطأ أحدكم حتى يملأ ما بين السماء والأرض ثم تاب، تاب الله عليه»^(٢).

ولهذا جاء فى الخبر: «يا ابن آدم لو لقيتنى بقراب الأرض ذنوباً لقيتك بقرابها مغفرة»^(٣).

(فصل آخر: فى ذلك)

وروى أن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه مر ذات يوم فى موضع من نواحي الكوفة، وإذا الفساق قد اجتمعوا فى دار رجل منهم وهم يشربون الخمر، ومعهم مغن يقال له زاذان كان يضرب بالعود ويغنى بصوت حسن، فلما سمع ذلك عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال: ما أحسن هذا الصوت لو كان بقراءة كتاب الله تعالى كان أحسن، وجعل رداءه على رأسه ومضى، فسمع ذلك الصوت زاذان، فقال: من هذا؟

(١) ابن ماجه (٤٢٥٠)، والبيهقى ١٠/١٥٤، والكنز (١٠١٤٩).

(٢) ابن ماجه (٤٢٤٨)، وأحمد ٣/٢٣٨.

(٣) الترمذى (٣٥٤٠)، والدارمى ٢/٣٢٢، وأحمد ٥/١٧٢.

قالوا: كان عبد الله بن مسعود صاحب رسول الله ﷺ قال: وأيش قال؟ قالوا: قال: ما أحسن هذا الصوت لو كان بقراءة القرآن كان أحسن، فدخلت الهيبة قلبه، فقام فضرب بالعود على الأرض فكسره، ثم أسرع حتى أدركه وجعل المنديل فى عنق نفسه وجعل يبكى بين يدي عبد الله فاعتنقه عبد الله وجعل يبكى كل واحد منهما، ثم قال عبد الله رضى الله عنه: كيف لا أحب من قد أحبه الله؟ فتأب من ضربه بالعود، وجعل يلزم عبد الله حتى تعلم القرآن وأخذ الحظ الوافر من العلم حتى صار إماماً فى العلم، وقد جاء فى كثير من الأخبار روى راذان عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه، وروى راذان عن سلمان الفارسى رضى الله عنه.

وفى الإسرائيليات مروي أنه كانت امرأة بغية مغنية مفتنة للناس بجمالها، وكان باب دارها أبداً مفتوحاً وهى قاعدة على السرير بحذاء الباب فكل من مر بها ونظر إليها افتتن بها واحتاج إلى عشرة دنانير أو أكثر من ذلك حتى تأذن له بالدخول عليها، فمر على بابها ذات يوم عابد من عباد بنى إسرائيل فوقع بصره عليها فى الدار وهى قاعدة على السرير فافتتن بها وجعل يجادل نفسه حتى أنه يدعو الله تعالى أن يزول ذلك عن قلبه، فلم يزول ذلك عن نفسه، ولم يملك نفسه حتى باع قماشاً كان له، فجمع من الدنانير ما يحتاج إليه، فجاء إلى بابها فأمرته أن يسلم الذهب إلى وكيل لها ووعدته لمجيئه، فجاء إليها لذلك الوعد وقد تزينت وجلست فى بيتها على سريرها، فدخل عليها العابد وجلس معها على السرير، فلما مد يديه إليها وانبسط معها، تداركه الله برحمته ببركة عبادته المتقدمة، فوقع فى قلبه أن الله تعالى يرانى فى هذه الحالة من فوق عرشه، وأنا فى الحرام وقد حبط عملى كله، فوقعت الهيبة فى قلبه، فارتعد فى نفسه، وتغير لونه، فنظرت إليه المرأة فرأته متغير اللون، فقالت له: أيش أصابك يا رجل؟ فقال: إني أخاف الله ربى، فأذننى لى بالخروج، فقالت له: ويحك إن كثيراً من الناس يتمنون الذى وجدته فأيش هذا الذى أنت فيه؟ فقال: إني أخاف الله جل ثناؤه وإن المال الذى دفعته إلى وكيلك هو لك حلال، فأذننى لى بالخروج، فقالت له: كأنك لم تعمل هذا العمل قط؟ قال: لا، فقالت له: من أين أنت وما اسمك؟ فأخبرها أنه من قرية كذا واسمه كذا، فأذنت له بالخروج من عندها، فخرج وهو يدعو بالويل والثبور ويبكى على نفسه، فوقعت الهيبة فى قلب المرأة ببركة ذلك العابد، فقالت فى نفسها: إن هذا الرجل أول ذنب أذنب فدخل عليه من الخوف ما دخل، وإني قد أذنبت منذ كذا وكذا سنة،

وإن ربه الذى خاف منه هو ربي، فينبغى أن يكون خوفي أشد من خوفه، فتابت إلى الله وغلقت الباب على الناس ولبست ثياباً خلقاً وأقبلت على العبادة، فكانت فى عبادتها ما شاء الله تعالى، فقالت فى نفسها: إني لو انتهيت إلى ذلك الرجل لعله يتزوجنى، فأكون عنده وأتعلم منه أمر ديني ويكون عوناً لى على عبادة ربي، فتجهزت وحملت من الأموال والخدم ما شاء الله، وانتهت إلى تلك القرية وسألت عنه، فأخبروا العابد أنه قدمت امرأة تسأل عنك، فخرج العابد إليها، فلما رآته المرأة كشفت عن وجهها لكى يعرفها، فلما رآها العابد وعرف وجهها وتذكر الأمر الذى كان بينه وبينها صاح صيحة فخرجت روحه.

فبقيت المرأة حزينة وقالت فى نفسها: إني خرجت لأجله وقد مات فهل له أحد من أقربائه يحتاج إلى امرأة، فقالوا لها: له أخ صالح لكنه معسر لا مال له، فقالت: لا بأس به، فإن لى مالا يكفينى، فجاء أخوه فتزوج بها، فولدت له سبعاً من البنين (كلهم صاروا أنبياء فى بنى إسرائيل).

فانظر إلى بركة الصدق والطاعة وحسن النية كيف هدى الله راذاً بعبد الله بن مسعود لما كان صادقاً حسن السريرة فلا يصلح بك الفاسد حتى تكون أنت صالحاً فى ذات نفسك، خائفاً لربك إذا خلوت، مخلصاً له إذا خالطت، غير مرء للخلق فى حركاتك وسكناتك، موحداً لله عز وجل فى ذلك كله، فحيث يزداد فى توفيقك وتسديدك وتحفظ عن الهوى والإغواء من شياطين الجن والإنس والمنكرات كلها والفاسق والبدع والضلالات أجمع، فزال بك المنكر من غير تكلف، ومن غير أن يصير المعروف منكراً، كما هو فى زماننا، ينكر أحدهم منكراً واحداً فيفرع منه منكرات جملة وفاسد عظيم من السب والقذف والضرب والكسر وتخريق الثياب وإفساد الأموال، وكل ذلك لقلة صدقهم ونقصان إيمانهم وبقينهم وغلبة أهويتهم عليهم. فالمنكر فيهم بعد وفرض إزالته متوجه عليهم وبأنفسهم شغل طويل وهم ينكرون على الغير فيتركون الفرض العين ويتعلقون بالفرض على الكفاية، ويتركون ما يعينهم ويشغلون بما لا يعينهم، قال النبى ﷺ: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»^(١).

من أراد أن يزول به المنكر بسرعة، فعليه بالإنكار على نفسه والوعظ لها، ومنعها

وفطمها عن المعاصى ما ظهر منها وما بطن، فإذا تطهر من ذلك كله حينئذ اشتغل بغيره، فزال به المنكر بأحسن ما يكون من الوجوه، كما زال فى حق عبد الله بن مسعود رضى الله عنه.

وانظر إلى بركة العبادة والصدق أيضاً فى حق العابد كيف نجاه الله من البغية وارتكاب الكبيرة ﴿كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين﴾ [يوسف: ٢٤].

فالله تعالى حال بينه وبين تلك الفاحشة لما تقدم له من الصدق فى الخلوات وحسن الطاعة فيما سلف من الأيام والساعات، ثم كيف نجى الله تعالى تلك البغية ببركة العابد، ثم كيف نالت بركته أخاه، فأزال الله فقره وجهده، وزوجه بأحسن النساء، وأغناه ورزقه من حيث لا يحتسب، وجعله أبا الأنبياء السبعة، وجعلها أهمهم عليهم السلام.

فالخير كله فى الطاعة والشر كله فى المعصية، فلا كانت المعصية ولا كنا إذا كنا من أهلها.

(فصل) وإنما تعرف توبة التائب فى أربعة أشياء:

أحدها: أن يملك لسانه من الفضول والغيبة والنميمة والكذب.

والثانى: ألا يرى لأحد فى قلبه حسداً ولا عداوة.

والثالث: أن يفارق إخوان السوء، فإنهم هم الذين يحملونه على رد هذا القصد ويشوشون عليه صحة هذا العزم، ولا يتم له ذلك إلا بالمواظبة على المشاهدة التى تزيد بها رغبته فى التوبة، وتوفر دواعيه على إتمام ما عزم عليها مما يقوى خوفه ورجاءه، فعند ذلك تنحل من قلبه عقد الإصرار على ما هى عليه من قبيح الأفعال، فيقف عن تعاطى المحظورات، ويكبح لجام نفسه عن متابعة الشهوات فيفارق الزلة فى الحال، ويرمى العزيمة على ألا يعود إلى مثلها فى الاستقبال.

والرابع: أن يكون مستعداً للموت نادماً مستغفراً لما سلف من ذنوبه مجتهداً فى طاعة ربه.

وقيل: علامة أنه مقبول التوبة أربعة أشياء:

أولها: أن ينقطع عن أصحاب الفسق ويريههم هيئته من نفسه، ويخالط الصالحين.

والثاني: أن يكون منقطعاً عن كل ذنب مقبلاً على جميع الطاعات.
والثالث: أن يذهب فرح الدنيا من قلبه، ويرى حزن الآخرة دائماً في قلبه.
والرابع: أن يرى نفسه فارغاً عما ضمن الله له، يعنى الرزق، مشغلاً بما أمر الله به.
فإذا وجدت فيه هذه العلامات كان من الذين قال الله تعالى في حقهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

ووجب له على الناس أربعة أشياء:

أولها: أن يحبّه لأن الله قد أحبه.

والثاني: أن يحفظوه بالدعاء على أن يثبت الله تعالى على التوبة.

والثالث: ألا يعيروهم بما سلف من ذنوبه لما روى عن النبي ﷺ أنه قال: «من عير مؤمناً بفاحشة فهو كفارة لها، وكان حقاً على الله تعالى أن يوقعه فيها، ومن عير مؤمناً بجريرة لم يخرج من الدنيا حتى يركبها ويفتضح بها»^(١).

ولأن المؤمن لا يقصد الوقوع في الذنب ولا يتعمده ولا يعتقه ديناً يتدين به، وإنما يكون ذلك فيه بتزيين الشيطان وفرط ضراوة الشهوة وشدة الشبق وتراكم الغفلة والغرة، قال الله تعالى: ﴿وَكُرْهُ إِلَى كُفْرٍ وَفَسْقٍ وَعَصْيَانٍ﴾ [الحجرات: ٧].

فقد أخبر أنه بغض إلى المؤمنين المعصية، فلا يجوز أن يعير بها إذا تاب وأناب، بل يدعى له بالثبات على التوبة والتوفيق والحفظ.

والرابع: أن يجالسوه ويذكروه ويعينوه.

ويكرمه الله تعالى أيضاً بأربع كرامات:

أحدها: أن يخرج من الذنوب كأنه لم يذنب قط.

والثانية: يحبه الله تعالى.

والثالثة: ألا يسلب عليه الشيطان ويحفظه منه.

والرابعة: أن يؤمنه من الخوف قبل أن يخرج من الدنيا لأنه عز وجل قال: ﴿تَنْزِيلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ أَلَّا تُخَافُوا وَلَا تُحْزِنُوا وَأُبَشِّرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠].

(١) بنحوه: الترمذى (٢٥٠٥)، والترغيب ٣/ ٣١٠، والضعيفة (١٧٨).

(فصل: في ذكر أقاويل شيوخ الطريقة في التوبة)

قال أبو علي الدقاق رحمه الله: التوبة على ثلاثة أقسام:

أولها: التوبة، وأوسطها: الإنابة، وآخرها: الأوبة.

فالتوبة بداية والإنابة واسطة والأوبة نهاية. فإن من تاب لخوف العقوبة كان صاحب توبة، ومن تاب طمعاً في الثواب أو رهبة من العقاب كان صاحب إنابة، ومن تاب مراعاة للأمر لا لرغبة في الثواب أو رهبة من العقاب كان صاحب أوبة.

وقيل أيضاً: التوبة: صفة المؤمنين، قال الله تعالى: ﴿وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون﴾ [النور: ٣١].

والإنابة: صفة الأولياء المقربين، قال الله تعالى: ﴿وجاء بقلب منيب﴾ [ق: ٢٣].

والأوبة: صفة الأنبياء والمرسلين، قال الله عز وجل: ﴿نعم العبد إنه أواب﴾ [ص: ٣٠، ٤٤].

وقال الجنيد رحمه الله تعالى: التوبة على ثلاثة معان:

الأول: يندم.

والثاني: يعزم على ترك المعاودة لما نهى الله عنه.

والثالث: يسعى في أداء المظالم.

وقال سهل بن عبد الله رحمه الله: التوبة ترك التسويف.

وقال الجنيد: سمعت الحارث يقول: «ما قلت قط اللهم إني أسألك التوبة، ولكنني أقول: أسألك شهوة التوبة.

وقال الجنيد: دخلت على السري رحمه الله يوماً فرأيت متغيراً، فقلت له: ما لك؟ فقال: دخل على شاب فسألني عن التوبة، فقلت له: ألا تنسى ذنبك، فعارضني وقال: بل التوبة أن تنسى ذنبك، فقلت: إن الأمر عندي على ما قاله الشاب، فقال: لم؟ قلت: لأنني إذا كنت في حال الجفاء فنقلني إلى حال الوفاء، فذكر الجفاء في حال الصفاء جفاء، فسكت.

وقال سهل بن عبد الله رحمه الله: التوبة ألا تنسى ذنبك.

وقال الجنيد رحمه الله حين سئل عن التوبة: هي أن تنسى ذنبك.

وتكلم أبو نصر السراج رحمه الله في المقاليتين فقال: أشار سهل إلى أحوال المريدين

والمتعرضين تارة لهم وتارة عليهم.

فأما الجنيد فإنه أشار إلى توبة المحققين، فلا يذكرون ذنوبهم مما غلب على قلوبهم من عظمة الله تعالى ودوام ذكره.

وقال: وهو مثل ما سئل رويم عن التوبة فقال: التوبة من التوبة.

وقال ذو النون المصري رحمه الله: توبة العوام من الذنوب وتوبة الخواص من الغفلة.

وقال أبو الحسين النوري رحمه الله: التوبة أن تتوب من كل شيء سوى الله عز وجل.

قال عبد الله بن علي بن محمد التميمي رحمه الله: شتان بين تائب يتوب من الزلات، وتائب يتوب من الغفلات، وتائب يتوب من رؤية الحسنات.

وقال أبو بكر الواسطي رحمه الله: التوبة النصوح ألا يبقى على صاحبها أثر من المعصية سرًا ولا جهراً، ومن كانت توبته نصوحًا لا يبالي كيف أمسى وأصبح.

وقال يحيى بن معاذ الرازي رحمه الله في مناجاته: إلهي لا أقول تبت ولا أعود لما أعرف من خلقي، ولا أضمن ترك الذنوب لما أعرف من ضعفي، ثم إنني أقول لا أعود لعلي أموت قبل أن أعود.

وقال ذو النون رحمه الله: الاستغفار من غير إقلاع توبة الكذابين.

وقال أيضًا رحمه الله: حقيقة التوبة أن تضيق عليك الأرض بما رحبت ثم تضيق عليك نفسك كما أخبر الله تعالى في كتابه العزيز ﴿حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا﴾ [التوبة: ١١٨].

وقال ابن عطاء رحمه الله: التوبة تويتان: توبة الإنابة، وتوبة الاستجابة.

فتوبة الإنابة: أن يتوب العبد خوفًا من عقوبته، وتوبة الاستجابة: أن يتوب حياء من كرمه.

وقال يحيى بن معاذ الرازي رحمه الله: رلة واحدة بعد التوبة أقبح من سبعين قبلها.

وقال أبو عمرو الأنطاطي رحمه الله: ركب على بن عيسى الوزير في موكب عظيم فجعل الغرباء يقولون: من هذا؟ فقالت امرأة قائمة على الطريق إلى متى تقولون من هذا؟ هذا عبد سقط من عين الله فأبلاه الله بما ترون، فسمع على بن عيسى ذلك، فرجع إلى منزله واستعفى من الوزارة، وذهب إلى مكة وجاور بها إلى أن مات.

مجلس: فى قوله تعالى:

﴿إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]

اختلف العلماء رحمهم الله فى معنى التقوى وحقيقة المتقى .

فالمنفقون عن النبى ﷺ أنه قال: «جماع التقوى فى قوله عز وجل: ﴿إِنْ أَكْرَمَ اللَّهُ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِى الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠].

وقال ابن عباس رضى الله عنهما: المتقى الذى يتقى الشرك والكبائر والفواحش .

وقال ابن عمر رضى الله عنهما: التقوى ألا ترى نفسك خيراً من أحد .

وقال الحسن رحمه الله: المتقى هو الذى يقول لكل من رآه هذا خير منى .

وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه لكعب الأحبار: حدثنى عن التقوى، قال: هل أخذت طريقاً ذا شوك؟ قال: نعم، قال: فما عملت فيه؟ فقال: حذرت وشمرت، قال كعب: كذلك التقوى .

فنظمه الشاعر:

خل الذنوب صغيرها وكبيرها فهو التقى

واصنع كماش فوق أر ض الشوك يحذر ما يرى

لا تحقرن صغيرة إن الجبال من الحصى

وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى: ليس التقى صيام النهار وقيام الليل والتخليط فيما بين ذلك، ولكن التقوى ترك ما حرم الله وأداء ما افترض الله، فما رزق الله بعد ذلك فهو خير إلى خير .

وقيل لطلق بن حبيب: أجمل لنا التقوى، فقال: التقوى عمل بطاعة الله على نور من الله رجاء لثواب الله حياء من الله .

وقيل: التقوى: ترك معصية الله على نور من الله مخافة عقاب الله .

وقال بكر بن عبد الله رحمه الله: لا يكون الرجل تقياً حتى يكون نقى المطعم وتقى الغضب .

وقال عمر بن عبد العزيز أيضاً رحمه الله: المتقى ملجم بالمحرم في الحرم.
وقال شهر بن حوشب رحمه الله: المتقى الذى يترك ما لا بأس به حذراً من الوقوع فيما فيه بأس.

وقال سفيان الثورى وفضيل رحمهما الله: هو الذى يحب للناس ما يحب لنفسه.
وقال الجنيد بن محمد: ليس المتقى الذى يحب للناس ما يحب لنفسه، إنما المتقى الذى يحب للناس أكثر مما يحب لنفسه، أتدرون ما وقع لأستاذى سرى السقطى رحمه الله؟ سلم عليه ذات يوم صديق له، فرد عليه السلام وهو عابس لم يتبشش له، فقلت له فى ذلك، فقال: بلغنى أن المرء المسلم إذا سلم على أخيه ورد عليه أخوه قسمت بينهما مائة رحمة تسعون منها لأبشهما وعشرة للآخره فأحببت أن يكون له التسعون.

وقال محمد بن على الترمذى رحمه الله: هو الذى لا خصم له.

وقال سرى السقطى رحمه الله: هو الذى يبغض نفسه.

وقال الشبلى رحمه الله: هو الذى يتقى ما دون الله.

قال الناطق الصادق:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل

وقال محمد بن خفيف رحمه الله: التقوى مجانبة كل ما يبعدك عن الله.

وقال القاسم بن القاسم رحمه الله: هو المحافظة على آداب الشريعة.

وقال الثورى رحمه الله: هو الذى يتقى الدنيا وآفاتها.

وقال أبو يزيد رحمه الله: هو التورع عن جميع الشبهات.

وقال أيضاً: المتقى من إذا قال قال الله، وإذا سكت سكت الله، وإذا ذكر ذكر الله.

وقال الفضيل بن عياض رحمه الله: لا يكون العبد من المتقين حتى يأمنه عدوه كما يأمنه صديقه.

وقال سهل رحمه الله: المتقى من تبرأ من حوله وقوته.

وقيل: التقوى ألا يراك الله حيث نهاك، ولا يفقدك حيث أمرك.

وقيل: هو الاقتداء بالنبي ﷺ.

وقيل: هو أن تتقى بقلبك من الغفلات، وبنفسك من الشهوات، وبخلقك من

اللذات، وبجوارحك من السيئات، فحينئذ يرجى لك الوصول إلى رب الأرض والسموات.

وقال أبو القاسم رحمه الله: هي حسن الخلق.

وقال بعضهم: يستدل على تقوى الرجل بثلاث: بحسن التوكل فيما لم ينل، وحسن الرضا فيما قد نال، وحسن الصبر على ما فات.

وقيل: المتقى هو الذى يتقى متابعة هواه.

وقال مالك رحمه الله: حدثني وهب بن كيسان أن بعض فقهاء أهل المدينة كتب إلى عبد الله بن الزبير رضى الله عنهما: إن لأهل التقوى علامات يعرفون بها: الصبر على البلاء، والرضا بالقضاء، والشكر عند النعماء، والتذلل لأحكام القرآن.

وقال ميمون بن مهران رحمه الله: لا يكون الرجل تقياً حتى يكون أشد محاسبة لنفسه من الشريك الشحيح والسلطان الجائر.

وقال أبو تراب رحمه الله: بين يدي التقوى خمس عقبات من لا يجاوزها لا ينالها وهي: اختيار الشدة على النعمة، واختيار القوة على الفضول، واختيار الذل على العز، واختيار الجهد على الراحة، واختيار الموت على الحياة.

وقال بعضهم: لا يبلغ الرجل سنام التقوى إلا إذا كان بحيث لو جعل ما فى قلبه على طبق فطاف به فى السوق لم يستح من شيء مما عليه.

وقيل: التقوى أن تزين سرك للحق كما تزين علانيتك للخلق.

وقال أبو الدرداء رضى الله عنه:

يريد المرء أن يعطى مناه ويأبى الله إلا ما أراد

يقول المرء فائدتى ومالى وتقوى الله أفضل ما استفادا

عن مجاهد عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: «جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا نبي الله أوصنى، فقال ﷺ: عليك بتقوى الله فإنه جامع كل خير، وعليك بالجهاد فإنه رهبانية الإسلام، وعليك بذكر الله فإنه نور لك»^(١).

وعن ابن هرمز نافع بن هرمز رحمه الله قال: سمعت أنساً رضى الله عنه يقول:

(١) الدر المنثور ٩٩/٦، والكنز (٤٣٤٣٧)، ومجمع الزوائد ٤/٢١٥.

«قيل يا محمد مَنْ آل محمد؟ قال: كل تقى» فالتقوى جماع الخيرات.

وحقيقة الاتقاء: التحرر بطاعة الله عز وجل عن عقوبته: يقال: اتقى فلان بترسه.

وأصل التقوى: اتقاء الشرك، ثم بعده اتقاء المعاصي والسيئات، ثم بعده اتقاء الشبهات، ثم يدع بعده الفضلات.

وجاء في تفسير قوله تعالى: ﴿اتقوا الله حق تقاته﴾ [آل عمران: ١٠٢] هو أن يطاع فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى، ويشكر فلا يكفر.

وقال سهل بن عبد الله رحمه الله: لا معين إلا الله، ولا دليل إلا رسول الله، ولا زاد إلا التقوى، ولا عمل إلا الصبر عليه.

وقال الكتاني رحمه الله: قسمت الدنيا على البلوى، وقسمت الجنة على التقوى، ومن لم يحكم بينه وبين الله التقوى والمراقبة لم يصل إلى الكشف والمشاهدة.

وقال النصرأبادي أيضاً: من لزم التقوى اشتاق إلى مفارقة الدنيا، لأن الله تعالى يقول: ﴿وللدار الآخرة خير للذين يتقون﴾ [الأنعام: ٣٢].

وقال بعضهم: من تحقق في التقوى هون الله على قلبه الإعراض عن الدنيا.

وقال أبو عبد الله الروذباري: التقوى مجانية ما يبعدك عن الله تعالى.

وقال ذو النون المصري رحمه الله تعالى: التقى من لا يدنس ظاهره بالمعارضات، ولا باطنه بالغلالات، ويكون واقفاً مع الله تعالى موقف الانفاق.

وقال ابن عطية رحمه الله تعالى: للمتقى ظاهر وباطن، فظاهره محافظة الحدود، وباطنه النية والإخلاص.

وقال أيضاً ذو النون المصري رحمه الله تعالى: لا عيش إلا مع رجال تحن قلوبهم للتقوى وترتاح بالذكر.

وقال أبو حفص رحمه الله تعالى: التقوى في الحلال المحض لا غير.

وقال أبو الحسين الزنجاني رحمه الله تعالى: من كان رأس ماله التقوى كلت الألسن عن وصف ربه.

وقال الواسطي رحمه الله تعالى: التقوى أن يتقى من تقواه، يعنى من رؤية تقواه.

وروى أن ابن سيرين رحمه الله تعالى اشترى أربعين جباً سمناً فأخرج غلامه فأرة

من جب، فسأله من أى جب من الجباب أخرجتها ؟ فقال: لا أدري، فصبها كلها.
وروى عن بعض الأئمة أنه كان لا يجلس فى ظل شجرة غريمه ويقول: جاء فى
الخبر «كل قرض جر نفعاً فهو رباً»^(١).

وقيل: إن أبا يزيد رحمه الله تعالى غسل ثوباً فى الصحراء مع صاحب له، فقال
لصاحبه: نعلق الثياب على جدران الكروم، فقال: لا نغرز الوتد فى جدار الناس،
فقال: نعلقه على الشجر، فقال: لا إنه يكسر الأغصان، فقال: تبسطه على الأذخر،
فقال: لا إنه علف الدواب لا نستره عنها، قيل: فولى ظهره إلى الشمس والقميص
على ظهره ووقف حتى جف جانبه، ثم قلبه حتى جف الجانب الآخر.

وعن إبراهيم بن أدهم رحمه الله تعالى أنه قال: بت ليلة تحت صخرة بيت المقدس،
فلما كان بعض الليل نزل ملكان، فقال أحدهما لصاحبه: من هاهنا؟ فقال الآخر:
إبراهيم بن أدهم، فقال: ذاك الذى حط الله درجة من درجاته، فقال: لم ذلك؟ قال:
لأنه اشترى بالبصرة التمر، فوقعت ثمرة من تمر البقال على تمره، فقال إبراهيم: فمضيت
إلى البصرة واشتريت التمر من ذلك الرجل وأوقعت ثمرة على تمره، ورجعت إلى بيت
المقدس ونمت تحت الصخرة، فلما كان بعض الليل إذا أنا بملكين نزلا من السماء، فقال
أحدهما لصاحبه: من هاهنا؟ قال الآخر: إبراهيم بن أدهم، فقال: ذاك الذى رد الشئ
إلى مكانه ورفعت درجته.

وقيل: التقوى على وجوه: تقوى العامة: ترك الشرك بالخالق، وتقوى الخاصة: ترك
الهوى بترك المعاصى ومخالفة النفس فى سائر الأحوال، وتقوى خاص الخاص من
الأولياء: ترك الإرادة فى الأشياء والتجرد فى النوافل من العبادات والتعلق بالأسباب،
والركون إلى ما سوى المولى، ولزوم الحال والمقام، وامتنال الأمر فى جميع ذلك مع
إحكام الفرائض.

وتقوى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لا يتجاوزهم غيب فى غيب، فهو من الله
وإلى الله، يأمرهم وينهاهم، ويوفقهم ويؤدبهم ويهذبهم ويطيهم ويطبهم، ويكلمهم
ويحدثهم، ويرشدهم ويهديهم، ويعطيهم ويهنيهم، ويطلعهم ويبرهم، لا مجال
للعقل فى ذلك، فهم فى معزل عن البشر بل عن الملائكة أجمع، إلا فيما يتعلق بالحكم

(١) الدر المنثور ٥/ ٣٥٠، والكتز (١٥٥١٦)، وإرواء الغليل ٥/ ٢٣٥.

الظاهر والأمر المبين الموضوع للأمة وعوام المؤمنين، فإنهم يشاركون الخلق في ذلك، وينفردون عنهم فيما سوى ذلك.

وقد يعطى بعض ذلك الكرام من الأبدال والخلص من الأولياء، فتقصر عباراتهم عن ذكر ذلك، فلا تظهر إلى الوجود ولا تدرك بالسمع والحس إلا ما يغلب على اللسان، فتبدر من ذلك كلمة أو كلمات، ثم يتداركه الله بالسكينة والتثبيت وإسبال الستر عليه، فيستيقظ لأمره ويحفظ لسانه ويستغفر الله تعالى مما جرى، ويغير العبارة ويحسن اللفظ على وجه يعقل ويفهم، على ما هو المعهود عند الناس.

(فصل) وطريق التقوى أولاً: التخلص من مظالم العباد وحقوقهم، ثم من المعاصي الكبائر منها والصغائر، ثم الاشتغال بترك ذنوب القلب التي هي أمهات الذنوب وأصولها فمنها يتفرع ذنوب الجوارح من الرياء والنفاق والعجب والكبر والحرص والطمع والخوف من الخلق والرجاء لهم وطلب الجاه والرياسة والتقدم على أبناء جنسه، وغير ذلك مما يطول شرحه.

وإنما يقوى على جميع ذلك بمخالفة الهوى، ثم الاشتغال بترك الإرادة فلا يختار مع الله شيئاً، ولا يدبر مع تدبيره ولا يتخير عليه ولا ينص على جهة وسبب في رزقه، ولا يعترض عليه عز وجل في حكمه في خلقه، بل يسلم الكل إليه، ويستسلم بين يديه، ويطرح نفسه لديه، فيصير في يد قدرته كالطفل الرضيع في يد ظئره ودائته، والميت في يد غاسله، مسلوب اختياره، منزوع إرادته، فالنجاة كل النجاة في ذلك.

فإن قال قائل: كيف الطريق إلى ذلك؟

قيل له: الطريق إلى ذلك بصدق اللجأ إلى الله عز وجل، والانقطاع إليه، ولزوم طاعته بامثال أوامره وانتهاء نواهيه، والتسليم في قدره وحفظ الحال، وصيانتها حدودها أبداً.

واختلفت أقاويل الشيوخ في النجاة:

فقال الجنيد رحمه الله تعالى: ما نجا من نجا إلا بصدق اللجأ إلى الله عز وجل، قال الله عز وجل: ﴿وَعَلَى الثَلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنْ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ﴾ [التوبة: ١١٨].

: وقال رويم رحمه الله تعالى: ما نجا من نجا إلا بالصدق والتقوى، قال الله عز وجل:

﴿وينجى الله الذين اتقوا بمفازتهم﴾ [الزمر: ٦١].

وقال الحريرى رحمه الله: ما نجا من نجا إلا بمراعاة الوفاء، قال الله تعالى: ﴿الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق﴾ [الرعد: ٢٠].

وقال عطاء رحمه الله تعالى: ما نجا من نجا إلا بتحقيق الحياء، قال الله تعالى: ﴿ألم يعلم بأن الله يرى﴾ [العلق: ١٤].

قال بعضهم: ما نجا من نجا إلا بالحكم والقضاء السابق فى علم الله عز وجل، قال الله تعالى: ﴿إن الذين سبقت لهم منا الحسنى﴾ [الأنبياء: ١٠١].

وقال الحسن البصرى رحمه الله تعالى: ما نجا من نجا إلا بالإعراض عن الدنيا وأهلها، قال الله تعالى: ﴿إنما الحياة الدنيا لعب ولهو﴾ [محمد: ٣٦].

وقد ذكر النبى ﷺ: «أن حب الدنيا رأس كل خطيئة، وما تقرب المتقربون إلى الله بشيء أفضل من أداء ما افترض الله عليك...»^(١).

وقال: «منذ خلقها الله تعالى ما نظر إليها».

وقال الحسن رحمه الله تعالى: معناه ما نظر إليها بعين رحمته من مقتها فهي الحجاب العظيم، وبها يتبين الخالص من المعيب، ولا يصح لمن بقى عليه منها شيء الوصول إلى حلاوة مناجاته سبحانه لأنها ضد الله وضد ما يحب الله.

(فصل) وقد دعا الله عز وجل خلقه إلى توحيده وطاعته بالوعد والوعيد والترغيب والترهيب، فحذر وأذر وخوف وزجر إعداراً إليهم وتأكيذاً للحجة عليهم.

فقال عز وجل: ﴿رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل﴾ [النساء: ١٦٥].

وقال عز من قائل: ﴿ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا رينا لولا أرسلت إلينا رسلاً فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى﴾ [طه: ١٣٤].

وقال تعالى فى آية أخرى: ﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسلاً﴾ [الإسراء: ١٥].

وقال تعالى: ﴿يا أيها الناس قد جاءكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين﴾ [يونس: ٥٧].

(١) بنحوه: الإنحاف ٣/ ١٣١، والكتز ٦١١٤، والدر المشرور ٦/ ٣٤١.

وقال جل وعلا في التحذير والتحذير: ﴿ويحذرکم الله نفسه والله رؤوف بالعباد﴾ [آل عمران: ٣٠].

وقال تبارك وتعالى: ﴿واعلموا أن الله يعلم ما فی أنفسکم فاحذروه﴾ [البقرة: ٢٣٥].

وقال جلّت عظمتہ: ﴿واتقوا الله واعلموا أن الله بكل شيء عليم﴾ [البقرة: ٢٣١].

وقال جلّت قدرته: ﴿واتقون يا أولى الألباب﴾ [البقرة: ١٩٧].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿واتقوا الله واعلموا أنکم ملاقوه﴾ [البقرة: ٢٢٣].

وقال تعالى: ﴿واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون﴾ [البقرة: ٢٨١].

وقال تعالى: ﴿واتقوا يوماً لا تجزى نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة﴾ [البقرة: ١٢٣].

وقال جلّ جلاله: ﴿يا أيها الناس اتقوا ربکم واخشوا يوماً لا يجزى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً إن وعد الله حق فلا تغرنکم الحياة الدنيا ولا يغرنکم بالله الغرور﴾ [لقمان: ٣٣].

وقال تعالى: ﴿يا أيها الناس اتقوا ربکم إن زلزلة الساعة شيء عظيم﴾ [الحج: ١].

وقال عز وجل: ﴿يا أيها الناس اتقوا ربکم الذى خلقکم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان علیکم رقیباً﴾ [النساء: ١].

وقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديداً﴾ [الأحزاب: ٧٠].

وقال عز وجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون﴾ [الحشر: ١٨].

وقال تعالى: ﴿واتقوا الله إن الله شديد العقاب﴾ [المائدة: ٢].

وقال تعالى: ﴿قوا أنفسکم وأهلیکم ناراً وقودها الناس والحجارة﴾ [التحريم: ٦].

وقال عز وجل: ﴿أفحسبتم أنما خلقناکم عبثاً وأنکم إلینا لا ترجعون﴾ [المؤمنون: ١١٥].

وقال جلّ وعلا: ﴿أیحسب الإنسان أن یرک سدى﴾ [القيامة: ٣٦].

وقال تعالى: ﴿أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتاً وهم نائمون * أو أمن أهل

القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون ﴿ [الأعراف: ٩٧ - ٩٨].

فما جوابك يا مسكين عن هذه الآيات، وما عملك بها؟ فهل انتهيت بها عن اتباع شهواتك الخبيثة المردية لك فى الدنيا والآخرة، المحلة لك فى دار الشقاء والمهانة التى تحرق نارها وتنهشك حياتها وتلسعك وتلسنك عقاربها وهوامها، وتأكلك ديدانها، وتضربك زبانياتها وخزائنها، ويجدد عليك فى كل يوم أنواع عذابها وأنت فيها مع فرعون وهامان ونمرود وقارون والشياطين سواء.

وقال فى الترغيب: ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجاً * ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾ [الطلاق: ٢ - ٣].

وقال تعالى: ﴿ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجراً﴾ [الطلاق: ٥].

وقال تعالى: ﴿يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم * الذى خلقك فسواك فعدلك﴾ [الانفطار: ٦ - ٧].

وقال عز وجل: ﴿ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله﴾ [الحديد: ١٦].

فقد رغبت الله فيما عنده وطلب فضله وسعة رحمته وطيب رزقه والاستراحة إليه والطمأنينة لديه، بسلوك سبيل التقوى وملازمته والمواظبة عليه، فبين بذلك الطريق وأضياء لك المحجة، وضمن لك بعد ذلك غفران الذنوب وتكفير السيئات وعظم الأجر والجزاء بقوله عز وجل: ﴿ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجراً﴾ [الطلاق: ٥].

ثم نهك عن غرتك به ورقدتك عنه، وتعاميك عن طريقه وتصامك عن سماع آياته ومواعظه وزواجره، فقال تعالى: ﴿ما غرك بربك الكريم * الذى خلقك فسواك فعدلك﴾ [الانفطار: ٦ - ٧].

فوصف نفسه بالكريم لئلا تزهد فى معاملته وتنفر عن مقاربتة وتشتغل عنه بخليقته، ثم ذكرك بأنه خلقك وأوجدك من عدمك، وأحياك بعد أن لم تكن شيئاً، وأغناك بعد فقرك، وقواك بعد ضعفك، وبصرك فى مصالحك بعد عماك، وعلمك بعد جهلك، وهذاك بعد ضلالتك.

فما قعودك يا غافل عن طلب فضله الواسع، وما تثيبتك عن ملازمة طاعته التى تشرفك فى الدنيا وتسعدك فى العقبى، وترفعك فى الدرجات العلى.

أرضيت بالحياة الدنيا من الآخرة، واستبدلت الذى هو أدنى بالذى هو خير، وآثرت

الدنيا وأبناءها، وما ظهر لك من ريتها التي لا بقاء لها على الفردوس الأعلى، والمرافقة مع الأنبياء والصدّيقين والشهداء.

أما سمعت قوله عز وجل: ﴿أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: ٣٨].

وقوله تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [الأعلى: ١٦ - ١٧].

وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى * وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ [النارعات: ٣٧ - ٣٩].

* * *

(فصل)

واعلم أن دخول النار بالكفر وتضاعف العذاب وقسمة الدركات بالأعمال السيئة والأخلاق السيئة، ودخول الجنة بالإيمان وتضاعف النعيم وقسمة الدرجات بالأعمال الصالحة والأخلاق الحسنة، وأن الله عز وجل خلق الجنة فحشاها بالنعيم ثواباً لأهلها، وخلق النار فحشاها بالعذاب عقاباً لأهلها، وخلق الدنيا فحشاها بالآفات والنعيم محنة وابتلاء، ثم خلق الخلق والجنة والنار في غيب منهم لم يعاينوهما.

فالنعيم والآفات التي في الدنيا هي أنموذج الآخرة ومذاقة ما فيها، وخلق في الأرض من عبيده ملوكاً، أعطاهم سلطاناً أرفع به القلوب وملك به النفوس، فهو أنموذج ومثال لتدبيره وملكه ونفاذ أمره ومعاملته، فجعل خبر ذلك كله تنزيلاً، ووصف الدارين ووصف ملكه وقدرته وتدبيره ومته وصنائه وضرب الأمثال على ذلك، ثم قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

فالعلماء بالله يفهمون عن الله أمثاله، لأن المثل إنما هو صفة شيء قد شاهدته يريك صفة ما غاب عنك، ويبصر بك بما تبصره بعينك لينفذ بصرك قلبك إلى ما لا تبصره عينك، فيعقل قلبك ما خوطبت به من خبر الملكوت وخبر الدارين وخبر معاملة ملك الملوك، فليس في الدنيا نعمة ولا شهوة إلا وهي أنموذج الجنة وذوقها، ثم من وراء ذلك فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

فلو سمي للعباد منها شيء لم ينتفعوا بتلك الأسماء، لأنهم لم يعقلوه هاهنا ولا أروه وليس له أنموذج في الدنيا.

والجنة مائة درجة، وإنما وصف منها ثلاث درجات الذهب والفضة والنور، ثم من وراء ذلك غير معقول، ولا تحمله العقول.

وكذلك ما فى الدنيا من الشدة والعذاب فهو أنموذج دار العقاب، ثم من وراء ذلك ما لا تحمله العقول من ألوان العذاب، كل ذلك يخرج لهم من غضبه ولأهل الجنة من رحمته.

فكل من تناول من عبيده من دنياه ما أبيح له وشكره عليها أبدل له من الجنة ما يدقّ هذا فى جنبه، ومن تناول ما لم يبح له فقد حرم نفسه حظها من الدرجات، ومن كذب بها حرم الجنة بما فيها أجمع.

فلأهل الجنة عرائس وولائم وضيافات، فالعرائس للدعوة، وذلك أن رب العزة سبحانه دعاهم إلى دار السلام ليجدد لهم أبداناً طرية وأعماراً أبدية، والولائم للأزواج والضيافات للزيارة، ولأهل الجنة تلاق وزيارات فيما بينهم، ومتحدث فى مواطن الألفة، ومجتمع فى ظل طوبى يلقون الرسل هناك ويزورونهم ومجالس الملائكة فيما بينهم سلام الله عليهم أجمعين.

وأسواق يأتونها يتخيرون الصور، وهدايا من الرحمن فى أوقات الصلوات، يغذى ويراح عليهم من ألوان الأطعمة والأشربة والفواكه بكرة وعشياً، أرزاقهم دارة لا مقطوعة ولا ممنوعة، ومزيد من الله يوماً بيوم، فإذا أتاهم المزيد نسوا ما قبله، ثم لهم منتزه يخرجون إليه فى رياض على شاطئ نهر الكوثر، عليه خيام الدر مضروبة، والخيمة ستون ميلاً فى عرض مثله، من لؤلؤة واحدة ليس لها باب، فيها جوار عبقات، لم ينظر إليهن ملك ولا أحد من أهل الجنة من الخدام والخور، وهو قوله عز وجل: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حَسَنَاتٌ﴾ [الرحمن: ٧٠].

وإذا قال الله لهن ﴿حَسَنَاتٌ﴾ فمن يقدر أن يصف حسنهن، ثم قال تعالى: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ﴾ [الرحمن: ٧٢].

فتلك خيرة الرحمن اختار صورهن الحسان من بين الصور، أبدعن من سحائب الرحمة، فإذا أمطرت أمطرت جوارى حسناً على مشيئة الكريم، نور وجوههن من نور العرش، فضربت عليهن خيام الدر فلم يرهن أحد منذ خلقن، فهن مقصورات فى الخيام قد قصرن - أى حبسن - على أزواجهن من جميع الخلق.

فأهل الجنة يتنعمون في القصور مع الأزواج، ويلبثون في النعمة ما شاء الله، حتى إذا كان اليوم الذي يريد الله عز وجل أن يجدد لهم نعمة ونزعة، نودوا في درجات الجنان: يا أهل الجنان، إن هذا يوم نزعة وسرور وتفسح وحبور، فاخرجوا إلى منتزهكم، فيخرجون على خيول الدر والياقوت من أبواب مدائنهم إلى تلك الميادين، ثم يسيرون من الميادين إلى تلك الرياض على شاطئ نهر الكوثر، فيهديهم الله إلى منازلهم، فينزل كل رجل منهم عند خيمته ولا باب لها، فتصدع الخيمة عن باب، وذلك بعين ولي الله تعالى، ليعلم أن التي فيها لم يطلع عليها أحد، وفاء لما قدم الله من الوعد في دار الدنيا حيث قال: ﴿فيه خيرات حسان﴾ [الرحمن: ٧٠]، ثم قال تعالى: ﴿حور مقصورات في الخيام﴾ [الرحمن: ٧٢]، ثم قال عز وجل: ﴿لم يطمئنهن إنس قبلهم ولا جان﴾ [الرحمن: ٧٤].

فيستوى معها على سرير النزهة في تلك الحجال، فيمال عليهم من وليمتها، فإذا طعموا اللائم سقاهم الله شراباً طهوراً، وتفكهوا بطرف الفواكه التي جدد الله لهم من تلك الهدايا في ذلك اليوم والحلى والحلل، فخلع عليهم كسوة الرحمن، واشتغلوا بالخيرات الحسان، يقضون منهن الأوطار والنهمات، ثم يتحولون إلى مجالس العبقريات الموشاة باللون النقوش على شواطئ الأنهار في تلك الرياض، يركبون الرفارف الخضراء ويتكئون عليها وهو قوله تعالى: ﴿متكئين على رفرف خضر وعبقرى حسان﴾ [الرحمن: ٧٦].

وإذا قال الله لشيء ﴿حسان﴾، فماذا بقى، فالرفرف، هو شيء إذا استوى عليه رفر به وأهوى كالأرجوحة يميناً وشمالاً ورفعاً وخفضاً يتلذذ مع أنيسه.

فإذا ركبوا الرفارف أخذ إسرافيل عليه السلام في السماع، وروى في الخبر «أنه ليس أحد من خلق الله أحسن صوتاً من إسرافيل عليه السلام».

فإذا أخذ في السماع قطع على أهل سبع سموات صلاتهم وتسبيحهم، فإذا ركبوا الرفارف وأخذ إسرافيل في السماع باللون الأغاني تسييحاً وتقديساً للملك القدوس، فلم يبق في الجنة شجرة إلا وردت، ولم يبق ستر ولا باب إلا ارتج وانفتح، ولم يبق حلقة باب إلا طنت باللون طنينها، ولم يبق أجمة من آجام الذهب والفضة إلا وقع هبوب الصوت في مقاصبها، فزمرت تلك المقاصب بفنون الزمر، ولم تبق جارية من جواري

الخور العين إلا غنت بأغانيها والطير بألحانها، فيوحى الله عز وجل إلى الملائكة أن جاوبوهم، وأسمعوا عبادى الذين نزهوا أسماعهم عن مزامير الشيطان فيجاوبون بالحن وأصوات روحانية، فتختلط هذه الأصوات فتصير رجة واحدة.

ثم يقول الله تعالى: قم يا داود عن ساق عرشى فمجدنى، فيندفع داود فى تمجيد ربه بصوت يغمر الأصوات ويحليها، وتتضاعف اللذة وأهل الخيام على تلك الرفارف تهوى بهم، وقد حفت بهم أفانين اللذات والأغاني، فذلك قوله عز وجل: ﴿فهم فى روضة يحبرون﴾ [الروم: ١٥] - قال يحيى بن كثير رحمه الله: الروضة: اللذة والسماع -.

فبينما هم على لذاتهم وسرورهم إذ يفتح لهم باب الملك القدوس من جنة عدن، فارتجت أصوات صفوف الروحانيين من باب جنة عدن بتماجيد الماجد الكريم إلى درجات الجنان، وثار ريح عدنية بألوان الطيب والروح والنسيم وهو نسيم القرية، وسطح على أثر ذلك نور فأشرقت منه رياضهم وخيامهم وشواطئ أنهارهم، وامتأ كل شىء منهم نوراً، ثم ناداهم الجليل جل جلاله من فوق رؤوسهم: السلام عليكم أحبائى وأوليائى وأصفياى يا أهل الجنة كيف وجدتم متزهكم، هذا يومكم بدل نيروز أعدائى، طلبوا يوماً من الدنيا ليجددوا على أنفسهم النعمة التى قد كدروها على أنفسهم لخبثهم وشقائهم، فلم ينالوا ما طلبوا من اللذة، وخسروا فى جنب ما طلبوا فى العاجل، ولم يتصبروا حتى ينالوا هذا الذى أعددت فى الأجل لأهل طاعتى، فأعرضتم عما إليه أقبلوا، وامتنعتم مما فيه تنافس أهل الدنيا، فاليوم يذوقون وبال ما تنافسوا فيه وشيكاً ما انقطع به ما طلبوا من اللذة والنهمة فى دار الفناء، وصاروا إلى الذل والهوان، وجزيتم بما صبرتم جنة وحريراً، ومنتزهاً وسلاماً، وهذا يوم نيروزكم ومنتزهكم، وهذا يوم ريارتكم فى دارى فى جنة عدن، وطالما رأيتم فى أيام الدنيا فى مثل ذلك اليوم مشغولين بعبادتى وطاعتى، والمترفون فى لهوهم ولبسهم سكارى حيارى عصاة متمردين، يتنعمون بحطام الدنيا، ويفرحون بتداولها بينهم، وأنتم تراقبون جلالى، وتحفظون حدودى وترعون عهدى وتشفقون على حقوقى.

ويفتح لهم باب من أبواب النيران فيفور لهما ودخانها وصراخ أهلها وعويلهم، لينظر أهل الجنان من هذه المجالس إلى ما من الله عليهم، فيزدادون غبطة وسروراً.

وينظر أهل النار من تلك السجون والمحابس فى تلك الأغلال والقيود فيتحسرون

على ما فاتهم، فيستغيثون بوجه أهل الجنان إلى الله، وينادونهم بأسمائهم، فيقول الله تبارك اسمه: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَكَّهُونَ * هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَكِنُونَ * لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدْعُونَ * سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ * وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ * أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا آدَمُ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * وَإِنْ أَعْبَدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ [يس: ٥٥ - ٦١].

فتجيش لهم النار فتفرق جمعهم وينقطع نداؤهم، فترمى بهم إلى جزائر فى النار، فإذا أُخرجوا إليها دبت إليهم عقارب لها أنياب كأمثال النخل، ثم يقبل عليهم سيل من نار من تحت العرش حشوه غضب الله، فيحملهم فيفرقهم فى بحار النيران، وينادى مناد من قبل الله تعالى: هذا يومكم الذى كنتم تبارزونى فيه بالعظائم، وتتمردون على بنعمتى، وتفرحون فى دار الأحزان والعبودية بما تضاهون به ما أعددت لأهل طاعتى، فقد انقطعت عنكم تلك اللذات، فذوقوا وبال ما آثرتوه، فإن أهل الجنة قد شغلوا عنكم بالتنعم بالولائم وألوان الفواكه وطرف الهدايا وافتتضاض العذارى وركوب الرفارف، والتلذذ بالأغاني وألوان السماع وسلامى عليهم وإقبالى بالبر واللطف إليهم، والمزيد ما يستفرغ نعمهم ليتهنوا بنعيمهم ويزدادوا به لذة على لذتهم.

فيا أهل الجنة هذا لكم بدل يوم أعدائى الذين تباشروا وأهدوا إلى ملوكهم وقبلوا هداياهم وأنتم الفائزون.

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: «قال رجل لرسول الله ﷺ: إني رجل قد حجب إلى الصوت الحسن فهل فى الجنة صوت حسن؟ قال ﷺ: أى الذى نفسى بيده، إن الله عز وجل ليسوحى إلى شجرة فى الجنة أن أسمع عبادى الذين اشتغلوا بعبادتى وذكرى عن عزف البرابط والمزامير، فترفع بصوت لم تسمع الخلائق بمثله من تسبيح الرب وتقديسه»^(١).

وعن أبى قلابه رحمه الله قال: قال رجل لرسول الله ﷺ: «هل فى الجنة من ليل؟ قال ﷺ: وما هيحك على هذا؟ قال: سمعت الله عز وجل يذكر فى الكتاب: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ٦٢] فقلت: الليل بين البكرة والعشى، فقال رسول الله ﷺ: ليس هناك ليل إنما هو ضوء ونور، يرد الغدو على الرواح والغدو على الغدو،

(١) جمع الجوامع (٩١٣١).

ويأتيهم طرف الهدايا من الله لمواقيت الصلوات التي كانوا يصلونها فى الدنيا، وتسلم عليهم الملائكة»^(١).

فمن أراد أن يكون له حظ فى هذا العيش اللذيذ الدائم، فعليه بحفظ حدود وشروط التقوى، وهى المذكورة فى قوله عز وجل: ﴿ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون﴾ [البقرة: ١٧٧] وعليه بالإتيان بحدود الإسلام وأجزائه.

وروى عن حذيفة بن اليمان رضى الله عنهما أنه قال فى تفسير قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة﴾ [البقرة: ٢٠٨] الإسلام ثمانية أسهم:

الصلاة سهم، والزكاة سهم، والصيام سهم، والحج سهم، والعمرة سهم، والجهاد سهم، والأمر بالمعروف سهم، والنهي عن المنكر سهم، وقد خاب من لا سهم له. وعن عاصم، يعنى الأحوال، عن أنس بن مالك رضى الله عنه، عن النبى ﷺ أنه قال: «مثل الإسلام كمثلى الشجرة الثابتة، الإيمان بالله أصلها، والصلوات الخمس فروعها، وصيام شهر رمضان لحاؤها، والحج والعمرة جناها، والوضوء والغسل من الجنابة شربها، وبر الوالدين وصلة الرحم غصونها، والكف عن محارم الله ورقها، والأعمال الصالحة ثمرها، وذكر الله عروقها»، ثم قال ﷺ: «كما لا تحسن الشجرة ولا تصلح إلا بالورق الأخضر، كذلك لا يصلح الإسلام إلا بالكف عن المحارم، والأعمال الصالحة».

(١) الدر المنثور ٤/٢٧٨، والكنز (٣٩٣٨٦)، والقرطبي ١١/١٢٧.

(فصل)

فى صفة النار وما أعد الله لأهلها فيها وصفة الجنة وما أعد الله لأهلها فيها

عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كان يوم القيامة واجتمع الخلائق ليوم لا ريب فيه فى صعيد واحد، غشيتهم ظلمة سوداء لا ينظر بعضهم بعضاً من شدة الظلمة، والخلائق قيام على صدور أقدامهم، وبينهم وبين ربهم عز وجل مسيرة سبعين عاماً.

قال: فبينما هم كذلك إذ تجلى الخالق تبارك وتعالى للملائكة، فأشرقت الأرض بنور ربها، وانجلت الظلمة، فغشى الخلائق كلهم نور ربهم، والملائكة حافون من حول العرش يسبحون بحمد ربهم ويقدمون له.

قال: فبينما الخلائق قيام كلهم صفوفًا، كل أمة قائمة فى ناحية، إذ أتى بالصحف والميزان، ووضعت الصحف وعلق الميزان بيد ملك من الملائكة يرفعه مرة ويخفضه مرة أخرى، قال: فبينما هم كذلك إذ كشف الغطاء عن الجنة فأزلقت، فهبت منها ريح فوجد المسلمون عرفها كالمسك وبينهم وبينها مسيرة خمسمائة عام، ثم كشف الغطاء عن جهنم فهبت منها ريح مع دخان شديد، فوجد المجرمون عرفها وبينهم وبينها مسيرة خمسمائة عام.

ثم جىء بها تقاد موثقة بسلسلة عظيمة عليها تسعة عشر خازنًا من الملائكة، مع كل خازن منهم سبعون ألف ملك أعوان له، فيقودها كل خازن منهم مع أعوانه، وسائر الخزان مع أعوانهم يمشون عن يمينها وشمالها وورائها، بيد كل ملك منهم مقمعة من حديد يصيحون بها، فتمشى ولها زفير وشهيق ووعث وظلمة ودخان وتقعقع ولهب عال من شدة غضبها على أهلها، فينصبونها بين الجنة والموقف، فترفع طرفها، فتنتظر إلى الخلائق، ثم تجمع إليهم لتأكلهم، فيحبسونها خزنتها بسلاسلها، فلو تركت لأتت على كل مؤمن وكافر.

فلما رأت أنها قد حبست عن الخلائق فارت فوراً شديداً ﴿تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ﴾

ثم شهقت الثانية فتسمع الخلائق صوت صريف أسنانها فارتعدت عند ذلك الأفئدة، وانخلعت القلوب وطارت الأفئدة وشخصت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر.

قال قائل: يا نبي الله حلها لنا، قال ﷺ: نعم، هي مثل هذه الأرض عظمًا سبعون جزءًا من بعد، سوداء مظلمة لها سبعة رؤوس، لكل رأس منها ثلاثون بابًا، طول كل باب منها مسيرة ثلاث ليال، وشفتها العليا تضرب منخرها، والشفة السفلى تسحبها، وفي كل منخر من مناخرها وثاق وسلسلة عظيمة، يمسكها سبعون ألف ملك غلاظ شداد كالحلأ أنيابهم أعينهم كالجمر وألوانهم كلهب النار، يفور من مناخرهم لهب، ودخان عال، مستعدين لأمر الجبار تبارك وتعالى.

قال: فحينئذ تستأذن جهنم ربها عز وجل فى السجود، فيقول لها: نعم اسجدى، قال: فتسجد ما شاء الله، قال: ثم يقول لها الجبار عز وجل: ارفعى، قال: فترفع رأسها فتقول: الحمد لله الذى جعلنى ينتقم بى ممن عصاه، ولم يجعل شيئًا ممن خلق ينتقم به منى، قال: ثم تقول بلسان طلق ذلق سلق: الحمد لله ما شاء الله من ذلك بصوت لها جهير، ثم تزفر زفرة فلا يبقى ملك مقرب ولا نبي مرسل ولا أحد ممن شهد الموقف إلا جثا على ركبتيه، ثم تزفر الثانية فلا تبقى قطرة فى عين أحد إلا بدرت، ثم تزفر الثالثة فلو كان لكل آدمى أو جنى عمل اثنين وسبعين نبيًا لواقعوها، ثم تزفر الرابعة فلا يبقى شيء إلا انقطع كلامه، غير أن جبريل وميكائيل وإبراهيم خليل الرحمن عز وجل متعلقون بالعرش يقول كل واحد منهم: نفسى نفسى لا أسألك غيرها.

قال: ثم ترمى بشرر كعدد نجوم السماء، عظم كل شرارة كالسحابة العظيمة، الطالعة من المغرب، فيقع ذلك الشرر على رؤوس الخلائق، قال: ثم ينصب الصراط عليها فيهيأ له سبعمائة قنطرة، ما بين كل قنطرتين منها سبعون عامًا، وقيل: سبع قناطر، وعرض الصراط من الطبقة الأولى إلى الطبقة الثانية مسيرة خمسمائة عام، ومن الثانية إلى الثالثة مسيرة خمسمائة عام، ومن الثالثة إلى الرابعة مثلها، ومن الرابعة إلى الخامسة مثلها، ومن الخامسة إلى السادسة مثلها، ومن السادسة إلى السابعة مسيرة خمسمائة عام وهى أعرضهن وأشدهن حرًا وأبعدهن قعرًا وأكثرهن جمرًا وأكثرهن ألوانًا بسبعين جزءًا، فأما الطبقة الدنيا فقد جاز لهبها الصراط يمينًا وشمالًا فى السماء مسيرة ثلاثة أميال، وكل طبقة أشد حرًا وأكبر جمرًا وأكثر فى ألوان العذاب من التى فوقها بسبعين جزءًا، فى

كل طبقة بحر وأنهار وجبال وشجر، طول كل جبل منها في السماء مسيرة سبعين عاماً، وفي كل طبقة منها سبعون جبلاً، وفي كل جبل منها سبعون ألف شعبة، في كل شعبة منها سبعون ألف شجرة ضريع، لكل شجرة منها سبعون شعبة، على كل شعبة منها سبعون حية وسبعون عقرباً، طول كل حية منها مسيرة ثلاثة أميال، فأما العقارب فكالبخاتي العظام، على كل شجرة منها سبعون ألف ثمرة، في كل ثمرة رأس شيطان، في جوف كل ثمرة منها سبعون دودة طول كل دودة منها مسيرة غلوة، ومنها ثمر ليس فيه دود وليس فيه شوك.

وكان ﷺ يقول: «إن لجهنم سبعة أبواب، لكل باب منها سبعون وادياً، قعر كل واد منها مسيرة سبعين عاماً، ولكل واد منها سبعون ألف شعبة، وفي كل شعبة منها سبعون ألف مغارة، وفي كل مغارة سبعون ألف شق، كل شق منها مسيرة سبعين عاماً، في جوف كل شق منها سبعون ألف ثعبان، في شق كل ثعبان منها سبعون ألف عقرب، لكل عقرب منها سبعون ألف فقارة، في كل فقارة قلة سم لا ينتهي الكافر ولا المنافق حتى يوافي ذلك كله».

قال: فبينما الخلائق جاثون على ركبهم وجهنم تخطر كما يخطر الجمل المغتلم، قال: فينادى مناد بصوت عال، فيقوم النبيون والصديقون والشهداء والصالحون، ثم عرضوا عرضة ردت فيها المظالم، ثم عرضوا الثانية فتجادلت الأرواح والأجساد وظهرت الأجساد على الأرواح، ثم عرضوا على الله الثالثة، فطارت الصحف فوقعت في أيدي الخلق، فمنهم من أوتي كتابه بيمينه، ومنهم من أوتي كتابه بشماله، ومنهم من أوتي كتابه وراء ظهره.

فأما الذين أوتوا كتابهم بأيمانهم فأعطوا نوراً من نور ربهم، وهنتهم الملائكة بكرامتهم، فجازوا الصراط برحمة ربهم، ودخلوا جناتهم فلقيتهم خزائهم عند أبواب جناتهم بكسوتهم ومراكبهم وبالخلية التي تنبغى لهم، فافترقوا إلى منازلهم وانقلبوا مسرورين إلى قصورهم، فدخلوا على أزواجهم فنظروا إلى ما لا عين رأت وتصف الستهم، ولم تبصر أبصارهم، ولم يخطر على قلوبهم، فأكثروا وشربوا ولبسوا حليتهم ثم اعتنقوا أزواجهم ما قدر لهم، ثم حمدوا خالقهم الذي أذهب عنهم حزنهم، وآمنهم من فزعهم، ويسر لهم حسابهم، ثم شكروا ما أعطاهم ربهم، فقالوا: ﴿الحمد لله الذي

هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله ﴿[الأعراف: ٤٣]﴾.

فقرت أعينهم بما تزودوا من دنياهم، كانوا موقنين مؤمنين مصدقين خائفين راجين راغبين، فعند ذلك نجا الناجون وهلك الكافرون.

وأما الذين أوتوا كتابهم بشمالهم ومن وراء ظهورهم فاسودت وجوههم وانقلبت زرقاً عيونهم، ووسموا على خراطيمهم وعظمت أجسادهم، وغلظت جلودهم وهتفوا بويلهم حين نظروا إلى كتابهم، وعاینوا ذنوبهم، لم يغادروا صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوها مثبتة في كتابهم، فهم كاسف بالهم سىء ظنهم شديد رعبهم كثير همهم، منكسة رؤوسهم خاشعة أبصارهم خاضعة رقابهم، يسارقون النظر إلى نارهم، لا يرتد إليهم طرفهم، لأنهم عاینوا أمراً عظيماً كبيراً مفضلاً جليلاً طاماً مكرباً مفرعاً مرعباً محزنًا مخسئاً مهمًا للقلوب وللعیون مبكياً، فأقروا بالعبودية لربهم واعترفوا بذنوبهم وكان اعترافهم عليهم ناراً وعاراً وتحزناً وشفاء وإلزاماً وسخطاً.

قال: فبينما القوم بين یدى ربهم عز وجل جاثون على ركبهم بذنوبهم معترفون، زرقاً أعینهم لا يبصرون، هاوية قلوبهم فلا يعقلون، مرجفة أوصالهم فلا يتكلمون، منقطعة أرحامهم فلا يتواصلون ﴿فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون﴾ [المؤمنون: ١٠١].

أصيبوا في أنفسهم فلا ينجبون، ويسألون الرجعة فلا يجابون، قد أيقنوا بما كانوا يكذبون، فهم عطاش لا يروون، وجیاع لا يشبعون، وعراة لا يكتسون، مغلوبون لا ينصرون، معزنون مسلوبون، مخسرون أنفسهم وأهليهم وأموالهم ومكاسبهم.

قال: فبينما القوم كذلك إذ أمر الله تعالى خزنة جهنم أن يخرجوا منها ومعهم أعوانهم، وأن يحملوا آداتهم من السلاسل والأغلال والمقامع، قال: فخرجوا منها على ناحية ينتظرون بماذا يؤمرون.

قال: فلما نظر إليهم الأشقياء وعاینوا وثاقهم وثيابهم عضوا أيديهم، فأكلوا أناملهم وهتفوا بويلهم وفاضت دموعهم وزلزلت أقدامهم ويشسوا من كل خير، فيقول خذوهم فغلوهم ثم الجحيم صلوهم ثم في سلسلة فأوثقوهم.

قال: فمن شاء الله أن يلقيه في تلك الأطباق دعا خزانها، فقال لهم خذوهم، فابتدر إلى كل إنسان منهم سبعون ملكاً، فشدوا وثاقهم وجعلوا الأغلال الشقال في أعناقهم والسلاسل في مناخرهم، فخنقوا وجمعوا بين نواصيهم وأقدامهم من وراء ظهورهم،

فتكسرت أصلابهم.

قال: فلما فعل ذلك بهم شخصت أبصارهم وانتفخت أوداجهم، واحترقت لحوم رقابهم وسلخت عروقهم، واشتعل حر الأغلال في رؤوسهم، فغلت منها أدمغتهم، ففاضت على جلودهم حتى وقعت على أقدامهم فتساقطت منها جلودهم واخضرت منها لحومهم، فسال منها صديدهم.

قال: فلما جعلت الأغلال في أعناقهم ملأت ما بين مناكبهم إلى آذانهم، فاحترقت لحومهم وتقطعت شفاههم وبدت أنيابهم وألستهم بصوت وصراخ، ووهج لها لهب عال يجري حرها مجرى الدم في عروقهم مجوفة، ويجرى خلالها لهب النار فيبلغ حر تلك الأغلال قلوبهم، فتسلخت حتى بلغت حناجرهم، فاشتد خناقهم وانقطعت أصواتهم وفنيت جلودهم.

قال: فبينما هم كذلك أمر الله تعالى خزنة جهنم أن يكسوهم ثياباً، قال: فآلبسوهم ثيابهم وسراويلهم شديداً سوادها، ومنتناً ريحها وخشناً مسها تلظى من شدة حرها، لو وضعت على جبال الأرض أذابتها.

قال: ثم يقول الله عز وجل لخزنة جهنم: سوقوهم إلى منازلهم، قال: فيأتون بسلاسل أحر أطول وأغلظ من اللاتي أوثقوا فيها، قال: فيأخذ كل ملك سلسلة من تلك السلاسل فيقرن فيها أمة من الأمم، ثم يضع طرفها على عاتقه فيوليهم ظهره، ثم ينطلق بهم مسحوبين على وجوههم، في دبر كل أمة منهم سبعون ألف ملك، يضربونهم بمقامع حتى يأتوا بهم جهنم فيوقفونهم عليها.

قال: ثم تقول لهم الملائكة: ﴿هذه النار التي كنتم بها تكذبون﴾ * أفسح هذا أم أنتم لا تبصرون * اصلوها فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون ﴿[الطور: ١٤ - ١٦].

قال: فلما أوقفوا عليها فتحت لهم أبوابها وكشف عنها غطاؤها، فتسمرت وألهمت نارها، فخرج منها دخان شديد مع شرر كعدد نجوم السماء فطارت إلى السماء مقدار سبعين عاماً، ثم رجع ذلك فوق على رؤوسهم، فاحترقت أشعارهم وانقلعت جماجمهم.

قال: ثم صرخت جهنم بأعلى صوتها: إلى يا أهل النار إلى يا أهل النار، أما وعزة

ربى لأنتقم منكم.

ثم قالت: الحمد لله الذى جعلنى أغضب لغضبه ويتقم بى من أعدائه، رب رذنى حرًا إلى حرى وقوة إلى قوتى.

قال: فتخرج منها ملائكة آخر، فيستقبل كل أحد منهم أمة من الأمم، فيرفعهم براحتة فيكبهم فى جهنم على وجوههم، فيهبون على رؤوسهم مقدار سبعين عامًا من قبل أن يبلغوا رؤوس جبالها.

قال: وإذا بلغوا رؤوس جبالها لم يتقاروا عليها حتى يبدل لكل إنسان منهم سبعون جلدًا.

قال: فأول أكلة يأكلون على رؤوس تلك الجبال أكلة من الزقوم، ظاهرة حرارتها شديدة مرارتها كثير شوكرها.

قال: فبينما هم يمضغون أكلتهم تلك، إذ أتتهم الملائكة يضربونهم بمقامعهم فتكسرت عظامهم ثم أخذوا بأرجلهم فألقوهم فى جهنم فهبوا على رؤوسهم مقدار سبعين عامًا من قبل أن يتقاروا فى شعابها.

قال: فما تقاروا فى شعابها حتى يبدل لكل إنسان منهم سبعون جلدًا.

قال: وأكلتهم تلك فى أفواههم لا يستطيعون أن يسيغوها، قال: فتجتمع الأكلة والقلب عند الحلق فيغص بها، فيستغيث كل إنسان منهم بالشرب فإذا فى تلك الشعاب أودية تنصب إلى جهنم.

قال: فينطلقون يمشون حتى يردوها، فينكبون عليها يشربون منها.

قال: فتقطع جلود وجوههم فتقع فيها.

قال: فلا يستطيعون أن يشربوا منها.

قال: فيعرضون عنها لإعراضة فتدركهم الملائكة وهم منكبون على تلك العيون، فيضربونهم فتكسر عظامهم ثم يأخذون بأرجلهم فيلقونهم فى جهنم، فيهبون على رؤوسهم مقدار أربعين ومائة عام فى لهب ودخان شديد من قبل أن يتقاروا فى أوديتها.

قال: فلا يتقارون فى أوديتها حتى يبدل لكل إنسان منهم سبعون جلدًا. قال: ومتهى تلك العيون فى تلك الأودية.

قال: فيشربون منها فإذا هى ماء حميم، فلا يتقار فى بطونهم حتى يبدل الله لكل

إنسان منهم سبعة جلود.

قال: فإذا تقار في بطونهم قطع أمعاءهم، فخرجت من مقاعدهم وجرى باقيه في عروقهم، فذابت لحومهم، وتصدعت عظامهم وأدركتهم الملائكة فضربت وجوههم وأدبارهم ورؤوسهم بمقامعهم، لكل مقمع منها ثلاثمائة وستون حرقاً، فإذا ضربت بها رؤوسهم انقلعت جماجمهم وتكسرت أصلابهم، وسحبوا في النار على وجوههم حتى توسطوا جحيمها، فاشتعلت النار في جلودهم وتشعبت في آذانهم، فخرج لهبها من مناخرهم وأصلاعهم، وتفجر الصديد من أجسادهم، وخرجت أعينهم فتعلقت على خدودهم، ثم قرنوا مع شياطينهم الذين كانوا يطيعونهم، وألهتهم التي كانت مستغاثهم، فألقوا في أماكن ضيقة مقرنين، فهتفوا بويلهم ثم جرى بأموالهم فأحميت في نارهم، فكويت بها جباههم وجنوبهم ووضعت على ظهورهم فخرجت من بطونهم، فهم أولياء جهنم وقرناء الشياطين والحجارة، وعلقوا بخطاياهم كالجبال ليشدد عليهم العذاب فطول أحدهم مسيرة شهر وعرضه مسيرة خمسة أيام وغلظه مسيرة ثلاث ليال ورأسه مثل الأقرع وهو جبل بأقصى الشام، في فيه اثنان وثلاثون ناباً، قد خرج بعضها من رأسه وبعضها من أسفل لحيته وأنفه مثل الرابية العظيمة، طول شعر رأسه وغلظه مثل شجرة الأرز وكثرته كأجام الدنيا، وشفته العليا قالصة، والسفلى تسعون ذراعاً، وطول يده مسيرة عشرة أيام وغلظها مسيرة يوم، وفخذه مثل ورقان وغلظ جلده أربعون ذراعاً بذراعه، وطول ساقه مسيرة خمس ليال وغلظها يوم، كل حدقة له مثل حراء، وهو جبل بمكة، إذا صب فوق رأسه القطران اشتعلت فيه النار، فلم تزد إلا التهاباً.

قال: وكان النبي ﷺ يقول: والذي نفسى بيده لو أن رجلاً خرج من النار يجر سلسلة مغلولة يده إلى عنقه، في عنقه الأغلال وفي رجله الكبول، ثم رآه الخلاق لانهزموا عنه وفروا منه كل مفر.

قال: فمن شدة حرها وغمها وألوان عذابها وضيق منازلها، اخضرت لحومهم وتصدعت عظامهم وغلّت أدمغتهم ففارت على جلودهم، واحتترقت جلودهم فغضت أوصالهم، فسال منها صديدهم، فتدودت أجسامهم وسمنت ديدانهم وصارت مثل حمر الوحش، لها أظافير مثل أظافير النصور والعقبان، تشتد ما بين جلدهم ولحمهم،

وتنهشهم، وتزفر زفرة، وتتردد كما يتردد الوحش المدعور، يأكلن لحمه ويشربن دمه، ليس لها مأكّل ولا مشرب غيرها، ثم تأخذهم الملائكة فتسحبهم على وجوههم على الجمر والحجارة كأنها أسنة، مستعدين منطلقين بهم إلى بحر جهنم، مسيرة سبعين عامًا، فلا يبلغونه حتى تنقطع أوصالهم وتبدل جلودهم كل يوم سبعين ألف مرة، فإذا انتهى بهم إلى خزنتها أخذوا بأرجلهم فدفعوهم فيه، فلا يعلم أحد قعر ذلك البحر إلا الذى خلقه.

وقد قيل: إنه مكتوب فى بعض أسفار التوراة: أن بحر الدنيا عند بحر جهنم كعين صغيرة فى ساحل بحر الدنيا.

قال: فإذا قذفوا فيه ووجدوا مس العذاب قال بعضهم لبعض: كأنما الذى عذبنا به قبل هذا حلم.

قال: فيغمسون مرة ويرتفعون ويغلى فتقذفهم سبعين باعًا، بعد كل باع كبعد المشرق من المغرب ثم تسوقهم الملائكة بمقامعهم، فيضربونهم بها ويردونهم إلى قعرها مسيرة سبعين عامًا، منها طعامهم وشرابهم فيرتفعون من قعرها مقدار أربعين ومائة عام فيريد أحدهم أن يتنفس، فتستقبله الملائكة بمقامعهم متبادرين إليه لضربه، غير أنه يذكر أنه إذا رفع رأسه وقع على رأسه سبعون ألف مقمع لا يخطئه شيء منها، فيرده سبعين باعًا فى قعرها، كل باع منها كبعد المشرق من المغرب.

قال: فهم فيها ما شاء الله من ذلك، حتى تأكل لحومهم وعظامهم، وتبقى أرواحهم، فيضربهم موجه سبعين عامًا، ثم تنبذهم إلى ساحل من سواحله فيه سبعون ألف مغارة، فى جوف كل مغارة سبعون ألف شق، كل شق منها مسيرة سبعين عامًا، فى جوف كل شق منها سبعون ألف ثعبان، طول كل ثعبان منها سبعون ذراعًا، لكل ثعبان منها سبعون نابًا، فى كل ناب منها قلة سم، فى شق كل ثعبان منها ألف عقرب، لكل عقرب منها سبعون فقارة، فى كل فقارة منها قلة من سم.

قال: فتخرج أرواحهم من ذلك البحر إلى تلك المغارة، فتجدد لهم أجساد وجلود، ويغلون فى الحديد، فتخرج عليهم تلك الحيات والعقارب فتعلق فى كل إنسان منهم سبعون ألف حية وسبعون ألف عقرب، فيصبرون، ثم ترتفع إلى ركبهم فيصبرون، ثم ترتفع إلى صدورهم فيصبرون، ثم ترتفع إلى تراقيهم فيصبرون، ثم ترتفع فتعلق

بمناخرهم وشفاههم وألسنتهم وآذانهم فيجزعون، وليس لهم مستغاث إلا أن يهربوا إلى جهنم؛ فيقعوا فيها.

فأما الحيات فتمضغ لحومهم وتنشف دماءهم، وأما العقارب فتلدغهم فتساقط لحومهم وتقطع أوصالهم، فإذا وقعوا في النار مكثت النار سبعين عاماً لا تحرقهم من سم الحيات والعقارب.

قال: ثم تحرقهم النار سبعين عاماً، ثم تجدد لهم جلود غير جلودهم، ثم يستغيثون بالطعام، فتأتيهم الملائكة بطعام يقال له الوليمة، وهو أشد يبسا من الحديد، فيمضغونه فلا يستطيعون أن يأكلوا منه شيئاً، فيلقونه من أفواههم ويدأون بأيديهم من شدة الجوع، فيتأكلون أناملهم ثم يأكلون أكفهم، فإذا أكلوها بدأوا بسواعدهم فأكلوها أيضاً إلى مرافقهم، ثم بدأوا بمرفقهم فأكلوها إلى مناكبهم، فتبقى رؤوس المناكب، ولو نالوا بعدها شيئاً من أجسادهم بأفواههم لأكلوه فإذا فعلوا ذلك بأجسادهم أخذوا فنوطوا بعراقيبهم بكلايب من حديد على شجرة الزقوم.

قال: فنوط منهم سبعون ألفاً في شعبة واحدة فما تنحنى، مصوبين على رؤوسهم، فيوقد تحتهم الحميم، فيستقبل حر النار وجوههم مقدار سبعين عاماً حتى تذوب أجسادهم وتبقى أرواحهم، ثم تجدد لهم جلود وأجساد، ثم يناطون بأناملهم ولهب النار من تحتهم، تدخل من مقاعدهم وتأكل من أفئدتهم حتى تخرج من مناخرهم وأفواههم ومسامعهم مقدار سبعين عاماً، حتى تذوب عظامهم ولحومهم وتبقى أرواحهم، ثم يتركون ويجدد لهم جلود وأجساد، ثم يناطون بأبصارهم مثلها، فلا يزالون يعذبون كذلك حتى لا يبقى مفصل في أجسادهم إلا نوطوا به مقدار سبعين عاماً، ولا تبقى شعرة في رؤوسهم إلا نوطوا بها، فيأتيهم الموت من مكان كل مفصل منهم، وما هم بميتين ومن راثهم عذاب غليظ، فإذا فعل ذلك بهم كله أنزلوهم فانطلقوا بكل إنسان منهم إلى منزله مغلولاً بسلسلة مسحوباً على وجهه.

قال: ولهم منازل فيها كقدر أعمالهم، فمنهم من يعطى منزلة مسيرة شهر طولها وعرضها مثل ذلك نار تتوقد لا ينزلها غيره.

ومنهم من يعطى منزلة مسيرة تسع وعشرين ليلة طولاً وعرضاً مثل ذلك، ثم كذلك تنقص منازلهم وتضيّق، حتى إن أحدهم ليعطى منزلة مسيرة يوم طولاً وعرضاً، ومن

نحو سعة منزلهم يعذبون .

فمنهم من يعذاب على القفا، ومنهم من يعذب جالساً، ومنهم من يعذب جاثياً على ركبتيه، ومنهم من يعذب قائماً على رجليه، ومنهم من يعذب منبطحاً على بطنه، فهذه المنازل كلها أضيّق على أهلها من رَجِ الرمح .

ومنهم من تكون ناره إلى كعبه، ومنهم من تكون ناره إلى ركبته، ومنهم من تكون ناره إلى حقويه، ومنهم من تكون ناره إلى سرتيه، ومنهم من تكون ناره إلى ترقوته، ومنهم من تكون ناره غرقاً، فمرة تعلو به ومرة تديره فتبلغه مسيرة شهر في قعرها .

فإذا وقعوا في منازلهم قرن كل منهم مع قرنائهم، فبكوا حتى تنزف دموعهم، ثم يكون الدم بعد الدموع، حتى لو أن السفن أرسلت إذا بكوا في دموعهم لجرت . قال: ولهم يوم يجتمعون فيه في أصل الجحيم، ثم لا تكون جماعة أبداً .

قال: فإذا أذن الله في ذلك اليوم نادى مناد في أصل الجحيم يسمع صوته أعلامهم وأسفلهم، وأدناهم وأقصاهم يقال له «حشر» يقول: يا أهل النار اجتمعوا، فيجتمعون أجمعون في أصل الجحيم، ومعهم الزبانية .

قال: فيأثمرون بينهم فيقول الذين استضعفوا ﴿لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ [إبراهيم: ٢١] في الدنيا ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مَغْنُونُونَ عَنَا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [إبراهيم: ٢١] ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ [غافر: ٤٨] .

وقال الذين استكبروا للذين استضعفوا ﴿لَا مَرْحَبًا بِكُمْ﴾ [ص: ٦٠] بنا تستغيثون، قال الذين استضعفوا للذين استكبروا: ﴿بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدِمْتُمُوهُ لَنَا فَبُئْسَ الْقَرَارُ﴾ [ص: ٦٠] .

وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا ﴿رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضَعْفًا فِي النَّارِ﴾ [ص: ٦١] .

فقال الذين استكبروا للذين استضعفوا ﴿لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهْدَيْنَاكُمْ﴾ [إبراهيم: ٢١] . ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعَفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا﴾ [سبا: ٣٣] فتتبرأ منكم وما كنتم تدعوننا إليه في الدنيا .

قال: ثم أقبلوا أجمعون على قرنائهم من الشياطين، فقالوا: أغويناكم كما غوينا، قال الشيطان عند آخر مقالته بصوت له عال: يا أهل النار ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ

الحق ﴿إبراهيم: ٢٢﴾ ودعاكم الله فلم تجيبوا ولم تصدقوا ﴿و﴾ إني ﴿وعدتكم﴾ وعداً ﴿فأخلفتكم وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى فلا تلومونى ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخى﴾ [إبراهيم: ٢٢] فإنا أكفر اليوم بما عبدتمونى من دون الله .

قال : ﴿فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين﴾ [الاعراف: ٤٤].

قال: فلعن عند ذلك الذين استضعفوا الذين استكبروا، ولعن الذين استكبروا الذين استضعفوا، ولعنوا قرناءهم من الشياطين، ولعنهم قرنائهم، ثم قالوا لقرنائهم: يا ليت بيننا وبينكم بعد المشرقين، فبئس القرناء أنتم لنا اليوم، وبئس الوزراء كنتم لنا فى الدنيا، فلما نظروا إلى جماعتهم قال بعضهم لبعض هلموا فلنطلب الخزنة، فلعلهم يشفعون لنا عند ربهم، ف ﴿يخفف عنا يوماً من العذاب﴾ [غافر: ٤٩].

قالوا: نعم فننادوا بأجمعهم الخزنة ﴿ادعوا ربكم يخفف عنا يوماً من العذاب﴾ [غافر: ٤٩] قال: وهم على ذلك يعذبون.

قال: وبين مراجعة الخزنة إياهم مقدار سبعين عاماً ثم يراجعونهم، فيقولون: ﴿أولم تك تأتيكم رسلكم بالبينات قالوا﴾ بأجمعهم ﴿بلى﴾ [غافر: ٥٠].

قال الخزنة: ﴿فادعوا وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال﴾ [غافر: ٥٠].

قال: فلما رأوا أن الخزنة لا ترد عليهم خيراً استغاثوا بمالك، فقالوا: يا مالك ادع لنا ربك فليقض علينا الموت، فيمكث مالك مقدار الدنيا لا يجيبهم ولا يرد عليهم قولاً، ثم يراجعهم فيقول: ﴿إنكم ماكثون﴾ [الزخرف: ٧٧] أحقاباً من قبل أن يقضى عليكم بالموت، فلما رأوا مالكا لا يرد عليهم خيراً استغاثوا بربهم، فقالوا: ﴿ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون﴾ [المؤمنون: ١٠٧].

يعنى نقول إن عدنا فى معصيتك، قال: فمكث الجبار سبحانه وتعالى مقدار سبعين عاماً لا يراجعهم بقولهم ولا يرد عليهم خيراً، ثم أجابهم بقوله وأنزلهم منزلة الكلاب ﴿اخسئوا فيها ولا تكلمون﴾ [المؤمنون: ١٠٨].

قال: فلما رأوا ربهم لا يرحمهم ولا يرد عليهم خيراً، قال بعضهم لبعض: ﴿سواء علينا أجزعنا﴾ من العذاب ﴿أم صبرنا ما لنا من محيص﴾ [إبراهيم: ٢١]، ﴿فما لنا من شافعين * ولا صديق حميم﴾ [الشعراء: ١٠٠ - ١٠١]، ﴿فلو أن لنا كرة فنكون من

المؤمنين ﴿الشعراء: ١٠٢﴾.

قال: ثم تنصرف بهم الملائكة إلى مساكنهم، فزلت عند ذلك أقدامهم ودحضت حجتهم ونظروا ما عند ربهم عز وجل، ويشسوا من رحمة ربهم وتلقاهم الكرب الشديد ونزل بهم الخزي والهوان الطويل، فهتفوا بحسرتهم على ما فرطوا في دنياهم، وحملوا أوزارهم على رقابهم وأوزار أتباعهم، من غير أن ينقص شيء من أوزارهم وعذابهم أكثر من تراب أرضهم وقطر بحورهم مع زبانية سريع أمرهم غليظ كلامهم عظيمة أجسادهم كالبرق، وجوههم كالجمر، أعينهم كاللهب، ألوانهم كالحة، أنيابهم كصياصي البقر أظفارهم، يعنى القرون، والمقامع الطوال الثقال المحرقة بأيديهم لو ضربوا بها الجبال انصدعت، وكانت رميماً، يضربون بها عصاة ربهم فيحق لهم أن تسيل عينهم الدم بعد الدموع، لأنهم إن دعوهم لم يجيبوهم، وإن بكوا لم يرحموهم، وإن استغاثوا بماء بارد لم يغثوهم إلا بماء كالملهل يشوى الوجه.

وكان النبي ﷺ يقول: «إنه لتأتى أهل النار سحابة عظيمة كل يوم فتبسط عليهم لها صواعق تخطف أبصارهم، ورعد يقصف ظهورهم، وظلمة لا يبصرون معها زبانياتهم، فتنادى تلك السحابة بصوت له جهر: يا أهل النار أما تريدون أن أمطركم؟ فيقولون بأجمعهم: امطينا الماء البارد، فتمطرهم ساعة حجارة تقع على رؤوسهم فتقطع جماجمهم، ثم تمطرهم ساعة أخرى أنهاراً من حميم وجمراً كثيراً وشواظاً وخطاطيف من الحديد، ثم تمطرهم ساعة أخرى حيات وعقارب ودوداً وغسلين.

قال: فإذا أمطرت في جهنم سجر بحرهما فماجت لجحها وغضبت، فلم تترك في جهنم سهلاً ولا جبلاً إلا ارتفعت عليه، فغرقت أهل النار أجمعين من غير أن يموتوا.

قال: فتزداد جهنم على من فيها من العصاة غيظاً وحرّاً وزفيراً وشهيقاً ولهباً ودخاناً وظلمة ووعثاً وسموماً وحميماً وجحيماً وسعيراً وشدة على من فيها لنقمة ربها.

فنعوذ بالله منها ومن أعمالها ومقارنتها أهلها، اللهم ربنا وربها لا توردنا حياضها، ولا تجعل في أعناقنا أغلالها، ولا تكسنا من ثيابها، ولا تطعمنا من رقومها، ولا تسقنا من حميمها، ولا تسلط علينا خزنتها، ولا تجعلنا مأكلة لنارها، ولكن جورنا برحمتك صراطها واصرف عنا شرورها ولهبها حتى تنجيننا برحمتك منها ومن دخانها ومن كربها وعذابها، آمين يا رب العالمين.

وكان ﷺ يقول: «ولو أن أدنى باب من أبواب جهنم فتح بالمغرب لذابت منه جبال المشرق كما يذوب القطر، ولو أن شرارة من شرر جهنم طارت فوقعت بالمغرب ورجل بالمشرق لغلى دماغه حتى يفور على جسده، وإن أدنى أهل النار عذاباً رجال تحذى لهم نعال من نار فتخرج من مسامعهم ومناخرهم وتغلى منها أدمغتهم، والذين يلونهم يلقون على صخرة من صخور جهنم فينتفضون فيها كما ينتفض الحب من المقلى الحار، وكلما سقطوا من صخرة وقعوا على أخرى...».

فأهل النار كلهم يعذبون على قدر أعمالهم، فنعوذ بالله من أعمالهم ومصيرهم. قال ﷺ: «وأما عذاب الذين لا يحفظون فروجهم، فينطون بفروجهم بقدر ما كانت في الدنيا حتى تذوب أجسادهم وتبقى أرواحهم، ثم يتركون فتجدد لهم أجساد وجلود، ثم يضرّبون، فيجلد كل إنسان منهم سبعون ألف ملك قدر ما كانت الدنيا حتى تذوب أجسادهم وتبقى أرواحهم، فذلك عذابهم».

وأما عذاب السارق، فيقطع عضواً عضواً ثم يجدد، فذلك عذابه غير أنه يتبادر إلى كل إنسان منهم سبعون ألف ملك معهم الشفار.

وأما عذاب الذين يشهدون الزور، فينطون بالسنتهم، ثم يجلد كل إنسان منهم سبعون ألف ملك حتى تذوب أجسادهم وتبقى أرواحهم.

وأما عذاب المشركين، فيجعلون في مغار جهنم ثم يغلق عليهم وفيها حيات وعقارب وحجر كثير ولهب ودخان شديد، يجدد لكل إنسان منهم كل ساعة سبعون ألف جلد فذلك عذابهم.

وأما عذاب الجبارين المتكبرين، فيجعلون في توابيت من نار ثم يقفل عليهم فتوضع في الدرك الأسفل من النار.

قال: فيعذب كل إنسان منهم كل ساعة تسعة وتسعين لوتاً من العذاب، يجدد لهم في كل يوم ألف جلد، فذلك عذابهم.

قال: وأما الذين يغفلون فيأتون بغلولهم ثم يلقي بهم في بحر جهنم ثم يقال لهم غوصوا حتى تخرجوا أغلولكم ليتها إلى قعره، ولا يعلم قعره إلا الذي خلقه.

قال: فيغوصون ما شاء الله، ثم يخرجون رؤوسهم يتنفسون فيبتدر إلى كل إنسان منهم سبعون ألف ملك، مع كل ملك مقمع من حديد فيهوى بها إلى رأسه، فذلك

عذابهم أبداً.

قال: وكان النبي ﷺ يقول: «إن الله قضى على أهل النار أنهم لا بشون فيها أحقاباً، فلا أدري كم من حقب، غير أن الحقب الواحد ثمانون سنة، والسنة ثلاثمائة وستون يوماً، واليوم ألف سنة عما تعدون».

فالويل لأهل النار، والويل لتلك الوجوه التي كانت لا تصبر على حر الشمس حين تلفحها النار، وويل لتلك الرؤوس التي كانت لا تصبر على الصداق حين يصب فوقها الحميم، وويل لتلك الأعين التي كانت لا تصبر على الرمذ حين تزرق وتشخص في النار، وويل لتلك الآذان التي كانت تسمع الأحاديث فتلذذ بها حين يفور منها لهب النار، وويل لتلك المناخر التي كانت تجزع من ريح الجيف حين تنشقت بالنار، وويل لتلك الأعناق التي كانت لا تصبر على الوجع حين يجعل فيها الأغلال، وويل لتلك الجلود التي كانت لا تصبر على اللباس الخشن حين يجعل عليها ثياب من نار خشن مسها، منتن ريحها تتلظى ناراً، وويل لتلك البطون التي كانت لا تصبر على الأذى حين يدخلها الزقوم مع ماء حميم يقطع أمعاءهم، وويل لتلك الأقدام التي كانت لا تصبر على الحفا حين تحذى لها نعال من نار، فويل لأهل النار من أصناف العذاب.

(فصل) وقال أبو هريرة رضى الله عنه: أن رسول الله ﷺ كان يقول: «إن لجسر جهنم سبع قناطر، بين كل قنطرتين سبعون عاماً، وعرض الجسر كحد السيف، فيجوز عليه أول زمرة من الناس سراعاً كطرف العين، والزمرة الثانية كالبرق الخاطف، والزمرة الثالثة كالريح، والزمرة الرابعة كالطير، والزمرة الخامسة كالخيل، والزمرة السادسة كالرجل السريع، والزمرة السابعة يمرون عليها مشاة، ثم يبقى رجل واحد فهو آخر من يمر على ذلك الجسر، فيقال له: مر، فيضع عليه قدميه فتزل إحداهما ثم يركبه فيجبو على ركبتيه، فتصيب النار من شعره وجلده».

قال: فلا يزال يترجرج على بطنه فتزل قدمه الأخرى وتثبت يده وتتعلق الأخرى، فهو على ذلك تصيبه النار، وهو يظن أنه لا ينجو منها، فلا يزال يترجرج على بطنه حتى يخرج منها، فإذا خرج منها نظر إليها فقال: تبارك الذي أنجاني منك، ما أظن أن ربى أعطى أحداً من الأولين والآخرين مثل ما أعطاني، أنه أنجاني منك، بعد إذ رأيت ولقيت.

قال: فيأتيه ملك من الملائكة، فيأخذ بيده فينطلق به إلى غدير بين يدي باب الجنة، فيقول له الملك: اغتسل في هذا الغدير واشرب منه.

قال: فيغتسل ويشرب منه، فيعود له ريح أهل الجنة وألوانهم، ثم ينطلق به فيوقفه على باب جهنم ويقول له: قف هاهنا حتى يأتيك إذنك من ربك عز وجل.

قال: فينظر إلى أهل النار ويسمع عواءهم كعواء الكلاب.

قال: فيبكي فيقول: يا رب اصرف وجهي عن أهل النار، لا أسألك يا رب غيره.

قال: فيأتيه ذلك الملك من عند رب العالمين عز وجل، فيحول وجهه عن النار إلى الجنة.

قال: وبين مقامه إلى باب الجنة خطوة، فينظر إلى باب الجنة وعرضه، وأن ما بين عضادتي باب الجنة مسيرة أربعين عاماً للطير المسرع.

قال: فيسأل ذلك الرجل ربه عز وجل فيقول: يا رب إنك قد أحسنت إليَّ الإحسان كله، أنجيتني من النار وصرفت وجهي عن أهل النار إلى أهل الجنة، وإنما بيني وبين باب الجنة خطوة فأسألك يا رب بعزتك أن تدخلني الباب، ولا أسألك غيره، ولكن اجعل الباب بيني وبين أهل النار، فلا أسمع حسيها، ولا أرى أهلها.

قال: فيأتيه ذلك الملك من عند رب العالمين، فيقول: يا ابن آدم ما أكذبك ألت رعمت أنك لا تسأل غيره.

قال عليه السلام: فيقول - ويحلف -: لا وعزة الرب لا أسألك غيره، فيأخذ بيده فيدخله الباب ثم ينطلق الملك إلى رب العالمين عز وجل.

قال: فينظر ذلك الرجل في الجنة عن يمينه وشماله وبين يديه مسيرة سنة، فلا يرى أحداً غير الشجر والثمر وبين مقامه إلى أدنى شجرة خطوة.

قال: فينظر إليها فإذا أصلها ذهب وغصنها فضة بيضاء، وورقها كأحسن حلل رآها آدمي وثمارها ألين من الزبد وأحلى من العسل وأطيب ريحاً من المسك.

قال: فتحير ذلك الرجل مما رأى.

قال: فيقول: يا رب نجيتني من جهنم وأدخلتني باب الجنة وأحسننت إليَّ الإحسان كله، وإنما بيني وبين هذه الشجرة خطوة لا أسألك غيرها.

قال: فيأتيه ذلك الملك فيقول: ما أكذبك يا ابن آدم ألت رعمت أنك لا تسأل

غيرها زيادة، فما لك تسأل وأين ما أقسمت ألا تستحي؟
قال: فيأخذ بيده فينطلق به إلى أدنى منازلها فإذا هو بقصر من لؤلؤ بين يديه على مسيرة سنة.

قال: فإذا أتاه نظر إلى ما بين يديه فرأى منزلاً كأنما كان ذلك القصر وما وراءه معه حلماً، فلا يملك نفسه حين ينظر إليه فيقول: يا رب أسألك هذا المنزل ولا أسألك غيره.

قال: فيأتيه ملك من الملائكة فيقول: يا ابن آدم أما أقسمت بربك عليك ألا تسأل غيره، ما أكذبك يا ابن آدم هو لك. فإذا أتاه نظر إلى ما هو بين يديه كأنما كان منزله معه حلماً.

قال: فيقول: يا رب أسألك هذا المنزل، قال: فيأتيه ذلك الملك فيقول له: يا ابن آدم ما لك لا توفى بالعهد، أأنت زعمت أنك لا تسأل غيره؟ ولا يلومه لأنه يرى ما تكاد نفسه تخرج منه من العجائب.

قال: فيقول: هو لك، قال: فإذا بين يديه منزل آخر، كأنما كانت معه تلك المنازل حلماً، فيبقى مبهوراً لا يستطيع أن يتكلم.

قال عليه الصلاة والسلام: فيقول له رسول الله ﷺ: ما لك لا تسأل ربك؟ فيقول: يا سيدى صلى الله عليك، والله لقد حلفت لرب العزة حتى خشيت منه وسألته حتى استحييت.

قال: فيقول له رب العزة جل جلاله: أيرضيك أن أجمع لك الدنيا منذ يوم خلقتها إلى يوم أفنيها ثم أضعفها لك عشرة أضعاف؟

قال فيقول ذلك الرجل: يا رب أتهزأ بى وأنت رب العالمين؟ قال: فيقول له رب العزة جل وعلا: إنى لقادر أن أفعله فأسألنى ما شئت.

قال: فيقول الرجل: يا رب ألحقنى بالناس.

قال: فيأتيه ملك فيأخذ بيده، فينطلق به يمشى فى الجنة حتى يبدو له شيء كأنه لم يكن رأى معه شيئاً فينخر ساجداً، ويقول فى سجوده: إن ربى عز وجل تجلى لى، فيقول له الملك: ارفع رأسك إن هذا منزلك وهو أدنى منازلك.

قال: فيقول: لولا أن الله عز وجل حبس بصرى لحار من نور هذا القصر، قال:

فينزل في ذلك القصر فيلقاه رجل إذا رأى وجهه وثيابه يبقى مبهوراً يظن أنه ملك، فيأتيه ذلك الرجل فيقول: السلام عليك ورحمة الله وبركاته؛ لقد آن لك أن تجيء، فيرد عليه السلام ثم يقول له: من أنت يا عبد الله؟ فيقول: أنا قهرمان لك وأنا على هذا المنزل ولك مثلي ألف قهرمان، كل واحد منهم على قصر من قصورك، ولك ألف قصر في كل قصر ألف خادم وزوجة من الحور العين.

قال: فيدخل في قصره ذلك فإذا هو بقبة من لؤلؤ بيضاء وفي جوفها سبعون بيتاً، في كل بيت سبعون غرفة، لكل غرفة سبعون باباً، لكل باب منها قبة من لؤلؤ فيدخل تلك القباب فيفتحها ولم يفتحها أحد من خلق الله قبله، فإذا هو في جوف تلك القبة بقبة من جوهرة حمراء طولها سبعون ذراعاً، لها سبعون باباً، كل باب منها يفضى إلى جوهرة حمراء على مثل طولها لها سبعون باباً، ليس منها جوهرة على لون صاحبها في كل جوهرة أزواج ومناص وأسرة.

قال: فإذا دخلها وجد فيها زوجة من الحور العين، فتسلم عليه فيرد عليها السلام ثم يقوم مبهوراً، فتقول له: قد آن لك أن تزورنا وأنا زوجتك.

قال: فينظر في وجهها فيرى وجهه في وجهها كما يرى أحدكم وجهه في المرأة من الحسن والجمال والصفوة، فإذا عليها سبعون حلة في كل حلة سبعون لوناً ليس فيها لون على لون صاحبها يرى مخ ساقها من ورائهن، لا يعرض عنها إعراضة إلا ازدادات حسناً في عينه سبعين ضعفاً، فهي له مرآة وهو لها مرآة.

قال: وإن لكل قصر منها ثلثمائة وستون باباً، على كل باب ثلثمائة وستون قبة من لؤلؤة وياقوتة وجوهرة ليس منها قبة على لون صاحبها، فإذا أشرف على ظهر القصر أشرف على ملكه مسيرة من الأرض ما ينفذ بصره فيها، إذا سار فيه سار في ملكه مائة سنة لا ينتهي إلى شيء فيه إلا نظر فيه أجمع، وإن الملائكة تدخل عليه في كل قصوره من كل باب بالسلام والهدايا من عند رب العالمين، ليس منهم ملك إلا ومعه من الهدايا ما ليس مع الآخر كل يوم في النهار تسلم عليه الملائكة معها الهدايا.

وتصديق ذلك في كتاب الله عز وجل يقول: ﴿والملائكة يدخلون عليهم من كل باب

* سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار﴾ [الرعد: ٢٣ - ٢٤].

وقال تعالى: ﴿ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا﴾ [مريم: ٦٢].

وكان ﷺ يقول: «إن هذا الرجل يسميه أهل الجنة المسكين لفضل منازلهم على منزله وإن لهذا المسكين ثمانين ألف خادم فى طعامه إذا اشتهى الطعام نصبوا له مائدة من موائد من ياقوتة حمراء بمنطقة من ياقوتة صفراء محفوفة بالدر والزبرجد وقوائمها من لؤلؤ حافتها عشرون ميلاً.

قال: فيوضع له عليها من الطعام سبعون لوناً، ويقوم بين يديه ثمانون خادماً مع كل خادم منهم صحيفة فيها طعام وكأس فيه شراب، فى كل صحيفة من الطعام ما ليس فى الأخرى، وفى كل كأس شربة ما ليس فى الأخرى، يجد طعم أولها كطعم آخرها، ويجد لذة آخرها كلذة أولها، يشبه بعضه بعضاً، وليس منها لون إلا وهو يصيب منه، وليس خادم إلا ويعطى حظه من ذلك الطعام والشراب إذا رفع من بين يديه».

وكان النبى ﷺ يقول: «وإن أهل الدرجة العليا يزورونه ولا يزورهم، وإن أهل الدرجة العليا ليسعى على كل رجل منهم ثمانمائة ألف خادم، ويبد كل خادم منهم صحيفة فيها طعام ليس فى الأخرى، وليس منها لون إلا وهو يصيب منه، وليس منهم خادم إلا ويعطى حظه من ذلك الطعام والشراب إذا رفع من بين يديه، وما منهم من أحد إلا وله اثنتان وسبعون زوجة من الحور العين وأدميتان، لكل زوجة منهن قصر من ياقوتة خضراء بمنطقة بحمراء، فيها سبعون ألف مصراع، لكل مصراع قبة وليس منها زوجة إلا وعليها سبعون ألف حلة فى كل حلة سبعون ألف لون، ليس منها حلة تشبه الأخرى، وليس منهن زوجة إلا بين يديها ألف جارية قيام لحوائجها، وسبعون ألف جارية لمجلسها، وما منهن جارية إلا وقد أشغلتها فى حاجتها، إذا قرب إليها الطعام قام بين يديها سبعون ألف جارية، كل جارية منهن بيدها صحيفة فيها من الطعام، وكأس فيها من الشراب ما ليس فى الأخرى».

وكان ﷺ يقول: «يشتااق الرجل إلى أخ له كان يحبه فى الله عز وجل فى الدنيا، فيقول: يا ليت شعرى ما فعل أخى فلان شفقة عليه أن يكون قد هلك، فيطلع الله عز وجل على ما فى قلبه، فيوحى إلى الملائكة أن سيروا بعبدى هذا إلى أخيه فتأتية الملائكة بنجية عليها رحلها من مياثر النور.

قال: فيسلم عليه، فيرد عليه السلام ويقول له: قم فاركب وانطلق إلى أخيك.

قال: فيركب عليها، فيسير فى الجنة ألف عام أسرع من أحدكم إذا ركب بنجيته

فسار عليها فرسخًا.

قال: فلا يكون شيء أسرع حتى يبلغ منزل أخيه.

قال: فيسلم عليه، فيرد عليه السلام ويرحب به.

قال: فيقول: أين كنت يا أخى لقد كنت أشفقت عليك؟.

قال: فيعنتق كل واحد منهما صاحبه ثم يقولان: الحمد لله الذى جمع بيننا، فيحمدان الله عز وجل بأحسن أصوات سمعها أحد من الناس.

قال: فيقول الله عز وجل لهما عند ذلك: يا عبدى ليس هذا حين عمل، ولكن هذا حين تحية ومسألة، فاسألانى أعطيكما ما شئتما.

قال: فيقولان: يا رب أجمع بيننا فى هذه الدرجة.

قال: فيجعل الله عز وجل تلك الدرجة مجلسهما فى خيمة محفوفة بالدرد والياقوت، ولأزواجهما منزل سوى ذلك.

قال: فيشربون ويأكلون ويتمتعون...».

وكان ﷺ يقول: «إن الرجل منهم لياخذ لقمة فيجعلها فى فيه، ثم يخطر بباله طعام آخر، فتتحول تلك اللقمة إلى الذى تمنى».

قيل: يا رسول الله ما أرض الجنة؟ قال: أرضها رخامة من فضة مملسة، وترابها مسك، وتلالها رعفران، وحيطانها در وياقوت وذهب وفضة، يرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها، وليس فى الجنة قصر إلا يرى ظاهره من باطنه، وباطنه من ظاهره، وليس فى الجنة رجل إلا وهو يلبس إزاراً ورداء وحللاً غير مقطعة وغير مخيطة، وليس منهم رجل إلا وهو يلبس تاجاً من لؤلؤ مجوقاً بالدرد والياقوت والزبرجد، له ضفيران من الذهب، فى عنقه طوق من ذهب محفوف بالدرد والياقوت الأخضر، وفى يد كل رجل منهم ثلاث أسورة، سوار من ذهب، وسوار من فضة، وسوار من لؤلؤ، تحت تيجانهم أكاليل من در وياقوت، وعلى حللهم تلك يلبسون السندس، وعلى السندس الإستبرق والخير الأخضر، متكئين على فرش بطائنها من إستبرق، وظواهرها العبقري الحسان، أسرتها من ياقوت أحمر، وقوائمها اللؤلؤ على كل سرير منها ألف مثال، لكل مثال سبعون لوتاً، ليس منها مثال يشبه الآخر، بين يدى كل سرير منها سبعون ألف زريبة لكل زريبة سبعون لوتاً، ليس منها زريبة تشبه

صاحبتهما، عن يمين كل سرير منها سبعون ألف كرسى، وعن شمالها مثل ذلك، ليس منها كرسى يشبه الآخر.

وكان ﷺ يقول: «إن أهل الجنة أجمعين أعلاهم وأسفلهم على طول آدم، وطول آدم عليه السلام ستون ذراعاً، شاباً جرداً مردّاً مكحولين محممين هم ونساءهم على قدر واحد».

قال: فلما فعل ذلك بهم، نادى مناد فى الجنة، فيسمع صوته أدناهم وأقصاهم، فيقول: يا أهل الجنة أرضيتم منازلكم؟ فيقولون بأجمعهم: نعم والله لقد أنزلنا ربنا منزل الكرامة، لا نبغى عنها حولاً ولا بها بدلاً، رضينا بربنا جاراً، اللهم ربنا إنا سمعنا مناديك فأجبناه القول الصادق، اللهم ربنا إنا اشتهينا النظر إلى وجهك فأرنا، فإنه أفضل ثوابنا عندك.

قال: فأمر الله عز وجل عند ذلك الجنة فيها منزله ومجلسه واسمها دار السلام، خذى زيتك، وتزنى واستعدى لزيارة عبادى فاستمعت لربها وأطاعته قبل أن تنقضى الكلمة، وأخذت زيتها واستعدت لزوار الله تعالى، فيأمر الله تعالى ملكاً من الملائكة أن ادع عبادى إلى زيارتى.

قال: فيخرج ذلك الملك من عند الرحمن، فينادى بأعلى صوته، بصوت له لذيذ مدود يقول: يا أهل الجنة، يا أولياء الله زوروا ربكم.

قال: فيسمع صوته أعلاهم وأسفلهم، فيركبون على النوق والبراذين بأجمعهم، فيسيرون فى ظل إلى جنب تلال من مسك أبيض وزعفران أصفر، فيسلمون عند الباب وتسليمهم أن يقولوا: السلام علينا من ربنا، فيستأذنون فيؤذن لهم، فيعمدون فيدخلون الباب، فتهب ريح من تحت العرش اسمها المثيرة، فتنسف تلال المسك والزعفران، فتغبر جيوبهم ورؤوسهم وثيابهم، فيدخلون وينظرون إلى عرش ربهم وكرسيه نوراً يتلألأ عليهم من غير أن يتجلى لهم، فيقولون: سبحانك ربنا قدوس، رب الملائكة والروح، تباركت ربنا وتعاليت، أرنا ننظر إلى وجهك.

قال: فيأمر الله عز وجل الحجب التى من نور: أن اعتزلى، فلا يزال يرتفع حجاب وراء حجاب حتى يرتفع سبعون حجاباً، كل حجاب هو أشد نوراً من الذى يليه سبعين ضعفاً، فيتجلى لهم رب العزة عز وجل، فيخرون له سجداً ما شاء الله، يقولون وهم

ساجدون: سبحانه لك الحمد والتسبيح أبدًا، أنجيئنا من النار وأدخلتنا الجنة، فنعم الدار رضيينا عنك الرضا كله، فارض عنا، فيقول تبارك وتعالى: إني قد رضيت عنكم الرضا كله، وليس هذا أوان عمل، ولكن هذا حين نضرة ونعيم، فاسألوني أعطكم، وتمنوا على أزدكم.

قال: فيتمنون من غير أن يتكلموا، فيتمنون أن يديم لهم ما أعطاهم، فيقول تعالى: إني معطيكم الذي تمنيتم ومثل الذي أعطيتكم.

قال: فيرفعون رؤوسهم بالتكبير، ولا يستطيعون أن يرفعوا أبصارهم إلى ربهم عز وجل من شدة نور رب العزة، وذلك المجلس يسمى شرقى قبة عرش رب العالمين، فيقول لهم رب العزة مرحبًا يا عبادي وجيراني وأصفياي وأحبائي وأوليائي وخيرتي من خلقي وأهل طاعتي.

قال: فإذا بين يدي عرش رب العزة منابر من نور، من دون تلك المنابر كراسي من نور، من دون تلك الكراسي الفرش، ودون الفرش النمارق، ودون النمارق الزرابي.

قال: فيقول لهم رب العزة: هلم اجلسوا على كرامتكم، فيتقدم الرسل فيجلسون على تلك المنابر، ويتقدم الأنبياء فيجلسون على تلك الكراسي، ويتقدم الصالحون فيجلسون على تلك الزرابي.

قال: فتوضع لهم موائد من نور، على كل مائدة سبعون لوتًا مكللة باللؤلؤ والياقوت.

قال: فيقول رب العزة لحفدته: أطعموهم، قال: فيوضع لهم على كل مائدة سبعون ألف صحيفة من در وياقوت، وفي كل صحيفة سبعون لوتًا من الطعام.

قال: فيقول عز وجل: كلوا يا عبادي، قال: فيأكلون ما شاء الله من ذلك، قال: فيقول بعضهم لبعض: إن طعامنا الذي عند أهلنا عند هذا حلم.

قال: فيقول رب العزة لحفدته: اسقوا عبادي، قال: فيأتونهم بشراب فيشربون منه، فيقول بعضهم لبعض: إن شرابنا عند هذا الشراب حلم.

قال: فيقول رب العزة لحفدته: أطعمتموهم وسقيتموهم ففكهوهم الآن.

قال: فيأتون بفاكهة فيأكلون منها، فيقول بعضهم لبعض: إن فاكهتنا عند هذه حلم.

قال: فيقول رب العزة سبحانه: أطعمتموهم وفكهتموهم وسقيتموهم، أكسوهم

وحلوهم: قال: فيأتونهم بكسوة وحلية فيلبسونها، فيقول بعضهم لبعض: إن كسوتنا وحليتنا عند هذه حلم.

قال: فبينما هم جلوس على كراسيهم بعث الله عز وجل عليهم ريحاً من تحت العرش تسمى المثيرة، فتأتيهم بمسك وزعفران وكافور من تحت العرش أشد بياضاً من الثلج، فتغبر ثيابهم ورؤوسهم وجيوبهم فتطيبهم، ثم ترفع عنهم الموائد مع ما عليها من الطعام.

قال عليه الصلاة والسلام: فيقول لهم رب العزة سلوني الآن أعطكم وتمنوا أردكم، قال: فيقولون بأجمعهم: اللهم ربنا فإننا نسألك رضاك عنا، فيقول عز وجل: إني قد رضيت يا عبادي عنكم، قال: فيخرون له سجداً بالتسبيح والتكبير، فيقول رب العزة: يا عبادي ارفعوا رؤوسكم ليس هذا حين عمل هذا حين نظرة ونعيم.

قال: فيرفعون رؤوسهم ووجوههم مشرقة من نور ربهم، قال: فيقول رب العزة عز وجل: انصرفوا إلى منازلكم، قال: فيخرجون من عند ربهم، ثم تلقاهم غلمانهم بدوابهم، قال: فيركب كل واحد منهم على ناقته أو برذونه، ويركب معه سبعون ألف غلام على مثل الذي يركب، فيسير من شاء منهم بالسواء إلى داره، ثم يسير معه سائرهم حتى يقدم القصر الذي يريد.

قال: فإذا جاء قصره فدخل على زوجته قامت إليه فرحبت به وقالت له، جئتني يا حبيبي، جئتني بحسن ونور وجمال وكسوة وريح وحلية لم أفارقك عليها.

قال: فينادى ملك من عند الرحمن عز وجل بصوت عال فيقول: يا أهل الجنة كذلك أنتم أبدأ، يجدد لكم النعيم قال: ﴿والملائكة يدخلون عليهم من كل باب﴾ * سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار﴾ [الرعد: ٢٣ - ٢٤] إن ربكم يقرأ عليكم السلام ومعهم من الأطعمة والأشربة والكسوة والحلية.

وكان ﷺ يقول: «إن في الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين أمير يرون له الفضيلة والسودد، فيها جبال من مسك أبيض وزعفران أصفر، إذا أكلوا طعامهم تجشوا أطيب من المسك، فإذا شربوا شربهم رشحت جلودهم المسك لا يتغوطون ولا يهريقون الماء ولا يبصقون ولا يمتخطون ولا يمرضون ولا يصدعون».

وكان ﷺ يقول: «أهل الجنة أعلاهم وأسفلهم يتغدون متكئين ساعتين، ويتفاضلون

ساعتين، ويمجدون خالقهم أربع ساعات، ويتزاورون ساعتين، وفيها ليل ونهار وظلمة، ليلها أشد بياضاً من النهار، اليوم سبعين جزءاً.

وكان ﷺ يقول: «إن أدنى أهل الجنة عطية من لو نزل عليه الإنس والجن لكان عنده من الكراسى والفرش والتمارق والزرابى ما يجلسون ويتكئون عليه، ويفضل عليهم من الموائد والصحائف والخدم والطعام والشراب إلا كقدر ما أصاب رجلاً واحداً».

وكان ﷺ يقول: «إن جذوع الشجر ذهب ومنها فضة ومنها ياقوت ومنها زبرجد، وسعفها مثل ذلك، وورقها كأحسن حلل رآها أحد، وثمرها ألين من الزبد وأحلى من العسل، طول كل شجرة منها خمسمائة سنة وغلط أصلها مسيرة سبعين عاماً، وعرض أصلها مسيرة خمسمائة عام إذا رفع الرجل منهم بصره نظر إلى أقصى فرع من الشجرة وما فيها من الثمار، وإن على بطن كل شجرة سبعين ألف لون من الثمار، وليس منها لون على طعم الآخر، إذا انتهت شيئاً من تلك الأنواع انحنت له تلك الشجرة التى فيها تلك الثمرة التى انتهت من مسيرة خمسمائة عام أو مسيرة خمسين عاماً أو دون ذلك، حتى يأخذها بيده إن شاء، فإن عجز أن يأخذها بيده فتح فاه فدخلت فيه، فإذا قطف منها شيئاً أحدث الله مكانها أحسن منها وأطيب، فإذا أصاب منها حاجته واكتفى رجعت الشجرة حيث كانت.

ومنها شجرة لا تثمر ولكن فيها أكمام فيها حرير وحلل وسندس وزخرف وعبقري، ومنها شجرة لها أكمام فيها المسك والكافور».

وكان ﷺ يقول: «أهل الجنة يرون ربهم كل يوم جمعة».

وكان ﷺ يقول: «لو أن إكليلاً من الجنة دلى من السماء لذهب بضوء الشمس».

وكان ﷺ يقول: «إن فى الجنة قصوراً فى كل قصر منها أربعة أنهار: ماء معين، ولبن معين، وخمر معين، وعسل معين، إذا شرب منه شيئاً صار ختامه مسكاً، ولا يشربون منها شيئاً حتى يمزج من عيون فى الجنة اسم أحدها الزنجبيل، والآخرى تسنيم، والآخرى كافور، وإن المقربين يشربون منها صرفاً...».

وكان ﷺ يقول: «لولا أن الله قضى بينهم أنهم يتنازعون الكأس بينهم ما رفعوها عن أفواههم أبداً».

وكان ﷺ يقول: «إن أهل الجنة يتزاورون على مسيرة مائة ألف عام أو فوق ذلك أو

دون ذلك، فإذا رجعوا من عند إخوانهم فلهم أهدي إلى منازلهم من أحدكم إلى منزله»^(١).

وكان ﷺ يقول: «إن أهل الجنة إذا رأوا ربهم عز وجل وأرادوا الانصراف، يعطى كل رجل منهم رمانة خضراء فيها سبعون حلة، لكل حلة سبعون لونًا ليس منها حلة على لون الأخرى، فإذا انصرفوا من عند ربهم عز وجل مروا في أسواق الجنة، ليس فيها بيع ولا شراء، وفيها من الخليل والسندس والإستبرق والحرير والزخرف والعبرى من در وياقوت وأكالييل معلقة، فيأخذون من تلك الأسواق من هذه الأصناف ما يطيقون حمله، ولا ينقص من أسواقها شيء، وفيها صور كصور الناس من أحسن ما يكون، مكتوب في نحر كل صورة منها: من تمنى أن يكون حسنه على حسن صورتي جعل الله حسنه على صورتي، فمن تمنى أن يكون حسنه وجهه على تلك الصورة جعله الله على تلك الصورة.

قال: ثم ينصرفون إلى منازلهم فيلقاهم غلمانهم صفوًا قيامًا بالترحيب والتسليم، فيبشر كل واحد منهم صاحبه الذي يليه حتى تبلغ البشرى زوجته، ثم يستخفها الفرح حتى تقوم إليه فتستقبله عند بابه بالترحيب والتسليم، فتعانقه ويعانقها فيدخلان جميعًا معتنقين».

وكان ﷺ يقول: «لو أن امرأة من نساء أهل الجنة برزت لم يرها ملك مقرب ولا نبي مرسل إلا افتتن بحسنها»^(٢).

وكان ﷺ يقول: «إن آخر شراب يشربه أهل الجنة على إثر طعامهم شراب يقال له: طهور دهاق، فإذا شرب منه شربة هضم طعامهم وشرابهم فجعله كالمسك وجشأه المسك، ولا يكون في بطونهم أذى، فإذا شربوا اشتهووا الطعام فهذا دأبهم أبدًا».

وكان ﷺ يقول: «إن دواب أهل الجنة خلقن من ياقوت أبيض».

وكان ﷺ يقول: «هن ثلاث جنات: الجنة، وعدن، ودار السلام، الجنة أصغر من جنة عدن بتسعمائة ألف ألف جزء، وإن قصور الجنة ظاهرها من ذهب وباطنها من زبرجد وأبرجتها من ياقوت أحمر وشرفاتها نظام اللؤلؤ».

(١) أحمد ٢/٣٣٥، والطبراني ٤/٢١٤، وكنز العمال (٣٩٣٢٥).

(٢) أحمد ٣/٢٦٤، ومجمع الزوائد ١/٤١٧.

وكان ﷺ يقول: «إن الرجل من أهل الجنة ليتمتع عند زوجته الثكأة الواحدة مقدار سبعمائة عام ما يتحول، ثم تناديه زوجته الأخرى: من القصر أحسن منها: يا أخى: قد آن لك أن تكون لنا منك دولة، فيقول الرجل: من أنت؟ فتقول: أنا من التى يقول الله عز وجل: ﴿فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين﴾ [السجدة: ١٧] فيتحول إليها فيمكث عندها مقدار سبعمائة عام يأكل ويشرب ويباضعها»^(١).

وكان ﷺ يقول: «إن في الجنة لشجرة يسير الراكب في ظلها سبعمائة عام ما يقطعها تجرى من تحتها الأنهار وإن على كل غصن من غصونها مدائن مبنية، طول كل مدينة منها عشرة آلاف ميل، وإن ما بين كل مدينة إلى الأخرى كما بين المشرق والمغرب، وإن عيون السلسيل لتجرى من تلك القصور إلى تلك المدائن، وإن الورقة منها لتظل الأمة العظيمة...».

وكان ﷺ يقول: «إن الرجل من أهل الجنة إذا دخل على زوجته قالت: والذي هو أكرمنى بك ما فى الجنة شيء هو أحب إلى منك».

قال: وكان ﷺ يقول: «إن فى الجنة ما لا يصفه الواصفون، ولا يخطر على قلوب العالمين، ولا تسمع به أذان الواعين، وفيها ما لم تره عيون المخلوقين».

وكان ﷺ يقول: «إن الله عز وجل ينزل المتحايين فيه فى جنة عدن على عمود من ياقوتة حمراء، غلظها مسيرة سبعين ألف عام على سبعين ألف بيت، لكل أهل بيت قصر مشرفين على أهل الجنة، مكتوب على جباههم كتاب من نور: هؤلاء المتحابون فى الله، إذا اطلع أحدهم من قصره إلى أهل الجنة ملأ نور وجهه قصور أهل الجنة كما تملأ الشمس يسوت أهل الأرض، فينظر أهل الجنة وجهه فيقول بعضهم لبعض: هذا من المتحايين فى الله عز وجل، فإذا وجهه مثل القمر ليلة البدر».

وكان ﷺ يقول: «إن فضل حسن الرجل على حسن الخادم من أهل الجنة كمثل القمر ليلة البدر على النجوم».

وكان ﷺ يقول: «إن نساء أهل الجنة يتغنين عند آخر طعامهم بأصوات لذيذة ممدودة يقلن: ونحن الخالدات فلا نموت أبداً، ونحن الأمئات فلا نخاف أبداً، ونحن الراضيات فلا نسخط أبداً، ونحن الشابات فلا نهرم أبداً، ونحن الكاسيات فلا نعري أبداً، ونحن

الخيرات الحسان أزواج قوم كرام».

وكان ﷺ يقول: «إن طير الجنة له سبعون ألف ريشة، لكل ريشة منها لون ليس يشبه الآخر، عظم كل طير منها ميل فى ميل، إذا انتهى المؤمن شيئاً منها أتى به فوضع فى جوف الصحيفة، فانتفض فوقه منه سبعون لوناً من الطعام من نحو طيخ وشواء واللوان شتى، طعمها أطيب من المنّ، ولينها ألين من الزبد، وبياضها أشد بياضاً من المخيض، فإذا أكل منها انتفض وطار ولم تنقص منها ريشة، فطيورهم ومراكبهم ترعى فى رياض الجنة حول قصورهم».

وكان ﷺ يقول: «إن أهل الجنة يعطيهم الله تعالى خواتيم من ذهب يلبسونها وهى خواتيم الخلد، ثم يعطيهم خواتيم من در وياقوت ولؤلؤ، وذلك إذا زاروه فى دار السلام».

وكان ﷺ يقول: «إن أهل الجنة إذا زاروا ربهم أكلوا وشربوا وتمتعوا».

قال: يقول رب العزة عز وجل: يا داود مجدنى بصوتك الحسن، فيمجده ما شاء الله تعالى من ذلك فلا يبقى منه شىء فى الجنة إلا أنصت لحسن صوته ولذاذته.

قال: فيمجده ما شاء الله ثم يحبهم رب العزة عز وجل بالكسوة والحلية، ثم ينصرفون إلى أهليهم».

وكان ﷺ يقول: «إن لكل رجل من أهل الجنة شجرة يقال لها طوبى، فإذا أراد أحدهم أن يلبس الكسوة المرتفعة انطلق إلى طوبى ففتحت له أكمامها، وهى ستة ألوان فى كل واحد منها سبعون لوناً، ليس منها ثوب لونه على لون الآخر ولا على وشيه، فيأخذ من أى ذلك شاء، أرق من النعمان».

وكان ﷺ يقول: «إن أزواج أهل الجنة مكتوب فى نحر كل امرأة منهن: أنت حبيبى وأنا حبيبتك، ليس عنك معدل ولا عنك مقصر، وليس لك فى قلبى غل ولا غش، فينظر الرجل إلى نحر زوجته فيرى سواد كبدها من وراء عظمها ولحمها، فكبدها لها مرآة وكبدها له مرآة، ولا يعيبها ذلك إلا كما يعيب السلك الياقوت، يياضهن كبياض المرجان وصفاءهن كصفاء الياقوت، قال الله عز وجل: ﴿كأنهن الياقوت والمرجان﴾ [الرحمن: ٥٨].

وكان ﷺ يقول: «إن أهل الجنة على النوق والبراذين يقع خف إحداهن عند أقصى

طرفها، وموضع حافر ذلك البرذون عند أقصى طرفه خلقت من در وياقوت، عظم كل دابة منهم سبعون ميلاً، أزمة النوق والبراذين حلق اللؤلؤ والزبرجد».

(فصل) في قوله عز وجل: ﴿فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسروراً...﴾ [الإنسان: ١١] إلى آخر صفة أهل الجنة.

أما قوله: ﴿فوقاهم الله شر ذلك اليوم﴾ يعني يوم القيامة يقيهم شدة الحساب وهول جهنم، إذا جرى بها في عرصات القيامة يقودها تسعة عشر خازناً من الملائكة، مع كل خازن منهم سبعون ألف ملك أعوان له غلاظ شداد كالحلة أنيابهم، أعينهم كالجمر وألوانهم كلهب النار، يفور من مناخرهم لهب ودخان عال مستعدين لأمر الجبار تبارك وتعالى، فيقودها كل خازن وأعوانه بوثاق وسلسلة عظيمة، فتارة يمشون عن يمينها وأخرى عن شمالها، ومرة من ورائها، بيد كل ملك منهم مقمع من حديد، يصيحون بها فتمشى، ولها زفير وشهيق ووعث وظلمة ودخان وقعقة ولهب عال من شدة غضبها على أهلها، فينصبونها بين الجنة والموقف، فترفع طرفها فتنظر إلى الخلائق، ثم تجمع إليهم لتأكلهم، فتحبسها الخزنة بسلاسلها ولو تركت لأتت على كل مؤمن وكافر، فإذا رأت أنها قد حبست عن الخلائق فارت فورة شديدة كادت تميز من الغيظ، ثم شهقت الثانية فسمعت الخلائق صوت صريف أسنانها، فارتعدت عند ذلك الأفئدة، وانخلعت القلوب، وطارَت الأفئدة، وشخصت الأبصار، وبلغت القلوب الحناجر، ثم تزفر زفرة فلا يبقى ملك مقرب ولا نبي مرسل ولا أحد ممن شهد الموقف إلاَّ جثا على ركبتيه.

ثم تزفر أخرى فلا تبقى قطرة في عين أحد إلا بدرت، ثم تزفر الثالثة فلو كان لكل آدمي أو جنى عمل اثنين وسبعين نبياً لواقعوها وظنوا أنهم لم ينجوا منها، ثم تزفر الرابعة فلا يبقى شيء إلا انقطع كلامه، ويتعلق جبريل وميكائيل وخليل الرحمن عز وجل بالعرش يقول كل واحد منهم نفسى نفسى لا أسألك غيرها، ثم ترمى بشرر كعدد نجوم السماء، عظم كل شرارة منها كالسحابة العظيمة الطالعة من المغرب، فيقع ذلك الشرر على رؤوس الخلائق.

فهذا هو الشرر الذى وعد الله المؤمنين الذين يوفون بالنذر ويخافون عذابه أن يقيهم، فالله تعالى يكفى أهل التوحيد والإيمان وأهل السنة شر ذلك اليوم، ولقاهم برحمته

ويسر حسابهم ويدخلهم جتته ويخلدهم فيها أبد الآباد بمئة، ويزيد الكافرين وأهل الشرك والأوثان شرًا إلى شر، وخوفًا إلى خوف، وعذابًا إلى عذاب، فيدخلهم جهنم ويخلدهم فيها أبد الآباد.

ثم قال عز وجل: ﴿ولقاهم نضرة وسرورا﴾ [الإنسان: ١١] فالنضرة في الوجوه والسرور في القلوب، وذلك أن المؤمن إذا خرج من قبره يوم القيامة نظر أمامه، فإذا هو بإنسان وجهه مثل الشمس يضحك طيب النفس، وعليه ثياب بيض وعلى رأسه تاج، فينظر إليه حتى يدنوا منه، فيقول سلام عليك يا ولي الله، فيقول: وعليك السلام من أنت يا عبد الله، أنت ملك من الملائكة؟ فيقول: لا والله، فيقول: أنت نبي من الأنبياء؟ فيقول: لا والله، فيقول: أنت من المقربين؟ فيقول: لا والله، فيقول: أنت؟ فيقول: أنا عمك الصالح أبشرك بالجنة والنجاة من النار، فيقول له: يا عبد الله أعلم تبشرني؟ فيقول: نعم، فيقول: ما تريد مني؟ فيقول له: اركبني، فيقول له: سبحان الله ما ينبغي لمثلك أن يُركب عليه، فيقول: بلى فإنني طالما ركبتك في دار الدنيا، فإنني أسألك بوجه الله إلا ما ركبتني، فيركبه، فيقول له: لا تخف أنا دليلك إلى الجنة، فيفرح فيتبين ذلك الفرح في وجهه حتى يتلألأ، ويرى فيه النور والسرور في قلبه، فذلك قوله عز وجل: ﴿ولقاهم نضرة وسرورا﴾ [الإنسان: ١١].

وأما الكافر فإذا خرج من قبره نظر أمامه، فإذا هو برجل قبيح الوجه أزرق العينين أشد سوادًا من القبر في ليلة مظلمة، وثيابه سود، يجرد أنيابه في الأرض بدهدهة مثل دهدهة الرعد، وريحه أنتن من الجيفة فيقول: من أنت يا عبد الله؟ ويريد أن يعرض عنه بوجهه، فيقول: يا عدو الله إلىَّ إلىَّ أنت لى وأنا لك اليوم، فقال: ويحك أشتيطان أنت؟ فيقول: لا والله، ولكن عمك الطالح، فيقول: ويحك ما تريد مني؟ فيقول: أريد أن أركبك، فيقول له: أنشدك بالله مهلاً، فإنك تفضحنى على رؤوس الخلائق، فيقول: والله ما منه بد فطالما ركبتني فأنا اليوم أركبك، قال: فيركبه، فذلك قوله عز وجل: ﴿وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ألا ساء ما يزرون﴾ [الأنعام: ٣١].

ثم ذكر عز وجل أوليائه فقال: ﴿وجزاهم﴾ [الإنسان: ١٢] بعد البشارة ﴿بما صبروا﴾ [الإنسان: ١٢] على البلاء وأداء الأوامر، وانتهاء المناهى والتسليم في القدر ﴿جنة وحريراً﴾ [الإنسان: ١٢].

أما الجنة فيستنعمون فيها، وأما الحرير فيلبسون، قال: ﴿متكئين فيها﴾ [الإنسان: ١٣] يعنى فى الجنة ﴿على الأرائك﴾ [الإنسان: ١٣] يعنى السرر عليها الحجال يعنى الستر ﴿لا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً﴾ [الإنسان: ١٣] يعنى ولا يصيبهم حر الشمس ولا يبرد الزمهرير، لأنه ليس فيها شتاء ولا صيف.

ثم قال عز وجل: ﴿ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلاً﴾ [الإنسان: ١٤] يعنى ظلال الشجر، وذلك أن أهل الجنة يأكلون من الفواكه إن شاءوا قياماً، وإن شاءوا قعوداً، وإن شاءوا نياماً، وإذا أرادوها دنت منهم حتى يأخذوا منها ثم يقوم أحدهم قائماً، وذلك قوله عز وجل: ﴿وذللّت قطوفها تذليلاً﴾ يعنى أغصانها.

ثم قال عز وجل: ﴿ويطاف عليهم بأنية من فضة وأكواب﴾ [الإنسان: ١٥] فهى الأكواب يعنى الكيزان مدورة الرؤوس التى ليست لها عرا.

وقال عز وجل: ﴿قوارير﴾ [الإنسان: ١٥] يعنى هى قوارير ولكنها من فضة، وذلك أن قوارير الدنيا من ترابها، وقوارير الجنة من فضة ﴿قدروها تقديراً﴾ [الإنسان: ١٦] يعنى قدرت الأكواب على الإناء وقدر الإناء على كف الخادم على رى القوم إذا سقوها لم يبق فيها شىء، ولم يزد عليه فكانت قدراً على الإناء وكف الخادم ورى القوم فذلك قوله تعالى: ﴿قدروها تقديراً﴾.

وقال تعالى: ﴿ويسقون فيها كأساً﴾ [الإنسان: ١٧] يعنى خمرًا، وكل شراب فى الإناء ليس بخمر فليس هو بكأس.

وقال تعالى: ﴿كان مزاجها زنجبيلاً﴾ [الإنسان: ١٧] يعنى كلها قد مزج فيها الزنجبيل.

ثم قال عز وجل: ﴿عيناً فيها تسمى سلسيلاً﴾ [الإنسان: ١٨] يعنى نهراً فيها تسمى سلسيلاً يسيل عليهم من جنة عدن، فتمر على كل جنة ثم ترجع تعم الجنة كلها.

قال تعالى: ﴿ويطوف عليهم ولدان مخلدون﴾ [الإنسان: ١٩] فالولدان: هم الغلمان الذين لا يشيئون أبداً فهم مخلدون، يعنى لا يحتلمون ولا يكبرون أبداً، غلمان ﴿إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤاً﴾ [الإنسان: ١٩] فى الحسن والبياض ﴿منثوراً﴾ [الإنسان: ١٩] فى الكثرة، يعنى مثل اللؤلؤ المنثور الذى لا يدرى ما عدده.

ثم قال عز وجل: ﴿وإذا رأيت ثم﴾ [الإنسان: ٢٠] يعنى هنالك من الجنة ﴿رأيت نعيماً وملكا كبيرا﴾ [الإنسان: ٢٠] وذلك أن رجلاً من أهل الجنة له قصر، فى ذلك القصر

سبعون قصرًا، فى كل قصر سبعون بيتًا، كل بيت من لؤلؤة مجوفة طولها فى السماء فرسخ وعرضها فرسخ فى فرسخ، عليها أربعة آلاف مصراع من ذهب، فى ذلك البيت سرير منسوج بقضبان الدر والياقوت عن يمين السرير وعن يساره أربعة آلاف كرسى من ذهب، قوائمها من ياقوت أحمر، على ذلك السرير سبعون فراشًا، كل فراش على لون، وهو متكئ على يساره، عليه سبعون حلة من ديباج، الذى يلى جسده حريرة بيضاء، وعلى جبهته إكليل مكلل بالزبرجد والياقوت وألوان الجواهر، كل جوهرة على لون، وعلى رأسه تاج من ذهب فيه سبعون زاوية، فى كل زاوية درة تساوى مال المشرق والمغرب، وفى يده ثلاثة أسورة: سوار من ذهب، وسوار من فضة، وسوار من لؤلؤ، وفى أصابع يديه ورجليه خواتيم من ذهب وفضة فيه ألوان الفصوص، وبين يديه عشرة آلاف غلام لا يكبرون ولا يشيرون أبدًا، وتوضع بين يديه مائدة من ياقوتة حمراء طولها ميل فى ميل، ويوضع على المائدة سبعون ألف إناء من ذهب وفضة، وفى كل إناء سبعون لونًا من الطعام، فيأخذ اللقمة بيده، فما يخطر على باله غيرها حتى تتحول اللقمة عن حالها إلى الحالة التى يشتهيها، وبين يديه غلمان بأيديهم أكواب من فضة وأوان من فضة، ومعهم الخمر والماء، فيأكل على قدر أربعين رجلًا من الألوان كلها فإذا شبع من لون من الطعام سقوه شربة مما يشتهى من الأشربة فيتجشأ، فيفتح الله عز وجل عليه ألف باب من الشهوة، ويشرب حتى يعرق، فإذا عرق ألقى الله عليه ألف باب من الشهوة إلى الطعام والشراب، ويدخل عليه الطير من الأبواب كأمثال النجائب العظام، فيقومون بين يديه صفًا فينعت كل نفسه بصوت مطرب لذيذ الذم من كل غناء فى الدنيا، يقول: يا ولى الله كلنى إنى كنت أرعى فى كذا وكذا فى رياض الجنة، وأشرب من عين كذا وكذا فيجملون إليه أصواتهم فيرفع بصره فينظر إلى أعلاها صوتًا وأجودها نعتًا فيشتهيها، فيعلم الله عز وجل ما قد استقر فى قلبه من حبه، فيجىء ذلك الطير فيقع على المائدة بعضه قديد وبعضه شوى، أشد بياضًا من الثلج وأحلى من العسل، فيأكل حتى إذا شبع منها واكتفى صار طيرًا كما كان، فيخرج من الباب الذى كان دخل منه، فهو على الأرائك وزوجته مستقبلته، يبصر وجهه فى وجهها من الصفاء والبياض، كلما أراد يجامعها نظر إليها فيستحى منها أن يدعورها، فتعلم ما يريد منها زوجها، فتدناؤا إليه فتقول: بأبى أنت وأمى، ارفع رأسك وانظر إلى فلانك اليوم لى وأنا لك، فيجامعها على قوة مائة رجل من الأولين، وعلى شهوة أربعين رجلًا، كلما أتاها وجدها عذراء

لا يغفل عنها مقدار أربعين يوماً، فإذا فرغ وجد ريح المسك منها فيزداد حباً لها، وفيها أربعة آلاف وثمانمائة زوجة مثلها، لكل زوجة سبعون خادماً وجارية.

وروى عن على بن أبى طالب رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال: «لو أن جارية أو خادماً أخرجت إلى الدنيا لاقتتل عليها أهل الدنيا كلهم حتى يتفانوا، ولو أن امرأة من الحور العين أخرجت ذوائبها فى الأرض لأطفأت نور الشمس من نورها.

قيل: يا رسول الله، وكم بين الخادم والمخدوم؟ قال: والذي نفسى بيده، إن بين الخادم والمخدوم كالكوكب المظلم إلى جنب القمر فى النصف.

قال: فبينما هو جالس على سريريه إذ بعث الله عز وجل إليه ملكاً معه سبعون حلة، كل حلة على لون، قد غابت بين أصبغى الملك ومعه التسليم والرضا، فيسجىء حتى يقوم على بابيه فيقول لحاجبه: ائذن لى على ولى الله فإننى رسول رب العالمين إليه، فيقول الحاجب: والله ما أملك منه المناجاة، ولكن سأذكرك إلى من يلينى من الحجة، فلا يزالون يذكرون أمره بعضهم إلى بعض حتى يأتية الخبر بعد سبعين باباً، فيقول: يا ولى الله إن رسول رب العزة على الباب، فيأذن له بالدخول عليه، فيدخل الملك فيقول: السلام عليك يا ولى الله إن رب العزة عز وجل يقرئك السلام وهو عنك راض فلولاً أن الله عز وجل لم يقض عليه الموت لمات من الفرح، فذلك قوله عز وجل: ﴿ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم﴾ [التوبة: ٢٧] وذلك قوله تعالى: ﴿وإذا رأيت﴾ يعنى يا محمد ﴿ثم رأيت نعيمًا﴾ يعنى هنالك النعيم الذى هو فيه ﴿وملكاً كبيراً﴾ حين لا يدخل عليه رسول الله رب العالمين إلا بإذن، ثم قال جل وعلا: ﴿عاليهم ثياب سندس خضر وإستبرق﴾ [الإنسان: ٢١] يعنى الديباج، وإنما قال عاليهم لأن الذى يلى جسده حريرة بيضاء، ثم قال: ﴿وحلوا أساور من فضة﴾ [الإنسان: ٢١] وفى آية أخرى ﴿يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً﴾ [الحج: ٢٣، وفاطر: ٣٣] فهى ثلاث أسورة، ثم قال عز وجل: ﴿وسقاهم ربهم شراباً طهوراً﴾ [الإنسان: ٢١].

وذلك أن على باب الجنة شجرة ينبع من ساقها عينان، فإذا جاز الرجل الصراط إلى العينين يدخل فى عين منها فيغتسل فيها، فيخرج وريحه أطيب من المسك، طوله سبعون ذراعاً فى السماء على طول آدم عليه السلام وميلاد عيسى عليه السلام أبناء ثلاث وثلاثين سنة، فأهل الجنة كلهم رجالهم ونساؤهم على قدر واحد يكبر الصغير

حتى يكون ابن ثلاث وثلاثين سنة وينحط الشيخ عن حاله إلى ثلاث وثلاثين سنة، كلهم رجالهم ونساؤهم على قدر واحد في حسن يوسف بن يعقوب عليهما السلام، ويشرب من العين الأخرى، فينفى ما في صدره من غل أو هم أو حسد أو حزن، فيطهر الله عز وجل قلبه بذلك الماء، فيخرج وقلبه على قلب أيوب، ولسانه على لسان محمد ﷺ عربى، ثم ينطلقون حتى يأتوا الباب، فتقول لهم الخزنة: طبت، فيقولون: نعم، فيقولون: ادخلوها خالدين، يبشرونهم بالخلود قبل الدخول بأنهم لا يخرجون أبداً، فأول ما يدخل من باب الجنة ومعه الملكان اللذان كانا معه في دار الدنيا الكرام الكاتبين.

فإذا هو بملك معه نجبية من ياقوتة حمراء زمامها من ياقوتة خضراء فإذا كانت النجبية من ياقوتة حمراء كان زمامها من ياقوتة خضراء، فإذا كانت النجبية من ياقوتة خضراء كان زمامها ياقوتة حمراء عليها راحلة مقدمها ومؤخرها در وياقوت، وصفحتها الذهب والفضة، ومعه سبعون حلة، فيلبسها ويضع على رأسه التاج، ومعه عشرة آلاف غلام كاللؤلؤ المكنون، فيقول: يا ولي الله اركب فإن هذا لك، ولك مثلها، فيركبها ولها جناحان خطوها منتهى البصر، فيسير على نجبية وبين يديه عشرة آلاف غلام، ومعه الملكان اللذان كانا معه في الدنيا حتى يأتى إلى قصوره، فينزلها، ثم قال عز وجل: ﴿إِنْ هَذَا﴾ الذى وضعت لكم فى هذه السورة ﴿كَانَ لَكُمْ جِزَاءً﴾ لأعمالكم من حسن الثواب ﴿وَكَانَ سَعْيُكُمْ﴾ [الإنسان: ٢٢] أى عملكم ﴿مَشْكُورًا﴾ [الإنسان: ٢٢] يعنى شكر الله عز وجل أعمالكم فأثابكم الجنة.

[باب: في ذكر فضائل الشهور والأيام]

مجلس

في فضائل شهر رجب

قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ [التوبة: ٣٦].

سبب نزول هذه الآية أن المؤمنين ساروا من المدينة إلى أهل مكة قبل أن يفتح على رسول الله ﷺ فقالوا: إنا نخاف أن يقاتلنا كفار مكة في الشهر الحرام، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ يعني في اللوح المحفوظ ﴿يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ يعني من العدة حرم، يعني رجب، وذا القعدة، وذا الحجة، والمحرم، واحد فرد وهو رجب وثلاثة سرد متتابعة ﴿ذَلِكَ الدِّينَ الْقِيمَ﴾ [التوبة: ٣٦] يعني الحساب القيم المستقيم ﴿فَلَا تَظْلَمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾ [التوبة: ٣٦] يعني في الأشهر الحرم، خص الله تعالى بالنهي هذه الأربعة الأشهر ليبين لنا تمييزها بعظم حرمتها وتأكيد أمرها بالنهي عن الظلم فيها على غيرها من الشهور، وإن كان الظلم منهيًا عنه في سائر الشهور، كما قال الله تعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾ [البقرة: ٢٣٨] أمر بالمحافظة على الصلاة الوسطى وهي العصر، وإن كان الأمر شاملاً في المحافظة لجميع الصلاة، وإنما أفرد الوسطى بالصلاة بالذكر لما ذكرنا من الاختصاص، والتمييز في الحرمة والتأكيد يعني بالظلم ألا تقتلوا فيهن أحدًا من مشركي العرب إلا أن يبدؤوكم بالقتل.

وقال أبو يزيد رحمه الله: الظلم: هو الترك لطاعة الله تعالى والعمل بمعاصي الله عز وجل.

وقال غيره: هو وضع الشيء في غير موضعه، وهو راجع إلى ذلك، ثم قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ٣٦] يعني كفار مكة ﴿كَافَّةً﴾ [التوبة: ٣٦] جميعًا ﴿كَمَا يَقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ [التوبة: ٣٦] يعني إن قاتلوكم في الشهر الحرام فقاتلوهم جميعًا ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ﴾ [التوبة: ٣٦] في النصر ﴿مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٣٦].

واختلف أهل التفسير في «الدين القيم» :

فقال مقاتل رحمه الله : الدين القيم : هو الدين الحق .

وقال آخرون : هو الدين الصادق ، وهو دين الإسلام .

وقال آخرون : هو دين الحنيفية .

وقال آخرون : الدين القيم : هو الذى أمر الله به المسلمين .

(فصل) ورجب : هو اسم من الأسماء المشتقة ، واشتقاقه من الترجيب .

والترجيبي : هو التعظيم عند العرب ، يقال : رجب هذا الشهر : إذا عظّمته .

ومن ذلك قول الحباب بن المنذر بن الجموح يوم سقيفة بنى ساعدة ، يوم توفى رسول الله ﷺ واختلف المهاجرون والأنصار فى أمير ينصبونه ، فقالت الأنصار : منا أمير ومنكم أمير . . . القصة المشهورة ، فغضب الحباب فسل سيفه وقال : أنا جديّلها المحكك ، وعذيقها المرجب : أى أنا العظيم فى قومى ، المطاع فيهم ، والعديق : تصغير عذق ، وهو النخلة الكريمة على أهلها ، كانوا يعمدونها إذا مالت لثلا تسقط ، والرجبة : البناء الذى يكون حول النخلة .

وقوله : جديّلها المحكك : جديّل : تصغير جذل ، وهو الجذع والنخلة التى تحتك بها الإبل الجرباء .

وقيل : الجذل عود ينصب فى معاطن الإبل يحتك به الفصال .

وقال أبو زيد ، عن يحيى بن زياد الفراء : إنما سمى رجب لأنهم كانوا يرجّبون الأعذاق فى هذا الشهر على النخل ، ويشدونّها بالخصوص إلى السعف لثلا تنفضها الرياح ، يقال منه : رجب النخلة ترجيباً : إذا فعلت بها ذلك .

وقال آخرون : الترجيب : أن يوضع الشوك على الأعذاق حفظاً لها من تناول أيدي المستطعمين والتحرز من تناثر التمر على الأرض .

وقال آخرون : الترجيب : أن تدعم النخلة إذا مالت بدعامة لثلا تسقط وتخزّ .

وقال آخرون : هو مأخوذ من قول العرب : رجب الشيء : أى هبته ورهبته .

وقال آخرون : الترجيب : التأهب والاستعداد ، لقول النبى ﷺ : «إنه ليرجب فيه خير

كثير لشعبان» .

وقال آخرون: الترجيبي: تكرر ذكر الله تعالى وتعظيمه، لأن الملائكة يرجبون أصواتهم فيه بالتسبيح والتحميد والتقديس لله عز وجل.
ويقال: شهر رجم بالميم أيضاً، فيكون معناه: ترجم فيه الشياطين حتى لا يؤذوا فيه المؤمنين.

فرجب ثلاثة أحرف، راء وجيم وباء.

فالراء: رحمة الله عز وجل، والجيم: جود الله تعالى، والباء: بر الله عز وجل، فمن أول هذا الشهر إلى آخره من الله عز وجل ثلاث عطايا للعباد، رحمة بلا عذاب، وجود بلا بخل، وبر بلا جفاء.

(فصل) ولرجب أسماء آخر:

منها أنه سمي رجب مضر، ومنصل الأستة، وشهر الله الأصم، وشهر الله الأصب، والشهر المطهر، والشهر السابق، والشهر الفرد.

أما قولهم: رجب مضر، فقد روى عن النبي ﷺ أنه قال في بعض خطبه: «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، السنة اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم، ثلاث متواليات: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم، وواحد فرد وهو رجب مضر الذي بين جمادى وشعبان»^(١).

وإنما عرف موضعه بقوله: بين جمادى وشعبان، إبطالاً للنسب الذي كانت العرب تفعله في الجاهلية، وهو قوله عز وجل: ﴿إِنَّمَا النَّسَبُ فِي الْكَفْرِ يَضِلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [التوبة: ٣٧] وذلك أن العرب في الجاهلية كانت إذا أرادت الصدر من منى قام رجل من بني كنانة يقال له نعيم بن ثعلبة، وكان رئيس القوم، فيقول: أنا الذي أجاب ولا أعاب ولا يرد لي قضاء، فيقولون له: صدقت، أنسنا شهراً، يريدون: أخر عنا حرمة المحرم واجعلها في صفر، وأحل لنا المحرم.

وإنما دعاهم إلى ذلك لثلاث تنوالت عليهم ثلاثة أشهر لا يغيرون فيها، وقد كان معاشهم من الإغارة، فيفعل ذلك عاماً، ثم يرجع إلى تحريم المحرم، وإباحة صفر، فذلك الإنشاء ومنه قيل: نسأ الله في أجله، وأنسأ الله أجله.

(١) البخاري ٨٣/٦، ١٢٩/٧، ومسلم في: القسامة (٢٩)، وأحمد ٣٧/٥، وأبو داود (١٩٤٧)، والبيهقي ١٦٦/٥.

فوصف النبي ﷺ رجب بصفتين وقيده بنعتين:

أحدهما قوله: «رجب مضر» لأن مضر كانت تبالغ في تعظيمه وتكبيره وتحريمه .
الثاني: أنه قيده بقوله بين جمادى وشعبان خوفاً من التقديم والتأخير كما جرى في
تحريم المحرم إلى صفر، فخص الشهر وقيده، وأيد تحريمه وأكدته .
وقيل: إنما سمي رجب مضر، لأن بعض الكفار دعا على قبيلة من القبائل فيه
فأهلكهم الله عز جل .

وقيل: إن الدعاء فيه مستجاب على الظلمة، وكل جائر، ولهذا كانت الجاهلية
يؤخرون دعواتهم على من ظلمهم، فيدعون عليه في رجب فلا يرد خائباً .
وأما منصل الأسنة، فلأنهم كانوا ينزعون الأسنة فيه عن الرماح، ويغمدون سيوفهم
وسهامهم تهيئاً له وتعظيماً، فسمى بذلك منصل الأسنة، ويقال نصلت السهم: إذا
جعلت له نصلاً، وأنصلته: إذا نزعته عنه نصله .

وأما شهر الله الأصم، فلما روى عن عثمان بن عفان رضى الله عنه أنه لما استهل
رجب رقى المنبر يوم الجمعة وخطب ثم قال: ألا إن هذا شهر الله الأصم، وهو شهر
ركاتكم، فمن كان عليه دين فليؤد دينه، ثم ليزك ما بقى .

قال ابن الأنباري: أما قوله الأصم، فلأنما سمي بذلك لأن العرب كانت تظل تحارب
بعضها بعضاً، فإذا أهل رجب وضعوا السلاح ونزعوا الأسنة، فلا تسمع فيه قعقة
السلاح، ولا صلصلة الرماح، وكان الرجل إذا ركب في طلب قاتل أبيه فإذا رآه في
رجب لم يتعرض له، كأنه لم يره ولم يسمع له خبراً، فسمى أصم لذلك .

وقيل: سمي أصم لأنه لم يسمع فيه غضب الله تعالى على قوم قط، لأن الله تعالى
عذب الأمم الماضية في سائر الشهور، ولم يعذب أمة من الأمم في هذا الشهر .
وفى هذا الشهر حمل الله نوحاً في السفينة، فجرت به ومن معه في السفينة ستة
أشهر .

قال إبراهيم النخعي: إن رجب شهر الله تعالى، فيه حمل الله نوحاً في السفينة،
فصامه نوح عليه السلام وأمر بصيامه من كان معه، فأمنه الله تعالى، ومن كان معه من
الطوفان، وطهر الأرض من الشرك والعدوان .

ورفع ذلك غيره إلى النبي ﷺ وهو ما أخبرنا به هبة الله بإسناده عن أبي حازم، عن

سهل بن سعد رضى الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «ألا إن رجب من الأشهر الحرم، وفيه حمل الله نوحاً في السفينة، فصامه نوح في السفينة، وأمر من كان معه بصيامه، فأنجاهم الله تعالى وأمنهم من الغرق، وطهر الله الأرض من الكفر والطغيان بالطوفان».

وقيل: إنه سمي أصم لأنه أصم عن جفائك وزلتك وسميع بفضلك يا مؤمن وشرفك، فجعله الله تعالى أصم من جفائك وزلتك، لئلا يشهد عليك بها يوم القيامة، بل يكون شهيداً لك لما سمع من فضلك وإحسان العمل فيه.

وأما الأصم فمعتاه، أنه تصب الرحمة فيه صباً على العباد، ويعطيهم الله تعالى من الكرامات والمثوبات ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

من ذلك ما أخبرنا الشيخ هبة الله بن المبارك السقطي رحمه الله بإسناده عن إبراهيم، عن علقمة، عن أبي سعيد الخدري رضى الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم» [التوبة: ٣٦].

فرجب يقال له شهر الله الأصم، وثلاث آخر متواليات، يعنى: ذا القعدة وذا الحجة والمحرم، ألا إن رجب شهر الله، وشعبان شهري، ورمضان شهر أمتي.

فمن صام من رجب يوماً إيماناً واحتساباً استوجب رضوان الله الأكبر، وأسكن الفردوس الأعلى، ومن صام منه يومين فله من الأجر ضعفان، وزن كل ضعف مثل جبال الدنيا، ومن صام من رجب ثلاثة أيام جعل الله بينه وبين النار خندقاً طوله مسيرة سنة، ومن صام من رجب أربعة أيام عوفى من البلايا ومن الجنون والجذام والبرص ومن فتنة المسيح الدجال، ومن صام منه خمسة أيام وقى من عذاب القبر، ومن صام منه ستة أيام خرج من قبره ووجهه أضوأ من القمر في ليلة البدر، ومن صام منه سبعة أيام فإن لجهنم سبعة أبواب، يغلق الله عته بصوم كل يوم من أيامه باباً من أبوابها، ومن صام منه ثمانية أيام فإن للجنة ثمانية أبواب، يفتح الله له بصوم كل يوم باباً من أبوابها، ومن صام منه تسعة أيام خرج من قبره وهو ينادى: أشهد أن لا إله إلا الله ولا يرد وجهه دون الجنة، ومن صام منه عشرة أيام جعل الله تعالى له على كل ميل من الصراط فراشاً يستريح عليه، ومن صام منه إحدى عشر يوماً لم ير في القيامة أفضل منه، إلا من صام مثله أو زاد عليه، ومن صام من رجب اثني عشر يوماً كساه الله تعالى يوم القيامة

حلتين، الحلة الواحدة خير من الدنيا وما فيها، ومن صام من رجب ثلاثة عشر يوماً يوضع له يوم القيامة مائدة في ظل العرش فيأكل عليها والناس في شدة شديدة، ومن صام من رجب أربعة عشر يوماً أعطاه الله عز وجل ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، ومن صام منه خمسة عشر يوماً يوقفه الله تعالى يوم القيامة موقف الآمنين، ولا يمر به ملك مقرب ولا نبي مرسل إلا قال له: طوبى لك إنك من الآمنين».

وفى لفظ آخر: زيادة على خمسة عشر، وهى: «من صام منه ستة عشر يوماً كان فى أوائل من يزور الرحمن وينظر إليه ويسمع كلامه، ومن صام منه سبعة عشر يوماً ينصب الله له على كل ميل من الصراط مستراحاً يستريح عليه، ومن صام منه ثمانية عشر يوماً راحم إبراهيم الخليل عليه السلام فى قبته، ومن صام منه تسعة عشر يوماً بنى الله له قصرًا فى الجنة تجاه قصر إبراهيم وآدم عليهما السلام، ويسلم عليهما ويسلمان عليه، ومن صام منه عشرين يوماً، نادى مناد من السماء: يا عبد الله أما ما قد مضى فقد غفره الله لك، فاستأنف العمل فيما بقى»^(١).

وأما المطهر فلأنه يطهر صائمه من الذنوب والخطيئات، فمن ذلك ما أخبرنا به الشيخ الإمام هبة الله بن المبارك السقطى رحمه الله عن الحسن بن أحمد بن عبد الله المقرئ بإسناده عن هارون بن عترة، عن أبيه، عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن شهر رجب شهر عظيم من صام منه يوماً كتب الله تعالى له صوم ألف سنة، ومن صام منه يومين كتب الله له صوم ألفى سنة، ومن صام منه ثلاثة أيام كتب الله تعالى له صوم ثلاثة آلاف سنة، ومن صام منه سبعة أيام أغلقت عنه سبعة أبواب جهنم، ومن صام منه ثمانية أيام فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء، ومن صام منه خمسة عشر يوماً بدلت سيئاته حسنات، ونادى مناد من السماء: قد غفر لك، فاستأنف العمل، ومن زاد زاده الله تعالى»^(٢).

وأخبرنا الشيخ الإمام هبة الله بن المبارك بإسناده عن يونس، عن الحسن رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من صام يوماً من رجب عدل له بصيام سنتين، ومن

(١) تبين العجب (٣٦).

(٢) الموضوعات ٢/٢٠٧، والفوائد المجموعة (١٠١).

صام النصف من رجب عدل له بصيام ثلاثين سنة».

وأخبرنا الشيخ الإمام هبة الله، عن الحسن بن أحمد بن عبد الله المقرئ بإسناده عن العلاء بن كثير، عن مكحول رحمه الله قال: إن رجلاً سأل أبا الدرداء رضى الله عنه عن صيام رجب، فقال له: سألت عن شهر كانت الجاهلية تعظمه في جاهليتها، وما زاده الإسلام إلا فضلاً وتعظيماً، ومن صام منه يوماً تطوعاً يحتسب به ثواب الله تعالى، ويبتغى به وجهه مخلصاً، أطفأ صومه ذلك اليوم غضب الله تعالى، وأغلق عنه باباً من أبواب النار، ولو أعطى ملء الأرض ذهباً ما كان جزاء له، ولا يستكمل أجر شيء من الدنيا دون يوم الحساب وله إذا أمسى عشر دعوات مستجابات، فإن دعا به لشيء من عاجل الدنيا أعطيه، وإلا ادخر له من الخير كأفضل ما دعا به داع من أولياء الله تعالى وأصفياؤه.

ومن صام يومين كان له مثل ذلك، وله مع ذلك أجر عشرة من الصديقين في عمرهم، بالغة أعمارهم ما بلغت، ويشفع في مثل ما يشفعون فيه، ويكون في زمرتهم حتى يدخل الجنة معهم، ويكون من رفقاءهم.

ومن صام ثلاثة أيام، كان له مثل ذلك، وقال الله تعالى عند إفطاره: لقد وجب حق عبدى هذا ووجبت له محبتى وولايتى، أشهدكم يا ملائكتى أنى قد غفرت له من ذنبه ما تقدم وما تأخر.

ومن صام أربعة أيام كان له مثل ذلك، وثواب أولى الألباب التوابين، ويعطى كتابه في أوائل الفائزين.

ومن صام خمسة أيام كان له مثل ذلك، ويبعث يوم القيامة ووجهه مثل القمر ليلة البدر، ويكتب له عدد رمل عالج حسنات، ويدخل الجنة، ويقال له: تمن على الله ما شئت.

ومن صام ستة أيام كان له مثل ذلك، ويعطى سوى ذلك نوراً يستضىء به أهل الجمع في القيامة، ويبعث في الأمنين حتى يمر على الصراط بغير حساب، ويعافى من عقوق الوالدين وقطيعة الرحم ويقبل الله عليه بوجهه إذا لقيه يوم القيامة.

ومن صام سبعة أيام كان له مثل ذلك، ويغلق عنه سبعة أبواب النار، ويحرمه الله على النار، ويوجب له الجنة يتبوأ منها حيث يشاء.

ومن صام ثمانية أيام كان له مثل ذلك، وفتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخلها من أى باب شاء.

ومن صام تسعة أيام كان له مثل ذلك، ويرفع كتابه فى عليين، ويبعث يوم القيامة فى الآمنين ويخرج من قبره، ووجهه نور يتلألأ، ويشرق لأهل الجمع حتى يقولوا هذا نبي مصطفى، وإن أدنى ما يعطى أن يدخل الجنة بغير حساب.

ومن صام عشرة أيام فبخ فبخ فبخ له، فيعطى مثل ذلك وعشرة أضعافه، وهو ممن يبدل الله سيئاته حسنات، ويكون من المقربين القوامين لله بالقسط، وكان كمن عبد الله ألف عام صائماً قائماً صابراً محتسباً.

ومن صام عشرين يوماً كان له مثل ذلك وعشرون ضعفاً، وهو ممن يزاحم إبراهيم خليل الله عليه السلام فى قبته، ويشفع فى مثل ريعة ومضر، كلهم من أهل الخطايا والذنوب.

ومن صام ثلاثين يوماً كان له مثل ذلك وثلاثون ضعفاً، وينادى من السماء أبشر يا ولى الله بالكرامة العظمى، قال: وما الكرامة العظمى؟ قال: النظر إلى وجه الله تعالى الجميل، ومرافقة النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقاً، طوبى لك غداً إذا كشف الغطاء، وأفضيت إلى جسيم ثواب ربك الكريم، فإذا نزل به ملك الموت سقاء الله تعالى عند خروج نفسه شربة من حياض الفردوس، ويهون عليه سكرات الموت حتى ما يجد ألم الموت، ويظل فى قبره ريان، ويظل فى الموقف ريان حتى يرد حوض النبي ﷺ، وإذا خرج من قبره شيعه سبعون ألف ملك، معهم النجائب من الدر والياقوت، ومعهم طرائف الحللى والحلل، فيقولون له: يا ولى الله، النجاء النجاء إلى ربك عز وجل الذى أظمأت له نهارك، وأنحلت له جسمك، فهو من أول الناس دخولاً جنات عدن يوم القيامة مع الفائزين، رضى الله عنهم ورضوا عنه، وذلك هو الفوز العظيم.

قال: وإن كان له فى كل يوم يصومه صدقة على زنة قوته، تصدق بها، فهيها هيهات هيهات ثلاثاً، لو اجتمع جميع الخلائق على أن يقدرُوا قدر ما أعطى ذلك العبد من الثواب ما بلغوا معشار العشر مما أعطى الله ذلك العبد من الثواب.

وعن عبد الله بن الزبير رضى الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: من فرج عن مؤمن

كربة في شهر رجب، وهو شهر الله الأصم، أعطاه الله تعالى في الفردوس قصرًا مد بصره ألا فأكرموا رجب يكرمكم الله عز وجل بألف كرامة^(١).

وعن عقبة عن سلامة بن قيس يرفعه إلى النبي ﷺ أنه قال: «من تصدق في رجب باعده الله من النار كمقدار غراب طار فرخًا من وكره في الهواء، حتى مات هرمًا» وقيل الغراب يعيش خمسمائة عام.

وأما السابق، فلأنه أول الأشهر الحرم.

وأما الفرد، فلأنه مفرد عن إخوانه، كما روى ثور بن يزيد، قال: قال رسول الله ﷺ في حجة الوداع في خطبته: «ألا إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، السنة اثنا عشر شهرًا، منها أربعة حرم، ثلاث متواليات: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم، وواحد فرد: رجب مضر الذي بين جمادى وشعبان»^(٢).

(فصل آخر):

عن عكرمة، عن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: «رجب شهر الله، وشعبان شهري، ورمضان شهر أمتي»^(٣).

وعن موسى بن عمران قال: سمعت أنس بن مالك - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «إن في الجنة نهرًا يقال له رجب، أشد بياضًا من اللبن، وأحلى من العسل، من صام يومًا من رجب سقاه الله من ذلك النهر»^(٤).

وعن أنس بن مالك أنه قال: «إن في الجنة قصرًا لا يدخله إلا صوأم رجب».

وعن أبي هريرة رضى الله عنه أنه قال: «لم يصم رسول الله ﷺ شهرًا بعد رمضان إلا رجب وشعبان».

وعن أنس رضى الله عنه أيضًا قال: قال رسول الله ﷺ: «من صام ثلاثة أيام من الشهر الحرام الخميس والجمعة والسبت، كتب الله له عبادة تسعمائة سنة»^(٥).

(١) تبين العجب (٤١).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) الموضوعات ١٢٤/٢، والإتحاف ٤٢٢/٣، وكشف الخفاء ١/٥١٠.

(٤) بنحوه: الإتحاف ٥٣٣/١٠، والكنز (٢٤٢٦٠)، والمتناهي ٢/٦٥.

(٥) الإتحاف ٢٥٦/٤، والمجمع ١٩١/٣، والكنز (٢٤٢٣٧).

وقيل: رجب لترك الجفاء، وشعبان للعمل والوفاء، ورمضان للصدق والصفاء.
رجب شهر التوبة، شعبان شهر المحبة، رمضان شهر القربة.
رجب شهر الحرمة، شعبان شهر الخدمة، رمضان شهر النعمة.
رجب شهر العبادة، شعبان شهر الزهادة، رمضان شهر الزيادة.
رجب شهر يضاعف الله فيه الحسنات، شعبان شهر تكفر فيه السيئات، رمضان شهر
تنتظر فيه الكرامات.

رجب شهر السابقين، شعبان شهر المقتصدین، رمضان شهر العاصين.
وقال ذو النون المصري رحمه الله: رجب لترك الآفات، وشعبان لاستعمال
الطاعات، ورمضان لانتظار الكرامات، فمن لم يترك الآفات، ولم يستعمل الطاعات،
ولم ينتظر الكرامات، فهو من أهل الترهات.

وقال أيضاً رحمه الله: رجب شهر الزرع، وشعبان شهر السقى، ورمضان شهر
الحصاد، وكل يحصد ما زرع، ويجزى ما صنع، ومن ضيع الزراعة ندم يوم حصاده،
وأخلف ظنه مع سوء معاده.

وقال بعض الصالحين: السنة شجرة، رجب أيام إيقاقها، وشعبان أيام إثمارها،
ورمضان أيام قطافها.

وقيل: خص رجب بالمغفرة من الله تعالى، وشعبان بالشفاعة، ورمضان بتضعيف
الحسنات، وليلة القدر بإنزال الرحمة، ويوم عرفة بإكمال الدين، كما قال الله تعالى:
﴿اليوم أكملت لكم دينكم﴾ [المائدة: ٣]، ويوم الجمعة بإجابة أدعية الداعين، ويوم العيد
بالتق من النار، وفكاك رقاب المؤمنين.

وروى زياد المازني، عن الحسين بن على رضى الله عنهما أنه قال: صوم رجب
وشعبان توبة من الله عز وجل.

وروى عن سلمان الفارسي رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من
صام يوماً من رجب، فكأنما صام ألف سنة، وكأنما اعتق ألف رقبة، ومن تصدق فيه
بصدقة، فكأنما تصدق بألف دينار، وكتب الله له بكل شعرة على بدنه ألف حسنة،
ورفعه ألف درجة، ومحا عنه ألف سيئة، وكتب له بكل يوم يصومه وبكل صدقة
يتصدق بها ألف حجة وألف عمرة، وبني له في الجنة ألف دار وألف قصر وألف

حجرة، في كل حجرة ألف مقصورة، وفي كل مقصورة ألف حور، كل حور أحسن من الشمس ألف مرة.

(فصل: في فضل صيام أول يوم من رجب، وقيام أول ليلة منه)

أخبرنا الإمام الشيخ هبة الله السقطي رحمه الله بإسناده عن أنس بن مالك رضى الله عنه، قال: «كان رسول الله ﷺ إذا دخل رجب، قال: اللهم بارك لنا في رجب وشعبان وبلغنا رمضان كما بلغتنا رجب»^(١).

وأخبرنا الشيخ الإمام هبة الله السقطي بإسناده عن ميمون بن مهران بإسناده عن أبي ذر رضى الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «من صام أول يوم من رجب عدل صيام شهر، ومن صام سبعة أيام أغلقت عنه أبواب جهنم السبعة، ومن صام ثمانية أيام فتحت له أبواب الجنة الثمانية، ومن صام منه عشرة أيام، بدل الله سيئاته حسنات، ومن صام منه ثمانية عشر يوماً نادى منادى من السماء: قد غفر لك فاستأنف العمل»^(٢).

وأخبرنا الشيخ الإمام هبة الله بإسناده عن سلامة بن قيس يرفعه إلى النبي ﷺ: «من صام أول يوم من رجب تباعدت عنه ذنوبه بقدر ما بين السماء والأرض وذكر باقى الحديث».

وعن أنس بن مالك يرفعه «من صام أول يوم من رجب كفر الله عنه ذنوب سنتين، ومن صام خمسة عشر يوماً حاسبه الله حساباً يسيراً، ومن صام ثلاثين يوماً من رجب كتب الله له رضوانه ولم يعذبه».

وروى أن عمر بن عبد العزيز رحمه الله كتب إلى الحجاج بن أرطاة وهو على البصرة وقيل: إلى عدى بن أرطاة: عليك بأربع ليال في السنة فإن الله تعالى يفرغ فيهن الرحمة إفراغاً، وهى أول ليلة من رجب، وليلة النصف من شعبان، وليلة السابع والعشرين من رجب، وليلة الفطر.

وعن خالد بن معدان رحمه الله أنه قال: خمس ليال في السنة من واطب عليهن رجاء ثوابهن، وتصديقاً بوعدهن، أدخله الله تعالى الجنة: أول ليلة من رجب يقوم ليلاً

(١) أحمد ٢٥٩/١، والدر المنثور ١/١٨٣، والكنز (١٨٠٤٩)، والمجمع ٢/١٦٥.

(٢) الكنز (٢٤٢٦٢)، وأصفهان ٣٧/٢، واللائىء المصنوعة ٢/٦٥.

ويصوم نهارها، وليستى العيدين يقوم ليلهما ويفطر نهارهما وليلة النصف من شعبان يقوم ليلها ويصوم نهارها، وليلة عاشوراء يقوم ليلها ويصوم نهارها.

(فصل) وقد جمع بعض العلماء رحمهم الله الليالى التى يستحب إحياؤها فقال:

إنها أربع عشرة ليلة فى السنة، وهى أول ليلة من شهر المحرم، وليلة عاشوراء، وأول ليلة من شهر رجب، وليلة النصف منه، وليلة سبع وعشرين منه، وليلة النصف من شعبان، وليلة عرفة، وليلتا العيدين، وخمس ليال منها فى شهر رمضان وهى وتر ليالى العشر الأواخر.

وكذلك يستحب مواصلة سبعة عشر يومًا بالأوراد والمواظبة على العبادة فيها، وهى: يوم عرفة، ويوم عاشوراء، ويوم النصف من شعبان، ويوم الجمعة، ويوما العيدين، والأيام المعلومات وهى عشر ذى حجة، والأيام المعدودات وهى أيام التشريق، وأكدها يوم الجمعة وشهر رمضان، لما روى أنس رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا سلم يوم الجمعة سلمت الأيام وإذا سلم شهر رمضان سلمت السنة»^(١).

ثم أكد الأيام وأفضلها بعد ذلك يوم الإثنين والخميس، وهما يومان ترفع فيهما الأعمال إلى الله عز وجل.

(فصل: فى الأدعية الماثورة فى أول ليلة من رجب)

ويستحب أن يدعو فى أول ليلة من رجب إذا فرغ من صلاته بهذا الدعاء وهو أن يقول: إلهى تعرّض لك فى هذه الليلة المتعرّضون، وقصدك القاصدون، وأمل فضلك ومعروفك الطالبون، ولك فى هذه الليلة نفحات وجوائز وعطايا ومواهب، تمنّ بها على من تشاء من عبادك، وتمنعها ممن لم تسبق له العناية منك، وها أنا عبدك الفقير إليك، المؤمل فضلك ومعروفك، فإن كنت يا مولاي تفضلت فى هذه الليلة على أحد من خلقك وجدت عليه بعائدة من عطفك، فصل على محمد وآله، وجد على بطولك ومعروفك يا رب العالمين.

وكان على بن أبى طالب رضى الله عنه يفرغ نفسه للعبادة فى أربع ليال فى السنة وهى: أول ليلة من رجب، وليلة الفطر، وليلة الأضحى، وليلة النصف من شعبان.

(١) الإتحاف ٥/ ٢٠٧.

وكان من دعائه فيها: اللهم صل على محمد وآله مصاييح الحكمة وموالي النعمة ومعادن العصمة، واعصمني بهم من كل سوء، ولا تأخذني على غرة ولا على غفلة، ولا تجعل عواقب أمرى حسرة وندامة، وارض عني، فإن مغفرتك للظالمين وأنا من الظالمين، اللهم اغفر لي ما لا يضررك، واعطني ما لا ينفعك، فإنك الواسعة رحمته، البديعة حكمته، فاعطني السعة والدعة والأمن والصحة والشكر والمعافاة والتقوى والصبر والصدق عليك وعلى أوليائك، واعطني اليسر مع العسر، واعمم بذلك أهلي وولدي وإخواني فيك، ومن ولدني من المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات.

(فصل: في الصلاة الواردة في شهر رجب)

أخبرنا الشيخ الإمام هبة الله بن المبارك السقطي حدثنا محمد بن أحمد المحاملي، حدثنا علي بن محمد المعدل بن إسماعيل بن محمد الصفار، أخبرنا سعدان بن نصر بن منصور البزار، أخبرنا سفيان بن عيينة عن الأعمش عن طارق بن شهاب عن سلمان رضى الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال وقد استهل رجب: «يا سلمان ما من مؤمن ولا مؤمنة يصلى في هذا الشهر ثلاثين ركعة يقرأ في كل ركعة فاتحة الكتاب و ﴿قل هو الله أحد...﴾ ثلاث مرات، و ﴿قل يا أيها الكافرون...﴾ ثلاث مرات، إلا محا الله عنه ذنوبه، وأعطى من الأجر كمن صام الشهر كله، وكان من المصلين إلى السنة المقبلة، ورفع له كل يوم عمل شهيد من شهداء بدر، وكتب له بصيام كل يوم عبادة سنة، ورفع له ألف درجة، فإن صام الشهر كله وصلى هذه الصلاة ألجأه الله من النار وأوجب له الجنة، وكان في جوار الله سبحانه، أخبرني بذلك جبريل عليه السلام وقال: يا محمد هذه علامة بينكم وبين المشركين والمنافقين، لأن المنافقين لا يصلون ذلك.

قال سلمان رضى الله عنه: قلت: يا رسول الله، أخبرني كيف أصليها ومتى أصليها. قال: يا سلمان تصلى في أوله عشر ركعات تقرأ في كل ركعة فاتحة الكتاب مرة واحدة، و ﴿قل هو الله أحد...﴾ ثلاث مرات، و ﴿قل يا أيها الكافرون...﴾ ثلاث مرات، فإذا سلمت رفعت يديك وقلت: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد يحيى ويميت وهو حي لا يموت، بيده الخير وهو على كل شيء قدير، اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطى لما منعت، ولا ينفع ذا الجند منك الجند، ثم امسح بهما وجهك.

وصل في وسط الشهر عشر ركعات اقرأ في كل ركعة فاتحة الكتاب مرة واحدة ، و﴿قل هو الله أحد...﴾ ثلاث مرات، و﴿قل يا أيها الكافرون...﴾ ثلاث مرات، فإذا سلمت فارفع يديك إلى السماء وقل: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد يحيى ويميت وهو حي لا يموت، بيده الخير وهو على كل شيء قدير، إلهًا واحدًا أحدًا صمدًا فردًا وترًا، لم يتخذ صاحبة ولا ولدًا، ثم امسح بهما على وجهك .

وصل في آخر الشهر عشر ركعات اقرأ في كل ركعة فاتحة الكتاب مرة واحدة ، و﴿قل هو الله أحد...﴾ ثلاث مرات، و﴿قل يا أيها الكافرون...﴾ ثلاث مرات، فإذا سلمت فارفع يديك إلى السماء وقل: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد يحيى ويميت، بيده الخير وهو على كل شيء قدير، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله الطاهرين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

وسل حاجتك يستجب لك دعاؤك، ويجعل الله بينك وبين جهنم سبعين خندقًا، كل خندق كما بين السماء والأرض، ويكتب لك بكل ركعة ألف ألف ركعة، ويكتب لك براءة من النار وجوازًا على الصراط» .

قال سلمان رضي الله عنه: فلما فرغ النبي ﷺ من الحديث، خررت ساجدًا أبكى شكرًا لله تعالى لما سمعت من هذه الزيادة، وجدت في كتاب العمل بالسنة، والله أعلم .

فصل

في تأكيد الفضيلة في صوم أول الخميس من رجب والصلاة في أول ليلة الجمعة

أخبرنا الشيخ أبو البركات هبة الله السقطي، أخبرنا القاضي أبو الفضل جعفر بن يحيى بن الكمال المكي، أخبرنا أبو عبد الله بن الحسين بن عبد الكريم بن محمد بن محمد الجزري بمكة في المسجد الحرام، أخبرنا أبو الحسن علي بن عبد الله بن جهضم الهمداني، أخبرنا أبو الحسن علي بن محمد بن سعيد السعدي البصري، أخبرنا أبي، قال: أخبرنا خلف بن عبد الله الصغاني، عن حميد الطويل، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «رجب شهر الله، وشعبان شهري، ورمضان شهر أمتي، قيل: يا رسول الله ما معنى قولك شهر الله؟ قال ﷺ: لأنه مخصوص بالمغفرة، وفيه تحقن الدماء، وفيه تاب الله تعالى على أنبيائه، وفيه أنقذ أوليائه من يد أعدائه، ومن صامه استوجب على الله ثلاثة أشياء: مغفرة لجميع ما سلف من ذنوبه، وعصمة فيما بقي من

عمره، وأما الثالث فيأمن العطش يوم العرض الأكبر، فقام شيخ ضعيف فقال: يا رسول الله إنى أعجز عن صيامه كله، فقال رسول الله ﷺ: صم أول يوم منه وأوسط يوم فيه، وآخر يوم منه، فإنك تعطى ثواب من صامه كله، فإن الحسنه بعشر أمثالها، ولكن لا تغفلوا عن أول ليلة جمعة فى رجب، فإنها ليلة تسميها الملائكة ليلة الرغائب، وذلك أنه إذا مضى ثلث الليل لا يبقى ملك فى جميع السموات والأرضين إلا ويجتمعون فى الكعبة وحواليها، فيطلع الله تعالى عليهم اطلاعة فيقول: ملائكتى سلونى ما شئتم، فيقولون: ربنا حاجتنا إليك أن تغفر لصلوات رجب، فيقول الله تعالى: قد فعلت ذلك.

ثم قال رسول الله ﷺ: فما من أحد يصوم يوم الخميس أول خميس فى رجب، ثم يصلى فيما بين المغرب والعشاء العتمة - يعنى ليلة الجمعة - اثنتا عشرة ركعة، يقرأ فى كل ركعة بفاتحة الكتاب مرة و ﴿إنا أنزلناه فى ليلة القدر...﴾ ثلاث مرات، و ﴿قل هو الله أحد...﴾ اثنتا عشرة مرة، يفصل بين كل ركعتين بتسليمة، فإذا فرغ من صلاته صلى على سبعين مرة يقول: اللهم صل على محمد النبى الأمى وعلى آله وسلم، ثم يسجد سجدة يقول فى سجوده: سبوح قدوس رب الملائكة والروح سبعين مرة، ثم يرفع رأسه فيقول: رب اغفر وارحم وتجاوز عما تعلم، فإنك أنت العزيز الأعظم سبعين مرة، ثم يسجد الثانية فيقول فيها مثل ما قال فى السجدة الأولى، ثم يسأل الله حاجته فى سجوده، فإنها تقضى.

قال رسول الله ﷺ: «والذى نفسى بيده ما من عبد ولا أمة صلى هذه الصلاة إلا غفر الله له جميع ذنوبه ولو كانت مثل ريد البحر وعدد الرمل ووزن الجبال، وعدد قطر الأمطار ووزن الأشجار، وشفع يوم القيامة فى سبعائة من أهل بيته، فإذا كان أول ليلة فى قبره جاءه ثواب هذه الصلاة بوجه طلق ولسان ذلق، فيقول له: يا حبيبى أبشر فقد نجوت من كل شدة، فيقول: من أنت؟ فوالله ما رأيت رجلاً أحسن وجهاً من وجهك، ولا سمعت كلاماً أحلى من كلامك، ولا شممت رائحة أحلى من رائحتك، فيقول له: يا حبيبى أنا ثواب تلك الصلاة التى صليتها فى ليلة كذا فى شهر كذا فى سنة كذا، جئت الليلة لأقضى حاجتك، وأونس وحدتك، وأدفع عنك وحشتك، فإذا نفخ فى الصور أظللتك فى عرصات القيامة على رأسك، فأبشر فلن تعدم الخير من مولاك أبداً».

(فصل: فى فضل صيام يوم السابع والعشرين من رجب)

أخبرنا الشيخ أبو البركات هبة الله السقطى، قال: أخبرنا الشيخ الحافظ أبو بكر أحمد بن على بن ثابت بن الخطيب، قال: أخبرنا عبد الله بن على بن محمد بشير، قال: أخبرنا على بن عمر الحافظ، أخبرنا أبو بكر نصر بن جيشون بن موسى الخلال، أخبرنا على بن سعيد الديلمى، أخبرنا ضمرة بن ربيعة القرشى عن ابن شاذب عن مطر الوراق، عن شهر بن حوشب، عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «من صام يوم السابع والعشرين من رجب كتب له ثواب صيام ستين شهراً، وهو أول يوم نزل فيه جبريل على النبى ﷺ بالرسالة»^(١).

وأخبرنا هبة الله بإسناده عن الحسن البصرى رحمه الله قال: «كان عبد الله بن عباس رضى الله عنهما إذا كان يوم السابع والعشرين من رجب أصبح معتكفاً وظل مصلياً إلى وقت الظهر، فإذا صلى الظهر تنفل هنيئة، ثم صلى أربع ركعات يقرأ فى كل ركعة ﴿الحمد لله...﴾ مرة، والمعوذتين مرة، و ﴿إنا أنزلناه فى ليلة القدر...﴾ ثلاثاً، و ﴿قل هو الله أحد...﴾ خمسين مرة، ثم يخلد إلى الدعاء إلى وقت العصر ويقول: هكذا كان يصنع رسول الله ﷺ فى هذا اليوم».

وأخبرنا هبة الله بإسناده عن أبى سلمة، عن أبى هريرة وسلمان الفارسى رضى الله عنهما قالاً: قال رسول الله ﷺ: «إن فى رجب يوماً وليلة من صام ذلك اليوم وقام تلك الليلة كان له من الأجر كمن صام مائة سنة وقامها» وهى ثلاث بقين من رجب، وهو اليوم الذى بعث فيه نبينا ﷺ.

(فصل: فى آداب الصيام، وما ينهى عنه من الآثام)

ينبغى للمصائم أن يجرد صومه من الآثام ويتمه بتقوى الله عز وجل لما أخبرنا به الشيخ هبة الله، قال: أخبرنا الحسن بن أحمد بن عبد الله الفقيه الحنبلى، قال: أخبرنا محمد بن أحمد الحافظ، قال: أخبرنا الحسين بن جعفر الراعظ، قال: أخبرنا أحمد بن عيسى بن السكن، قال: أخبرنا ابن إسحاق الملقب بالحسام قال: أخبرنا إسحاق بن رزين الراستنى، قال: أخبرنا إسماعيل بن يحيى، قال: أخبرنا مسعر بن كدام، عن

(١) الإتحاف ٢٠٧/٥، والمغنى عن حمل الأسفار ٣٦٧/١.

عطية عن أبي سعيد الخدري رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «رجب من الشهور الحرام وأيامه مكتوبة على باب السماء السادسة، فإذا صام الرجل منه يوماً وجرّد صومه بتقوى الله عز وجل نطق الباب ونطق اليوم وقالوا: يا رب اغفر له، وإذا لم يتم صومه بتقوى الله تعالى لم يستغفر له وقالوا له أو قيل له: خدعتك نفسك»^(١).

وعن الأعرج عن أبي هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الصيام جنة فإذا كان أحدكم صائماً فلا يجهل، فإن امرأ شاتمته أو قاتله فليقل إنى صائم»^(٢).

وعن النبي ﷺ أنه قال: «من لم يترك قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يترك طعامه وشرابه»^(٣).

وعن الحسن عن أبي هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الصيام جنة من النار ما لم يخرقه، قيل: وما يخرقه؟ قال: بكذبة أو بغية»^(٤).

وعن أبي هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ليس الصيام من الأكل والشرب، ولكن الصيام من اللغو والرفث»^(٥).

أخبرنا الشيخ أبو نصر محمد بن البناء، قال: أخبرنا والدى الشيخ أبو على بن الحسن ابن أحمد بن عبد الله بن البناء، قال: أخبرنا محمد الحافظ، قال: حدثنا عبد الله، قال: حدثنا جعفر بن محمد الحمال، قال: حدثنا سعيد بن عتبة، قال: أخبرنا بقية بن خلف، قال: حدثنا محمد بن الحجاج، عن خاقان، عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «خمس يفطران الصائم وينقضن الوضوء، الكذب، والنميمة، والغيبة، والنظر بشهوة، واليمين الكاذبة»^(٦).

وأخبرنا أبو نصر عن والده بإسناده عن أنس بن مالك - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «ما صام من ظل يأكل لحوم الناس»^(٧).

(١) تبين العجب (٤٢).

(٢) شرح السنة ٢٢٥/٦، والموطأ (٣١٠)، وفتح الباري ١٠٢/٤.

(٣) الإتحاف ٢٢/٣، و ٢٤٨/٤.

(٤) النسائي في الصيام: باب (٤٢)، والإتحاف ١٩٥/٤، والكنز (٢٣٥٦٦).

(٥) البيهقي ٢٧٠/٤، والكنز (٢٣٨٦٤)، والدر المنثور ٢٠١/١.

(٦) الإتحاف ٢٤٥/٤، والموضوعات ١٩٦/٢، واللالى ٦٠/٢.

(٧) ابن أبي شيبة ٤/٣، والقرطبي ٣٣٦/١٦، والدر المنثور ٢٠١/١.

وأخبرنا أبو نصر عن والده بإسناده عن حذيفة بن اليمان رضى الله عنه قال: «من تأمل خلف امرأة من فوق ثيابها بطل صومه»^(١).

وأخبرنا أبو نصر بإسناده عن سليمان بن موسى قال: قال جابر بن عبد الله رضى الله عنهما: إذا صمت فليصم سمعك وبصرك ولسانك من الكذب والمحارم، ودع أذى الجار، وليكن عليك وقار وسكينة، ولا تجعل يوم صومك ويوم فطرك سواء.

وقال النبى ﷺ: «رب صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والعطش، ورب قائم ليس له من قيامه إلا السهر»^(٢).

وقال ﷺ: «اهتز لذلك العرش وغضب له الرب» عنى به ﷺ إذا لم يرد بالعمل وجه الله تعالى بل أريد به الخلق.

وقال ﷺ: «إن الله تعالى يقول: أنا خير شريك، ومن أشرك معى شريكاً فى عمله فهو لشريكى دونى، إني لا أقبل إلا ما أخلص لى، يا ابن آدم أنا خير قيم فانظر عملك الذى عملت لغيرى فإنما جزاؤك على الذى عملت له»^(٣).

وكان ﷺ يقول فى دعائه: «اللهم طهر لسانى من الكذب، وقلبى من النفاق، وعملى من الرياء، وبصرى من الخيانة. فإنك تعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور»^(٤).

فينبغى للصائم أن يتأدب ويحذر من الرياء ونظر الخلق وعلمهم فى صومه وجميع عباداته، لئلا يخسر الدنيا والآخرة.

وحدثنا الشيخ أبو نصر عن والده بإسناده عن أبى فراش أنه سمع عبد الله بن عمر رضى الله عنهما يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «صام نوح الدهر إلا يومين النظر والأضحى، وصام داود نصف الدهر، وصام إبراهيم ثلاثة أيام من كل شهر، صام الدهر وأفطر الدهر»^(٥).

وأخبرنا الشيخ أبو نصر، عن والده بإسناده عن محمد بن المنكر، عن جابر بن

(١) الموضوعات ٢/ ١٩٥.

(٢) ابن ماجه (١٦٩٠)، والترغيب ٢/ ١٨٤، وكشف الخفاء ١/ ٥١٣.

(٣) الإتحاف ٨/ ٢٦٣ و ١٠/ ٦٣، وابن عساكر ٧/ ٧.

(٤) الإتحاف ٧/ ٥١٤، والخطيب ٥/ ٢٦٨، والمشكاة (٢٥٠١).

(٥) ابن ماجه ١٧١٤، والكنز (٢٣٩١٦).

عبد الله رضى الله عنهما «أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ من أهل البادية فقال: يا رسول الله أخبرني عن صومك، فغضب النبي ﷺ حتى احمرت وجنتاه، فلما رأى ذلك عمر ابن الخطاب رضى الله عنه أقبل على الرجل فزجره وانتهره حتى أسكته، فلما سرى عن النبي ﷺ قال عمر رضى الله عنه: يا نبي الله جعلني الله فداءك أخبرني عن رجل يصوم الدهر كله؟ قال: لا صام ذلك ولا أفطر، أو صام ذلك ولا أفطر، فقال: يا نبي الله أخبرني عن رجل يصوم ثلاثة أيام من كل شهر؟ قال ﷺ: ذلك صوم الدهر كله، فقال: يا نبي الله أخبرني عن رجل يصوم الإثنين والخميس؟ قال ﷺ: أما الخميس فيوم ترفع فيه الأعمال، وأما الإثنين فهو اليوم الذى ولدت فيه وأنزل على فيه الوحي»^(١).

(فصل) فإذا جاء وقت الإفطار فليقل عند إفطاره: «بسم الله، اللهم لك صمت، وعلى رزقك أفطرت، سبحانهك وبحمدك، اللهم تقبل منا إنك أنت السميع العليم».

وكان عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما يقول عند فطره: «اللهم إني أسألك برحمتك التي وسعت كل شيء أن تغفر لى».

وعن أبى العالية رحمه الله قال: من قال عند إفطاره: الحمد لله الذى علا فقهر، والحمد لله الذى نظر فخبر، والحمد لله الذى ملك فقدر، والحمد لله الذى يحيى الموتى، فقد خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه.

وعن مصعب بن سعيد، عن عبد الله بن الزبير عن سعيد بن مالك رضى الله عنهم قال: «إن النبي ﷺ كان إذا أفطر عند غيره قال: أفطر عندكم الصائمون، وأكل طعامكم الأبرار، وصلّت عليكم الملائكة»^(٢).

(فصل) اعلم أن شهر رجب تستجاب فيه الدعوة، وتقال فيه العثرة، وتضاعف على من اجترم فيه العقوبة.

من ذلك ما أخبرنا به الله قال: أخبرنا القاضى هناد بن إبراهيم النسفى، قال: أخبرنا عبد القاهر بن عمر الجزرى بها، قال: أخبرنا به الله، قال: أخبرنا محمد بن الفرحان قال: أنبأنا أحمد بن الحسين بن سعيد الأنبارى، قال: أنبأنا محمد بن إبراهيم ابن يعقوب، قال: أنبأنا إبراهيم بن فراش، عن عمرو بن سمرة، عن موسى بن

(١) مجمع الزوائد ١٥٦/٣، وتلخيص الحبير ٢٠٢/٢.

(٢) أبو داود (٣٨٥٤)، وابن ماجه (١٧٤٧)، وأحمد ١١٨/٣.

العباس، عن الأصبغ، عن نبأته عن الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنهما قال: بينما نحن فى الطواف إذ سمعنا صوتاً وهو يقول شعراً:

يا من يجيب دعاء المضطر فى الظلم يا كاشف الكرب والبلوى مع السقم
قد بات وفدك حول البيت والحرم ونحن ندعو وعين الله لم تنم
هب لى بجودك ما أخطأت من جرم يا من أشار إليه الخلق بالكرم
إن كان عفوك لم يسبق لمجترم فمن وجود على العاصين بالنعيم

قال الحسين بن على رضى الله عنهما: قال لى أبى على بن أبى طالب رضى الله عنه: يا حسين أما تسمع النادب ذنبه والمعاتب ربه، امض فعساك تدركه وناده، قال الحسين رضى الله عنه: فأسرعت حتى أدركته، وإذا أنا برجل جميل الوجه نقى البدن نظيف الثياب طيب الريح، إلا أنه قد شل جانبه الأيمن، فقلت: أجب أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله وجهه، فقام يجر شقه حتى وقف على أمير المؤمنين على ابن أبى طالب كرم الله وجهه فقال له: من أنت وما شأنك؟ قال: يا أمير المؤمنين ما شأن من أخذ بالعقوبة ومنع الحقوق؟ قال: وما اسمك؟ قال: منازل بن لاحق، قال: فما قصتك؟ قال: كنت مشهوراً فى العرب باللهو والطرب، أركض فى صبوتى ولا أفيق من غفلتى، إن تبت لم تقبل توبتى، وإن استقلت لم تقبل عثرتى، أديم العصيان فى رجب وشعبان، وكان لى والد شقيق رفيق، يحذرني مصارع الجهالة وشقوة المعصية يقول لى: يا بنى لله سطوات ونقمات، فلا تتعرض لمن يعاقب بالنار، فكم قد ضج منك الظلام، والملائكة الكرام والشهر الحرام والليالى والأيام، وكان إذا ألح على بالعتب ألححت عليه بالضرب، فأبلغت إليه يوماً فقال: والله لأصومن ولا أفطر، ولأصلين ولا أنام فصام أسبوعاً ثم ركب جملاً أورك وأتى مكة يوم الحج الأكبر وقال: لأفدن إلى بيت الله الحرام ولأستعدين عليك الله، قال: فقدم مكة يوم الحج الأكبر، فتعلق بأستار الكعبة ودعا على وقال:

يا من إليه أتى الحجاج من بعد يرجون لطف عزيز واحد صمد
هذا منازل لا يرتد عن عققى فخذ بحقى يا رحمان من ولدى
وشل منه بجود منك جانبه يا من تقدس لم يولد ولم يلد

قال: فوالذى رفع السماء وأنبع الماء ما استتم كلامه حتى شل جانبيه الأيمن،

فظللت كالخشب الملقاة بأرجاء الحرم، وكان الناس يغدون ويروحون علىّ ويقولون: هذا أجاب الله فيه دعوة أبيه.

فقال له رضى الله عنه: فما فعل أبوك؟ قال: يا أمير المؤمنين سألته أن يدعو الله لى فى المواضع التى دعا على فيها بعد أن رضى عنى، فأجابنى، فحملته على ناقة وجدت فى السير حتى وصلنا إلى واد هناك يقال له واد الأراك، فنفر طائر من شجرة، فنفرت الناقة فوقع منها ومات فى الطريق.

فقال على رضى الله عنه: ألا أعلمك دعوات سمعتها من رسول الله ﷺ وقال: ما دعا بها مهموم إلا فرج الله تعالى عنه همه، ولا مكروب إلا فرج الله تعالى عنه كربه، فقال: نعم.

فقال الحسين بن على رضى الله عنهما: فعلمه الدعاء، فدعا به وخلص من مرضه وغدا علينا صحيحًا سالمًا، فقلت للرجل: كيف عملت؟

قال: لما هدأت العيون دعوت به مرة وثانية وثالثة، فنوديت: حسبك الله فقد دعوت الله باسمه الأعظم الذى إذا دعى به أجاب، وإذا سئل به أعطى، ثم حملتنى عيسى فسمت، فرأيت رسول الله ﷺ فى منامى، فعرضتها عليه فقال ﷺ: صدق على ابن عمى، فيها اسم الله الأعظم الذى إذا دعى به أجاب، وإذا سئل به أعطى، ثم حملتنى عيسى مرة ثانية: فرأيت النبى ﷺ فقلت: يا رسول الله أريد أن أسمع الدعاء منك، فقال ﷺ: قل اللهم إنى أسألك يا عالم الخفية، ويا من السماء بقدرته مبنية، ويا من الأرض بعزته مدحية، ويا من الشمس والقمر بنور جلاله مشرقة ومضية، ويا مقبلاً على كل نفس مؤمنة زكية، ويا مسكن رعب الخائفين وأهل التقية، يا من حوائج الخلق عنده مقضية، يا من نجي يوسف من رق العبودية، يا من ليس له بواب ينادى، ولا صاحب يغشى، ولا وزير يؤتى، ولا غيره رب يدعى، ولا يزداد على كثرة الحوائج إلا كرمًا وجودًا، وصلى الله على محمد وآله، وأعطنى سؤالى إنك على كل شىء قدير، قال: فانتبهت وقد برأت.

قال على رضى الله عنه: تمسكوا بهذا الدعاء، فإنه كنز من كنوز العرش، وقد نقل مثل ذلك فى زمن عمر بن الخطاب رضى الله عنه وغيره مما يطول شرحه.

وفى الجملة لا ينبغى لذى لب أن يستهين بالمعاصى والمظالم ودعاء المظلوم، فقد قال

النبي ﷺ: «الظلم ظلمات يوم القيامة»^(١).

وقال ﷺ: «إن الله ليستحيين إذا بسط العبد كفيه إليه بالدعاء أن يردهما صفرًا، فإما أن يعجل له في الدنيا، وإما أن يؤخره له في يوم القيامة»^(٢).
وقد أنشد في ذلك:

أسمع بالدعاء فتزدرية تبين فيك ما صنع الدعاء
سهام الليل لا تخطى ولكن لها أمد وللأمد انقضاء

(١) البخاري ١٦٩/٣، والترمذي (٢٠٣٠)، وأحمد ١٣٧/٢.

(٢) بنحوه: أحمد ٤٣٨/٥.

مجلس في فضل شهر شعبان وما ينزل في ليلة النصف من المغفرة والرضوان

أخبرنا الشيخ أبو نصر محمد، عن والده أبي علي الحسين، أخبرنا أبو الحسين علي بن أحمد بن عمر بن حفص جعفر المقرئ بإفتاء أبي الفتح الحافظ، أخبرنا أبو بكر محمد بن عبد الله الشافعي، أخبرنا إسحاق بن الحسن، أخبرنا عبد الله بن سلمة، أخبرنا مالك بن أنس، عن أبي النضر - مولى عمر بن عبد الله - عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، عن عائشة زوج النبي ﷺ ورضي عنها أنها قالت: «كان رسول الله ﷺ يصوم حتى نقول لا يفطر، ويفطر حتى نقول لا يصوم، وما رأيت رسول الله ﷺ استكمل صيام شهر قط إلا شهر رمضان، وما رأيته صام في شهر أكثر من صيامه في شعبان» وهو حديث صحيح أخرجه البخاري^(١) عن عبد الله بن يوسف، عن مالك رحمه الله.

وأخبرنا أبو نصر عن محمد عن والده بإسناده عن هشام بن عروة، عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان رسول الله ﷺ يصوم حتى نقول لا يفطر، ويفطر حتى نقول لا يصوم، وكان أحب صيامه في شعبان، فقلت: يا رسول الله ما لي أرى صيامك في شعبان؟ فقال ﷺ: يا عائشة إنه شهر ينسخ الملك الموت فيه اسم من يقبض روحه في بقية العام فأنا أحب ألا ينسخ اسمي إلا وأنا صائم»^(٢).

وأخبرنا أبو نصر عن محمد عن والده بإسناده عن عطاء بن يسار، عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: «لم يكن رسول الله ﷺ يصوم في شهر بعد رمضان أكثر من صيامه في شعبان»^(٣).

وذلك أن كل من يموت في تلك السنة ينسخ اسمه في شعبان من الأحياء إلى الأموات، وإن الرجل ليسافر وقد نسخ اسمه فيمن يموت.

(١) في الصوم: ب (٥٢).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) النسائي ٤/ ٢٠٠.

وحدثنا أبو نصر عن والده بإسناده عن ثابت عن أنس رضى الله عنه قال: «سئل النبي ﷺ عن أفضل الصيام قال: صيام شعبان تعظيماً لرمضان»^(١).

وأخبرنا أبو نصر عن والده بإسناده عن معاوية بن الصالح قال: إن عبد الله بن قيس حدثه أنه سمع عائشة رضى الله عنها تقول: «كان أحب الشهور إلى رسول الله ﷺ شعبان يصله بـرمضان».

وقال عبد الله رضى الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «من صام آخر يوم الإثنين من شعبان غفر له»^(٢) يعنى آخر الإثنين فيه، لا آخر يوم من الشهر، لأن استقبال الشهر باليوم واليومين فيه منتهى عنه.

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما سمي شعبان لأنه ينشعب لرمضان فيه خير كثير، وإنما سمي رمضان لأنه يرمض الذنوب»^(٣).

(فصل) قال الله تعالى: ﴿وَرَبِّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص: ٦٨].

فالله تعالى اختار من كل شيء أربعة، ثم اختار من الأربعة واحداً. اختار من الملائكة أربعة: جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل، ثم اختار منهم جبريل.

واختار من الأنبياء عليهم السلام أربعة: إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد ﷺ أجمعين، ثم اختار منهم محمداً ﷺ.

واختار من الصحابة رضى الله عنهم أربعة: أبا بكر وعمر وعثمان وعلياً رضى الله عنهم، ثم اختار منهم أبا بكر رضى الله عنه.

ومن المساجد أربعة: المسجد الحرام والمسجد الأقصى ومسجد المدينة المشرفة ومسجد طور سيناء، ثم اختار منها المسجد الحرام.

ومن الأيام أربعة: يوم الفطر ويوم الأضحى ويوم عرفة ويوم عاشوراء، ثم اختار منها يوم عرفة.

ومن الليالي أربعة: ليلة البزاةة وليلة القدر وليلة الجمعة وليلة العيد، ثم اختار منها

(١) ابن أبي شيبة ٣/١٠٣، والكنز (٢٤٢٩٢)، والعلل المنتاهية ٢/٦٥.

(٢) أمالي الشجرى ٢/١٠٢.

(٣) الكنز (٣٥١٧٣).

ليلة القدر.

ومن البقاع أربعة: مكة، والمدينة، وبيت المقدس، ومساجد العشائر، ثم اختار منها مكة.

ومن الجبال أربعة: أحدًا، وطور سيناء، ولكام، ولبنان، ثم اختار منها طور سيناء.

ومن الأنهار أربعة: جيحون، وسيحون، والفرات، والنيل، ثم اختار منها فراتًا. واختار من الشهور أربعة: رجب وشعبان ورمضان والمحرم، واختار منها شعبان، وجعله شهر النبي ﷺ فكما أن النبي ﷺ أفضل الأنبياء كذلك شهره أفضل الشهور. وقد روى أبو هريرة رضى الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «شعبان شهرى، ورجب شهر الله، ورمضان شهر أمتى، شعبان هو المكفر، ورمضان هو المطهر»^(١).

وقال ﷺ: «شعبان شهر بين رجب ورمضان يغفل الناس عنه، وفيه ترفع أعمال العباد إلى رب العالمين فأحب أن يرفع عملى وأنا صائم»^(٢).

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه أنه قال: أن النبي ﷺ قال: «فضل رجب على سائر الشهور كفضل القرآن على سائر الكلام، وفضل شعبان على سائر الشهور كفضلى على سائر الأنبياء، وفضل رمضان على سائر الشهور كفضل الله تعالى على سائر خلقه»^(٣).

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه أنه قال: «كان أصحاب النبي ﷺ إذا نظروا إلى هلال شعبان أكبوا على المصاحف يقرؤونها، وأخرج المسلمون زكاة أموالهم ليتقوى بها الضعيف والمسكين على صيام شهر رمضان، ودعا الولاة أهل السجن، فمن كان عليه حد أقاموه عليه وإلا خلّوا سبيله، وانطلق التجار فقصوا ما عليهم وقبضوا ما لهم، حتى إذا نظروا إلى هلال رمضان اغتسلوا واعتكفوا».

(فصل) شعبان خمسة أحرف، شين وعين وباء وألف ونون، فالشين من الشرف، والعين من العلو، والباء من البر، والألف من الألفة، والنون من النور، فهذه العطايا

(١) تبين العجب (٣٤).

(٢) الكنز (٣٥١٧١).

(٣) تنزيه الشريعة ١٦٠/٢، وتبين العجب (٣٨).

من الله تعالى للعبد في هذا الشهر.

وهو شهر تفتح فيه الخيرات، وتنزل فيه البركات، وتترك فيه الخطيئات، وتكفر فيه السيئات، وتكثر فيه الصلوات على محمد ﷺ خير البريات.

وهو شهر الصلاة على النبي المختار، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

فالصلاة من الله الرحمة، ومن الملائكة الشفاعة والاستغفار ومن المؤمنين الدعاء والثناء.

وقال مجاهد رحمه الله: الصلاة من الله التوفيق والعصمة، ومن الملائكة العون والنصرة، ومن المؤمنين الاتباع والحرمة.

وقال ابن عطاء: الصلاة على النبي ﷺ من الله تعالى الوصلة، ومن الملائكة الرقة، ومن المؤمنين المتابعة والمحبة.

وقال غيره: صلاة الرب تبارك وتعالى على نبيه ﷺ تعظيم الحرمة، وصلاة الملائكة عليه ﷺ إظهار الكرامة، وصلاة الأمة عليه ﷺ طلب الشفاعة، وقد قال ﷺ: «من صلى على مرة صلى الله عليه عشرة»^(١).

فينبغي لكل مؤمن لبيب ألا يغفل في هذا الشهر، بل يتأهب فيه لاستقبال شهر رمضان بالتطهر من الذنوب والتوبة عما فات وسلف فيما مضى من الأيام، فيتضرع إلى الله تعالى في شهر شعبان، ويتوسل إلى الله تعالى بصاحب الشهر محمد ﷺ حتى يصلح فساد قلبه، ويداوى مرض سره، ولا يسوف ويؤخر ذلك إلى غد، لأن الأيام ثلاثة: أمس وهو أجل، واليوم وهو عمل، وغداً وهو أمل، فلا تدرى هل تبلغه أم لا، فأمس موعظة، واليوم غنيمة، وغداً مخاطرة.

وكذلك الشهور ثلاثة: رجب فقد مضى وذهب فلا يعود، ورمضان وهو منتظر لا تدرى هل تعيش إلى إدراكه أم لا؟ وشعبان وهو واسطة بين شهرين فليغتنم الطاعة فيه.

وقد قال النبي ﷺ لرجل وهو يعظه، قيل هو عبد الله بن عمر بن الخطاب رضى الله عنه: «اغتنم خمساً قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك

(١) مسلم في الصلاة (٧٠)، والنسائي ٥٠/٣، وأحمد ٣٧٢/٢.

قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك»^(١).

(فصل: في ليلة البراءة: وما خصت به من الكرامة والفضائل)

قال الله عز وجل:

﴿حَم * والكتاب المبين * إنا أنزلناه في ليلة مباركة﴾ [الدخان: ١ - ٣].

قال ابن عباس رضى الله عنهما: ﴿حَم﴾ يعنى قضى الله ما هو كائن إلى يوم القيامة ﴿والكتاب المبين﴾ يعنى القرآن ﴿إنا أنزلناه﴾ يعنى القرآن ﴿في ليلة مباركة﴾ هى ليلة النصف من شعبان وهى ليلة البراءة، وقال ذلك أكثر المفسرين سوى عكرمة فإنه قال: هى ليلة القدر.

وقد سمي الله تعالى أشياء في القرآن مباركاً:

- منها سمي القرآن مباركاً، قال: ﴿وهذا ذكر مبارك أنزلناه﴾ [الأنبياء: ٥٠] فمن بركته أن من قرأه وآمن به اهتدى، وتخلص من النار ولظى، حتى يتعدى ذلك إلى الآباء والأبناء، قال النبي ﷺ: «من قرأ القرآن نظراً في المصحف خفف الله عز وجل عن أبويه العذاب وإن كانا كافرين»^(٢).

- ومنها أنه عز وجل سمي الماء مباركاً قال: ﴿ونزلنا من السماء ماء مباركاً﴾ [ق: ٩] فمن بركته أن حياة الأشياء به؛ كما قال الله عز وجل: ﴿وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون﴾ [الأنبياء: ٣٠].

وقيل فيه عشر لطائف: الرقة، واللين، والقوة، واللطافة، والصفاء، والحركة، والرطوبة، والبرودة، والتواضع، والحياة، وجعل الله تعالى هذه اللطائف في المؤمن اللبيب: رقة القلب، ولين الخلق، وقوة الطاعة، ولطافة النفس، وصفاء العمل، والحركة في الخير، والرطوبة في العين، والبرودة في المعاصي، والتواضع عند الخلق، والحياة عند استماع الحق.

- ومنها أنه عز وجل سمي الزيتون مباركاً في قوله تعالى: ﴿من شجرة مباركة زيتونة﴾ [النور: ٢٣]. وهى أول شجرة أكل منها آدم عليه السلام حين أهبط إلى الأرض،

(١) الكنز (٤٣٤٩٠)، وابن أبى شيبة ٢٢٣/١٢، والحاكم ٣٠٦/٤، والإتحاف ١٠/١٥١.

(٢) ابن عدى ٢٢٢٦/٦.

وفيها طعام واستضاءة كما قال الله تعالى: ﴿وصبغ للأكلين﴾ [المؤمنون: ٢٠].

وقيل الشجرة المباركة هو إبراهيم عليه السلام، وقيل هو القرآن وقيل هو الإيمان، وقيل هي نفس المؤمن المطمئنة الأمارة بالخير الممتثلة للأمر، المنتهية للنهي، المسلمة للقدر، الموافقة للرب فيما قضى وسطر.

- ومنها أنه عز وجل سمى عيسى عليه السلام مباركاً قال تعالى: ﴿وجعلني مباركاً أين ما كنت﴾ [مريم: ٣١] فمن بركته عليه السلام ظهور الثمرة من النخلة اليابسة لأمه الصديقة مريم عليهما السلام، ونبع الماء من تحته، قال عز وجل: ﴿فناداها من تحتها ألا تحزني قد جعل ربك تحتك سرياً﴾ وهزى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً * فكلى واشربى قرى عينا﴾ [مريم: ٢٤ - ٢٦] وأبرأ الأكمه والأبرص، وأحيا الموتى بدعوته وغير ذلك من الخير والمعجزات.

- ومنها أنه عز وجل سمى الكعبة مباركاً قال عز وجل: ﴿إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً﴾ [آل عمران: ٩٦].

ومن بركاتها أن من دخلها وعليه أثقال من الذنوب خرج مغفوراً له، قال الله تعالى: ﴿ومن دخله كان آمناً﴾ [آل عمران: ٩٧] فمن دخل البيت وهو مؤمن محتسب تائب آمنه الله عذابه وقبل توبته وغفر له.

وقيل من دخله كان آمناً من أن يؤذى في الحرم حتى يخرج منه، ولهذا يحرم قتل صيده وقطع شجره لحرمه الكعبة، فحرمه الكعبة لحرمه الله، وحرمة المسجد لحرمه الكعبة، وحرمة مكة لحرمه المسجد، وحرمة الحرم لحرمه مكة.

كما قيل: إن الكعبة قبله لأهل المسجد، والمسجد قبله لأهل مكة، ومكة قبله لأهل الحرم، والحرم قبله لأهل الأرض.

وإنما سماها بكة لأن الأقدام تبك بعضها بعضاً: أى تدفع وتدرأ، وبكة ومكة واحد تبدل أحدهما بالآخرى، ككمد وكبد، ولارم ولارب.

- ومنها سمى ليلة البراءة مباركة لما فيها من نزول الرحمة والبركة والخير والعفو والغفران لأهل الأرض.

ومن ذلك ما أخبرنا الشيخ أبو نصر عن والده، قال: أخبرنا محمد، قال: أخبرنا عبد الله بن محمد، أخبرنا إسماعيل بن عمر البجلي، أخبرنا عمر بن موسى الوجيهي،

عن زيد بن علي عن آبائه، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «ينزل الله تعالى في ليلة النصف من شعبان إلى السماء الدنيا فيغفر لكل مسلم إلا لمشرك أو مشاحن أو قاطع رحم أو امرأة تبغى في فرجها»^(١).

وأخبرنا أبو نصر عن والده بإسناده عن يحيى بن سعيد، عن عروة عن عائشة رضي الله عنها قالت: «لما كانت ليلة النصف من شعبان انسل النبي ﷺ من مرطى، ثم قالت: والله ما كان مرطى من حرير ولا قز ولا كتان ولا خز ولا صوف.

قال: قلت لها: سبحان الله فمن أى شيء كان؟ قالت: كان سداؤه من شعر وكانت لحمته من وبر، وأحسب نفسي أن يكون ﷺ قد أتى بعض نسائه، فقمت فالتصمت في البيت فوقعت يدي على قدميه وهو ساجد، فحفظت من دعائه ﷺ وهو يقول: سجد لك سوادى وخيالى، وآمن بك فؤادى، أبوء لك بالنعمة وأعترف لك بالذنب، ظلمت نفسي فاغفر لى إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، أعوذ بعفوك من عقوبتك، وأعوذ برحمتك من نقمتك، وأعوذ برضاك من سخطك، وأعوذ بك منك، لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك.

قالت: فما زال ﷺ قائماً وقاعداً حتى أصبح وقد أصعدت، يعنى انتفخت قدماه وأنا أغمزها وأقول: بأبى أنت وأمى أليس قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، أليس قد فعل الله بك، أليس أليس؟

قال ﷺ: يا عائشة أفلا أكون عبداً شكوراً؟ هل تدرين ما فى هذه الليلة؟ قالت: قلت: وما فيها؟ قال: فيها يكتب كل مولود فى هذه السنة، وفيها يكتب كل ميت، وفيها تنزل أرزاقهم، وفيها ترفع أعمالهم وأفعالهم.

قلت: يا رسول الله ما أحد يدخل الجنة إلا برحمة الله؟ قال ﷺ: ما أحد يدخل الجنة إلا برحمة الله.

قلت: ولا أنت؟ قال ﷺ: ولا أنا، إلا أن يتغمدنى الله برحمته، فمسح يده على هامته وعلى وجهه»^(٢).

وأخبرنى أبو نصر، قال: أنبأنا والدى، حدثنا محمد بن أحمد الحافظ، أنبأنا عبد الله

(١) الدر المنثور ٢٧/٦.

(٢) البخارى ٦٣/٢، وأحمد ٢٥١/٤، والنسائى ٢١٩/٣.

ابن محمد، أنبأنا أبو العباس الهروي وإبراهيم بن محمد بن الحسن، قال: أخبرنا أبو عامر الدمشقي، أنبأنا الوليد بن مسلم، أخبرني هشام بن الغار وسليمان بن مسلم وغيره، عن مكحول، عن عائشة رضى الله عنها، أن رسول الله ﷺ قال لها: «يا عائشة أية ليلة هي؟».

قالت: الله ورسوله أعلم، فقال: ليلة النصف من شعبان، فيها ترفع أعمال الناس، والله فيها عتقاء من النار بعدد شعر غنم كلب، فهل أنت أذنت لى الليلة؟ قالت: قلت: نعم، فصلى فخفف القيام وقرأ الحمد وسورة خفيفة، ثم سجد إلى شطر الليل، ثم قام فى الركعة الثانية، فقرأ فيها نحواً من قراءة الأولى، فكان سجوده إلى الفجر.

قالت عائشة رضى الله عنها: أنظره حتى ظننت أن الله تعالى قد قبض روح رسول الله ﷺ، فلما طال على دنوت منه حتى مسست أخصم قدميه، فتحرك فسمعتة يقول فى سجوده: أعوذ بعفوك من عقابك، وأعوذ برضاك من سخطك، وأعوذ بك منك، جل وجهك لا أحصى ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك.

قلت: يا رسول الله قد سمعتك تذكر فى سجودك الليلة شيئاً ما سمعتك تذكره قط، قال ﷺ: وعلمت ذلك؟ قلت: نعم، قال ﷺ: تعلميهن وعلميهن، فإن جبريل عليه السلام أمرنى أن أذكرهن فى السجود.

وأخبرني أبو النصر عن والده، قال: أنبأنا عبد الله بن محمد، أنبأنا إسحاق بن أحمد الفارسي، أنبأنا أحمد بن الصباح بن أبى شريح، أنبأنا يزيد بن هارون، حدثنا الحجاج بن أرطاة، عن يحيى بن أبى كثير، عن عروة، عن عائشة رضى الله عنها قالت: «فقدت رسول الله ﷺ ذات ليلة، فخرجت فإذا هو بالبقيع رافعاً رأسه إلى السماء، فقال لى: أكنت تخافين أن يحيف الله ورسوله عليك؟ فقلت له: يا رسول الله ظننت أنك أتيت بعض نساءك، فقال ﷺ: إن الله تعالى ينزل ليلة النصف من شعبان إلى السماء الدنيا، فيغفر لأكثر من عدد شعر غنم كلب»^(١).

وعن عكرمة مولى ابن عباس رحمه الله ورضى الله عنهما فى قول الله تعالى: ﴿فِيهَا يَفْرُقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان: ٤] قال: «هى ليلة النصف من شعبان، يدبر الله تعالى أمر السنة، وينسخ الأحياء من الأموات، ويكتب حاج بيت الله، فلا يزيد فيهم أحد ولا

(١) الترمذى (٧٣٩)، وأحمد ٢٣٨/٦، والبيهقى (١٣٨٩).

ينقص منهم أحد».

وقال حكيم بن كيسان: يطلع الله تعالى إلى خلقه في ليلة النصف من شعبان، فمن طهره في تلك الليلة ركاه إلى مثلها.

وقال عطاء بن يسار: يعرض عمل السنة في ليلة النصف من شعبان، فيخرج الرجل مسافراً وقد نسخ من الأحياء إلى الأموات، ويتزوج وقد نسخ من الأحياء إلى الأموات. وأخبرني أبو نصر عن والده بإسناده، عن مالك بن أنس، عن هشام بن عروة، عن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت النبي ﷺ يقول: «يفتح الله الخير في أربع ليال سحاً، ليلة الأضحى، وليلة الفطر، وليلة النصف من شعبان ينسخ الله فيها الآجال والأرزاق، ويكتب فيها الحاج، وليلة عرفة إلى الأذان»^(١).

قال سعيد، قال لى إبراهيم بن أبي نجيح: هي خمس ليال فيها ليلة الجمعة. وروى أبو هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «جاءني جبريل عليه السلام ليلة النصف من شعبان وقال لى: يا محمد ارفع رأسك إلى السماء، قال: قلت له: ما هذه الليلة؟ قال: هذه الليلة يفتح الله سبحانه فيها ثلاثمائة باب من أبواب الرحمة، يغفر لجميع من لا يشرك به شيئاً، إلا أن يكون ساحراً أو كاهناً أو مدمناً خمر أو مصراً على الربا والزنا، فإن هؤلاء لا يغفر لهم حتى يتوبوا.

فلما كان ربيع الليل نزل جبريل عليه السلام وقال: يا محمد ارفع رأسك، فرفع رأسه فإذا أبواب الجنة مفتوحة، وعلى الباب الأول ملك ينادى: طوبى لمن ركع في هذه الليلة، وعلى الباب الثانى ملك ينادى: طوبى لمن سجد فى هذه الليلة، وعلى الباب الثالث ملك ينادى: طوبى لمن دعا فى هذه الليلة، وعلى الباب الرابع ملك ينادى: طوبى للذاكرين فى هذه الليلة، وعلى الباب الخامس ملك ينادى: طوبى لمن بكى من خشية الله فى هذه الليلة، وعلى الباب السادس ملك ينادى: طوبى للمسلمين فى هذه الليلة، وعلى الباب السابع ملك ينادى: هل من سائل فيعطى سؤله؟ وعلى الباب الثامن ملك ينادى: هل من مستغفر فيغفر له؟ فقلت: يا جبريل إلى متى تكون هذه الأبواب مفتوحة؟ قال: إلى طلوع الفجر من أول الليل، ثم قال: الله تعالى فيها عتقاء من النار بعدد شعر غنم كلب».

(فصل) وقد سميت ليلة البراءة لأن فيها براءتين، براءة للأشقياء من الرحمن، وبراءة للأولياء من الخذلان.

وقد روى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا كان ليلة النصف من شعبان اطلع الله على خلقه فيغفر للمؤمنين، ويمهل الكافرين، ويدع أهل الحقد بحقدهم حتى يدعوه»^(١).

وقيل: إن للملائكة ليلتي عيد في السماء، كما أن للمسلمين يومى عيد في الأرض، فعيد الملائكة ليلة البراءة وليلة القدر، وعيد المؤمنين يوم الفطر ويوم الأضحى، وعيد الملائكة بالليل لأنهم لا ينامون، وعيد المؤمنين بالنهار لأنهم ينامون.

وقيل: إن الحكمة في أن الله تعالى أظهر ليلة البراءة وأخفى ليلة القدر، لأن ليلة القدر ليلة الرحمة والغفران والعق من النيران، أخفاها الله عز وجل لئلا يتكلموا عليها، وأظهر ليلة البراءة لأنها ليلة الحكم والقضاء، وليلة السخط والرضا، ليلة القبول والرد والوصول والصد، ليلة السعادة والشقاء والكرامة والنقاء.

فواحد فيها يسعد والآخر فيها يبعد، وواحد يجزى وواحد يخزى، وواحد يكرم وآخر يحرم، وواحد يؤجر وآخر يهجر، فكم من كفن مغسول وصاحبه في السوق مشغول، وكم من قبر محفور وصاحبه بالسرور مغرور، وكم من فم ضاحك وهو عن قريب هالك، وكم من منزل كمل بناؤه وصاحبه قد أرف يعنى قرب فتأؤه، وكم من عبد يرجو الثواب فيبدو له العقاب، وكم من عبد يرجو البشارة فتبدو له الخسارة، وكم من عبد يرجو الجنان فتبدو له النيران، وكم من عبد يرجو الوصل فيبدو له الفصل، وكم من عبد يرجو العطاء فيبدو له البلاء، وكم من عبد يرجو الملك فيبدو له الهلك.

وقيل: إن الحسن البصرى رحمه الله كان يخرج من داره يوم النصف من شعبان، وكان وجهه قد قبر ودفن، ثم أخرج من قبره، ف قيل له فى ذلك، فقال: والله ما الذى انكسرت سفينته بأعظم مصيبة منى، قيل له: ولم ذلك؟ قال: لأننى من ذنوبى على يقين، ومن حسناتى على وجل، فلا أدري اتقبل منى أم ترد على.

(فصل) فأما الصلاة الواردة فى ليلة النصف من شعبان فهى:

مائة ركعة بألف مرة ﴿قل هو الله أحد...﴾ فى كل ركعة عشر مرات، وتسمى هذه

(١) الإنحاف ٢٨٢/١٠، والكثر (٣٥١٧٥)، والدر المشور ٢٦/٦.

الصلاة صلاة الخير وتعرف ببركتها.

وكان السلف الصالح يصلونها جماعة يجتمعون لها، وفيها فضل كثير وثواب جزيل.

وروى عن الحسن رحمه الله أنه قال: حدثني ثلاثون من أصحاب رسول الله ﷺ: أن من صلى هذه الصلاة في هذه الليلة نظر الله إليه سبعين نظرة، وقضى له بكل نظرة سبعين حاجة، أدناها المغفرة.

ويستحب أن تصلى هذه الصلاة أيضاً في الأربع عشر ليلة التي يستحب إحياؤها التي ذكرناها في فضائل رجب، ليحوز بها المصلي هذه الكرامة وهذه الفضيلة والمثوبة.

* * *

الفهرس

الصفحة	الموضوع
٥	مقدمة التحقيق
٧	ترجمة المؤلف
٩	مقدمة المؤلف
	[القسم الأول: الفقه]
١٣	(باب) من يريد الدخول فى الإسلام ماذا يعمل
١٤	(فصل) شرائط الصلاة
١٦	سنن الصلاة
١٧	صفة الأذان وصفة الإقامة
١٧	(فصل) صفة الصلاة
١٨	أركان الصلاة
١٨	واجبات الصلاة
١٩	مسنونات الصلاة
١٩	هيئات الصلاة
٢٠	(كتاب الزكاة)
٢٠	زكاة الذهب والفضة
٢٠	زكاة الإبل
٢١	زكاة البقر
٢١	مصارف الزكاة
٢٢	صدقة التطوع
٢٢	زكاة الفطر
٢٣	(كتاب الصيام)
٢٤	ما يجتنبه الصائم
٢٤	ما يستحب للصائم

الموضوع	الصفحة
(كتاب الاعتكاف)	٢٥
(كتاب الحج)	٢٦
شرائط الحج	٢٦
مواقيت الحج	٢٦
الإحرام والنية والتلبية	٢٧
محظورات الإحرام	٢٧
دخول مكة المكرمة	٢٩
العمرة	٣٤
مبطلات الحج	٣٤
أركان الحج	٣٤
واجبات الحج	٣٤
مسنونات الحج	٣٤
أركان العمرة	٣٥
واجبات العمرة	٣٥
سنن العمرة	٣٥
دخول المدينة المنورة	٣٥
(كتاب الآداب)	٣٨
السلام	٣٨
القيام للاحترام	٤٠
تشميت العاطس والتشاؤب	٤٠
خصال الفطرة	٤١
(فصل) تنف الإبط	٤٢
(فصل) تقليم الأظفار	٤٤
(فصل) حلق الرأس فى غير الحج والعمرة	٤٥
(فصل) كراهة القرع	٤٦

الموضوع	الصفحة
(فصل) كراهة التحذيف للرجال (وهو إرسال الشعر)	٤٧
(فصل) فى الاكتحال	٤٩
(فصل) فى الأدهان	٤٩
(فصل) ما يستحب للإنسان ألا يخلو منه سفرًا وحضرًا	٥٠
(فصل) فيما يكره من الخصال	٥٠
(فصل) فى الاستئذان	٥١
(فصل) فى آداب الأكل والشرب	٥٣
دعاء الإفطار عند الغير	٥٩
(فصل) فى آداب الحمام	٦٠
(فصل) فى النهى عن التعرى	٦١
(فصل) فى لبس الخاتم واتخاذها	٦٢
(فصل) يكره اتخاذ الخاتم من الحديد والشبة	٦٣
(فصل) يكره التختم فى الوسطى والسبابة	٦٣
(فصل) اختيار التختم فى اليسرى وفى الخنصر	٦٣
(فصل) فى آداب الخلاء والاستنجاء	٦٣
(فصل) كيفية الاستنجاء	٦٥
(فصل) إذا انتشرت النجاسة	٦٦
(فصل) صفة ما يجوز من الاستجمار	٦٦
(فصل) ما يجب له الاستنجاء	٦٦
(فصل) فى كيفية الطهارة الكبرى	٦٧
(فصل) فى الأذكار المستحبة عند غسل الأعضاء	٦٨
(فصل) فى آداب اللباس	٦٩
(فصل) اللباس الواجب والمندوب والمكروه	٦٩
(فصل) فى آداب النوم	٧٢
(فصل) فى دخول المنزل والكسب من الحلال والوحدة	٧٥

الموضوع	الصفحة
(فصل) فى آداب السفر والصحة فيه	٨٠
(فصل) فى خصاء الحيوان ووسمه	٨٢
(فصل) المحظورات فى المسجد	٨٣
(فصل) فى الأصوات	٨٣
(فصل) فى الآداب، قتل الحيوان ما يباح منه وما لا يباح	٨٥
(فصل) فى برّ الوالدين	٨٨
(فصل) فيما يستحب من الكنى والأسماء وما يكره منها	٨٩
(فصل) ما يستحب لمن غضب	٩٠
سنن المجلس	٩١
ما يستحب لمن دخل المقابر	٩١
الطيرة والتفاؤل	٩١
التواضع وتوقير الشيوخ والرحمة بالأطفال	٩١
(فصل) قول الرجل لغيره: صلى الله عليك، ومصافحة أهل الذمة	٩٢
(فصل) الأدب فى الدعاء	٩٢
(فصل) فى التعوذ والرقية	٩٢
(فصل) ما يكتب للمحموم	٩٣
(فصل) ما يكتب للمعسرة	٩٣
(فصل) ما يفعل العائن	٩٣
(فصل) التعالج فى الأمراض جائز	٩٤
(فصل) حكم الخلوة بالأجنبية	٩٥
(فصل) الرفق بالمملوك	٩٥
(فصل) حكم المسافرة بالمصحف إلى أرض العدو	٩٥
(فصل) ما يقوله إذا نظر فى المرأة	٩٥
(فصل) ما يقوله إذا طنت أذنه	٩٥
(فصل) ما يقوله إذا اشتكى بدنه	٩٦

الصفحة	الموضوع
٩٦	(فصل) ما يقوله إذا رأى شيئاً يتطير منه
٩٦	(فصل) ما يقوله إذا رأى بيعة أو كنيسة
٩٦	(فصل) ما يقوله إذا سمع صوت الرعد
٩٦	(فصل) ما يقوله إذا دخل السوق
٩٧	(فصل) ما يقوله إذا رأى الهلال
٩٧	(فصل) ما يقوله إذا رأى مبتلى
٩٧	(فصل) ما يقوله للحاج إذا قدم من سفره
٩٧	(فصل) ما يقوله إذا عاد مريضاً
٩٧	(فصل) ما يقوله حين يضع الميت فى قبره
٩٨	(باب) فى آداب النكاح
١٠٦	إذا دعا امرأته للجماع
١٠٧	(فصل) وليمة العرس
١٠٧	(فصل) حكم النثار
١٠٨	(فصل) ماذا يجب بعد كمال شرائط عقد النكاح
١٠٨	خطبة النكاح
١١٠	(باب) فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر
١١١	(فصل) شرط القدرة فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر
١١٢	(فصل) إذا غلب على ظنه عدم زوال المنكر
١١٢	(فصل) أقسام المنكرين
١١٢	(فصل) شروط الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر
١١٤	(فصل) كيفية الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر
١١٤	(فصل) ما يشترط فى الأمر
١١٦	(فصل) ينبغى لكل مؤمن العمل بهذه الآداب
	[القسم الثانى: العقائد والفرق الإسلامية]
١٢١	(باب) فى معرفة الصانع عز وجل
١٢٧	(فصل) القرآن كلام الله

الموضوع	الصفحة
(فصل) نعتقد أن القرآن حروفه مفهومة . . إلخ	١٣٠
(فصل) وكذلك حروف المعجم غير مخلوقة	١٣٢
(فصل) ونعتقد أن الله عز وجل تسعة وتسعون اسمًا	١٣٣
(فصل) ونعتقد أن الإيمان قول باللسان ومعرفة بالجنان	١٣٥
(فصل) من دخل النار بكبيرة مع الإيمان لا يخلد	١٤٠
(فصل) ينبغى أن يؤمن بخير القدر وشره	١٤٠
(فصل) ونؤمن بأن النبي ﷺ رأى ربه	١٤١
(فصل) فى سؤال منكر ونكير	١٤٢
(فصل) فى شفاعة النبي ﷺ فى أهل الكبائر	١٤٧
(فصل) فى الإيمان بالصراط	١٤٩
(فصل) فى الإيمان بحوض النبي ﷺ	١٤٩
(فصل) فى جلوس النبي ﷺ على العرش، وتعليق العلماء عليه	١٥٠
(فصل) فى الحساب	١٥١
(فصل) فى الميزان	١٥٢
(فصل) فى الجنة والنار مخلوقتان	١٥٤
(فصل) فى عموم بعثة النبي ﷺ ومعجزاته	١٥٦
(فصل) فى فضل الأمة المحمدية على سائر الأمم وبيان الأفضل من هذه الأمة رجالاً ونساءً	١٥٧
(فصل) لأهل البدع علامات يعرفون بها	١٦٦
(فصل) فيما لا يجوز إطلاقه على البارى من الصفات ويستحيل إضافته إليه	١٦٨
(فصل) فى بيان مقالة الفرق الضالة عن طريق الهدى	١٧٣
(فصل) فى أصل الفرق الثلاثة والسبعين	١٧٥
(فصل) فى الشيعة	١٧٩
(فصل) فى الرافضة	١٧٩
(فصل) فى المرجئة	١٨٥

الموضوع	الصفحة
(فصل) فى الجهمية	١٨٥
(فصل) فى الكرامية	١٨٦
(فصل) فى المعتزلة والقدرية	١٨٧
(فصل) فى المشبهة	١٩٠
(فصل) فى ذكر مقالة الجهمية	١٩٠
(فصل) فى ذكر مقالة السالمية	١٩١
[القسم الثالث: مجالس مواظ القرآن والألفاظ النبوية]	
مجلس فى قوله عز وجل: ﴿فَإِذَا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم﴾	١٩٥
(فصل) معنى التعوذ	١٩٧
(فصل) الشيطان بعيد من الله	١٩٧
(فصل) ويستفيد العبد من الاستعاذة خمسة أشياء	١٩٨
(فصل) والذى يخاف الشيطان منه	١٩٩
(فصل) وأولى ما يستعان به على محاربة الشيطان	٢٠٠
(فصل) روى مقاتل عن الزهرى	٢٠١
(فصل) وفى القلب لمتان	٢٠٤
(فصل) وفى القلب خواطر ستة	٢٠٤
(فصل) وللنفس والروح مكانان	٢٠٦
(فصل) أعوذ برب العرش والكرسى	٢٠٦
(فصل) ومجاهدة الشيطان	٢٠٧
مجلس فى قوله عز وجل: ﴿إِنَّه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم﴾	٢٠٨
(فصل) وإنما استوفيت هذه القصة	٢١٥
(فصل) فى فضل بسم الله الرحمن الرحيم	٢١٧
(فصل آخر) فى فضل بسم الله الرحمن الرحيم	٢١٨
(فصل) فى تفسير قوله بسم الله الرحمن الرحيم	٢٢٠
(فصل) اعلم أن الناس اختلفوا فى هذا الاسم	٢٢٢

الموضوع	الصفحة
(فصل) قل بسم الله تجد عفو الله	٢٢٥
(فصل) قل بسم الله الذى تعالى عن الأضداد	٢٢٥
(فصل) بسم الله للذاكرين ذخرا	٢٢٦
(فصل) قل بسم الله حرقاً حرقاً	٢٢٦
(فصل) قل بسم الله	٢٢٧
(فصل) رحم الله من خالف الشيطان	٢٢٧
مجلس فى قوله تعالى: ﴿وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون﴾	٢٢٨
(فصل) والذى عنه التوبة	٢٢٩
(فصل) وأما الصغائر	٢٣٠
(فصل) والتوبة فرض عين	٢٣١
(فصل) فى شروط التوبة	٢٣٧
(فصل) ولا بد أن يعرفه قدر جنايته	٢٤٨
(فصل) فإذا تخلص من مظالم العباد	٢٤٨
(فصل) ولا يتم الورع إلا أن يرى عشرة أشياء فريضة على نفسه	٢٥٦
(فصل) ويجوز أن يتوب عن بعض الذنوب	٢٥٦
(فصل) فى ذكر الأخبار والآثار الواردة فى التوبة	٢٥٨
(فصل آخر) فى ذلك	٢٦١
(فصل آخر) فى ذلك	٢٦٣
(فصل) وإنما تعرف توبة التائب فى أربعة أشياء	٢٦٦
(فصل) فى ذكر أقاويل الشيوخ فى التوبة	٢٦٨
مجلس فى قوله تعالى: ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾	٢٧٠
(فصل) وطريق التقوى	٢٧٥
(فصل) وقد دعا الله خلقه إلى توحيده	٢٧٦
(فصل) واعلم أن دخول النار بالكفر	٢٧٩
(فصل) فى صفة النار وما أعد الله لأهلها فيها وصفة الجنة وما أعد الله	
لأهلها فيها	٢٨٥

الموضوع	الصفحة
(فصل) أنه ﷺ كان يقول: «إن لجسر جهنم سبع قناطر»	٢٩٨
(فصل) في قوله تعالى: ﴿فوقاهم الله شر ذلك اليوم﴾	٣١١
(باب) في ذكر فضائل الشهور والأيام	٣١٧
مجلس في فضائل شهر رجب	٣١٧
(فصل) ورجب اسم من الأسماء المشتقة	٣١٨
(فصل) ولرجب أسماء	٣١٩
(فصل آخر) في فضل رجب	٣٢٥
(فصل) في فضل صيام أول يوم من رجب	٣٢٧
(فصل) جمع بعض العلماء الليالي التي يستحب إحياؤها	٣٢٨
(فصل) في الأدعية المأثورة في أول ليلة من رجب	٣٢٨
(فصل) في الصلاة الواردة في شهر رجب	٣٢٩
(فصل) في تأكيد الفضيلة في صوم أول الخميس من رجب والصلاة في أول ليلة الجمعة	٣٣٠
(فصل) في فضل صيام يوم السابع والعشرين من رجب	٣٣٣
(فصل) في آداب الصيام	٣٣٣
(فصل) ما يقوله عند الإفطار	٣٣٥
(فصل) استجابة الدعوة في شهر رجب	٣٣٥
مجلس في فضل شهر شعبان وما ينزل في ليلة النصف من المغفرة والرضوان	٣٣٩
(فصل) قال الله تعالى: ﴿وربك يخلق ما يشاء ويختار﴾	٣٤٠
(فصل) شعبان خمسة أحرف	٣٤١
(فصل) في ليلة البراءة وما خصت به من الكرامة والفضائل	٣٤٣
(فصل) وقد سميت ليلة البراءة	٣٤٨
الفهرس	٣٥١

تم فهرس الجزء الأول





